إيلينا فيرّانتي

حياة البالغين الكاذِبة

ترجمة: مُعاوية عبد المجيد

واحدة من أعظم روائيّات زماننا The New York Times

رواية

مكتبة ٦٩٥

دار الآداب

مكتبة | 695
سُر مَن قرأ

حياة البالغين الكاذبة

حياة البالغين الكاذبة

إيلينا فيرّانتي /روائيّة إيطاليّة

ترجمة: معاوية عبد المجيد

طبعة أولى عام 2020

جميع الحقوق محفوظة

La Vita Bugiarda Degli Adulti

by

Elenа Ferrante

@ 2019 by Edizioni E/O

ISBN 978-9953-89-701-1

مكتبة ٢٠٢١٥٢٠
t.me/t_pdf

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير - بناية بيهم
بيروت - لبنان
هاتف: (03) 861632 - (01) 861633
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

Daraladab @Daraladab daraladab.com

إيلينا فيرَّانتي

مكتبة | 695
سُر مَن قرأ

حياة البالغين الكاذبة

رواية

ترجمة : معاوية عبد المجيد

دار الآداب - بيروت

I

-1-

مكتبة
t.me/t_pdf

قبل عاميْن من مغادرة والدي بيتنا، قال لوالدتي إنَّني قبيحةٌ جدًّا. نُطِقَت الجملةُ بصوتٍ هامس، في الشقَّة التي حصل عليها والداي حالما تزوَّجا، في ريوني ألتو، عند قمَّة سان جاكومو دي كابري. ظلَّ كلُّ شيءٍ على حاله: أمكنة نابولي، الضوء الأزرق الطاغي على يومٍ متجمِّدٍ من شهر فبراير، وتلك الكلمات. أمَّا أنا، فانزلقتُ بعيدًا، وما زلتُ أنزلق حتّى الآن، داخل هذه الأسطر التي تحاول أن تمنحني حكايةً، بينما في الواقع لا شيء، لا شيءَ منّي، لا شيءَ قد ابتدأ حقًّا أو وصل إلى نهايته بالفعل: سوى حالة فوضى لا أحد يعلم ـ حتَّى الذي يكتبها في هذه اللَّحظة ـ إن كانت تحتوي على الخيط الناظم لحكايةٍ ما أم أنَّها مجرَّد ألمٍ مُشتَّتٍ لا شفاء منه.

ـ 2 ـ

لقد أحببتُ والدي كثيرًا، كان رجلًا لطيفًا على الدوام. وكان سلوكه رفيعًا ومتطابقًا كلِّيًا مع جسده النَّحيل، حتَّى إنَّ ملابسه تبدو بمقاسٍ أكبر من مقاسه، الأمر الذي كان يُضفي عليه في مرآي أناقةً متفرِّدة. تقاسيم وجهه كانت ناعمة، ولا شيء فيها يُفسِد الانسجام ما بينها: عيناه العميقتان ورموشه الطويلة وأنفه ذو الهندسة المُتقنة وشفتاه المنفوختان. وكان يعاملني بأسلوبٍ مرحٍ في أيِّ مناسبة، بغضّ النظر عن مزاجه أو مزاجي؛ ولا ينغلق في مكتبه ـ كان يدرس دائمًا ـ ما لم ينتزع منِّي ابتسامةً على الأقلّ. وكان شَعري سرَّ بهجته على وجه الخصوص، لكنِّي الآن أستصعب التذكُّر متى بدأ يتغزَّل به، ربَّما منذ أن كنتُ في عامي الثاني أو الثالث! المؤكَّد أنَّنا كنَّا منذ طفولتي نجري أحاديث من هذا النوع:

ـ «ما أجمل شَعركِ، ما أجوده، أيُّ نورٍ يختزن، هلَّا أهديتِني إيَّاه؟»

ـ «كلَّا، إنَّه لي».

ـ «كوني كريمةً قليلًا!»

ـ «إن أردتَ، بإمكاني إعارتك إيَّاه».

ـ «جيِّدٌ جدًّا، فإنِّي لن أرجعه لكِ أبدًا».

ـ «لديْك شَعرٌ أساسًا».

ـ «شَعري هذا أخذته منكِ».

ـ «ليس صحيحًا، أنت تكذب».

ـ «تأكَّدي: كان جميلًا للغاية فسرقته منكِ».

وكنتُ أتأكَّد على سبيل المزاح، إذ كنتُ أعرف أنَّه ما كان ليسرقه منِّي إطلاقًا. وكنت أضحك، وأضحك كثيرًا، وأستمتع معه أكثر ممَّا أستمتع مع والدتي. كان يريد دومًا أن يأخذ شيئًا منِّي: إحدى الأذنيْن، الأنف، الذقن. ويقول إنَّه مُتقن التَّكوين لدرجةٍ لا يقدر فيها على العيش من دونه. وكنت أحبّ تلك النَّبرة، وأتأثَّر على الدوام من فكرة أنَّه لا غنى له عنِّي.

وبطبيعة الحال، لم يكن والدي هكذا مع الجميع. ففي بعض الأحيان، عندما ينصدم بشيءٍ ما، ينحو بعصبيَّةٍ إلى الجمع بين كلامٍ رقيقٍ ومشاعرَ مضطربة. وفي أحيانٍ أخرى، كان يختصر الموضوع ويلتجئ إلى جُملٍ قصيرة، عالية الدقَّة، ومكثَّفةٍ لدرجة أنْ لا أحد يردُّها عليه. كان فيه أبوان مختلفان جدًّا عن الأب الذي أحببتُه، واكتشفتُ وجودهما حينما كنت في السَّابعة أو الثامنة من عمري، عندما كنت أسمع نقاشاته مع أصدقائه ومعارفه الذين غالبًا ما جاؤوا إلى بيتنا لعقد اجتماعاتٍ مُحتدمةٍ حول إشكاليَّاتٍ لم أكن أفهم منها شيئًا. وكنتُ في الغالب، أنزوي مع والدتي في المطبخ، ولا أكترث إلَّا قليلًا لمشاجراتهم على بُعد أمتارٍ قليلةٍ من هناك. إلَّا أنَّني في أحيانٍ أخرى، حين تكون والدتي مشغولةً، فتنغلق هي أيضًا في غرفتها، كنت أبقى وحيدةً في الممرّ للَّعب أو القراءة، لاسيَّما للقراءة، لأنَّ والدي كان يقرأ كثيرًا، ووالدتي كذلك، وكنتُ أودُّ أن أصبح مثلهما. لم أكن أدقِّق في النقاشات، إنَّما أقطع على نفسي اللُّعبة أو القراءة كلَّما ساد الصَّمت فجأةً

وانبثقت تلك الأصواتُ التي أستغربها من والدي. كان حينذاك يهيمن على المكان، فأنتظر ريثما ينتهي الاجتماع لأتأكّد ممّا إذا عاد إلى طبيعته وعادت نبرته اللّطيفة والحنونة إلى سابق عهدها.

في المساء الذي نطق فيه تلك الجملة، كنتُ قد علمتُ توًّا أنَّ أموري في المدرسة لا تجري على قدمٍ وساق. وكان الأمر مستغرَبًا. فلطالما كنت شاطرةً منذ الصفّ الأوَّل الابتدائيّ، ولم يتردَّ وضعي إلّا في الشهريْن الأخيريْن. لكنَّ والديَّ كانا يعوّلان كثيرًا على نجاحي المدرسيّ، لاسيَّما والدتي، إذ استنفرت حالما رأت نُذُرَ علاماتي السَّيِّئة.

ـ «ما الذي يحدث؟»

ـ «لا أدري».

ـ «عليكِ أن تدرسي».

ـ «إنَّني أدرس».

ـ «فماذا إذن؟»

ـ «بعض الأشياء أتذكَّرها جيِّدًا، وبعضها لا».

ـ «ادرسي حتّى تتذكّري كلّ شيء».

وكنتُ أدرس حتَّى الحدود القصوى، غير أنَّ النتائج ما انفكّت تُخيِّب الآمال. عصرَ ذلك اليوم خصوصًا، كانت والدتي قد ذهبت للتَّحدُّث مع الأساتذة وعادت ملؤها أسىً. لم توبّخني. والداي لم يكونا يوبِّخانني أبدًا. إنَّما اقتصرتْ بالقول: «أكثر المعلِّمين استياءً هي معلِّمة الرياضيَّات، لكنَّها أكّدت أنَّكِ بالإرادة القويَّة ستحقِّقين النجاح». ثمَّ انصرفتْ إلى المطبخ لتحضير العشاء، وفي تلك الأثناء، عاد والدي. ومن غرفتي، سمعتُها تلخِّص

عليه شكاوى المعلّمين، وفهمتُ أنّها تشير إلى التغيُّرات التي ترافق بداية مراهقتي لتبرِّر وضعي. لكنَّه قاطعها بإحدى تلك النَّبرات التي لا يستخدمها معي إطلاقًا، وسمح لنفسه باللُّجوء إلى العامِّيَّة التي كانت ممنوعةً في بيتنا منعًا باتًّا، فتفوَّه بما لم يكن يودّ التفوُّه به بالتَّأكيد.

«لا شأن للمراهقة: وجهها يصبح مثل وجه فيتّوريا».

لو كان يعلم بأنّي أسمعه، فأنا على يقينٍ من أنَّه ما كان ليتكلَّم بذلك الأسلوب البعيد تمامًا عن البهجة الرقيقة القائمة بيننا. كان كلاهما يجزم أنَّ باب غرفتي مُغلقٌ، كنت أغلقه دائمًا، ولم ينتبها أنَّ واحدًا منهما تركه مفتوحًا. وهكذا، في عمر الثانية عشرة، علمتُ من صوت والدي، المكبوت لشدَّة ما أراد إبقاءه خفيضًا، أنّني أُصبح مثل شقيقته، المرأة التي ـ بحسب رأيه الذي سمعته منه منذ أن تشكَّلت ذاكرتي ـ يبلغ فيها الوفاقُ بين القبح والحقارة حدودَ الكمال.

لعلَّ أحدًا يعارضني هنا: ربَّما أنتِ تبالغين، فوالدكِ لم يقل حرفيًّا: جوفانّا قبيحة. هذا صحيح، لم يكن من طبيعته أن يتلفَّظ بكلماتٍ قاسيةٍ إلى هذه الدَّرجة. لكنَّني كنتُ في فترةٍ أشعر فيها بهشاشةٍ كبيرة. فقد جاءني الحيْض منذ عام تقريبًا، وصار نهداي مرئيَّيْن إلى حدٍّ يشعرني بالحياء، وكنتُ أخشى أن تنبعث منّي روائح كريهة، فواظبتُ على الاستحمام باستمرار، وكنتُ أخلدُ للنوم بلا رغبةٍ وأستيقظ بهمَّةٍ فاترة. كان عزائي الوحيد في تلك الفترة، وثقتي الوحيدة، في أنّه كان يعشق كلّ أشيائي بشكلٍ مطلق. لذا، فإنَّ تشبيهه لي بالعمَّة فيتّوريا كان أسوأ عليَّ من قوله فرَضًا: جوفانّا كانت جميلة في الماضي، أمَّا الآن أصبحت قبيحة. لأنَّ اسم فيتّوريا كان في بيتي شبيهًا باسم كائنٍ شنيعٍ، يوسِّخ ويُعدي أيَّ أحدٍ يمسّه. لم أكن أعرف عنها سوى القليل أو لا شيء، وما رأيتها إلّا نادرًا. لكنَّني ـ وهذا هو المهمّ ـ لم أكن أذكر

من تلك المناسبات سوى الخوف والنفور. ليس الخوفَ والنفورَ اللذيْن قد تسبِّبهما لي بلحمها وعظمها، لم يكن لديَّ أيُّ ذكرى عنها. إنَّما كنت أفزع من الخوف والنفور اللذيْن يساوران أبي وأمِّي. فلطالما تحدَّث والدي عن شقيقته بأسلوبٍ غامض، كما لو أنَّها تحضِّر طقوسًا مخزية تلطِّخُ سمعتها وسمعة أيِّ شخصٍ يتردَّد إليها. أمَّا والدتي، فلم تكن تأتي على ذكرها قطّ، لا بل كانت تتدخَّل حينما يفضفض زوجُها، وتحثُّه على السكوت، كما لو أنَّها تخشى أنَّ فيتّوريا أينما كانت موجودةً بوسعها أن تسمعهما، وأن تصعد فورًا إلى سان جاكومو دي كابري بخطواتٍ سريعةٍ على الرَّغم من طول الشارع ووعورته، متعمِّدةً أن تجرجر خلفها كلّ أمراض المستشفيات المجاورة لنا، وأن تحلِّق إلى بيتنا في الطابق السادس، وأن تهشِّم الأثاث بالشرر الأسود السكران والمتطاير من عينيْها، وأن تصفعها إن هي اعترضتْ ولو بكلمةٍ واحدة.

كنتُ أستشفّ طبعًا أنَّ وراء هذا التوتُّر لا بدَّ من وجود قصَّةٍ تأذَّى فيها الجانبان، لكنِّي لم أكن أعلم في تلك الفترة إلَّا القليل عن المسائل العائليَّة، كما أنِّي لم أكن أعتبر تلك العمَّة الفظيعة فردًا من الأسرة. كانت تمثِّل بعبعَ الطفولة، الشبحَ المتيبِّس والممسوس، الطَّيْفَ الأشعث المتربِّص في زوايا البيوت عندما يهبط الظلام. هل من المعقول أن أكتشف أنَّني أُصبح مثلها هكذا بلا مقدِّمات؟ أنا؟ أنا التي كنت حتَّى تلك اللَّحظة أرى نفسي جميلةً، وأعتقد أنَّني بفضل والدي سأبقى جميلةً إلى الأبد؟ أنا التي بفضل إقراره المتواصل، كنتُ أظنُّ أنَّ شَعري رائعٌ، أنا التي كنت أودّ أن أصبح محبوبةً مثلما يحبُّني هو، ومثلما عوَّدني هو أن أرى نفسي، أنا التي عانيتُ الأمرَّين حينما شعرتُ أنَّني سبَّبتُ امتعاض كلٍّ من والديَّ، وأنَّ ذاك الامتعاض تعاظم حتَّى غبَّشَ عليَّ رؤية الأشياء؟

انتظرتُ كلمات والدتي، لكنّ ردّها لم يواسِني. فمع أنَّها كانت تكره كلَّ أقارب زوجها، وتكره أخت زوجها مثلما يكره المرء وزغةً تتسلَّق على ساقه العارية، لم تصرخ عليه قائلةً: هل جُننتَ، لا شيء مشتركًا ما بين ابنتي وشقيقتك. إنَّما اقتصرت على تنهيدةٍ قصيرةٍ جدًّا: كلَّا، لا تقل ذلك! فما كان منّي وأنا هناك إلَّا أن هُرِعت لإغلاق باب غرفتي لئلَّا أسمع مزيدًا. ثمَّ بكيتُ في صمتٍ، وما كففتُ إلَّا حين عاد والدي ليعلن ـ بصوته الطيِّب هذه المرَّة ـ أنَّ العشاء جاهز.

انضممتُ إليهما في المطبخ بعينيْن جافَّتين، وتوجَّبَ عليَّ أن أُحملق في الطبق، وأحتمل مجموعة النَّصائح المُفيدة لتحسين أدائي المدرسيّ. بعد ذلك، عدت إلى غرفتي لأتظاهر بأنَّني أدرس، بينما كانا يسترخيان قبالة التلفاز. كنت أشعر بألمٍ لا يتوقَّف ولا ينضب! لماذا تلفَّظَ والدي بتلك الجملة، لماذا لم تعارضه والدتي بقوَّة؟ هل كان مردُّ ذلك من استيائهما من علاماتي المتدنِّيَّة أم أنَّه هاجسٌ لا صلة له بالمدرسة، ومَن يدري منذ متى يراودهما؟ وماذا عنه هو تحديدًا، هل نطق تلك الكلمات الذميمة بسبب امتعاضٍ مؤقَّتٍ سبَّبتُه له، أم أنَّه بنظرته الثاقبة وشخصه الذي يرى ويعرف كلَّ شيء، توصَّلَ منذ مدَّةٍ إلى تحديد أمارات العِطْل الذي سأعاني منه في المستقبل، والعلَّة التي كانت تتقدَّم وتثير مخاوفه والتي كان هو نفسه عاجزًا عن التصرُّف حيالها؟ رافقني الإحباط طوال اللَّيل. وفي الصباح، أقنعتُ نفسي بأنَّني إن نويتُ النجاة حقًّا، فلا بدَّ لي من الذهاب لأرى كيف يبدو وجه العمَّة فيتّوريا في الواقع!

- 3 -

كانت مغامرةً صعبة. ففي مدينةٍ مثل نابولي، مسكونةٍ بعائلاتٍ لها تشعُّباتٌ متعدِّدةٌ لا تنقطع بين أبنائها صلاتُ القربى كلّيًا حتَّى لو وصلت الخلافات بينهم إلى حدودٍ دمويَّة، اختار والدي أن يعيش في استقلاليَّةٍ تامَّة عكس الجميع، كما لو أنَّه ليس لديه أواصر أُسريَّة، كما لو أنَّه أنجب نفسه بنفسه. وبطبيعة الحال، كان لزامًا عليَّ التعاملُ غالبًا مع جدَّيَّ من أمّي وشقيقها. وكانوا أناسًا ودودين جميعًا، قدَّموا لي هدايا كثيرةً، وحافظوا على علاقةٍ طيّبةٍ ومليئةٍ بالبهجة معنا، إلى أن انتقل خالي للعمل في مكانٍ بعيد، وإلى أن توفِّي جدَّاي: رحل جدّي أوَّلًا، ثمَّ جدَّتي بعده بعامٍ واحد. وكان غيابهما مُفاجئًا وأربكني جدًّا، وأبكى والدتي مثلما كنَّا نحن الأطفال نبكي إذا تأذَّينا. أمَّا من أقارب والدي، فلم أكن أعرف عنهم أيَّ شيءٍ تقريبًا. كانوا يظهرون في حياتي في مناسباتٍ نادرة فقط ـ زفاف، جنَّاز ـ وبأجواء تتصنَّع المودَّة دائمًا، لم أجنِ منها سوى الانزعاج من التواصل الإجباريّ: سلّمي على جدِّكِ، قبّلي عمَّتكِ. ما يعني أنّني لم أشعر بأيِّ اهتمامٍ نحو تلك القرابة أبدًا، ذلك أنَّ تلك اللّقاءات تخلّف بعدها أجواءً متوتّرةً تطغى على والديَّ، فيتَّفقان على تناسيهما كما لو أنَّهما تورَّطا في تمثيليَّةٍ ضحلة القيمة.

عليَّ أن أضيف أيضًا أنَّ أهل والدتي كانوا يُقيمون في مكانٍ معيَّنٍ له اسمٌ إيحائيّ: المتحف ـ وهم كانوا أجداد المتحف ـ في حين أنَّ المكان

الذي يقيم فيه أهلُ والدي غيرُ محدَّدٍ ولا اسمَ له. وكنتُ متيقِّنةً من أمرٍ واحد: للذهابِ إليهم، ينبغي الهبوط إلى أسفل، ومواصلة الهبوط إلى أسفل، ثمَّ أسفل وأسفل، إلى أعمقَ أعماق نابولي؛ وكانت الرحلة تدوم طويلًا حتَّى إنَّني تصوَّرتُ في تلك الظروف أنَّنا وأهلَ والدي نسكن في مدينتيْن مختلفتيْن. الأمر الذي ظلَّ وقتًا طويلًا يبدو لي حقيقيًّا، إذ كان بيتنا في الجانب الأعلى من نابولي، فإذا أردنا التوجُّه إلى أيِّ مكانٍ يجدر بنا النزول بالضرورة. وكان أبي وأمِّي ينزلان بسرورٍ إلى منطقة ڤوميرو فقط، أو إلى بيت أجداد المتحف على مضض. وكان لديْنا أصدقاء في شارع سواريز على وجه الخصوص، وساحة الفنَّانين، وشارع لوكا جوردانو، وشارع سكارلاتّي، وشارع شيماروزا: كلُّها طرقاتٌ ملحوظةٌ بالنِّسبة إليَّ، إذ كان يسكنها كثيرٌ من رفاقي في المدرسة أيضًا. هذا إضافةً إلى أنَّ جميعها تفضي إلى فلوريديانا، المكان الأحَبُ إلى قلبي، حيث كانت والدتي تصحبني للتنعُّم بالشمس والهواء منذ أن كنت رضيعةً، وحيث قضيتُ أوقاتًا سعيدةً مع أعزِّ صديقتيْن في طفولتي، أنجيلا وإيدا. ولم تكن النزلة الحقيقيَّة تبدأ إلَّا بعد تلك الأماكن آنفة الذكر، الملوَّنة والمبتهجة، والتي تتخلَّلها إطلالاتٌ على البحر، والمزدانة بالنباتات والحدائق والأزهار، والألعاب والمعاملة الراقية. كان والداي يعتبران تلك النزلة مزعجةً جدًّا، وكانا يهبطانها يوميًّا، للعمل والتسوُّق واللِّقاءات والاجتماعات، بوساطة القطار الجبليّ، إلى كيايا، وتوليدو، ومن هناك، يندفعان إلى ساحة بليبيشيتو، والمكتبة الوطنيَّة، وبورتالبا وشارع فينتاليري وشارع فوريا، وساحة كارلو الثالث، حيث المدرسة التي تعلَّمُ فيها والدتي. كنت أعرف حتَّى تلك الأسماء ـ الأماكن، غالبًا ما يأتي أبواي على ذكرها، ولكنْ لم يأخذاني إليها كثيرًا، وربَّما لهذا السَّبب لم تكن تمدُّني بالسُّرور الذي تمدُّهما به. لم تكن المدينة مدينتي خارج حدود ڤوميرو، لا بل كلَّما تحرَّكتُ في السَّهل خُيِّلَ إليَّ أنَّني في

مدينةٍ مجهولة. فمن الطبيعيّ إذن أن أرى ملامحَ العوالم الوحشيَّة وغير المكتَشفة تطغى على المناطق التي يسكنها أهل والدي. فهي بالنِّسبة إليَّ ليس لها أسماء، لا بل إنَّ الطريقة التي يتحدَّثان بها عنها كانت تُشعرني أنَّها أماكنُ يصعب الوصول إليها. وفي كلِّ مرَّةٍ تعيَّنَ عليهما الذهاب إلى هناك، كان والداي ـ اللذان لطالما رأيتُهما متحمِّسيْن ونشيطيْن ـ يبدوان في حالٍ يُرثى لها، يغلبهما التعبُ والضجر. كنت صغيرةً، ورغم هذا، علقتْ في ذهني أشكالُ توتُّرهما ومحادثاتهما المتكرِّرة.

«أندري»، تقول أمِّي بصوتها المُنهك، «البس ثيابك، علينا أن نذهب».

لكنَّه يتابع القراءة وتظليل الكتب بقلم الرَّصاص الذي يستخدمه لتدوين الملاحظات على دفترٍ جانبيّ.

ـ «أندري، سيتأخَّر الوقت، وسينزعجون».

ـ «هل أنتِ مستعدَّة؟»

ـ «أنا مستعدَّة».

ـ «والطفلة؟»

ـ «والطفلة أيضًا».

فيقوم والدي ويترك الكتب والدفاتر مفتوحةً على المكتب، ويرتدي قميصًا نظيفًا، والبدلة المناسبة. لكنَّه يظلّ صامتًا ومتوتِّرًا، كما لو أنَّه يُردِّد في ذهنه عبارات المقطع المحتوم. أمَّا والدتي، أكثر من مستعدَّة، لا تفعل شيئًا سوى مراقبة مظهرها، ومظهري، ومظهر والدي، كما لو أنَّ الثياب الصالحة هي التي ستضمن لثلاثتنا العودة إلى البيت سالمين غانمين. باختصار، كان من الواضح أنَّهما في كلِّ تلك المناسبات، يسعيان جاهديْن لتوخِّي الحذر من الأماكن والأشخاص الذين لا يحدِّثونني بشأنهم أبدًا حرصًا على راحتي. لكنِّي كنتُ أستشعر ذلك القلق العاتي، لا بل أقرُّ به أيضًا، إذ لطالما

كان موجودًا، ولعلَّه الذكرى الوحيدة التي لديَّ من قلقٍ يتخلَّل طفولةً هانئة. كانت مخاوفي تكمن في عباراتٍ من هذا النوع، تُلفَظُ بلغةٍ إيطاليَّةٍ متفكِّكةٍ إن صحّ التَّعبير:

ـ «أوصيك، إن قالت فيتُّوريا شيئًا، تظاهرْ بأنَّك لم تسمعها».

ـ «يعني، إن جُنَّ جنونها، ألتزم الصمت؟»

ـ «أجل، تذكَّرْ أنَّ جوفانّا موجودة».

ـ «لا بأس».

ـ «لا تقل لا بأس، فهذا ليس صحيحًا. عليك أن تبذل جهدًا يسيرًا. نبقى نصف ساعةٍ ثمَّ نعود إلى المنزل».

لا أذكر شيئًا من تلك المشاوير، سوى همهماتٍ، وطقسٍ حارّ، وقُبلاتٍ شاردة على الجباه، وأصواتٍ عاميَّة، ورائحةٍ كريهةٍ من المحتمل أنَّها تنبعث من الجميع بسبب الخوف. وقد أقنعتني تلك الأجواء على مدى الأعوام أنَّ أهل والدي ـ أطيافٌ تولول سفاهةً وتقزُّزًا، لاسيَّما طيف العمَّة فيتّوريا، أشدّهم نقمةً ووقاحة ـ يشكِّلون خطرًا، مع أنَّه من الصَّعب فهم مكوِّنات ذلك الخطر! هل المنطقة التي كانوا يسكنونها تعتبر خطيرة؟ هل كان الجدَّان والأعمام وأولادهم خطيرين أم أنَّ العمَّة فيتّوريا وحدها كذلك؟ لم يكن يبدو لي أنَّ أحدًا لديه إلمامٌ بالأمر عدا والديَّ؛ وآنذاك، إذ شعرتُ بضرورة التَّعرُّف على شكل عمَّتي وطباعها، كان عليَّ التوجُّه إلى والديَّ بخصوص ذلك. ولكنْ، حتَّى لو أنَّني استجوبتهما، فما الذي سأخرج به يا تُرى؟ إمَّا أنَّهما سينهيانني برفضٍ عن طيب خاطر: ـ تريدين رؤية عمَّتكِ، تريدين الذهاب إليها، ما حاجتكِ إلى ذلك؟ ـ أو قد يثير سؤالي هواجسهما فيتجنَّبان ذكر اسمها أمامي. وهكذا، فكَّرتُ أنَّني في البداية، لا بدَّ لي من البحث عن صورةٍ لها.

- 4 -

انتهزتُ ظهيرة يومٍ كان كلاهما غائبيْن، وذهبتُ للنبش في دُرجٍ في غرفة نومهما حيث كانت والدتي تضع الألبومات التي تحتفظ فيها بصُوَرِها وصُوَرِ والدي وصوري بترتيبٍ فائق. كنت أعرف تلك الألبومات عن ظهر قلب، وغالبًا ما تصفَّحتُها: كانت توثِّق علاقتهما خصوصًا، والسنوات الثلاثة عشرة الأولى من حياتي. وكنتُ أعلم مسبقًا أنَّه لسببٍ غامضٍ، تتوافر صورٌ كثيرةٌ لأهل أمّي، في حين أنَّ صور أهل والدي نادرة، لاسيَّما أنَّه لا وجود للعمَّة فيتّوريا في أيٍّ منها على قلَّتها. ومع ذلك، كنتُ أذكر أنَّ في الدُّرج، في إحدى زواياه، ثمَّة علبةً معدنيَّةً قديمةً مخصَّصةً لصُوَر والديَّ قبل أن يتعارفا، موضوعةً بشكلٍ فوضويّ. وبما أنَّني كنت قد رأيتُ تلك الصور في مرَّاتٍ قليلة، ورفقة والدتي دائمًا، أملتُ أن أجد فيها صُوَرًا لعمَّتي.

عثرتُ على العلبة في عمق الخزانة، لكنَّني قرَّرتُ أوَّلًا أن أعاين بعمقٍ الألبومات التي تُظهِرهما خطيبيْن، ثمَّ عريسيْن عابسيْن وسط زفافٍ يقيمه قلَّةٌ من المدعوِّين، ثمَّ كليْهما زوجيْن سعيديْن إلى الأبد، وفي النهاية أظهر أنا، ابنتهما، مصوَّرةً بعددٍ لا يُحصى من المرَّات، منذ ولادتي وحتَّى ذلك اليومِ. استوقفتني بعض صور الزفاف تحديدًا. كان والدي يرتدي بدلةً داكنة تتبدَّى فيها الطيَّات، وكان في كلِّ اللَّقطات يظهر واجمًا؛ ووالدتي بجانبه ليست في فستان العرس إنَّما ترتدي ثوب تايور رمليَّ اللَّون، ووشاحًا

على رأسها من اللَّون نفسه، بتعبيرٍ متأثِّرٍ بشكلٍ عامّ. تُقدَّر أعداد المدعوِّين بقرابة الثلاثين مدعوًّا، وكنتُ أعلم أنَّ بعضهم أصدقاءٌ لهما من حيّ ڤوميرو، الذين ما زالا يتردَّدان إليهم، إضافةً إلى أهل العروس، وأجداد المتحف. لكنِّي نظرتُ ونظرتُ بكلّ الأحوال، مؤمِّلةً العثور على طيفٍ حتَّى لو كان في الخلفيَّة، من شأنه أن يحيلني على امرأةٍ ليس لديَّ منها أيُّ ذكرى. لا شيء. فانتقلتُ إلى العلبة، وبعد عدَّة محاولات، تمكَّنتُ من فتحها.

نثرتُ محتواها على السَّرير، كانت الصُّوَر بالأبيض والأسود جميعًا. الصُّوَر التي تُحيل على مراهقة كلٍّ منهما بشكلٍ منفصلٍ غيرُ مرتَّبة: والدتي فرحة، لطيفةً وأنيقة، مع رفاقها بالمدرسة، والصديقات اللَّواتي من جيلها، على البحر، وفي الطريق. تمتزج صُورُها بصُوَر والدي السارح، الوحدانيّ دومًا، لا صورةً له في أيِّ إجازة، وبنطلوناته منفوخةٌ عند ركبتيْه، وستراته بأكمامٍ قصيرةٍ جدًّا. أمَّا صُوَر الطفولة والمراهقة المبكِّرة، فكانت مرتَّبةً في ظرفيْن: ظرفٌ من جانب أسرة والدتي، وظرفٌ من جانب أسرة والدي. فقلت لنفسي: لا بدَّ أنَّ عمَّتي تظهر في صور الظرف الثاني، ورحت أنظر فيها واحدةً تلو أخرى. لم تكن تتجاوز العشرين تقريبًا. يظهر والدي فيها طفلًا أو فتًى صحبة والديْه وأقارب لم أرهم قطّ، في كلّ الصُّوَر، ما عدا ثلاث أو أربع، فوجئتُ بأنَّه يظهر فيها بجانب مثلَّثٍ أسودٍ مرسومٍ بالقلم الخطّاط. ولم يستغرق الأمر منِّي كثيرًا لكي أفهم أنَّ هذا المثلَّث، الدَّقيق للغاية، جاء نتيجة عملٍ انفعاليٍّ وسرِّيٍّ من صنيعة والدي. تخيَّلتُه وهو يحدِّد بالمسطرة الموجودة على سطح مكتبه جزءًا من الصورة داخل ذلك الشكل الهندسيّ، ثمَّ يمرّ عليه بالقلم الخطّاط بعنايةٍ فائقة، حريصًا على عدم الخروج من هوامشه المُعدَّةِ مسبقًا. يا له من عملٍ مُتقن! لم يكن لديَّ شكٌّ: المثلَّثات كانت بمثابة شطوبٍ سوداء تخفي تحتها وجه العمَّة فيتّوريا.

احترتُ بما ينبغي فعله لوقتٍ لا بأس به. وفي النهاية، حسمتُ أمري، فبحثتُ في المطبخ عن سكِّين، وقشطتُ برفقٍ ذلك الجانبَ الدَّقيق من الصورة الذي غطَّاه والدي. وسرعان ما أدركتُ أنَّ بياض الورقة هو الذي يبرز ولا شيء سواه. ساورني القلقُ فكففتُ. وكنت أعلم جيِّدًا أنَّني أسير في اتِّجاهٍ مخالفٍ تمامًا لإرادة والدي، وأفزعتني الإجراءات المحتملة التي من شأنها حرماني من مودَّته نتيجةً لفعلتي. تصاعد القلق حينما عثرتُ في عمق الظرف على الصورة الوحيدة التي لا يظهر فيها طفلًا أو مراهقًا بل شابًّا يبتسم، وهو أمرٌ نادرٌ جدًّا في صُوَرِه قبل أن يتعرَّف على والدتي. كانت لقطةً جانبيَّة، ونظراته مبتهجة، ليست مصوَّبةً نحو أحدٍ بعيْنه. وبجانبه اثنان من تلك المثلَّثات، بدقَّةٍ عالية، تكلِّلان خطَّيْن عموديَّيْن، لا بدَّ أنَّه أخفى بهما جسد شقيقته وشخصًا آخر، في زمنٍ مختلفٍ كلِّيًّا عن الزمن الودّيّ الذي التُقِطت الصورةُ في خلاله.

ركَّزتُ أنظاري على تلك الصورة وقتًا طويلًا. والدي في الطريق، بقميصٍ قصير الكمَّيْن ومخطَّطٍ بمربَّعات، ولا بدَّ أنَّه في فصل الصيف. خلف ظهره، يتراءى مدخلُ محلٍّ ما، لا يُقرَأ من لافتته سوى «...ـيَّة»، وواجهةٌ زجاجيَّةٌ لا يُفهَم ماهيَّة معروضاتها. على جانب البقعة الداكنة يظهر عمودٌ ناصع البياض محدَّدُ الأطراف. فضلًا عن ظلالٍ، ظلالٍ طويلة، أحدها لجسدٍ أنثويٍّ بما لا يقبل الشكّ. وعلى الرَّغم من تعسُّف والدي في محو الشخصيْن اللذيْن بجانبه، فإنَّه ترك آثارهما الظاهرة على الرصيف.

دأبتُ مجدَّدًا على قشط حبر المثلَّث بهدوءٍ ورويَّة، وتوقَّفتُ حالما انتبهتُ إلى بروز بياض الورقة في هذه الحالة أيضًا. انتظرتُ دقيقةً أو اثنتيْن ثمَّ عاودتُ الكَرَّة. قشطتُ بتمهُّل، ونبشتُ في المنطقة التي ينبغي أن يكون رأسُ فيتّوريا فيها ذات مرَّة، وكنت أسمع صوت أنفاسي في سكون البيت. ولم أتوقَّف نهائيًّا إلَّا حينما رأيتُ أنَّ حصيلة البحث مجرَّدُ بقعةٍ صغيرةٍ لا يُفهَم منها إن كانت بقايا حبر الخطَّاط أم بعضًا من شفتيْها.

- 5 -

أعدتُ كلَّ شيءٍ إلى وضعه المرتَّب، وحرصتُ على عدم إظهار تخوُّفي من أن أُصبح مثل شقيقة والدي الممحوَّة، ثمَّ بتُّ سارحةً أكثر من ذي قبل، وتفاقم إهمالي للمدرسة بشكلٍ أفزعني. إذ إنَّني كنت أودُّ العودة تلميذةً مجتهدةً مثلما كنت قبل أشهر، وكان والداي يعوِّلان كثيرًا على ذلك، حتَّى فكَّرتُ بأنِّي إن تمكَّنتُ من الحصول على علاماتٍ ممتازة فقد أعود جميلةً، وقد تحلو طباعي. لكنِّي أخفقتُ: ففي الصفّ كنت أشرد كثيرًا، وفي البيت أهدر وقتي أمام المرآة. بل أصبح الوقوفُ أمام المرآة هوسًا عندي. أردتُ أن أفهم ما إذا كانت عمَّتي تظهر حقًّا عبْر جسدي؛ وبما أنِّي لم أكن أعرف شيئًا عن مظهرها فقد بتُّ أبحث عنها في شتَّى التَّفاصيل التي قد تُنذر بتغيُّراتٍ تطرأ عليّ. وهكذا، اتَّضحت على مرآي ملامحُ لم أكن أعيرها أيَّ اهتمامٍ في السَّابق: حاجباي الكثيفان، عيناي الصَّغيرتان بلونهما البنيِّ الباهت، جبيني العالي أكثر ممَّا ينبغي، شعري الناعم ـ لم يكن جميلًا البتَّة، أو ربَّما لم يَعُدْ جميلًا ـ الملتصق بقحف رأسي، أذناي الكبيرتان وشحمتاهما الثقيلتان، شفتي العليا الهزيلة وقشرتها الداكنة المقزِّزة، وشفتي السُّفلى الثخينة جدًّا، أسناني التي ما زالت تبدو لبنيَّة، ذقني المُدبَّب، وأنفي.. آهٍ من أنفي! كيف كان يتمدَّد بلاجماليَّةٍ نحو المرآة، وكم كان ينبسط عَرْضًا، وما أظلمَ التجاويف بين الوتيرة والأجناب!

هل هذه أجزاءٌ من وجه العمَّة فيتّوريا أم أنَّها من وجهي أنا فقط؟ أكان عليَّ أن أتوقَّع تحسُّنًا أم تدهورًا؟ جسدي، ذلك العنق الطويل الذي بدا قابلًا للتحطُّم كلعاب العنكبوت، وتانك الكتفان المنتصبتان بعظامهما الناتئة، وذانك النهدان اللَّذان ينتفخان أكثر وأكثر بحلمتيْهما السَّوداويْن، وتانك الساقان الهزيلتان الطويلتان أكثر ممَّا ينبغي، إذ تكادان الالتحام بإبطيَّ! هل كان ذلك الجسد «جسدي أنا» أم بوادر ظهور عمَّتي، بكامل فظاعتها؟

درستُ نفسي، وكنتُ أراقب والديَّ أيضًا. كم أنا محظوظةً بهما، لم يكن بوسعي إيجاد أفضل منهما. كانا في منتهى الجمال، وقد تحابَّا منذ أن كانا شابَّيْن. أعرف عن حكايتهما النَّزْر اليسير، وقد قصَّها عليَّ والدي بتفاوتٍ مَرِحٍ ومعتاد، ووالدتي بطريقةٍ عاطفيَّةٍ ولطيفة. ولطالما أحَبَّ كلٌّ منهما الاعتناء بالآخر، حتَّى إنَّ قرار إنجاب طفلٍ جاء متأخِّرًا نسبيًّا، نظرًا لأنَّهما تزوَّجا في سنٍّ مبكِّرة جدًّا. فقد ولدتُ حينما ناهزت أمِّي ثلاثين عامًا، وأبي اثنين وثلاثين أو يزيد. وتمَّ الحَبَلُ وسط مخاوف لا حصر لها، عبَّرت عنها أمِّي علانيَّةً وأبي في سرِّه. وكانت فترةُ الحمْل عصيبةً، والولادةُ ـ 3 يونيو 1979 ـ مخاضًا عسيرًا لا نهاية له، وأعوامي الأولى برهانًا عمليًّا على تعقُّد حياتهما منذ أن أتيتُ إلى هذه الدُّنيا. تخوَّفَ والدي من المستقبل، هو الذي كان مدرِّسًا للتاريخ والفلسفة في أرقى المدارس المتوسِّطة في نابولي، ومثقَّفًا ملحوظًا في المدينة، محبوبًا من قِبَلِ تلاميذه الذي كان يكرِّس لهم كلَّ الصباحات وبعد الظهر أيضًا؛ اضطرَّ حينها لإعطاء دروسٍ خصوصيَّة. أمَّا والدتي، فكان الحاضر هو الذي يقلقها، بمروره بين بكائي اللَّيليّ المتواصل والاحمرار الذي يطفح على جلدي والآلام التي تُنازل بطني، فضلًا عن أهوائي المتقلِّبة. كانت تدرِّس اللَّاتينيَّة والإغريقيَّة في مدرسةٍ في ساحة كارلو الثالث، وتصحِّح مسوَّدات رواياتٍ رومانسيَّة؛ فدخلت في نفق اكتئابٍ طويل، وأصبحت معلِّمةً سيِّئة، ومصحِّحةً سارحة الفكر كثيرًا.

تلك هي الأهوال التي تسبَّبتُ بها حالما ولدتُ. لكنَّني لاحقًا، صرتُ طفلةً هادئةً ومطيعة، واستعاد والداي أَلَقهما شيئًا فشيئًا. فلقد انتهت المرحلةُ التي كان كلاهما يضيّع وقته عبثًا في سبيل تجنيبي الآلام التي يتعرَّض لها كلُّ البشر. وأوجدا توازنًا جديدًا، عاد بفضله أبي إلى دراساته وأمّي إلى أعمالها، علمًا بأنَّ محبَّتهما تجاهي ظلَّت أولى اهتماماتهما دائمًا. فما القول إذًا؟ كانا يحبَّانني وكنت أحبَّهما. والدي كان يبدو في ناظريَّ رجلًا استثنائيًّا، ووالدتي امرأةً في غاية اللُّطف، وكلاهما يشكِّل صورتيْن مثاليَّتين عن الصفاء في عالمٍ يغصّ بالاضطراب.

اضطرابٌ كنتُ أشكِّل جزءًا منه. كنت في بعض الأحيان، أتخيَّل أنَّ صراعًا عنيفًا جدًّا ينشب في داخلي ما بين والدي وشقيقته، وكنت أتمنَّى أن ينتصر فيه هو. بالتَّأكيد ـ كنت أفكِّر ـ فيتّوريا تغلَّبت ذات مرَّة، في لحظة ولادتي، إذ كنت طفلةً لا تُحتَمل؛ لكنَّني فيما بعد ـ أفكِّر مسرورةً ـ أصبحت وديعةً، لذا من الممكن طردها عنّي. هكذا، كنت أحاول أن أطمئن نفسي، وأجاهد لكي أعثر على والديَّ في داخلي حتَّى أشعر بالقوَّة. إلَّا أنَّني كنتُ أنظر إلى نفسي في المرآة للمرَّة الألف، لاسيَّما عند المساء، قبل الخلود للنوم، فيبدو لي أنَّني أضعتهما منذ مدَّة. كان لا بدَّ لوجهي أن يتشرَّب ملامحهما جيِّدًا، فإذا بوجه فيتّوريا يراودني. كان لا بدَّ لحياتي أن تكون سعيدةً، فإذا بفترةٍ تعيسةٍ تعلن عن بدايتها، ليس لي فيها فرحةُ الإحساس بنفسي على غرار ما أحسَّ به والدايَ من قبل، وحينذاك.

- 6 -

وفي لحظةٍ معيَّنة، حاولتُ أن أفهم ما إذا كانت الشقيقتان، أنجيلا وإيدا، صديقتاي الموثوقتان، تنبَّهتا إلى تدهورٍ ما في حالتهما، وما إذا كانت أنجيلا خصوصًا، وهي التي من عمري (إيدا تصغرني بسنتيْن)، تشهد تغيُّراتٍ نحو الأسوأ بدورها. كنتُ في حاجةٍ إلى نظرةٍ تقيِّمُني، وبدا لي أنَّه يُمكنني الاعتماد عليهما. فلقد نشأنا على التربية ذاتها، من آبائنا الذين كانوا أصدقاء منذ عقود، يتشاركون وجُهات النظر ذاتها. على سبيل المثال: ثلاثتُنا لم ننل المعموديَّة، وثلاثتُنا لم نتعلَّم الصلوات، وثلاثتُنا حصلنا في عمرٍ مبكِّر على معلوماتٍ وافيةٍ حول وظائف جهازنا الحيويّ (عبْر كتبٍ مصوَّرة، وفيديوهات رسومٍ متحرِّكة تربويَّة)، وثلاثتُنا كنَّا نعلم أنَّ الفخرَ لنا إذ وُلِدنا إناثًا، وثلاثتُنا دخلنا الصفّ الأوَّل الابتدائيّ في سنّ الخامسة لا السادسة، وثلاثتُنا كنَّا نتصرَّف دومًا بما يمليه علينا العقل، ولدى ثلاثتِنا شبكيَّةٌ ذهنيَّةٌ غزيرةٌ من نصائحَ مفيدةٍ للحيلولة دون الوقوع في فخاخ نابولي والعالم، وبإمكان ثلاثتِنا التَّوجُّه إلى والديْنا في أيِّ لحظةٍ لإشباع فضولنا، وثلاثتُنا كنَّا نقرأ كثيرًا، وكان لدى ثلاثتِنا احتقارٌ حصيفٌ لكلِّ مفرزات الاستهلاك وأذواق البنات في جيلنا، علمًا بأنَّ مربِّينا يشجِّعوننا دومًا على الإلمام بالموسيقى والأفلام والبرامج التلفزيُونيَّة والمطربين والممثِّلين، وكنَّا في السرّ نطمح لكي نصير ممثِّلات ونحظى بشهرةٍ واسعة، ونرتبط بشبَّانٍ خِفاف الظلّ نهيم معهم

بقبلاتٍ مطوَّلةٍ وتواصلٍ بين أعضائنا التناسليَّة وأعضائهم. وكانت الصداقة التي تجمعني بأنجيلا أقوى. إيدا كانت صغيرة، لكنَّها تعرف كيف تفاجئنا. كانت تقرأ أكثر منَّا وتكتب القصائد والقصص. لذا لم يحدث بيني وبينهما، على حدِّ ذاكرتي، أيُّ شقاق، وحتَّى لو تحقَّق ذلك، فكنَّا نعرف كيف نتناقش بصراحةٍ لنتصالح من جديد. وعليه، ولكونهما شاهديْن موثوقيْن، استجوبتهما مرَّتيْن بحرصٍ شديد. لكنَّهما لم تتفوَّها بما يزعجني، لا بل أبدتا تقديرًا كبيرًا؛ ومن جهتي، وجدتهما في غاية اللُّطف. كانتا منسجمتيْن بشكلٍ جيِّد، ومندمجتيْن بعنايةٍ فائقة. فبمجرَّد النَّظر إليهما أشعر بالحاجة إلى دفئهما. كنتُ أعانقهما وأقبِّلهما كما لو أنِّي أرغب في مزجهما بي. ولكنْ، ذات مساءٍ كنت فيه محبطةً، حدث أن جاءتا رفقة العائلة إلى بيتنا في سان جاكومو دي كابري، وتعقَّدت الأمور. لم أقم بخير ترحيب. كنتُ أشعر أنَّني خارج السياق بشكلٍ ملموس: عريضةٌ ونحيلةٌ وشاحبة، تستولي الجلافةُ على كلِّ كلمةٍ أو حركةٍ أُدلي بها؛ لذا كنت مستعدَّةً لاعتبار أيِّ كلامٍ يُقال لي تلميحاتٍ على حالتي المتدهورة حتَّى لو لم تكن كذلك. فمثلًا، سألتني إيدا مشيرةً إلى حذائي:

ـ «أهو جديد؟»

ـ «لا، إنَّه لديَّ منذ زمن».

ـ «لا أذكره».

ـ «هل فيه شيءٌ غير مناسب؟»

ـ «على الإطلاق».

ـ «إن لم يلفت انتباهكِ حتَّى الآن، فهذا يعني أنَّ شيئًا غير مناسبٍ ظهر عليه الآن».

ـ «أبدًا».

ـ «هل ساقاي هزيلتان؟»

ومضينا هكذا ردحًا من الوقت، هما يطمئنانني وأنا أحاول أن أفهم من طمأنتهما إن كانتا تتحدَّثان جدِّيًا أم تخفيان خلف حسن الكلام انطباعًا سيِّئًا عنِّي. تدخَّلت والدتي بنبرتها المنهكة قائلةً: «كفى يا جوفانّا، ساقاكِ ليستا هزيلتيْن»، فشعرتُ بالخزي، وسرعان ما التزمتُ الصمت، بينما كانت كوستانسا والدةُ أنجيلا وإيدا تؤكِّد قائلةً: «قدماكِ جميلتان جدًّا»، وماريانو والدهما يهتف ضاحكًا: «وفخذاها رائعان، إن وضعناهما بالفرن مع البطاطس حصلنا على وجبةٍ لذيذة». ولم يتوقَّف عند ذلك الحدّ، بل تابع ساخرًا بي، وكان رجلًا كثير المزاح، يحسَب نفسه قادرًا بدعابته على الإتيان بالبهجة حيث الحزن يخيّم على مأتم.

«ما حال الصغيرة هذا المساء؟»

هززتُ رأسي تلميحًا إلى أنَّه ما بي شيء، وحاولتُ أن أبتسم، لكنَّني لم أتمكَّن، إذ كانت طريقته باللَّهو تثير أعصابي.

«ما أجمل شَعرك! أهو مكنسة الذرة؟»

أشرتُ بِ لا مجدَّدًا، وأخفقتُ هذه المرَّة في إخفاء انزعاجي، كان يعاملني على أنَّني ما أزال ذات ستَّة أعوام.

«إنَّه إطراءٌ يا عزيزتي: فنبتة الذرة مكتنزة، ويتراوح لونها ما بين الأخضر والأحمر والأسود».

فانفجرتُ غيظًا:

ـ «لستُ مكتنزة، ولا خضراء، ولا حمراء، ولا سوداء».

حدَّق إليَّ مُرتبكًا. ابتسم وتوجَّه إلى ابنتيْه:

ـ «ما الذي يجعل جوفانّا متجهِّمةً هذا المساء؟»

فقلت بغيظٍ يشتدّ:

ـ «لستُ متجهِّمة».

ـ «التجهُّم ليس شتيمة، إنَّما دلالةٌ على حالةٍ نفسيَّة معيَّنة. ألا تعلمين معنى الكلمة؟»

سكتُّ. فتوجَّه إلى ابنتيْه ثانيةً متصنِّعًا الإحباط:

ـ «لا تعلم. إيدا، قولي لها».

فقالت إيدا على مضض:

ـ «يعني أنَّ وجهكِ عابس. إنَّه يصفني بالكلمة نفسها».

ماريانو كان هكذا. يعرف والدي منذ أيَّام دراستهما في الجامعة، وبما أنَّه لم تحدث بينهما قطيعةٌ فإنَّه كان حاضرًا في حياتي دائمًا. ثقيل الظلّ نوعًا ما، أصلع كلِّيًّا، عيناه سماويَّتان، وقد أذهلني منذ طفولتي بوجهه المنتفخ قليلًا والشاحب كثيرًا. وكلَّما جاء إلى بيتنا، الأمر الذي غالبًا ما حدث، جاء بغية الدردشة لساعاتٍ وساعات مع صديقه مُقحِمًا في كلِّ عبارةٍ سوْءةً لاذعةً تزعجني. كان يدرِّس التاريخ في الجامعة، ويتعاون بشكلٍ دائمٍ مع إحدى المجلَّات المرموقة في نابولي. كان ووالدي يتناقشان باستمرار، ومع أنَّني وابنتيْه لم نكن نفهم الكثير من أحاديثهما، فلقد نشأنا على فكرة أنَّهما يحملان على عاتقهما واجبًا صعبًا للغاية يتطلَّب منهما دراسةً وتركيزًا. لكنَّ ماريانو لم يقتصر على الدراسة ليل نهار مثل والدي، بل كان يستشيط غيظًا وبصوتٍ مرتفعٍ جدًّا ضدّ أعداء كُثُر ـ أشخاص من نابولي وروما ومدن أخرى ـ يعيقون كليْهما عن ممارسة عملهما على نحوٍ جيِّد. وكانت كلٌّ منَّا ـ أنجيلا وإيدا وأنا ـ ننحاز دومًا إلى الأبويْن في وجه كلّ من يريد بهما شرًّا، حتَّى لو كنَّا في درجةٍ لا تسمح لنا باتِّخاذ موقف. ولكنْ، في المحصِّلة، لم يكن يهمُّنا من كلّ تلك النقاشات، منذ الصغر، إلَّا الكلمات الرذيلة التي

يتلفَّظ بها ماريانو بالعامّيَّة في حقِّ أشخاصٍ مشهورين في تلك الحقبة. وكان ذلك يحدث لأنَّه ممنوعٌ علينا نحن الثلاثة ـ أنا خصوصًا ـ التفوُّه بالشتائم الرذيلة، لا بل ممنوعٌ علينا التكلُّم بالعامّيَّة النابوليَّة، وإنْ مجرَّد حرفٍ واحدٍ عمومًا. منعٌ بلا جدوى. لأنَّ أهالينا كانوا متسامحين، فهم لا يحرِّمون علينا أيَّ شيء حتَّى إذا منعونا من بعض الأشياء. وهكذا، كنَّا نردِّد ما بيننا بصوتٍ هامس، على سبيل اللَّعب، أسماءَ وكُنى أعداء ماريانو، ونضيف إليها النعوت المشينة التي تتناهى إلى مسامعنا. إلَّا أنَّ أنجيلا وإيدا لم تكونا تريان في قاموس والدهما إلَّا الجانب المضحك، في حين لم أتمكَّن من فصله عن الانطباع المقيت الذي شكَّلتُه عنه.

ألم تكن فكاهته تحتوي على كراهية؟ ألم تكن كذلك في ذاك المساء؟ هل أنا متجهِّمة، وعابسة الوجه، هل أنا مكنسة نبتة الذرة؟ أكان ماريانو يمازحني ليس إلَّا، أم كان يقول الحقيقة المُرَّة بوساطة المزاح؟ جلسنا إلى الطاولة. افتتح البالغون محادثاتهم المملَّة عن أصدقاء لهم يخطِّطون للانتقال إلى روما؛ وكان الملل يقهرنا بصمت، راجياتٍ أن ينتهي العشاء فورًا لكي نذهب إلى غرفتي. وطوال ذلك الوقت، تملَّكني انطباعٌ أنَّ والدي لا يضحك أبدًا، ووالدتي تبتسم أو تكاد، بينما ماريانو يضحك كثيرًا جدًّا، وكوستانسا زوجته تضحك من قلبها، ولكنْ ليس كثيرًا. لعلَّ والديَّ لم يكونا مستمتعيْن بقدْر ضيفيْهما، اللذيْن قد تسبَّبا بالتعاسة لأبي وأمِّي؛ إذ كان صديقاهما سعيديْن بابنتيْهما فيما كفَّ والداي عن السَّعادة بي. فأنا كنت متجهِّمةً، متجهِّمةً، متجهِّمة، وبمجرَّد رؤيتي، كان الفرح يفارق روحيْهما. كم كانت والدتي جادَّة، ووالدة أنجيلا وإيدا جميلةً ومسرورة! كان والدي حينها يصبّ لها من النبيذ، ويتوجَّه إليها بكلامٍ ودودٍ ومحترم. كوستانسا معلِّمة اللُّغة الإيطاليَّة واللَّاتينيَّة، وقد جاد عليها والداها الثريّان بتأهيلٍ ممتاز. وكانت راقيةً لدرجةٍ بدت والدتي في بعض الأحيان تتفحَّصها

لتقلّدها، وكنت أنحو ذلك النَّحو من دون حتَّى أن أنتبه. كيف من المعقول أنَّ امرأةً مثلها اختارت ماريانو زوجًا لها؟ كنت مبهورةً بلمعان حليِّها وألوان ملابسها التي تليق بها حقًّا. وكنت في اللَّيلة السَّابقة تحديدًا قد حلمتُ بها وهي تلعق أذني برأس لسانها بمودَّةٍ كالقطط. وقد أمدَّني الحلمُ بالانشراح، وبما يشبه الرخاء البدنيّ الذي أشعرني بالأمان لعدَّة ساعاتٍ بعد استيقاظي.

وآنذاك، كنت جالسةً بجوارها إلى الطاولة، أملتُ أن يساعدني تأثيرها الإيجابيّ على محوِ كلام زوجها من ذهني. لكنَّ وقْعَ كلماته ظلَّ ماثلًا طوال العشاء ـ شَعري يشبه مكنسة نبتة الذرة، ووجهي متجهِّم ـ ليزيد من انزعاجي. وتأرجحتُ ما بين الرَّغبة في العبث بهمس الكلام المعيب في أذن أنجيلا، وما بين تلك الحالة الكئيبة التي لا تزول. وما إن انتهينا من تناول الحلويات، تركنا آباءنا لأحاديثهم، وانغلقنا على أنفسنا في غرفتي. وهناك سألتُ إيدا بلا مراوغات:

«هل وجهي عابس؟ هل أنا أصبح قبيحةً برأيكما؟»

«على الإطلاق».

«قولا لي الحقيقة».

لاحظتُ أنَّهما متردِّدتان. حسمتْ أنجيلا قولها:

«بعض الشيء، ولكنْ ليس من الناحية الجسديَّة».

«أنتِ جميلةٌ من الناحية الجسديَّة»، أكَّدت إيدا «ما لديكِ ليس إلَّا قبحٌ ناجمٌ عن الاضطراب».

فقالت أنجيلا وهي تقبّلني:

«يحدث الأمر معي أيضًا: عندما أضطرب أصبح قبيحةً، لكنَّها أعراضٌ زائلة».

- 7 -

أمدَّني ذلك الرابط بين الاضطراب والقبح بارتياحٍ لم أكن أتوقَّعه. هناك نوعٌ من القبح يتعلَّق بأسباب القلق ـ قالت أنجيلا وإيدا ـ وما إن يزول القلق تعودين جميلةً. عزمتُ على تصديق كلامهما، وجاهدتُ لقضاء أيَّامٍ مطمئنَّة البال. إلَّا أنَّ الإجبار على صفاء النَّفس لم يؤتِ أُكُلَه، وغام رأسي فجأةً، وعاد الوسواس القديم يلاحقني. فتنامت فيَّ النقمةُ إزاء أيّ شيء، ومن الصَّعب اجتثاثها بدماثةٍ مصطَنعة. وسرعان ما استنتجتُ أنَّ تلك الاضطرابات لم تكن مؤقَّتةً على الإطلاق، وربَّما ليست باضطرابات، إنَّما جملةٌ من الأحاسيس الشرِّيرة التي تتمدَّد في عروقي.

وهذا لا يعني أنَّ أنجيلا وإيدا كذبتا عليَّ حيال تلك النقطة، كانتا عاجزتيْن عن ذلك، فنحن قد تربَّينا على عدم التفوُّه بالأكاذيب أبدًا. من الوارد أنَّهما تحدَّثتا عن نفسيْهما بالإحالة على الرابط بين القبح والقلق، وعن تجربتهما، باستخدام كلماتٍ لجأ إليها ماريانو لطمأنتهما، فرؤوسنا تزخر بمفاهيمَ كثيرةٍ سمعناها من آبائنا. غير أنَّ أنجيلا وإيدا ليستا أنا. وليس في عائلتهما عمَّةٌ مثل فيتّوريا شبَّهَ والدُهما وجهيْهما بوجهها. فشعرتُ ذات صباح، في المدرسة، أنَّني لن أعود جميلةً مثلما أراد والداي، وأنَّ ماريانو اللئيم انتبه إلى ذلك، وأنَّ صديقتيَّ تركتاني وراحتا توطِّدان صداقاتٍ تناسبهما، وأنَّني بتُّ وحيدة.

فاكتأبتُ، واشتدَّت التعاسة في الأيَّام اللَّاحقة، ولم أكن أرفع قليلًا من معنويَّاتي إلَّا إذا فركتُ باستمرارٍ ما بين ساقيَّ، فأتلذَّذ بذلك. وكلَّما تناسيتُ نفسي بتلك الطريقة المُهينة، أحسستُ بعدها أنِّي أشدُّ تعاسةً من قبل، وأنِّي مقرفةٌ في بعض الأحيان. ما زلتُ أحتفظ بذكرى ممتعةٍ من الألعاب التي كنت أنفِّذها مع أنجيلا: على الأريكة في منزلي، قبالة التلفاز المضاء، نستلقي واحدةً في وجه الأخرى، نشبك ساقينا بعضهما ببعض، بصمتٍ وبلا شروطٍ أو قواعد، نضع دميةً ما بين أعلى سروالي وأعلى سروالها، ثمَّ نبدأ بالاحتكاك والتبرُّم بدون مضايقة، ونضغط بقوَّةٍ على الدمية التي تتوسَّطنا وتبدو حيَّةً وسعيدة. زمانٌ سالف! لم تعد اللذَّةُ أيَّامَها تبدو لي لعبةً مسلِّية. كنت بعدها أتصبَّب عرقًا، وأشعر أنَّني أكثر قبحًا. حتّى إنَّ وسواس مراقبة وجهي عاودني يومًا تلو يوم، وعدتُ لقضاء وقتٍ طويل أمام المرآة بشراهةٍ أكبر من السابق.

تطوَّر الأمر بشكلٍ مفاجئ: فلكثرة ما نظرتُ إلى ما كان يبدو لي عيوبًا، رغبتُ أن أكرِّس عنايتي لتلك العيوب. ورحتُ أتفحَّص ملامحي وأفكِّر وأنا أمسِّد وجهي: ها هو، يكفي أن يكون أنفي هكذا، وعيناي هكذا، وأذناي هكذا... لأصبح كاملة الأوصاف. كانت مجرَّد لمساتٍ طفيفةٍ يرقّ قلبي على إثرها وتتعسني. مسكينةٌ أنتِ ـ أقول لنفسي ـ يا لحظِّكِ العاثر! تملَّكني اندفاعٌ مباغتٌ نحو صورتي ذاتها، حتَّى إنِّي ذات مرَّةٍ انتهى بي المطاف لتقبيل فمي في المرآة، عندما فكَّرتُ أنَّني مهجورةٌ ولا أحد سيقبِّلني. وهكذا، بدأتُ أتفاعل مع الأمر. فانتقلتُ من جَلْد الذات الذي أقضي به أيَّامي وأنا أدرس تفاصيل جسمي، إلى الحاجة إلى إصلاح نفسي كما لو كنتُ قطعةً من أداةٍ جيِّدة الصنع تضرَّرت على يد عاملٍ أعسر. فأنا كنت أنا في النهاية، أيًّا كانت عيوبي، وعليَّ أن أولي هذا الوجه، وهذا الجسد، وتلك الأفكار، كلّ رعاية.

وفي صباح يوم أحد، حاولتُ أن أحسِّن مظهري بمكياج والدتي. ولكنْ، حينما أطلَّت برأسها إلى غرفتي، قالت ضاحكةً: وجهكِ يبدو قناعًا كرنفاليًّا، عليكِ أن تحسِّني أداءكِ. فلم أعترض، ولم أدافع عن نفسي، وسألتها بأشدّ الطرق إذعانًا قدرتُ عليها:

ـ «هلَّا علِّمتِني كيف أضع المساحيق مثلما تفعلين أنتِ؟»

ـ «لكلِّ وجهٍ طريقته في المكياج».

ـ «أريد أن أكون مثلكِ».

سَرَّها ذلك، وامتدحتني كثيرًا، وراحت تجمِّلني بعنايةٍ فائقة. وقضينا ساعاتٍ جميلةً، فكم تمازحنا وكم تضاحكنا! كانت أمِّي صموتًا في غالب الوقت، رصينةً جدًّا، لكنَّها معي ـ معي حصرًا ـ مستعدَّةٌ دائمًا للعودة طفلةً صغيرة.

ظهر والدي حينذاك محمَّلًا بجرائده، ووَجدَنا نلهو على ذلك النَّحو، فابتهجت أساريره.

ـ «ما أجملكما»، قال.

ـ «حقًّا؟» سألتُه.

ـ «بالتَّأكيد، لم أرَ نساءً تضاهيكما تألُّقًا».

وانغلق على نفسه في غرفته، إذ كان يقضي يوم الأحد بالدراسة وقراءة الجرائد. وما إن بتنا، أمِّي وأنا بمفردنا، سألتني ـ كأنَّ ذلك الفاصل الذي امتدّ خمس دقائق جاء بإشارةٍ ما ـ بصوتها الذي لطالما بدا منهكًا، لكنَّه لا يعرف الامتعاض أو التخوُّف:

ـ «ما الذي جعلكِ تنظرين في علبة الصور؟»

صمتُّ. لقد لاحظتْ أنَّني فتَّشتُ في أغراضها. ولاحظت أنَّني حاولتُ قشط العلامات التي خلَّفها القلم الخطَّاط. منذ متى؟ بكيتُ رغمًا

عنِّي، مع أنِّي قاومتُ الدموع بكلِّ قواي. ماما، قلت لها بين شهقاتي، إنَّما أردتُ أن... كنتُ أعتقد أن... ظننتُ أن... لكنِّي لم أتمكَّن من البوح بأيٍّ ممَّا أردتُه أو اعتقدتُه أو ظننتُه. تلعثمتُ... دموعٌ ودموع. بينما كانت تحاول عبثًا أن تهدِّئ روعي، وكلَّما ألقت بعبارةٍ متفهِّمةٍ تتخلَّلها ابتسامةٌ ـ لا داعي للبكاء، يكفي أن تطلبي منِّي أو من أبيكِ، وبكلِّ الأحوال، بإمكانكِ أن تري الصور متى شئتِ. لِمَ البكاء، اهدأي ـ أجهشتُ بالبكاء مزيدًا. وفي النهاية، أخذتني من يديّ، وقالت لي بنفسها بنبرةٍ هادئة:

ـ «عمَّ تبحثين؟ عن صورةٍ للعمّة فيتّوريا؟»

مكتبة
t.me/t_pdf

- 8 -

أدركتُ حينئذٍ أنَّ والديَّ تنبَّها إلى أنَّ كلامهما نما إلى مسامعي. لا بدَّ أنَّهما تباحثا في الأمر طويلًا، وربَّما استشارا بعض الأصدقاء أيضًا. وكان والدي متأسِّفًا جدًّا بطبيعة الحال، ومن المحتمل أنَّه أوفد أمِّي لإقناعي بأنَّ الجملة التي سمعتُها كان لها معنًى مغايرٌ عن المعنى الذي جرحني. لا بدَّ أنَّ هذا ما جرى، إذ كان صوت والدتي يثبت نجاعةً في عمليَّات الترقيع. فهي لا تستبدّ بها نوباتُ غضب، ولا حتَّى استياء. فمثلًا، عندما تسخر منها كوستانسا على الوقت الطويل الذي تضيّعه في تحضير الدروس وتصحيح مسوَّدات القصص المغفَّلة التي تجبرها في بعض الأحيان على إعادة كتابة صفحاتٍ برمَّتها، كانت والدتي تردّ بهدوء، بنفسٍ صافيةٍ لا تشوبها حدَّة. وحتَّى عندما تردّ عليها أحيانًا: «كوستانسا، أنتِ ثريَّةٌ جدًّا، بإمكانكِ أن تفعلي ما تشائين، أمَّا أنا فيجب أن أكدح»، كانت تفعلها بكلماتٍ موجزةٍ ورقيقة، ليس فيها ضغينةٌ جليَّة. وعليه، مَن يضاهيها في معالجة الأخطاء؟ بعد أن هدأ خاطري، قالت بنبرتها تلك: نحن نودّكِ كثيرًا. وردَّدتها مرَّةً واثنتيْن. ثمَّ بادرت بخطابٍ لم تلقِه على مسمعي أبدًا قبل تلك اللَّحظة. قالت إنَّها ووالدي على حدٍّ سواء قد ضحّيا بالغالي والنفيس ليصبحا على ما هما عليه آنذاك. وغمغمت: «أنا لا أشتكي، فأبواي قدَّما لي ما كان بوسعهما تقديمه، وتذكرين كم كانا لطيفيْن وودوديْن، فلقد اشترينا هذا

البيت في زمانه بمساعدتهما. إلَّا أنَّ طفولة أبيكِ، ومراهقته، وشبابه، كانت صعبةً عليه ومضنيةً إلى حدٍّ بعيد، لأنَّه لم يكن يمتلك شيئًا على الإطلاق، فتوجَّبَ عليه أن يرتقي جبلًا شاهقًا بيديْه وقدميْه العاريتيْن، ولم ينتهِ بعد، ولن ينتهي أبدًا، فلطالما تباغتكِ عاصفةٌ ترميكِ إلى أسفل، لتعودي إلى الصفر». ثمَّ عرَّجت أخيرًا على فيتّوريا، وباحت لي بشكلٍ لا لبس فيه أنَّ العاصفة التي نوت أن ترمي والدي من على الجبل كانت العمَّة فيتّوريا بحدِّ ذاتها.

ـ «هي؟»

ـ «أجل. شقيقة والدكِ امرأةٌ حقود. لا يعتريها ذلك الحقد العاديّ الذي قد يُضمِرُه أيٌّ كان، إنَّما هي حقودٌ بطريقةٍ شنيعةٍ للغاية».

ـ «ما الذي فعلتْه؟»

ـ «كلُّ شيء. وعلى وجه الخصوص أنَّها لم ترضَ عن نجاح والدكِ».

ـ «يعني؟»

ـ «نجاح والدكِ في الحياة. كيف أنَّه كرَّس نفسه للمدرسة والجامعة. ذكاؤه. إنجازاته. شهادته. عمله، وزواجنا، والأشياء التي يدرسها، والتقدير الذي يحيط به، والأصدقاء الذين لنا، وأنتِ».

ـ «حتَّى أنا؟»

ـ «أجل. لا وجود لشيءٍ أو شخصٍ لا يمثِّل إهانةً شخصيَّةً لفيتّوريا. لكنَّ أشدَّ ما يهينها حقًّا هو وجود والدكِ».

ـ «ماذا تعمل؟»

ـ «خادمة. ماذا تتوقَّعين منها أن تعمل، إذ إنَّها انقطعت عن الدراسة في الخامس الابتدائيّ؟ لا ضيْر أبدًا في عمل الخادمة، وأنتِ تعلمين ما

أطيب السيِّدة التي تساعد كوستانسا في الأعمال المنزليَّة. المشكلة أنَّها في ذلك تلقي باللَّائمة على شقيقها».

ـ «لماذا؟»

ـ «بلا سبب. خصوصًا أنَّ أباكِ أنقذها. أمَّا هي، فكانت قادرةً على تدمير نفسها أكثر من ذلك كثيرًا. لقد أُغرِمت برجلٍ متزوِّجٍ أساسًا ولديه ثلاثة أبناء، وكان رجلًا منحرفًا. جيِّد. تدخَّلَ والدكِ، لكونه شقيقها الأكبر. لكنَّها وضعت تدخُّله ذاك أيضًا في قائمة الأشياء التي لن تسامحه عليها».

ـ «ربَّما كان ينبغي لوالدي أن يهتمّ بشؤونه الخاصَّة».

ـ «لا ينبغي لأحدٍ أن يهتمّ بشؤونه الخاصَّة إذا كان هنالك مَن وقع في مأزقٍ كبير».

ـ «نعم».

ـ «إلَّا أنَّ مدَّ يد العون لها كان معضلةً بحدِّ ذاته، فلقد ردَّت لنا المعروف بكلِّ الشرور الممكنة».

ـ «هل تتمنَّى العمَّة فيتّوريا الموت لوالدي؟»

ـ «من المؤسف قوله، إلَّا أنَّه كذلك».

ـ «أما من وسيلة للمصالحة؟»

ـ «لا. فلكي يصالحها، ينبغي لأبيكِ أن يصبح شخصًا عاديًّا في عين فيتّوريا، مثل جميع معارفها. وبما أنَّ هذا غير ممكن، حرَّضت العائلةَ عليه. وبسببها، بعد وفاة جدَّيْكِ، لم يعد بوسعنا إقامة علاقةٍ حقيقيَّةٍ مع أيٍّ من أقاربه».

لم أُدْلِ بإجاباتٍ جوهريَّة، وما لفظتُ إلَّا كلماتٍ قليلةً وموجزة. لكنِّي فكَّرتُ باشمئزاز: إذًا، فإنَّ ملامحي تتحوَّل إلى ملامح شخصٍ يتمنَّى الموت

لوالدي، وخراب أسرته؛ فانهمرت منّي الدُّموع مجدَّدًا. أثرتُ انتباه أمّي، فعملت على كفكفة دمعي. عانقتني وغمغمت: «لا داعي للتأسُّف، هل اتَّضح لكِ الآن المغزى من جملة أبيكِ تلك؟» فأومأتُ بنفيٍ قاطع مطأطئةَ الرأس. فشرحتْ لي بهدوء، ونبرةٍ لاهيةٍ غير متوقَّعةٍ منها: «منذ زمنٍ طويل، لم تَعُد العمَّة فيتّوريا بالنسبة إلينا شخصًا، إنَّما مجرَّد أنموذج؛ تصوَّري أنَّني حين يتحامق والدكِ أنعته مازحةً: حذارِ يا أندري، فإنَّ وجهك صار مثل وجه فيتّوريا»، ثمَّ هزَّتني بمودَّةٍ وردَّدت: «إنَّها جملة تقال على سبيل المزاح».

فغمغمتُ مغتاظة:

- «لا أصدِّقكِ يا أمَّاه، لم أسمعكما تقولانها أبدًا».

- «ربَّما بوجودكِ لم نقُلْها، ولكنْ على انفراد، بلى. مثل الإشارة الحمراء، نستخدمها للتنبيه: الحذر، فمن الممكن أن نخسر كلّ ما تطلّعنا إليه بسهولة».

- «حتَّى أنا؟»

- «كلَّا، ماذا تقولين، لن نخسركِ أبدًا. أنتِ الشخص الأهمّ في العالم بالنِّسبة إلينا، ونرجو أن تكون حياتكِ مليئةً بالسَّعادة. هذا ما يجعلنا نلحّ عليكِ بالدراسة. الآن تمرّين ببعض المصاعب، لكنَّها ستزول. وسترين كم من الأشياء الجميلة بانتظاركِ».

مخطتُ بأنفي، فأرادت أن تمسحه لي بالمنديل كما لو أنّي ما أزال صغيرة، وربَّما كنتُ كذلك حقًّا، لكنّي أقصيتُ عنها وقلت:

- «ماذا لو توقَّفتُ عن الدراسة؟»

- «تصبحين جاهلة».

- «وحينها؟»

ـ «حينها سيشكِّل الجهل عائقًا. لكنَّكِ عدتِ إلى الدراسة، صحيح؟ فمن المؤسف ألَّا يقطف المرء ثمارَ ذكائه».

هتفتُ:

ـ «لا أريد أن أكون ذكيَّةً يا ماما، أريد أن أكون جميلةً مثلكِ أنتِ ووالدي».

ـ «ستصبحين أجمل منَّا معًا».

ـ «كيف ووجهي يصبح كوجه العمَّة فيتّوريا؟»

ـ «أنتِ مختلفةٌ عنها كلِّيًا، لن يحدث ذلك».

ـ «وما الذي يؤكِّد لكِ الأمر؟ بمن أقارن نفسي لأتأكَّد إن حدث ذلك أم لا؟»

ـ «أنا موجودةٌ، وسأكون دومًا».

ـ «لا يكفي».

ـ «ما الذي تقترحينه؟»

قلت بصوتٍ هامسٍ تقريبًا:

ـ «عليَّ أن أرى عمَّتي».

صمتتْ برهةً، ثمّ قالت:

ـ «تحدَّثي مع أبيكِ بخصوص هذا».

- 9 -

لم آخذ كلامها حرفيًّا. كنتُ شبهَ متأكِّدةٍ من أنَّها ستحدِّثه بنفسها في الأمر، وأنَّ والدي في اليوم التالي سيقول لي بصوته الأَحَبِّ إليَّ: «ها نحن ذا، تلبيةً للأوامر، إن كانت الملكة الصغيرة قد قرَّرت أنَّه ينبغي لنا الذهاب لمقابلة العمَّة فيتّوريا، فإنَّ والدَها العبدَ الفقير سيرافقها رغمًا عن أنفه». كان إذن سيتَّصل بشقيقته لتحديد موعد، أو ربَّما سيطلب من والدتي فعلَ ذلك، لأنَّه لم يكن يشغل نفسه البتَّةَ بأيِّ شخصٍ يسبِّب له الإزعاج أو الملل أو الأسى. ثمَّ كان سيصحبني بالسيَّارة إلى بيتها.

غير أنَّ الأمور لم تجْرِ على ذلك النحو. مرَّت الساعات، والأيَّام، ووالدي لم يتواجد إلَّا قليلًا؛ فلطالما كان متعبًا، يقسِّم نفسه بين المدرسة وبعض الدروس الخصوصيَّة وبحثٍ كان يؤلِّفه بالتعاون مع ماريانو. وكان يخرج في الصباح ولا يعود إلَّا في المساء، وكانت السماء في تلك الأيّام تمطر كثيرًا، فخشيتُ أن يمرض وأن تصيبه الحمَّى، ويضطرَّ إلى مراوحة السَّرير لأجلٍ غير معلوم. وكنت أفكِّر: كيف من المعقول أنَّ رجلًا نحيلًا ومرهفًا إلى تلك الدَّرجة يصارع حقارةَ عمَّتي طوال حياته؟ كما بدا لي من غير المعقول أيضًا أن يواجه ويطرد ذلك المنحرف المتزوِّج والأب لأبناءٍ ثلاثة الذي كان ينوي أن يدمِّر حياة شقيقته. سألتُ أنجيلا:

ـ «إن أُغرِمت إيدا بمنحرفٍ متزوِّجٍ وله ثلاثة أولاد، فما الذي قد تفعلينه أنتِ لكونكِ شقيقتها الكبرى؟»

أجابت أنجيلا بلا تردُّد:

ـ «أُخبر بابا بذلك».

لكنَّ الإجابة لم ترق لإيدا، فقالت لأختها:

ـ «أنتِ مُخبرة إذن، وبابا يقول إنَّه ما من أسوأ من المخبرين»!

ردَّت أنجيلا مستاءةً:

ـ «لستُ مُخبرة، إنَّما أفعلها لمصلحتكِ».

تدخَّلتُ بحذرٍ متوجِّهةً إلى إيدا:

ـ «أهذا يعني أنَّه إذا أُغرِمت أنجيلا بمنحرفٍ متزوِّجٍ وله ثلاثة أولاد، لن تخبري والدكِ بذلك؟»

فكَّرت إيدا قليلًا وهي القارئة النهمة للروايات، وقالت:

ـ «لا أخبره إلَّا في حالِ كان المنحرف قبيحًا وحقيرًا».

ها هو إذن، فكَّرتُ، القبح والحقارة أثقل من أيِّ شيءٍ آخر. عدتُ أشنّ الحملةَ على أمِّي في مساءٍ كان فيه والدي خارج المنزل لحضور اجتماعٍ ما:

ـ «قلتِ إنَّنا سنقابل العمَّة فيتّوريا».

ـ «بل قلتُ إنَّه يجب أن تتحدَّثي مع أبيكِ بهذا الخصوص».

ـ «ظننتُ أنَّكِ حادثتِه بنفسكِ».

ـ «إنَّه مشغولٌ جدًّا في هذه الفترة».

ـ «فلنذهب أنا وأنتِ».

ـ «من الأفضل أن يهتمّ بنفسه في الأمر. ثمَّ إنَّنا نكاد نقترب من نهاية العام الدراسيّ، عليكِ أن تدرسي».

ـ «أنتما لا تريدان اصطحابي إليها. لقد قرَّرتما أنَّكما لن تفعلاها».

اتَّخذت أمّي نبرةً شبيهةً بتلك التي كانت تستخدمها قبل أعوام، عندما ترغب في أن أتركها بسلام فتقترح عليَّ لعبةً ألعبها بمفردي.

ـ «فلنفعل هكذا: هل تعرفين شارع ميراليا؟»

ـ «لا».

ـ «وشارع ستاديرا؟»

ـ «لا».

ـ «ومقبرةالمبكى؟»

ـ «لا».

ـ «وبوجوريالي؟»

ـ «لا».

ـ «وساحة ناسيونالي؟»

ـ «لا».

ـ «وأريناتشا؟»

ـ «لا».

ـ «وكلَّ المنطقة التي تسمَّى المنطقة الصناعيَّة؟»

ـ «لا يا أمّي، لا».

ـ «عليكِ أن تتعلَّمي إذًا، فهذه مدينتكِ. سأعطيكِ الآن الدليل الطرقيّ، وبعد أن تنهي واجباتكِ تتعلَّمين الطريق. فإن كان الأمر طارئًا إلى هذه الدَّرجة بالنِّسبة إليكِ، ففي إحدى المرَّات بإمكانكِ أن تذهبي بمفردكِ، إلى العمَّة فيتّوريا».

شتَّتتني الجملة الأخيرة، وربَّما جرحتني. لم يكن والداي يرسلانني بمفردي حتَّى لشراء الخبز على بُعد مائة مترٍ عن البيت. وعندما كنت أريد اللِّقاء بأنجيلا وإيدا، كان والدي يقتادني إلى بيت ماريانو وكوستانسا، وغالبًا ما قامت بذلك والدتي، بالسيَّارة، ثمَّ يأتيان لإرجاعي إلى البيت. فهل باتا آنذاك مستعدَّيْن، على حين غرَّة، لإرسالي إلى أماكن مجهولةٍ لا يذهبان إليها بنفسيهما إلَّا على مضض؟ كلَّا، كلَّا، الأمر ببساطة أنَّهما سئما من إلحاحي، وقلَّلا من قيمة ما أراه خطيرًا. باختصار، لم يحملاني على محمل الجدّ؛ أو ربَّما انشقّ شيءٌ ما في أحد أجزاء جسدي في تلك اللَّحظة، ربَّما كان يتعيَّن عليَّ أن أضع حدًّا لمرحلة الطفولة! أحسستُ أنَّني حاوية حُبيباتٍ تتسرَّب منِّي عبْر شقٍّ دقيقٍ على غفلةٍ منِّي. ولم يَعُدْ لديَّ شكّ: والدتي تشاورت مع والدي، واتَّفقت معه على أن تتهيَّأ لفصلي عنهما وفصلهما عنِّي، وأن توضِّح لي أنَّه ينبغي تدبير أمري بنفسي إزاء أهوائي ولاعقلانيَّتي. فما الذي أستشفّه من وراء نبرتها المنهكة لشدَّة لطفها سوى أنَّ لسان حالها يقول: لقد أصبحتِ مملَّة، أنتِ تعقِّدين حياتي، لا تدرسين، والمعلِّمون منكِ يشتكون، ولا تغلقين سيرة العمَّة فيتّوريا! آهٍ... كم أنتِ متطلِّبةً يا جوفانّا، كيف عليَّ أن أبيِّن لكِ أنَّ جملة والدكِ كانت بمعنًى ودِّيّ. كفِّي عن ذلك، واذهبي للعب بالدَّليل الطرقيّ، ولا تعودي لتصديع رأسي.

حسنًا، بغضّ النَّظر عن حقيقة مجريات الأمور، كانت تلك بكلِّ الأحوال تجربتي الأولى مع الحرمان. شعرتُ بفراغٍ موجعٍ يؤلمنا عادةً حين يُسلَبُ منَّا شيءٌ على حين غرَّة، بعد أن كان يبدو لنا أنَّه ما من قوَّةٍ قادرةٍ على انتزاعه منَّا. اكتنفتُ الصمت. وحين أضافت: «اغلقي الباب من فضلكِ»، خرجتُ من الغرفة.

توقَّفتُ قليلًا أمام الباب المغلق، مذهولةً، بانتظار أن تعطيني الدَّليل الطرقيّ بالفعل. لم يحدث. لذا، انسحبتُ على رؤوس أصابعي إلى غرفتي

لكي أدرس. إلَّا أنّي لم أفتح كتابًا بطبيعة الحال، فقد بدأ رأسي يبتكر غاياتٍ كانت مستحيلةً قبل دقيقة، بغزارةٍ كأنَّه يضربها على مفاتيح آلةٍ كاتبة. لا داعي أن تعطيني والدتي الدَّليل الطرقيّ، سآخذه بنفسي، وسأقرأه بتفحُّص، وسأذهب إلى العمَّة فيتّوريا على قدميّ. سأمشي لأيَّامٍ وشهور. كم كانت تلك الفكرة تغريني. شمسٌ، وحَرٌّ، ومطرٌ، وريحٌ، وبردٌ، وأنا أمشي وأمشي بين آلاف المخاطر، حتَّى ألتقي بالنَّسخة النسائيَّة القبيحة واللَّئيمة التي سأكون عليها في المستقبل! سأفعلها. ظلَّ عالقًا في ذهني معظمُ أسماء تلك الطرقات المجهولة التي عدَّدتها أمّي عليّ، بإمكاني أن أبحث عن واحدٍ منها على الأقلّ فورًا. ظلَّت مقبرة المبكى ماثلةً في ذاكرتي على وجه الخصوص. لا بدَّ أنَّه مكانٌ يحوي حزنًا شديدًا، ولا بدَّ أنَّ عمَّتي بالضرورة تسكن في منطقةٍ ملؤها آلام، حيث من الوارد أنَّها تتألَّم. شارعٌ من عذابات، سلَّمٌ، أجماتٌ مليئةٌ بالأشواك تخدش الساقيْن، كلابٌ ضارية ومتَّسخةٌ بالوحل، خطمُها هائلٌ وسيَّالُ اللعاب. فكَّرتُ في ضرورة البحث عن ذلك المكان بالتَّحديد، في الدَّليل الطرقيّ، فذهبتُ إلى الممرّ، حيث الهاتف. حاولتُ أن أستلّ الملفّ الذي كان مهروسًا تحت فهارس هاتفيَّةٍ ثخينة. وبينما كنتُ أقلّب الأوراق لاحظتُ في أعلى السجلَّات فهرسًا يتضمَّن كلّ الأرقام التي غالبًا ما يتَّصل بها والداي. كيف لم أفكّر في هذا؟! من المحتمل أنَّ رقم العمَّة فيتّوريا موجودٌ في الفهرس إيَّاه، وإن كان هناك، فلماذا أنتظر أن يتَّصل بها أبواي؟ بإمكاني الاتّصال بها بنفسي. أخذتُ الفهرس واتَّجهتُ إلى الحرف ـ فلم أجد أيًّا من فيتّوريا. ففكَّرتُ عندئذٍ: لها كنيتي، كنية والدي، ترادا، فاتَّجهتُ مباشرةً إلى حرف الكنية الأوَّل ـ وكان هناك فعلًا: ترادا فيتّوريا. كُتِبَ الاسم بخطٍّ كالحٍ جزئيًّا، بخطّ والدي، وكان يظهر بين أسماءٍ كثيرةٍ أخرى بوصفه غريبًا عن الأسرة.

كانت لحظاتٌ عصيبة. ارتبكتُ، بدا لي أنّي أمام منفذٍ إلى ممشًى سرّيٍّ سيفضي بي إليها بلا عراقيل. راودتني فكرة الاتّصال. فورًا. أقول لها: أنا جوفانا ابنة أخيكِ، أنا بحاجةٍ إلى اللّقاء بكِ. ربّما أتت بنفسها لتأخذني. سنحدِّد يومًا، وساعةً، ونلتقي هنا تحت البيت، أو في الأسفل عند ساحة فانفيتيلّي. تأكّدتُ من أنَّ باب أمّي مُغلق، وعدتُ إلى الهاتف، ورفعتُ السمّاعة. لكنَّ الخوف اعتراني ما إن انتهيتُ من ضرب الرّقم وسمعتُ رنين الخطّ. ففي الواقع، بعد اطّلاعي على الصُّوَر، كانت تلك هي المبادرة الملموسة الأولى التي قمتُ بها. والتي كنتُ أقوم بها. عليَّ أن أخبر أحدًا بالأمر، والدتي أو والدي، فعلى واحدٍ منهما أن يبيح لي ما أفعل. احترسي، احترسي، احترسي. فإذا بصوتٍ أجشّ كأصوات المدخِّنين الذين يأتون إلى بيتنا لاجتماعاتٍ طويلةٍ يقول: ألو. قالتها بصلابةٍ ونبرةٍ منزعجة، بلهجةٍ نابوليتانيّةٍ عدوانيّة، حتّى جفلتُ من تلك الكلمة وحدها، فأغلقتُ السمّاعة. وقد أسعفني الوقت؛ إذ سمعتُ المفتاحَ يدور في قفل الباب توًّا: عاد والدي إلى المنزل.

ـ 10 ـ

ابتعدتُ خطواتٍ عن الهاتف، بينما كان والدي يدخل بعد أن ترك مظلَّته التي تقطر مطرًا عند المستراح، وبعد أن مسح أسفل حذائه على بساط المدخل بعناية. سلَّمَ عليَّ، ولكنْ على مضض، مفتقدًا بهجته المعتادة، بل كان يكيل اللَّعنات على الطقس السيِّئ. ولم ينشغل بي إلَّا عندما تحرَّر من السترة المطريّة.

ـ «ماذا تفعلين؟»

ـ «لا شيء».

ـ «وأمُّكِ؟»

ـ «تعمل».

ـ «هل أنهيتِ واجباتكِ؟»

ـ «أجل».

ـ «أهناك ما لم تفهميه وتريدين منِّي أن أشرحه لكِ؟»

عندما توقَّف بجانب الهاتف لتفعيل السكرتير الرقميّ، مثلما يفعل اعتياديًّا، لاحظتُ أنَّني قد تركتُ الفهرس مفتوحًا على حرف التاء. رآه، مرَّر إصبعه عليه، وأغلقه، وعدل عن الإصغاء إلى الرَّسائل. أملتُ أن يلجأ

إلى جملةٍ ممازحة، كان سيطمئنني لو أنّه فعلها. إلّا أنّه داعب رأسي بأنامله وذهب إلى أمّي. وخلافًا لما يفعله في العادة: أغلق الباب برفقٍ خلف ظهره.

فانتظرتُ، وسمعتهما يتناقشان بصوتٍ منخفض. همهماتٌ تتخلّلها نقراتٌ مفاجئةٌ مكوّنةٌ من مقاطعَ صوتيّةٍ مفردة: «نعم، لا، ولكنْ...» عدتُ إلى غرفتي، لكنّي تركتُ الباب مفتوحًا، ورجوتُ ألّا يتشاجرا. أمضيا عشر دقائق على أقلّ تقدير، حتى عادت خطواتُ والدي إلى الممرّ أخيرًا، سوى أنّها لم تكن باتّجاه غرفتي. ذهب إلى غرفته، حيث هناك هاتفٌ آخر، سمعته يتّصل بصوتٍ هامس، بكلماتٍ قليلةٍ يتعذّر سماعها، وسكتاتٍ طويلة. ففكّرتُ، ورجوتُ، أن يكون لديْه مشاكلُ خطيرة مع ماريانو تلزمه على مناقشة الأمور الاعتياديّة المفضّلة لديْهما، كلماتٍ ألِفتُها ذات طبيعةٍ سياسيّة، عن المُثُلِ والماركسيّة والأزمات والدولة. وحين انتهت المكالمة، سمعتُه يمشي في الممرّ ثانيةً، متّجهًا صوب غرفتي هذه المرّة. كان في العادة يحيي طقوسًا هزليّةً قبل أن يدخل: بالإذن، هلّا سمحتِ لي بالدخول، أين بوسعي الجلوس، هل أزعجكِ، المعذرة. لكنّه في تلك المرّة، جلس على سريري، وقال بلا مقدّمات بصوته الجامد:

ـ «لقد شرحتْ لكِ أمُّكِ أنّي لم أكن أتقصّد تلك الجملة، وأنّني لم أشأ إهانتكِ، فأنتِ لا تشبهين شقيقتي إطلاقًا».

فعاودني البكاءُ من جديد، وتمتمتُ: «ليس هذا ما يشغلني يا بابا، فأنا أعرف ذلك، وأصدّقك، ولكنْ...». لم يبدُ متأثّرًا بدموعي، فقاطعني قائلًا:

ـ «لستِ مضطرّةً إلى التّبرير. فالذّنب ذنبي، لا ذنبكِ. أنا مَن عليه أن يعالج المسألة. لقد اتّصلتُ بعمّتكِ توًّا، سأصحبكِ إليها يوم الأحد. أهذا جيّد؟»

أجهشتُ باكيةً:

ـ «إن كنتَ لا ترغب في ذلك، فلن نذهب».

ـ «لا أرغب بالطبع، ولكنَّكِ ترغبين، فسوف نذهب. سأتركك تحت بيتها، وستبقين عندها ما طاب لكِ من الوقت، سأنتظركِ بالخارج في السيَّارة».

حاولتُ أن أهدأ، فكبتُّ دموعي.

ـ «هل أنت متأكّد؟»

ـ «أجل».

وبقينا صامتيْن بعض الوقت، ثمَّ بذل جهدًا ليبتسم، ومسح دموعي بأصابعه. لكنَّه لم يتمكَّن من فعلها بعفويَّة، فانزلق في واحدةٍ من خطبه الطويلة، والمنفعلة، مازجًا فيها نبراتٍ غاضبة بنبراتٍ هادئة. قال: «ولكنْ، تذكَّري هذا يا جوفانّا: عمَّتكِ تحبّ أن تؤذيني. لقد حاولتُ أن أتفاهم معها بشتَّى السبل، وساعدتُها، وفضَّلتُها، وأعطيتُها ما استطعتُ من المال. عبثًا. اعتبرتْ كلَّ كلمةٍ قلتُها بطشًا، وكلَّ عونٍ مددتُه باطلًا. إنَّها متعاليةٌ، قاسيةٌ وناكرةٌ للجميل. لذا أنبّهكِ: ستحاول أن تحرمني من محبَّتكِ، ستستخدمكِ لتنال منّي. ولقد استخدمتْ من قبلُ لهذا الغرض أبويْنا، وأشقَّاءنا، وأعمامنا وأبناءهم. بسببها، لم يَعُد هناك أحدٌ من قرابتي يودّني. وسترين كيف ستعمل على استقطابكِ أنتِ أيضًا». وأضاف متوتِّرًا كما لم أره من قبل: «فإن حدث ذلك لن أسامح نفسي». ورجاني ـ رجاني حقًّا وهو يضمّ يدًا بيد ويهزُّهما إلى الأمام والخلف ـ أن أتجاهل أسباب قلقي العارية من الصحَّة، وألَّا أقتنع بما ستقول، وأن أضع شمعًا في أذنيَّ مثلما فعل أوليسيس.

عانقتُه مثلما كنت أفعل في السنتيْن الماضيتيْن، مذ أردتُ أن أشعر بأنّي بتُّ كبيرةً، فكففتُ عن معانقته الشديدة. إلَّا أنَّني فوجئتُ وانزعجتُ

حين شممتُ رائحةً عليه لم تكن رائحته، رائحةً لم أكن معتادةً عليها. نجم عن ذلك شعورٌ باغترابٍ أمدَّني بألمٍ ممزوجٍ بالرضا على نحوٍ غير متجانس. أحسستُ بوضوحٍ أنَّني إن كنتُ حتَّى تلك اللَّحظة أرجو أن تدوم رعايته إلى الأبد، فإنَّني آنذاك شعرتُ باللَّذَّة لكونه أصبح غريبًا عنِّي. شعرتُ بالفرح كما لو أنَّ احتماليَّة الشرّ - الذي يعزم هو ووالدتي على تسميته بفيتّوريا في إطار لغتهما الزوجيَّة - تمنحني اهتياجًا غير متوقَّع.

- 11 -

أبعدتُ عنّي ذلك الخاطر، ولم أتسامح مع سببه. أحصيتُ الأيّام التي تفصلني عن يوم الأحد. وكانت والدتي مسرورةً، وأرادت مساعدتي على استباق واجبات يوم الاثنين بما يتيحه المُمكن، بحيث أتَّجه إلى اللّقاء مرتاحةَ البال من ناحية الدّراسة. ولم تقتصر على ذلك. ففي إحدى الأمسيات، أطلّت برأسها إلى غرفتي مع ملفّ الدَّليل الطرقيّ، وجلستْ بجانبي، وأظهرت على مرآي منطقتنا سان جاكومو دي كابري، وأرتني المشوار إلى بيت العمَّة فيتّوريا خريطةً تلو خريطة. كانت تريد منّي أن أفهم بأنّها تودُّني، وأنّها مثل والدي لا ترغب إلّا في أن أكون مطمئنّة الخاطر.

لكنّني لم أرتضِ بذلك الدرس الطبوغرافيّ القصير، فكرَّستُ نفسي في الأيّام التالية سرًّا للتمعُّن في خرائط المدينة. كنت أحرِّك إصبعي من سان جاكومو دي كابري، وأصل بها إلى ساحة الميداليّات الذهبيَّة، وأهبط كلّ شارع سواريز وشارع سالفاتور روزا، وأبلغ المتحف، وأتابع خلال شارع فوريا حتى ساحة كارلو الثالث، فأنعطف إلى شارع غاريبالدي، وأتَّخذ شارع كازانوفا، فأبلغ ساحة ناسيونالي، وأدلف شارع بوجوريالي، ثمَّ شارع ستاديرا، وعلى موازاة مقبرة المبكى، أهبط إلى شارع ميراليا، وشارع المجزرة، وشارع باسكوني... إلخ، وأدوِّر إصبعي في المنطقة الصناعيَّة التي لها لون الأرض

المحروقة. أصبحتْ أسماء تلك الطرقات وغيرها في تلك الساعات هَوَسًا صامتًا. حفظتُها عن ظهر قلب كأنَّها واجبٌ مدرسيّ، لكنَّها لا تسبِّب الضجر، وانتظرتُ يوم الأحد بهَيَجانٍ متصاعد. فإن لم يغيِّر والدي رأيه، سألتقي العمَّة فيتّوريا أخيرًا.

بَيْد أنّي لم أُصَفّ فوضى أحاسيسي. حدث أنَّني كلَّما مضت الأيَّامُ بصعوبة، فوجئتُ بأنَّني آمل أن يتأجَّل ذلك اللِّقاء، لسببٍ أو لآخر. وكانت هذه الأفكار تراودني لاسيَّما في السَّرير عند المساء. بدأتُ أتساءل ما الذي جعلني أُحرج والديَّ بتلك الطريقة، ولماذا أردتُ مضايقتهما، ولماذا لم أعبأ بمخاوفهما؟ وبما أنَّ الإجابات كلَّها جاءت غامضة، صار الهَوَس يفقد قوَّته، وما لبث أن بدا لي اللِّقاء بالعمَّة مطلبًا مبالغًا فيه وعديمَ الجدوى. فما الذي سأجنيه من التعرُّف مسبّقًا على الشكل الجسديّ والنَّفسيّ الذي من المحتمل أنَّني سوف أتَّخذ ملامحه. لم يكن بإمكاني اجتثاثها من وجهي ومن صدري مهما فعلتُ، وربَّما لم أكن أودّ فعل ذلك! كنتُ سأصير ذاتي نفسها، ذاتي التعسة، ذاتي البائسة، لكنّي سأصير ذاتي عمومًا. ربَّما كان عليَّ أن أُدْرِجَ رغبتي في التعرُّف على عمَّتي ضمن قائمة التحدِّيات الصغيرة. وفي المحصِّلة، كان الأمر برمَّته تكرارًا للطريقة التي كنت أختبر فيها صبرَ والديَّ، مثلما كنت أفعل حينما نذهب إلى المطعم مع ماريانو وكوستانسا، فينتهي بي المطاف دومًا للتَّصرُّف كامرأةٍ خبيرة، ترتسم ابتساماتُ المكرِ على وجهها متوجِّهةً إلى كوستانسا على وجه الخصوص، فأطلب الأشياء التي تنصحني أمّي بعدم طلبها لأنَّها مُكلِفة. وهكذا، ازداد استيائي من نفسي، ربَّما بالغتُ هذه المرَّة كثيرًا. عادت إلى ذهني الكلماتُ التي استخدمتْها أمّي لوصف أحقاد أخت زوجها، وفكَّرتُ مجدَّدًا بالخطاب المُقلق الذي ألقاه والدي. وفي الظلام، اتَّحد الخصامُ الذي يوليه والداي تجاه تلك المرأة بفزعي من صوتها على الهاتف، «ألو» نطقتها بشراسةٍ ولكنةٍ

عاميَّة. لذا، قلت لأمّي في مساء يوم السبت: «لم يَعُد لديَّ رغبةٌ في الذهاب إليها». لكنَّها أجابت: «لقد قُيِّضَ الموعد، لا تعلمين كم ستغضب عمَّتكِ إن لم تذهبي إليها، وستلقي باللَّائمة على أبيكِ». وبما أنَّ كلامها لم يقنعني، أضافت إنَّني شطحتُ بمخيِّلتي كثيرًا، وحتَّى لو انسحبتُ الآن، كنت سأفكّر بالموضوع صباح الغد لنعيد الكَرَّة ذاتها. واختتمتْ ضاحكةً: «اذهبي لتري كيف هي ومَن تكون، فهكذا ستفعلين ما أمكنكِ لكيلا تُشبهيها».

وبعد أيَّامٍ ماطرة، جاء يوم الأحد رائقًا وسماؤه زرقاء، مع بعض الغيوم البيضاء الصَّغيرة. بذل والدي جهدًا لاستعادة علاقتنا المرحة المعتادة، لكنَّه ما إن شغَّل المحرّك حتَّى أطبقَ عليه الصمت. كان يكره الطريق الدائريّ، وسرعان ما خرج منه. قال إنَّه يفضّل الطرقات القديمة. وكلَّما تقدَّمنا في تلك المدينة الأخرى المكوَّنة من أبنيةٍ صغيرةٍ وكئيبة، حائلة الجدران، ومستودعاتٍ صناعيّة، وأكواخٍ كبيرةٍ وصغيرة، ونُتَفٍ من الخضار المتَّسخ بنفاياتٍ من كلّ نوع، وحُفرٍ عميقةٍ مليئةٍ بالأمطار المتساقطة حديثًا، وهواءٍ فاسد، تجهَّمَ والدي أكثر فأكثر. ثمَّ بدا أنَّه قرَّر ألَّا يتركني كثيرًا في ذلك الصَّمت، كما لو أنَّه نَسِيَ أمري، فأشار إلى أصوله للمرَّة الأولى. لقد ولدتُ ونشأتُ في هذه المنطقة هنا ـ قال بتلويحةٍ واسعةٍ تعانق من خلف الزجاجِ حيطانَ العفن والأبنية الرماديَّة والصفراء والورديَّة، والطرقاتِ الكئيبة حتّى في يوم العطلة ـ وكانت عائلتي فقيرةً لدرجةِ أنَّهم كانوا بلا أعينٍ لذرف الدموع. دلف إلى منطقةٍ أشدّ قتامةً وشحوبًا، وتوقَّف. تنهَّد متضايقًا، وأشار إلى بنايةٍ قرميديَّة اللَّون تنقصها أجزاءٌ عريضةٌ من الملاط. هنا كنتُ أسكن، قال. وهنا ما تزال عمَّتكِ فيتّوريا. تلك هي البوَّابة، فادخليها، سأنتظركِ. نظرتُ إليه والفزع يعصف بي، فلاحظ ذلك:

ـ «ما بكِ؟»

ـ «لا تغادرْ».

ـ «لن أتحرَّك».

ـ «ماذا لو استبقتني؟»

ـ «حين تتعبين قولي لها: الآن عليَّ أن أنصرف».

ـ «وماذا لو منعتني من الانصراف؟»

ـ «سآتي وآخذكِ بنفسي».

ـ «كلَّا، لا تتحرَّك، سأعود بمفردي».

ـ «حسنًا».

نزلتُ من السيَّارة، ودخلتُ البوَّابة. ثمَّة رائحةٌ ثاقبةٌ من قمامةٍ ممزوجةٍ بعبق صلصات يوم الأحد. لم أرَ مصعدًا. صعدتُ السلالم ذات العتبات المتفكِّكة، وكانت الجدران تُبرِز صدوعًا واسعةً وبيضاء، أحد الصدوع عميقٌ حتَّى بدا فجوةً محفورةً لإخفاء شيءٍ ما فيها. تجنَّبتُ فكّ طلاسم الكتابات والرُّسومات المُسيئة. كان يشغلني أمرٌ آخر. هل عاش والدي طفولته وصباه في هذه البناية؟ أحصيتُ الطوابق، وتوقَّفتُ عند الثالث، هناك ثلاثة أبواب. الباب الذي على يميني هو الوحيد المزوَّد بالكنية، أُلصِقَتْ على خشبه شريطةٌ ورقيَّةٌ مكتوبٌ عليها بالقلم: ترادا. رننتُ الجرس، وحبستُ أنفاسي. لا شيء. عددتُ ببطءٍ حتّى الأربعين، قال لي والدي منذ عامٍ أن أفعل ذلك كلَّما وجدتُني في ظرفٍ حَرِج. وحين وصلتُ إلى الأربعين، رننتُ الجرس ثانيةً، فبدت لي الصعقة الكهربائيَّة الثانية أقوى بكثير. تناهت إليَّ صرخةٌ بالعامّيَّة، وانفجارُ أصواتٍ جشَّة، اللَّعنة! لِمَ العجلة، ها أنا قادمة. ثمَّ خطواتٌ واثقة، ومفتاحٌ يدور في القفل أربعَ مرَّاتٍ بحالها. انفتح الباب، وظهرت امرأةٌ ترتدي ثيابًا سماويَّة اللَّون كلِّيًّا، فارعةُ الطول، كثيفةُ شعرٍ فاحمِ السواد مُسدَلٍ

على رقبتها، نحيلةٌ مثل أنشوفةٍ مالحة؛ ورغم هذا، عريضةُ المنكبين كبيرةُ الصدر. وبين أصابعها سيجارة. سعلت، وقالت ما بين الفصحى والعامّيَّة:

ـ «ما بكِ؟ هل أنتِ مريضة؟ هل تريدين التبوُّل؟»

ـ «لا».

ـ «فلماذا ترنِّين الجرس مرَّتيْن؟»

غمغمتُ:

ـ «أنا جوفانّا، يا عمَّة».

ـ «أعرف أنَّكِ جوفانّا، ولكنْ إن ناديتِني يا عمَّة مرَّةً ثانية، فمن الأفضل أن تستديري وتنصرفي من هنا».

أومأتُ بنعم، كنتُ مذعورةً. نظرتُ بضع ثوانٍ إلى وجهها الذي بلا مكياج، ثمَّ أخفضتُ بصري إلى البلاط. بدت لي فيتّوريا ذات جمالٍ لا يُحتَمل لدرجة أنَّ اعتبارها قبيحةً كان أمرًا ضروريًّا.

II

- 1 -

تعلَّمتُ أن أكذب على والديَّ مرَّةً بعد مرَّة. لم أكن في البدء أتفوَّه بأكاذيبَ حقيقيَّة، ولكنْ نظرًا إلى أنَّني كنت لا أمتلك القوَّة لمجابهة عالمهما المتماسك جيِّدًا، كنتُ أتظاهر بدخوله، ثمَّ أجترح لنفسي دربًا لاجتنابه عاجلًا ما إن يسودهما الوجوم. وكنت أتصرَّف هكذا خصوصًا مع والدي، مع أنَّ كلماتِهِ كلَّها كانت تكتسب في عينيَّ هيبةً تعمي بصري. لذا، كلَّما حاولتُ تضليله شعرتُ بالألم وإرهاق الأعصاب.

وكان هو أكثر من والدتي يطرق رأسي بعدم جواز الكذب أبدًا. ولكنْ، بعد تلك الزيارة لفيتّوريا، بدا لي أنْ لا مفرّ من الكذب. فمنذ أن خرجتُ من بوّابة البناية، قرَّرتُ أن أتظاهر بالارتياح، وركضتُ إلى السيَّارة كما لو أنِّي هاربةٌ من خطرٍ داهم. وحالما أغلقتُ باب السيَّارة، شغَّل والدي المحرِّك وهو يرمي بناية طفولته بنظراتٍ عابسة، وانطلق بدفعةٍ إلى الأمام أجبرته على مدِّ ذراعه لاإراديًّا للحيلولة دون اصطدام جبيني بالزجاج الأماميّ. وظلَّ بعض الوقت ينتظر منِّي أن أقول شيئًا مطمئنًا، وكنتُ في جزءٍ منِّي لا أرغب إلَّا بذلك، إذ حزنتُ لرؤيته محتقَنًا؛ ومع هذا، أرغمتُ نفسي على السكوت، خشيتُ أن تُغضِبه كلمةٌ خاطئةٌ واحدة. وبعد عدَّة دقائق، بادر بنفسه إلى السُّؤال كيف جرت الزيارة، تارةً ينظر إلى الطريق وتارةً نحوي. فقلت إنَّ

العمَّة سألتني عن المدرسة، وقدَّمت لي كأسَ ماء، وأرادت أن تعرف إن كان لديَّ صديقات، فاستمعتْ ما رويتُه عليها عن أنجيلا وإيدا.

ـ «أهذا كلُّ شيء؟»

ـ «أجل».

ـ «هل سألتكِ عنّي؟»

ـ «لا».

ـ «أبدًا؟»

ـ «أبدًا».

ـ «وعن أمّكِ؟»

ـ «ولا عنها حتَّى».

ـ «بقيتما تتحدَّثان عن صديقتيْكِ فقط لساعةٍ كاملة؟»

ـ «وعن المدرسة أيضًا».

ـ «وما كانت تلك الموسيقى؟»

ـ «أيّ موسيقى؟»

ـ «موسيقى صاخبة جدًّا».

ـ «لم أسمع أيّ موسيقى».

ـ «هل كانت لطيفة؟»

ـ «فظَّةً نوعًا ما».

ـ «هل حدَّثتكِ عن أشياءٍ سيِّئة؟»

ـ «لا، لكنَّ سلوكها منفِّر».

ـ «سبق وأحطتُكِ علمًا بهذا».

- «صحيح».

- «والآن، هل أشبعتِ فضولكِ؟ هل اقتنعتِ أنَّكِ لا تشبهينها قطعًا؟»

- «أجل».

- «تعالي إليَّ، أعطيني قبلة، فأنتِ جميلةٌ جدًّا. هلَّا سامحتِني على الترّهات التي تفوَّهتُ بها؟»

قلت إنِّي لم أغضب منه قطّ، وتركته يقبِّلني على خدِّي رغم أنَّه كان يقود السيَّارة. وسرعان ما صددتُه ضاحكةً، واعترضتُ: إنَّك تخدِّشني بلحيتك. وعلى الرَّغم من أنَّني كنتُ بلا أيِّ رغبةٍ في ألعابنا، أملتُ أن نعاود المزاح لكي ينسى فيتّوريا. إلَّا أنَّه ردَّ: تخيَّلي كيف تخدِّش عمَّتُكِ بشنَبِها. فلم يخطر في ذهني القشرةُ الغامقةُ قليلًا لشفتيْ فيتّوريا، إنَّما قشرة شفتيَّ أنا. فغمغمتُ بصوتٍ منخفض:

- «ليس لديها شنب».

- «بلى، لديْها».

- «لا».

- «حسنًا، ليس لديها. لا ينقصنا إلَّا أن يراودكِ الهوسُ بالعودة إليها لتتأكَّدي ما إن كان لديْها شنب».

فقلتُ بنبرةٍ جادَّة:

- «لم أعد أريد رؤيتها».

- 2 -

حتَّى تلك لم تكن كذبةً بحقّ، كنتُ أُذعَر من احتمال ملاقاة فيتّوريا مجدَّدًا. ولكنّي بينما كنتُ أنطق تلك الجملة، كنت أعلم مسبقًا في أيّ يومٍ، وفي أيّ ساعة، وفي أيّ مكانٍ سأُلاقيها ثانيةً. لا بل لم أكن قد انسلختُ عنها البتَّة! فلقد خزَّنتُ في رأسي كلَّ كلمةٍ قالتها، وكلَّ حركةٍ قامت بها، وكلَّ تعابير وجهها. ولم تبدُ لي تلك وقائعَ قد انتهت للتوّ، إنَّما جميعها تحدث وما تزال. كان والدي يتكلَّم باستمرارٍ ليجعلني أدرك كم هو يحبُّني؛ أمَّا أنا في تلك الأثناء، كنتُ أرى شقيقته وأسمعها، وما زلتُ أراها وأسمعها حتَّى الآن. ما زلت أرى كيف ظهرت قبالتي مرتديةً الثوب السماويّ، وأرى كيف قالت لي بعاميَّتها الفجَّة: أغلقي الباب؛ وسرعان ما أولت إليَّ ظهرها كأنَّني لا أملك من أمري إلَّا أن أتبعها. في صوت فيتّوريا، وربَّما في كافَّة جسمها، ثمَّة اضطرابٌ مثير عَصَفَ بي بلمح البصر، مثلما حين كنت أشعل موقد الغاز بأعواد الكبريت، وأحسّ على يدي بلسعة اللَّهب الوثَّاب من أعين الموقد. أغلقتُ الباب خلفي، ولحقتُ بها كما لو أنَّها تقودني بالرَّسن.

تقدَّمنا بضع خطواتٍ في جوٍّ يختنق برائحة الدخان، لا نوافذ فيه؛ وضوءٌ وحيدٌ آتٍ من بابٍ مفتوحٍ على مصراعيْه. اختفى طيْفها ما وراء ذلك الباب، وتبعتُها. فوجدتُني أدخل إلى مطبخٍ سرعان ما أدهشني بترتيبه الفائق، ورائحة السجائر المطفأة، والقمامة.

ـ «هل تريدين عصير برتقال؟»

ـ «لا أودُّ إحراجكِ».

ـ «هل تريدين أم لا؟»

ـ «أجل، شكرًا».

أعطتني كرسيًّا، غيَّرت فكرتها، قالت إنَّه متخلخل، فأعطتني كرسيًّا آخر. ثمَّ فاجأتني بأنَّها لم تُخرِج من الثلَّاجة ـ ثلَّاجةٍ بيضاء مصفرَّة اللَّون ـ زجاجةً أو قنِّينة عصير برتقال، كما كنتُ أتوقَّع، بل أخذت برتقالتيْن من سلَّة، وقطَّعتهما، وراحت تعصرهما في كأس، ولم تستخدم عصَّارةً، إنَّما بيدها مستعينةً بشوكة. وأثناء ذلك، قالت من دون أن تنظر إليَّ:

ـ «لم تضعي السّوار».

ارتبكتُ:

ـ «أيُّ سوار؟»

ـ «السّوار الذي أهديتُه لكِ يومَ ميلادكِ».

لم يكن لديَّ أيُّ سوار على ما أذكر. لكنِّي شعرتُ أنَّه غرضٌ مهمٌّ بالنِّسبة إليها، وعدم وضعه قد يُعَدُّ إهانة. فقلت:

«ربَّما وضعته والدتي بمعصمي حين كنتُ صغيرةً، قبل عامٍ، أو عاميْن، ثمَّ كبرتُ ولم يَعُد يُناسبني».

استدارت لتنظر إليَّ، فأظهرتُ لها معصمي لأُثْبِتَ أنَّه أكبر من أن يُلَفَّ بسوارٍ لرضيعة. ففوجئتُ بها تنفجر ضحكًا. كان فمها كبيرًا، وأسنانها كبيرة، وحين تضحك تنكشف لثَّتها. قالت:

ـ «أنتِ ذكيَّة».

ـ «ما قلتِ إلّا الحقيقة».

ـ «هل أنا أخيفكِ؟»

ـ «قليلًا».

ـ «خيرٌ لكِ أن تخافي. ينبغي للمرء أن يخاف حتّى إن انعدمت الضرورة، فالخوف يبقينا متيقّظين».

وضعتْ أمامي الكأس الموسومة بقطرات العصير، الذي تعوم على سطحه البرتقاليّ أجزاءٌ من لبّ الفاكهة وبذورها البيضاء. نظرتُ إلى شعرها الممشّط بعناية، ذي التسريحة التي شاهدتها في الأفلام القديمة على التلفاز، وصور والدتي في صباها، كان شعر إحدى صديقاتها هكذا. حاجبا فيتّوريا متلبّدان، كأعواد العِرقسوس، قطعتان في منتهى السَّواد تقعان تحت جبينٍ كبيرٍ وفوق جوفيْن عميقيْن حيث تختبئ العينان. اشربي، قالت. فأخذتُ الكأس بسرعةٍ كي لا تتضايق، لكنّي تقزّزتُ من الشرب. فلقد لمحتُ العصيرَ يسيل من كفّيْها، ثمّ إنّها لو كانت أمّي، لطالبتُها بنزع اللُّبّ والبذور. اشربي ـ ردّدت ، فهذا مفيدٌ لكِ. ارتشفتُ، بينما كانت تجلس على الكرسيّ الذي اعتبرته منذ دقائق متخلخلًا. امتدحتني، محافظةً على نبرتها التي تخلو من الألفة: أجل، إنّكِ ذكيّة، سرعان ما وجدتِ عذرًا لتحمي من خلاله أبويْكِ، شاطرة. لكنّها شرحت لي بأنّي كنت على باطل، فهي لم تهدني سوارًا يناسب الصّغيرات، إنّما سوارٌ بحقّ، للكبيرات، سوارٌ كانت متعلّقةً به أشدَّ التعلُّق. ولهذا ـ أكّدت ـ أنا لستُ مثل أبيكِ، عَبّادِ المال، وسَرَّاقِ الأغراض؛ أنا لا أهتمّ بالأغراض إطلاقًا، أنا أحبُّ البشر. وحينما ولدتِ أنتِ فكّرتُ: سأعطيه لهذه الطفلة، ستضعه في مِعْصَمها عندما تكبر، وقد كتبتُ ذلك لوالديكِ في البطاقة حرفيًّا: «أعطوه لها عندما تكبر»، وتركتُ كلَّ شيءٍ في صندوق بريدكم، فهيهات أن أصعد إلى بيتكم! أبوكِ وأمّكِ حيوانان، كانا سيطردانني.

قلت:

ـ «ربَّما سرقه اللصوص، ما كان ينبغي أن تتركيه في الصندوق».

هزَّت رأسها، وقدحت شررًا بعينيْها السَّوداويْن:

ـ «أيُّ لصوص؟ لا تهرفي بما لا تعرفين. اشربي العصير. هل تعصر لكِ أمّكِ البرتقال؟»

أومأتُ بنعم، لكنَّها لم تأخذ بإجابتي. تحدَّثتْ عن فوائد عصير البرتقال، فلاحظتُ أنَّ تقاسيم وجهها تتحرَّك بشكلٍ مفرط. تمكَّنت بغمضةِ عين من حلِّ الثنايا ما بين أنفها وفمها التي كانت تجعلها متجهِّمة (متجهِّمة، بالضَّبط). وتألَّق وجهها ورقَّ كثيرًا، بعد أن بدا لي منذ قليلٍ مطاولًا تحت عظام وجنتيْها العاليتيْن ـ مثل قماشةٍ رماديَّةٍ مشدودةٍ بقوَّةٍ ما بين صدغيْها وفكَّيْها. والدتي رحمها الله ـ قالت ـ في يوم الاحتفال باسمي، كانت تأتيني إلى السَّرير بالشوكولاتة السَّاخنة، وكانت تجعلها كالقشدة المخفوقة، فتتورَّم كما لو أنَّها نَفَختْ فيها. فهل تصنع لكِ أمّكِ الشوكولاتة في يوم الاحتفال باسمكِ؟ رغبتُ أن أجيب بنعم، مع أنَّنا في البيت لم نحتفل قطّ بأيِّ اسم، ولا أحدٌ جلب لي الشوكولاتة الساخنة إلى السَّرير. غير أنِّي خشيتُ أن تنتبه إلى ذلك، فأشرتُ بلا. هزَّت رأسها مستاءة:

ـ «أبوكِ وأمّكِ لا يحترمان التقاليد، يظنَّان أنفسهما لا أدري ماذا! يترفَّعان عن صُنع الشوكولاتة الساخنة».

ـ «أبي يحضِّر الكافيلاتي».

ـ «أبوكِ حقير، هيهات أن يعرف كيف تُصنَع الكافيلاتي. أمَّا جدَّتكِ فكانت بارعة في تحضيرها. وكانت تضع فيها ملعقتيْن من البيض المخفوق. هل قصَّ عليكِ كيف كنَّا نتناول القهوة والحليب وقشدة الزابايوني، عندما كنَّا صغارًا؟»

ـ «لا».

ـ «أرأيتِ؟ أبوكِ هكذا: الأشياء الجيِّدة لا أحدٌ سواه يعرف صنعها، ولا يتقبَّل أنَّ الآخرين يصنعونها أيضًا. وإن قلتِ له إنَّ هذا غير صحيحٍ، يمحوكِ».

هزَّت رأسها مستاءةً، وتحدَّثت بنبرةٍ نافرة، لكنَّها ليست بجامدة. لقد محا إنزو حبيبي ـ قالت ـ الرجلَ الذي كنت أَودُّه كثيرًا. والدكِ محا كلَّ مَن كان بإمكانه أن يصبح أفضل منه، ولطالما فعل ذلك، منذ أن كان صغيرًا. يتوهَّم أنَّه ذكيٌّ، لكنَّه لم يكن يومًا كذلك؛ أمَّا أنا فذكيَّةٌ بالطبع، وما هو إلَّا ماكر. يعرف فطريًّا كيف يصير لكِ شخصًا لا يمكنكِ الاستغناء عنه. حين كنتُ صغيرةً، كانت الشمس تغيب إن لم يكن حاضرًا. كنتُ أظنُّ أنَّه إن لم أتصرَّف كما يحلو له، كان سيتركني وحيدةً وأموت. وهكذا، كان يجعلني أقوم بكلّ ما يريد، وكان هو الذي يضع لي مفاهيم الخير والشرّ. أضرب لكِ مثلًا: لقد وُلدتُ وحبّ الموسيقى في دمي، وكنتُ أودُّ أن أصبح راقصة. كنتُ متيقِّنةً من أنَّ ذاك هو مصيري، وأنَّه الوحيد القادر على إقناع والديَّ ليأذنا لي. إلَّا أنَّ الراقصة في رأي أبوكِ تمثِّل الشرّ بعيْنه، فلم يسمح لي بذلك. فبالنِّسبة إليه، لا تستحقِّين الحياة على وجه هذه الأرض إلَّا إذا رآكِ الجميع تحملين كتابًا في يدكِ. بالنِّسبة إليه، إن لم تدرسي فأنتِ لا أحد. كان يقول لي: أيُّ رقصٍ وأيُّ هراء يا فيتّو، أنتِ لا تعلمين أساسًا ماذا تعني راقصة، عودي إلى دراستكِ واسكتي. في ذلك الوقت، كان قد أمَّن بعضَ المال من خلال الدروس الخصوصيَّة، لذا كان باستطاعته أن يدفع لي قسطَ مدرسة الرَّقص بدلًا من شراء الكتب دائمًا وحصرًا. لم يفعلها، كان يروقه أن يفرِّغ كلَّ شخصٍ وكلّ شيءٍ من معناه، ما عدا نفسه وأشيائه. ومع إنزو حبيبي ـ اختتمت عمَّتي على حين غرَّة ـ في البدء، صوَّر له أنَّهما صديقان، ومن ثَمَّ انتزع روحه، اقتلعها ومزَّقها أشلاء.

قالت لي كلماتٍ من هذا القبيل بل وأشدَّ سوقيّة، بموثوقيّةٍ تجاهي شتّتني. وتبرَّمَ وجهها وتراوَغَ كثيرًا في غضونِ وقتٍ قصير، متخبِّطةً بمشاعر متعدِّدة: حزازةٌ وامتعاضٌ ونقمةٌ وتعاسة. أمطرتْ والدي بوابلٍ من كلامٍ بذيءٍ لم أسمعه من قبل. لكنَّها لمَّا ذكرت اسم إنزو ذاك، قطعت حديثها من هول العاطفة، وطأطأت رأسها لتخفي عينيْها بإحدى يديْها بحركةٍ مبالغٍ فيها، خرجت مستعجلةً من المطبخ.

وأنا لم أتحرَّك من مكاني، إذ كنت في قمَّة التوتُّر. انتهزتُ غيابها لأبصق في الكأس بذور البرتقال التي حبستُها في فمي طوال ذلك الوقت. مرَّت دقيقة، دقيقتان، شعرتُ بالخِزْي لكوني لم أردّ عندما شتمت والدي. عليَّ أن أقول لها إنَّه ليس من السَّليم أن تتحدَّث بهذه الطريقة على شخصٍ يقدِّره الجميع، فكَّرتُ. وفي تلك الأثناء، تصاعدت الموسيقى التي انفجرت بأعلى صوتٍ خلال ثوانٍ معدودة. صاحت إليَّ: جانّي، تعالي، ماذا تفعلين، هل أنتِ نائمة؟ انتفضتُ واقفةً، وخرجتُ من المطبخ إلى الممرّ المظلم.

خطوتُ قليلًا، فإذا أنا في غرفةٍ صغيرةٍ تحتوي على أريكةٍ قديمةٍ وآلة أكورديون متروكةٍ في إحدى الزوايا على الأرض، وطاولةٍ يعتليها التلفاز، ومقعدٍ عالٍ يحمل مدوِّر الأسطوانات. كانت فيتّوريا واقفةً على قدميْها أمام النافذة، تنظر إلى الخارج. ومن المؤكَّد أنَّها من تلك الجهة، ترى السيَّارة التي كان والدي ينتظرني فيها. وبالفعل، قالت من دون أن تلتفت، مشيرةً إلى الموسيقى: على ذلك القذر أن يسمع، فهكذا يتذكَّر. انتبهتُ أنَّها تحرِّك جسمها مع الإيقاع، بحركاتٍ طفيفةٍ من قدميْها وخاصرتيْها وكتفيْها. حدَّقتُ إلى ظهرها مذهولةً.

ـ «المرَّة الأولى التي التقيتُ فيها إنزو كانت في حفلةٍ راقصة، وأدَّينا هذه الرقصة نفسها»، سمعتُها تقول.

ـ «منذ متى؟»

ـ «في الثالث والعشرين من مايو قبل سبعة عشر عامًا».

ـ «لقد مرَّ وقتٌ طويل».

ـ «كما لو أنَّه دقيقةٌ واحدة».

ـ «هل كنتِ تودِّينه؟»

التفتت.

ـ «ألم يخبرْكِ والدكِ بشيء؟»

تردَّدتُ، في حين تحجَّرتْ حتَّى بدت لي للمرَّة الأولى أنَّها أكبر من والديَّ، مع أنِّي كنت أعرف أنَّها تصغرهما بعدَّة أعوام. أجبتُ:

ـ «لا أعرف عنه إلَّا أنَّه كان متزوِّجًا ولديْه ثلاثة أبناء».

ـ «هذا كلُّ شيء؟ ألم يقل لكِ إنَّه كان رجلًا شرِّيرًا؟»

تردَّدتُ.

ـ «شرِّيرٌ بعض الشيء».

ـ «وبعد؟»

ـ «منحرف».

انفجرتْ:

«الرجل الشرِّير هو أبوكِ، هو المنحرف. إنزو كان ضابطًا في الأمن العامّ، وحتَّى مع المنحرفين كان طيِّبًا، وكان يذهب يوم الأحد إلى الكنيسة دائمًا. تصوَّري أنَّني لم أكن أؤمن باللهّ، كان والدكِ قد أقنعني أنَّ الله غير موجود. ولكنْ ما إن رأيتُ إنزو غيَّرتُ فكرتي. أكثر الرجال طيبةً وحساسيَّةً وانضباطًا على وجه الأرض، لم يولد رجلٌ مثله بعد. وما أجمل صوته، وكم كان يغنِّي جيِّدًا، لقد علَّمني على عزف آلة الأكورديون. كنتُ أشمئزّ من

الرجال من قبله، ومن بعده، إن اقترب منّي أيُّ رجلٍ، دفعتُه عنّي من شدَّة القرف. لكنَّ والديْكِ لم يرويا عليكِ سوى الأباطيل».

نظرتُ إلى الأرض منزعجةً، لم أردّ. فضغطت عليَّ:

ـ «لا تصدِّقين، ها؟»

ـ «لا أدري».

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ «لا تدرين لأنَّكِ تصدِّقين الأباطيل ولا تلتفتين إلى الحقيقة. جانّي، أنتِ لا تنشئين نشأةً صالحة. انظري كم أنتِ مضحكة، كلُّكِ زهريَّة، حذاؤكِ زهريّ، سترتكِ زهريَّة، ملقط شعركِ زهريّ. أراهن أنَّكِ لا تجيدين الرقص حتَّى».

ـ «أنا وصديقتاي نتمرَّن على الرقص كلَّما تلاقينا».

ـ «ما اسم صديقتيْكِ؟»

ـ «أنجيلا وإيدا».

ـ «وهل هما مثلكِ؟»

ـ «أجل».

كشَّرت دلالةً على رفضها، وانحنت لتعيد الأسطوانة إلى نقطة البدء.

ـ «هل تجيدين هذه الرَّقصة؟»

ـ «هي رقصةٌ قديمة».

انتفضتْ وأمسكتني من خصري، وجذبتني إليها. كان صدرها الكبير يعبق برائحة إبر الصنوبر تحت الشمس.

ـ «اصعدي على قدميّ».

ـ «قد تتأذّين».

ـ «اصعدي».

صعدتُ على قدميْها، وراحت تطوف بي في أنحاء الغرفة بدقّةٍ عاليةٍ وأناقةٍ رفيعة، حتى انتهت الموسيقى. توقَّفت حينذاك، لكنَّها لم تنزلني، وظلَّت تجذبني إليها، وقالت:

«قولي لأبيكِ إنَّني جعلتكِ تؤدِّين هذه الرَّقصة التي أدَّيتُها أوَّل مرَّةٍ مع إنزو. قولي له هكذا بالضَّبط، كلمةً بكلمة».

ـ «حسنًا».

ـ «والآن كفى».

أبعدتني عنها بقوَّة، فحُرِمتُ من دفئها فجأةً، حتَّى إنِّي لجمتُ صرخةً كما لو أحسستُ بصعقة ألمٍ من ناحيةٍ ما، لكنَّني خجلتُ من الظهور ضعيفة. بدا لي في غاية الجمال أنَّها، بعد تلك الرَّقصة مع إنزو، لم تعجبها أيَّ رقصةٍ أخرى. وفكَّرتُ أنَّها حفظت كلّ تفاصيل حبّها الذي لا يُكرَّر، حتَّى إنَّها بأداء الرَّقصة معي، عاودتْها الذكرياتُ لحظةً بلحظة في ذهنها. بدا لي الأمر مثيرًا، فرغبتُ في أن أحبّ أنا أيضًا، وعاجلًا، بتلك الطريقة اللَّامحدودة. لا بدَّ أنَّها ما تزال تحتفظ بذكرى متينةٍ عن إنزو لدرجة أنَّ جسمها النحيل، وصدرها، وأنفاسها نقلت إلى بطني من الحبّ شيئًا. فغمغمتُ مبهورةً:

ـ «كيف كان إنزو، هل لديْكِ صورةٌ له؟»

ابتهجت عيناها:

ـ «شاطرة، يسعدني أنَّكِ تودِّين رؤيته. فلنحدِّد موعدًا، في يوم الثالث والعشرين من مايو القادم، نذهب إليه: إنَّه في المقبرة».

-3-

حاولت والدتي بحذر، في الأيَّام اللاحقة، أن تنجز المهمَّة التي لا بدَّ أنَّ والدي أوكلها إليها: أن تفهم ما إذا كان لقائي بفيتّوريا نجح في مداواة الجرح الذي سبَّباه لي لاإراديًّا. الأمر الذي جعلني على استنفارٍ دائم. لم أشأ أنْ أُبرِزَ لأيٍّ منهما أنَّ فيتّوريا أعجبتني. لذا قاسيتُ في إخفاء أنَّني أصدِّق رواية عمَّتي عن الأحداث قليلًا، على الرَّغم من أنِّي ما زلت أصدِّق روايتهما أيضًا. وعزمتُ على تجنُّب الاعتراف أمامهما بأنَّ وجه فيتّوريا فاجأني بكونه وجهًا حيويًّا في سفاهته، لدرجةٍ أنَّه قبيحٌ وجميلٌ في الوقت ذاته، حتَّى إنِّي بتُّ حينها محتارةً ومتردِّدة ما بين الوصف الأوَّل والوصف الثاني. كما أنِّي أملتُ خصوصًا ألَّا ينكشف أمرُ موعد مايو في أيٍّ من تلك التصرُّفات الخارجة عن السَّيطرة، كخطف النظر واحمرار الوجه. لكنَّني كنتُ ناقصةَ تجربة من حيث الخداع، كنتُ طفلةً مهذَّبةً، فمضيتُ قُدُمًا كيفما اتَّفق، تارةً أجيب على أسئلة والدتي بحذرٍ مفرط، وطورًا أبالغ في اللَّباقة، فينتهي بي المطاف إلى التفوُّه بأشياءٍ طائشة.

أخطأتُ في يوم الأحد ذاك، في المساء، عندما سألتني:

ـ «كيف بدَت لكِ عمَّتكِ؟»

ـ «عجوز».

ـ «تصغرني بخمسة أعوام».

ـ «أنتِ تبدين ابنتها».

ـ «لا تتحايلي عليَّ».

ـ «حقًّا يا أمَّاه. إنَّكما بعيدتان كلَّ البعد، واحدةً عن الأخرى».

ـ «لا نقاش في هذا. فأنا وفيتّوريا لم نكن يومًا على وفاق، مع أنِّي بذلتُ كلَّ جهودي في سبيل مودَّتها. من الصعب إقامة علاقةٍ طيِّبةٍ معها».

ـ «لاحظتُ ذلك».

ـ «هل قالت لكِ أشياء قبيحة؟»

ـ «كانت منفِّرة».

ـ «وبعد؟»

ـ «وبعد، غضبت قليلًا لأنِّي لم أضع السوار الذي أهدتْه لي حين ولدتُ».

قلتها وسرعان ما ندمتُ. إلَّا أنَّ الأمر قد وقع، أحسستُ بالاشتعال، وحاولتُ أن أفهم إن كان ذكرُ تلك الحِلْية يزعج والدتي. فتفاعلتْ بطريقةٍ طبيعيَّةٍ كلِّيًّا:

ـ «سوارٌ لمولودة؟»

ـ «سوارٌ لشابَّة».

ـ «هي أهدته لكِ؟»

ـ «أجل».

ـ «لا أذكر شيئًا عن ذلك. عمَّتكِ فيتّوريا لم تهدنا شيئًا إطلاقًا، ولا حتَّى زهرة. ولكنْ إن كان الأمر يهمُّك، سأسأل أباكِ».

ارتبكتُ. كانت أمِّي ستنقل له تلك الحكاية، وكان سيقول في نفسه حينها: ليس صحيحًا أنَّهما تحدَّثتا عن المدرسة وإيدا وأنجيلا حصرًا إذن، بل عن أشياء أخرى، أشياء مهمَّة تسعى جوفًانا لإخفائها عنَّا. ياه كم كنتُ

غبيَّة! فبادرتُ بكلامٍ ارتجاليّ أنَّ السوار لا يعنيني، وأردفتُ بنبرةٍ منزعجة: العمَّة فيتّوريا لا تضع المكياج، لا تَنْتف شعر جسمها، حاجباها كثيفان بشدَّة، وعندما رأيتُها، كانت بلا أقراطٍ أو حتَّى بلا طوْق؛ لذا، إذا سلَّمنا أنَّها أهدتني سوارًا، فلا بدَّ أنَّه كان مريعًا. لكنّي كنتُ على علمٍ بأنَّ كلَّ كلماتي المستخفَّة باتت بلا جدوى: فمنذ تلك اللَّحظة، ستتحدَّث أمّي مع أبي عن أيِّ شيءٍ أقوله، ولن تنقل إليَّ إجابته الحقَّة، إنَّما ما يتَّفقان عليه معًا.

نمتُ قليلًا، وبشكلٍ سيِّئ، وغالبًا ما أُنِّبتُ في المدرسة على شرودي. وعاد الحديث عن السّوار عندما بتُّ مقتنعةً بأنَّ والديَّ قد نسيا أمره.

- «حتَّى أبوكِ لا يعرف عنه شيئًا».

- «عمَّ؟»

- «عن السّوار الذي قالت عمَّتكِ إنَّها أهدتْه لكِ».

- «إنَّها تكذب، برأيي».

- «هذا مؤكَّد. وفي كلِّ الأحوال، إن أردتِ أن تضعي حليةً، فابحثي بين أغراضي».

ذهبتُ حقًّا للتفتيش بين جواهرها، مع أنّي كنتُ أعرفها عن ظهر قلب، وكنتُ ألعب بها حين كنتُ في سنِّ الثالثة أو الرابعة. كانت أغراضًا بلا قيمةٍ كبرى، لاسيَّما ذانك السّواران الوحيدان اللذان كانا لديها: أحدهما مرصَّعٌ بالذهب وتتدلَّى منه حُلًى تمثِّل ملائكةً صغيرة؛ والثاني من الفضَّة بصفائح لازورديَّةٍ ولآلئ. وفي صغري، كنتُ أعشق الأوَّل وأتجاهل الثاني. إلَّا أنّي صرتُ معجبةً في الآونة الأخيرة بسوار الصفائح اللّازورديّة، حتَّى إنَّ كوستانسا نفسها أثنت على صياغته المُتقنة ذات مرَّة. وهكذا، تلميحًا إلى أنّي لا أهتمّ بهديَّة فيتّوريا، رحتُ أضع السوار الفضّيّ في البيت، والمدرسة، أو حين ألتقي أنجيلا وإيدا.

ـ «ما أجمله!» هتفت إيدا في إحدى المرَّات.

ـ «إنَّه لأمِّي. لكنَّها أباحت لي استخدامه متى أشاء».

ـ «أمُّنا لا تسمح لنا باستخدام مجوهراتها»، قالت أنجيلا.

ـ «وماذا عن هذا؟» سألتُ مشيرةً إلى طوْقٍ ذهبيٍّ صغيرٍ تضعه على عنقها.

ـ «هذا هديَّةٌ من جدَّتي».

ـ «أمَّا طوْقي ـ قالت إيدا ـ فقد جاءني هديَّةً من إحدى قريبات والدي».

كانتا غالبًا ما تتحدَّثان عن أقاربهما الكرماء، وكانتا تُبديان لبعضهم مودَّةً كبيرة. أمَّا أنا، فلم يكن لديَّ سوى جدَّي المتحف اللَّطيفَيْن، لكنَّهما كانا متوفَّيْن، ولا يخطران على بالي إلَّا لمامًا. لذا، حسدتُ صديقتيَّ على قرابتهما. إلَّا أنِّي آنذاك، وقد وطَّدتُ علاقةً مع عمَّتي فيتّوريا، بَدَرَ منِّي:

ـ «عمَّتي أهدتني سوارًا أجمل من هذا كثيرًا».

ـ «ولِمَ لا تضعينه أبدًا؟»

ـ «لأنَّه ثمينٌ جدًّا، والدتي لا تريد».

ـ «هلَّا أريتنا إيَّاه؟»

ـ «أجل، حين لا تكون والدتي في البيت... هل يصنع لكما والداكما الشوكولاتة الساخنة؟»

ـ «أبي أذاقني النبيذ ذات مرَّة»، قالت أنجيلا.

ـ «ولي أيضًا» قالت إيدا.

أوضحتُ باعتزاز:

ـ «كانت جدَّتي تحضِّر لي الشوكولاتة الساخنة عندما كنت صغيرة، وما انفكَّت تحضِّرها لي حتَّى توفِّيت: ليست شوكولاتة عاديَّة، فشوكولاتة جدَّتي كانت قشدةً منتفخةً كلِّيًا، ولذيذةً للغاية».

لم أكذب على أنجيلا وإيدا مطلقًا. كانت تلك الكذبة الأولى. اكتشفتُ أنَّ الكذب على أبويَّ يسبِّب لي القلق، في حين أنَّ الكذب عليهما كان جميلًا. فلطالما كان لديْهما ألعابٌ أكثر جاذبيَّة من ألعابي، وألبسةٌ أزهى ألوانًا، وحكاياتٌ عائليَّة أشدّ إثارة. ناهيك بأنَّ أمَّهما، كوستانسا، تنحدر من سلالةٍ من الصاغة من طليطلة، وتحتفظ بخزائن مليئةٍ بالمجوهرات ذات القيمة النَّفيسة كلِّها، وما لا يُحصى من الأطواق الذهبيَّة واللؤلؤيَّة، والكثير الكثير من الأقراط، والأكثر من الأساور الرَّقيقة والعتيقة. وكانت تنهاهما عن لمس سواريْن تحديدًا، أحدهما عزيزٌ عليها جدًّا، غالبًا ما تتجمَّل به؛ أمَّا ما تبقَّى، فكان في متناول أيديهما للَّعب، وقد شاركتُهما اللعب أيضًا غير مرَّة. وهكذا، ما إن كفَّت أنجيلا عن اهتمامها بالشوكولاتة الساخنة ـ أي مباشرةً تقريبًا ـ أرادت مزيدًا من التفاصيل عن جوهرة عمَّتي النَّفيسة. وصفتُه لها بدقَّةٍ كبيرة. إنَّه من الذَّهب الخالص البرَّاق والمعشَّق بالياقوت والزمرُّد ـ قلت ـ مثل المجوهرات التي نشاهدها في السينما والتلفزيون. وبينما كنت أتحدَّث عن حقيقة ذلك السِّوار بالضَّبط، لم أقاوم، فاختلقتُ أنَّني ذات مرَّةٍ، نظرتُ إلى نفسي في المرآة عاريةً من كلِّ شيءٍ إلّا من أقراط والدتي والطَّوْق والسوار العجيب. نظرتْ إليَّ أنجيلا مفتونةً، وسألتني إيدا إن كنتُ قد أبقيتُ السروال على الأقلّ. قلتُ لا، فأمدَّتني الكذبةُ بنشوةٍ حتَّى تخيَّلتُ أنِّي لو كنت قد فعلتها حقًّا لتذوَّقتُ لحظاتٍ من سعادةٍ مطلقة.

راودتني فكرةُ التجريب ذات مساء، فحوَّلتُ الكذبة إلى واقع. تعرَّيتُ، ووضعتُ بعضًا من جواهر أمِّي، ونظرتُ إلى المرآة. إلَّا أنَّ المشهد كان مخيِّبًا. رأيتُني مثل نبتةٍ صغيرةٍ باهتة الخُضرة، أهلكتها حدَّةُ الشمس فصارت تعيسة. ومع أنِّي تجمَّلتُ بعناية، يا لوجهي كم بدا بلا معنى، وكم بدا أحمر الشفاه بقعةً حمراء قبيحةً في وجهٍ يشبه قعرَ قِدرٍ رماديًّا! حاولتُ أن أستوعب ما إذا كان هناك نقاطُ تقاطعٍ بالفعل بيني وبين فيتّوريا آنذاك إذ

عرفتُها، لكنَّ المحاولة باءت بفشلٍ يساوي إلحاحي عليها. فهي امرأةٌ عجوز ـ من منظوري وأنا بنت الثلاثة عشر عامًا على الأقلّ ـ وأنا فتاةٌ صغيرة: هناك عدمُ تطابقٍ كبيرٌ بين الجسميْن، وفاصلٌ زمنيٌّ واسعٌ بين وجهي ووجهها. ثمَّ أين منّي طاقتها ودفؤها الذي يُضرِم الأجيجَ في عينيْها؟ إن كان وجهي يصير شبيهًا لوجه فيتّوريا، فإنَّه ينقصه العنصر الجوهريّ: قوَّتُها. وهكذا، حدث أنَّني ـ على موجة ذلك الهاجس، بينما كنتُ أقارن حاجبيْها بحاجبيَّ وجبينها بجبيني ـ لاحظتُ أنَّني أرغب في أن تكون قد أهدتني سوارًا بالفعل، وشعرتُ أنَّني لو حصلتُ عليه حينذاك ووضعته، لأحسستُ بأنَّني أقوى.

وسرعان ما أشعرتني تلك الفكرة بدفءٍ مطمئنٍ، كما لو أنَّ جسدي المحبَط عثر فجأةً على دوائه المناسب! وعاودتْ ذهني بعضُ الكلمات التي قالتها لي فيتّوريا قبل أن نفترق، وهي ترافقني إلى الباب. إذ غضبتْ وقالت: لقد حرمكِ أبوكِ من عائلةٍ كبيرة، منّا جميعًا، أجدادًا وأعمامًا وأبناء عمومة، لأنَّنا لسنا أذكياء ومهذَّبين مثله؛ طردَنا بالعصا، وأنشأكِ وحدانيَّةً معزولة، خشية أن نفسد طباعكِ. كان الغلّ يتدفَّق منها، وعلى الرَّغم من هذا، أشعرتني كلماتُها تلك بطمأنينة، وما فتئتُ أردّدها في رأسي، لأنَّها كانت تؤكّد على وجود رباطٍ قويٍّ وإيجابيّ، أو تدَّعي أنَّه كذلك. فعمَّتي لم تقل: لكِ وجهي، أو على الأقلّ: أنتِ تشبهينني؛ إنَّما قالت: أنتِ لستِ لأبيكِ وأمِّكِ فقط، أنتِ لي أيضًا، أنتِ تنتمين إلى كلِّ العائلة التي خرج عنها أبوكِ، ومَن كان في صفِّنا لن يشعر بالوحدة أبدًا، بل سيمتلئ صلابةً. ألستُ بفضل هذه الكلمات وعدتُها بعد تردُّدٍ وجيزٍ أنَّني سأتغيَّب عن المدرسة يوم الثالث والعشرين من مايو لكي أرافقها إلى المقبرة؟ وآنذاك، بينما كان رأسي يلهج بفكرةِ أنَّها ستنتظرني في التاسعة صباحًا من ذاك اليوم، في ساحة الميداليّات الذهبيَّة بسيَّارتها الخضراء الداكنة القديمة، طراز «1500» ـ هكذا قالت لي بنبرةٍ آمرةٍ وهي تودِّعني ـ رحتُ أبكي وأضحك، وأفتعل تكشيراتٍ مفزعةً أمام المرآة.

- 4 -

كنَّا نذهب إلى المدرسة، نحن الثلاثة، معًا كلَّ صباح ـ والداي ليعلِّما وأنا لأتعلَّم ـ وكانت والدتي تنهض أوَّلًا في العادة، تحتاج إلى وقتٍ إضافيٍّ لتحضِّر الفطور، وتتجمَّل. أمَّا والدي، فما كان ينهض إلَّا حين يجهز الفطور، لأنَّه ما إن يفتح عينيْه حتَّى يهمّ بالقراءة، ويدوِّن بعض الملاحظات في دفاتره، ويتابع على هذا المنوال في المرحاض أيضًا. وأنا كنت أترك السرير في الأخير، مع أنِّي كنت أدَّعي ـ منذ أن بدأت تلك القصَّة ـ بأنِّي أفعل مثل والدتي: أغسِّل شعري غالبًا، وأتجمَّل، وأختار الثياب بعناية. النتيجة هي أنَّ كلاهما يعجِّلني باستمرار: جوفانّا، إلى أين وصلتِ؛ ستتأخَّرين وستؤخِّريننا. وكانا يستعجلان بعضهما أيضًا. أبي يضغط: نيلا استعجلي، أحتاج إلى الحمَّام. وكانت أمِّي تجيب بهدوء: إنَّه شاغرٌ منذ نصف ساعة، ألم تدخل بعد؟ غير أنَّ الصباحات التي أفضِّلها، لم تكن كتلك عمومًا. كنت أحبّ الأيَّام التي يدخل والدي إلى المدرسة في الساعة الأولى، ووالدتي في الثانية أو الثالثة؛ أو حينما تكون في إجازةٍ طوال اليوم بالأحرى. كانت إذن تقتصر على إعداد الفطور، وتصيح من حينٍ لآخر: استعجلي يا جوفانّا. ثمَّ تتفرَّغ كلّيًّا لشؤونها المنزليَّة الكثيرة، والروايات التي تصحِّحها وغالبًا ما تعيد كتابتها. ففي تلك المناسبات، كان كلّ شيءٍ يغدو أسهل بالنِّسبة إليَّ: أمِّي تغتسل في الأخير ما يمنحني وقتًا أكبر في الحمَّام؛ ولطالما كان

والدي يتأخَّر، وبغضّ النظر عن المزاح المعتاد الذي يبهجني به، كان ينطلق متعجِّلًا، يتركني عند مدرستي، ويغادر مُسرعًا من دون التأخير الناجم عن احتراس والدتي، كما لو بتُّ كبيرةً وبإمكاني مواجهة المدينة بمفردي.

أجريتُ بعض الحسابات، واكتشفتُ بسعادةٍ بالغة أنَّ أصبوحةَ الثالث والعشرين ستكون من النوع الثاني: كان على أبي أن يصحبني إلى المدرسة. في مساء الثاني والعشرين، جهَّزتُ ثياب اليوم اللَّاحق (استثنيتُ اللَّون الزهريّ)، الأمر الذي كانت والدتي توصيني بفعله باستمرار، ولم أكن أقوم به مُطلقًا. استيقظتُ في ساعةٍ مبكِّرةٍ جدًّا، يسكنني توتُّرٌ عظيم. هُرعتُ إلى الحمَّام، تجمَّلتُ بتركيزٍ شديد، وضعتُ السِّوار ذا الصَّفائح اللَّازورديَّة واللآلئ بعد تردُّد، وقدمتُ إلى المطبخ عندما كانت والدتي استيقظت توًّا. ما الذي أيقظكِ باكرًا؟ سألتني. لا أريد أن أتأخَّر، أجبتُ، لديَّ وظيفة اللُّغة الإيطاليَّة. وإذ رأتني متوتِّرة، ذهبتْ لاستعجال أبي.

مضى الفطور بسلاسة، كانا يتمازحان ما بينهما كأنِّي لست هناك، وكان بإمكانهما الحديث عنِّي بسوء كما يشاءان. قالا إنَّني واقعةٌ في الغرام لا محالة، لأنِّي لم أنم وكنتُ متلهِّفةً للذهاب إلى المدرسة. أبديتُ ابتساماتٍ قليلةً لا تقول نعم ولا كلَّا. ثمَّ اختفى والدي في الحمّام، وكان دوري هذه المرَّة لاستعجاله. عليَّ أن أقول إنَّه لم يضيِّع الوقت، ما عدا أنَّه لم يكن يعثر على الجوارب النَّظيفة، أو أنَّه نسي الكتب اللَّازمة وعاد راكضًا إلى مكتبه. في المحصِّلة، أذكر أنَّ الساعة كانت السَّابعة والدَّقيقة العشرين بالتمام، كان والدي في آخِر الممرّ يحمل حقيبته الممتلئة، وكنت أعطي والدتي القبلة الإجباريَّة على خدِّها، فإذا الجرس يرنّ بصعقةٍ عنيفةٍ للغاية.

من المفاجئ أن يطرق بابنا أحدٌ في تلك الساعة. تعجَّلت والدتي للانغلاق في الحمَّام، وكشَّرت بما ينمّ عن انزعاجها، وقالت لي: انظري مَن في الباب. فتحتُ، فوجدتُ قبالتي فيتّوريا.

ـ «مرحبًا»، قالت «لحسن الحظّ أنَّكِ جاهزة، تحرَّكي بسرعة كي لا نتأخَّر».

جرح القلبُ صدري. رأت أمِّي أخت زوجها في نطاق الباب وصاحت ـ أجل، كانت صيحةً بحقّ: أندري، تعال، شقيقتك هنا. جحظت عيناه عندما رأى فيتّوريا من هول المفاجأة، وفغر فمه غير مصدِّقٍ، وهتف: ما الذي تفعلينه هنا؟ استبدَّ بي الضعف خوفًا ممَّا سيحدث بعد لحظة، بعد دقيقة. واكتسى جسدي بالعرق، ولم أدرِ بما أردّ على عمَّتي، ولم أدرِ كيف أبرِّر ذلك مع والديَّ، وخِلتُني أموت. إلَّا أنَّ كلَّ هذا تبدَّد في وقتٍ قصير، وبطريقةٍ يتساوى فيها الإدهاش والإيضاح.

قالت فيتّوريا بالعامِّيَّة:

ـ «أتيتُ لاصطحاب جانّينا، فاليوم يُتِمُّ لقائي الأوَّل بإنزو سبعة عشر عامًا».

ولم تُضِف على ذلك شيئًا، كما لو أنَّه يتوجَّب على أبويَّ أن يتفهَّما الأسباب الصادقة لظهورها المباغت من دون أن يفكِّرا، وأنَّهما مرغمان على السَّماح لي بالذهاب معها من دون أن يعترضا. لكنَّ والدتي احتجَّت بالإيطاليَّة الفُصحى:

ـ «ينبغي لجوفانّا الذهاب إلى المدرسة».

فإذا بأبي يتجاهل زوجته وشقيقته، ويتوجَّه نحوي بسؤالٍ بنبرته الجامدة:

ـ «هل كنتِ على درايةٍ بهذا؟»

طأطأتُ رأسي وحدَّقتُ بالأرض، فألحَّ من دون أن يغيِّر من نبرته تلك:

ـ «هل كان بينكما موعدٌ، هل تريدين الذهاب مع عمَّتكِ؟»

فقالت والدتي بفتور:

ـ «أيُّ أسئلةٍ هذه يا أندري، بالتأكيد تريد الذهاب معها، بالتَّأكيد كان بينهما موعد، وإلَّا ما جاءت شقيقتك إلى هنا».

فاكتفى بالقول لي حينئذٍ: إن كان كذلك، فاذهبي. وأشار لشقيقته برؤوس أنامله أن تتنحَّى عن طريقه. تنحَّت فيتّوريا ـ كان وجهها قناعًا لانعدام الشعور، منصَّبًا فوق البُقعة الصَّفراء لثوبها الخفيف ـ نظر والدي إلى السَّاعة ناقمًا، تجاهل المصعد وهبط السلالم من دون أن يسلِّمَ على أحد، ولا حتَّى عليَّ.

ـ «متى سترجعينها؟» سألتها أمِّي.

ـ «عندما تتعب».

تشارطا ببرودٍ على التوقيت، واتَّفقا على الواحدة والنُّصف ظهرًا. مدَّت فيتّوريا يدها إليَّ، فأمسكتُ بها كأنَّني طفلةٌ صغيرة. كانت يدها باردة. شدَّت على يدي بقوَّة، كأنَّها تخشى أن أهرب منها وأعود إلى البيت راكضة. وبيدي الأخرى، كبستُ زرّ المصعد على مرأى والدتي التي وقفت عند العتبة، ولم تقرِّر إغلاق الباب بعد.

كلمةٌ أكثر، كلمةٌ أقلّ... هكذا جرت الأمور.

-5-

أثَّر فيَّ هذا اللِّقاء الثاني أكثر من الأوَّل كثيرًا. بدايةً، اكتشفتُ أنَّ في باطني فراغًا قادرًا على ابتلاع كلِّ الأحاسيس في غضون وقتٍ قصيرٍ جدًّا. فعبءُ الكذبة التي انكشفت، والخزي من التخاذل، وكلّ الألم الذي انتابني من الألم الذي لا بدَّ أنَّني سبَّبته لوالديَّ، كلّ هذه العوامل ظلَّت تلازمني حتَّى اللَّحظة التي رأيتُ فيها أمّي تُغلق باب الدار، من خلال الشبكة الحديديَّة للمصعد، وأبوابه الزجاجيَّة. ولكنْ حالما وجدتُني في البهو، ثمَّ في سيَّارة فيتّوريا، الجالسة بجانبي وقد أشعلت للتوّ سيجارةً بيديْها اللَّتيْن ترتعشان بشكلٍ واضح، وقع لي ما سوف يقع لي غالبًا في الحياة، فتارةً أرفع معنويَّاتي وتارةً أخمد همَّتي. انهزم الرَّابط بالأماكن المعروفة، والعواطف الآمنة، أمام فضولي في معرفة ما كنتُ سأواجهه. اختطفني دنوُّ تلك المرأة المهدِّدة والأخَّاذة، وها أنا ذا بتُّ أراقب كلّ حركةٍ تقوم بها. كانت حينها تقود عربةً دميمة، تفوح رائحة التبغ منها، لا تشابه قيادة والدي الثابتة والحاسمة، ولا قيادة والدتي الهادئة؛ إنَّما قيادتُها سارحةٌ أو مقلقةٌ جدًّا، قوامها الخضَّات المتدافعة، والزعقات المتوعِّدة، والفرملات الفجَّة، والانطلاقات الخاطئة، التي كان المحرِّك بسببها يتوقَّف غالبًا، فيُمطرنا السَّائقون الرُّعُن بالشتائم، والتي كانت تجابهها والسيجارة بين يديْها أو بين شفتيْها بكلامٍ بذيءٍ لم أسمعه يصدر عن امرأةٍ من قبل. باختصار، انتهى والداي إلى الهامش بلا

أدنى جهد، والجرح الذي سبَّبتُه بالتواطؤ مع عدوِّهما خرج من ذهني كلِّيًا. وفي غضون بضع دقائق، لم أعد أرى نفسي مذنبةً، ولم أعبأ حتَّى بأيِّ عينٍ ألقاهما في المساء، عندما سنعود ثلاثتنا إلى البيت في سان جاكومو دي كابري. ما زال القلق يتوغَّل في رأسي بالتَّأكيد. إلَّا أنَّ اليقين من أنَّهما يُحبَّانني إلى الأبد ومهما كانت الظروف، إضافةً إلى المسير الخطير بتلك السيَّارة الشعبيَّة الخضراء، والمدينة التي كنَّا نجتازها وأنا أجهل كثيرًا من أنحائها، والكلمات الفوضويَّة التي نطقتها فيتّوريا؛ كلّ ذلك أرغمني على تركيز الانتباه، والتأقلم مع التوتُّر، ففعَلَ هذان العنصران فِعلَ المخدِّر.

اتَّجهنا إلى أعلى عبْر دوغانيلا، وركنَّا السيَّارة بعد مشادَّةٍ عنيفةٍ مع أحد المسؤولين غير القانونيِّين الذي أراد المال. اشترت عمَّتي الورود الحمراء والأقحوان الأبيض، وساومت على السّعر، وبعد أن غُلِّفت الباقةُ غيَّرت فكرتها، وأجبرت البائعة على تفكيكها لتُصبح باقتيْن. قالت لي: هذه سأحملها له بنفسي، وهذه لكي تحمليها له أنتِ، سيُسعده هذا. كانت تشير بطبيعة الحال إلى حبيبها إنزو الذي منذ أن ركبنا السيَّارة، وخلال المشوار الذي توقَّف ألف مرَّة، ما انفكَّت تحدِّثني عنه برقَّةٍ تناقض أسلوبها الشرس الذي تواجه به المدينة. وظلَّت تحدِّثني عنه بينما كنَّا نتوغَّل بين أضرحةٍ وقبورٍ أثريَّة، قديمةٍ وحديثة، ودروبٍ وسلالمَ صاعدةٍ على الدَّوام، كأنَّنا في منطقة الأموات العليا. إلَّا أنَّه للوصول إلى قبر إنزو تعيَّنَ علينا أن نهبط أسفل أكثر وأكثر. أبهرني الصمتُ، ورماديَّةُ المدافن المحزَّزة بالصدأ، ورائحةُ الأرض البالية، وبعض الفتحات المُعتَّمة على شكل صليبٍ مفتوحٍ في الرّخام، لكأنَّ وظيفتَها تأمينُ أنفاسٍ لمن لم يَعُدْ لديْه أنفاس.

لم أكن قد دخلتُ مقبرةً قبل ذلك اليوم إطلاقًا. لم يصحبني والداي، ولم أكن أعرف إن كانا يذهبان إليها، وبالتَّأكيد، لم يفعلاها في يوم الموتى. وما

لبثت فيتّوريا أن لاحظت ذلك، فانتهزت هذه الفرصة أيضًا لتلقي اللّائمة على والدي. إنَّه يخاف ـ قالت ـ ولطالما كان خوّافًا، يخاف من الأمراض ومن الموت: كلُّ الأشخاص المتغطرسين يا جانّي، كلُّ الذين يحسَبون أنفسهم عظماء، يتظاهرون بأنَّ الموت ليس له وجود. والدكِ، عندما توفّيت جدَّتُكِ رحمها الله، لم يحضر حتّى في جنازتها. وفعل الأمر ذاته بوفاة جدّكِ، وقف دقيقتيْن ثمَّ هرب، لأنَّه جبانٌ، لم يشأ رؤيتهما ميّتيْن كي لا يشعر أنَّه سيموت هو أيضًا يومًا ما.

حاولتُ أن أردّ، ولكنْ بحذر، أنَّ والدي كان شُجاعًا للغاية، ودافعتُ عنه باللُّجوء إلى ما قاله لي ذات مرَّة، وهو أنَّ الأموات أغراضٌ تحطَّمت، كالتلفاز، والراديو، والخفَّاقة، وأنَّ أفضل شيءٍ نفعله هو أن نتذكَّرهم كيف كانوا قبل أن يتعطَّلوا، لأنَّ القبر الوحيد الذي يقبله العقل هو الذكرى. غير أنَّ إجابتي لم ترقها، وبما أنَّها لم تكن تُعاملني كطفلةٍ صغيرةٍ ينبغي اختيار الكلمات معها، وبَّختني، وقالت إنّي أكرّر كالببغاء ترّهات والدي: حتَّى أمّكِ تفعل هكذا، وأنا كذلك حين كنت صغيرة. ولكنّي مُذْ عرفتُ إنزو، امَّحى والدكِ من رأسي. امّ ـ مَ ـ حى، هجَّأتْ، وتوقَّفتْ أخيرًا قبالة حائطٍ من المدافن، وأشَّرت لي إلى مدفنٍ في الأسفل محاطٍ بجنبةٍ خضراء مسوَّرة، وله قنديلٌ مضاءٌ على شكل شعلة، وصورتان بيضويّتان مؤطّرتان. ها هو، قالت، لقد وصلنا. إنزو هو الذي على الجانب الأيسر، وتلك هي والدته. وبدلًا من أن تذهب مذهبًا ساميًا أو مُهيبًا مثلما توقَّعتُ، استشاطت غضبًا لوجود بعض الأوراق التالفة والأزهار المتيبّسة والمرميَّة على بُعد خطوات. سَحَبتْ نَفَسًا عميقًا ومريرًا، أعطتني ورودها، وقالت: انتظري هنا، لا تتحرَّكي، ففي هذا المكان الخرائيّ لا يعمل شيءٌ ما لم يخرج المرء عن طوْره. وتركتني.

بقيتُ بتينك الباقتيْن من الورود في يدي، أحدّق إلى إنزو مثلما يبدو في صورةٍ بالأبيض والأسود. لم أره وسيمًا، أحبطني ذلك. كان وجهه مدوَّرًا،

يضحك بأسنانٍ ذئبيَّةٍ بيضاء. أنفه كبير، عيناه متوقّدتان، جبينه ضيِّقٌ جدًّا ومحدَّدٌ بشعره الأسود المتموّج. لا بدَّ أنَّه كان غبيًّا، فكَّرتُ، إذ كنَّا في البيت نعتبر الجبين العريض ـ جبين أمِّي، وأبي، وجبيني كذلك ـ علامةً مؤكَّدةً على الذَّكاء والمشاعر النبيلة، بينما كنَّا نرى في الجبين الضيِّق ـ كما كان والدي يقول ـ ميزةً للمغفَّلين. ولكنْ ـ قلت لنفسي ـ حتَّى العيون لها دلالة (وهذا ما تدَّعيه والدتي): كلَّما ازدادت لمعانًا كان صاحبها أكثر تيقُّظًا؛ وكانت عينا إنزو تسدِّد صعقاتٍ فرحة، وهذا ما أثار حيرتي، إذ كانت النظرة تناقض الجبين بكلِّ وضوحٍ وجلاء.

وفي هذه الأثناء، خلال صمت المقبرة، سُمِعَ صوتُ فيتّوريا العالي يصارع أحدًا ما، فارتبكتُ، وخشيتُ أن يضربوها أو يعتقلوها؛ ولم يكن باستطاعتي الخروج من هذا المكان المتشابه بمفردي، ما بين حفيفٍ وطيورٍ وأزهارٍ ذابلة. إلَّا أنَّها سُرعان ما عادت رفقة رجلٍ عجوزٍ منهكٍ فتح لها مقعدًا حديديًّا ومبطَّنًا بقماشةٍ مخطَّطة، وأخذ يكنِّس الدَّرب الصَّغير على الفور. كانت تراقبه ناقمةً، سألتني:

ـ «ما رأيكِ بإنزو؟ وسيمٌ أم لا؟»

ـ «وسيم»، كذبتُ.

ـ «بل إنَّه في منتهى الوسامة»، صحَّحتْ. وما إن ابتعد العجوز حتَّى نزعت الأزهار القديمة من أوانيها، ورمتها جانبًا مع الماء الآسن، وأمرتني بالذهاب لإحضار ماءٍ جديد من صنبورٍ سأجده عند انعطافي الزاوية. وبما أنِّي كنتُ أخشى أن أضيع، تملَّصتُ؛ فما كان منها إلَّا أن دفعتني وهي تلوِّح بيدها: اذهبي، اذهبي.

ذهبتُ، ووجدتُ الصنبور الذي كان يقطر حزنًا. تخيَّلتُ واقشعرّ بدني من أنَّ شبح إنزو يهمس بكلماتٍ ودودةٍ لفيتّوريا من خلال فتحات الصليب.

كم كنتُ معجبةً بذلك الرّباط الذي لم ينقطع يومًا. كانت المياه تُصدِر خريرًا، وتمتلئ ببطءٍ في الأواني المعدنيّة. لا بأس إن كان إنزو قبيحًا؛ وفجأةً اهتزَّت مشاعري لقبحه، لا بل إنَّ الكلمة بحدّ ذاتها فقدت معناها، وانحلَّت في بقبقة الماء. ما يهمّ بالفعل هو القدرة على إثارة الحبّ، حتَّى لو كنَّا دميمين، أو حقراء، أو أغبياء! هناك شعرتُ بالعظمة، وأملتُ أن يتعيَّنَ عليَّ تنمية تلك القدرة مهما اتَّخذ وجهي من أشكال، مثلما تعيَّنَ في الماضي على إنزو بلا شكّ، وفيتّوريا أيضًا. عدتُ إلى القبر أحمل الإناءيْن الممتلئيْن بالماء والرَّغبة في أن تستمرّ عمَّتي في اعتباري ناضجةً، وتقصّ على مسامعي كلّ تفاصيل ذلك الحبّ العظيم، بِلُغتها الوقحة والعاميَّة.

ولكنْ ما إن انعطفتُ إلى الدَّرب فزعتُ. كانت فيتّوريا جالسةً على المقعد الصَّغير القابل للطيّ الذي جلبه لها الرجل العجوز، وكانت مُفرجِةً ساقيْها ومحنيَّة الظهر، وجهها بين يديْها، ومرفقاها على فخذيْها. كانت تتحدَّث إلى إنزو. تتحدَّث إليه حقًّا. لم أكن أتوهَّم، سمعتُ صوتها، لكنّي لم أميّز ما قالته. كانت تصون جدّيَّة علاقتها به حتَّى بعد مماته، وقد هزَّ حوارهما هذا مشاعري. تقدَّمتُ بكلّ بطءٍ مُمكن، وأنا أخطُّ الدَّرب المبلَّط بسفل حذائي لكي ألمَّح إلى وجودي. لكنَّها بدت لا تعيرُني أيَّ انتباهٍ حتَّى وصلتُ إلى جانبها. وحينها، أبعدت يديْها عن وجهها تمسح بهما بشرتها ببطء. بدت لي حركةً أليمة تتطلَّع إلى مسح الدُّموع وتتقصَّد بها إظهار جراحها على مرآي، بطريقةٍ مصطنعة، وبلا خجل. عينان محمرَّتان ولامعتان، رطبتان عند الأطراف. كانت تربيتي المنزليَّة تُجبرني على إخفاء المشاعر، وإلَّا بدا ذلك دليلًا على سوء تربية! أمَّا هي، وعلى الرَّغم من مرور سبعة عشر عامًا ـ بدتْ لي أبديَّةً بحالها ـ ما زالت تعيسةً تبكي أمام القبر، وتناجي الرّخام، وتتوجَّه إلى عظامٍ لا تراها، إلى رجلٍ لم يَعُدْ له وجود. أخذت أحد الإناءيْن فقط، وقالت بنبرةٍ مرهَقة: رتّبي ورودكِ وأنا أرتّب ورودي. أطعتها، أسندتُ إنائي

على الأرض، وأخرجتُ الورود من الغلاف، في حين كانت تغمغم وهي تشهق بأنفها وتُخرج الورود:

«هل قلتِ لأبيكِ أنَّني حدَّثتُكِ عن إنزو؟ وهل حدَّثكِ عنه؟ هل قال الحقيقة؟ هل قال لكِ إنَّه في البدء تظاهر بأنَّه صديقٌ وفيٌّ - إذ أراد معرفةَ كلِّ شيء عن إنزو. هاتِ اروِ لي ما عندك، كان يقول له - ثمَّ جعله يقاسي، إلى أن دمَّره؟ هل قال لكِ كيف تذابحنا من أجل البيت، بيت أبويْنا، ذلك البيت المقرف الذي أعيش فيه الآن؟»

أومأتُ بلا، وودتُ أن أشرح لها أنَّه لا مصلحة لديَّ حيال قصص عداوتهما، ما كنت أرغب إلَّا في أن تحدِّثني عن الحبّ، لم أكن أعرف أيَّ أحدٍ بإمكانه أن يحدِّثني عن الحبّ مثلها. لكنَّ فيتّوريا كان كلُّ همِّها أن تتحدَّث بالسُّوء على والدي، وكانت تطالبني بالإصغاء جيِّدًا. أرادت أن أدرك لماذا تكِّنُ له الغلّ. وهكذا، جالسةً على المقعد الصغير وهي ترتِّب ورودها، وأنا أفعل على غرارها متربِّعةً على بُعد مترٍ أو أقلّ، ابتدأت الحديث عن الشجار من أجل البيت، الذي كان الممتَلك الوحيد الذي خلّفه الوالدان تركةً لخمسة أبناء.

كانت حكايةً طويلةً وقد آلمتني. أبوكِ - قالت - لم يشأ أن يتنازل؛ كان يصرّ على رأيه: هذا هو بيتنا جميعًا نحن الأشقَّاء، إنَّه بيتُ أبينا وأمّنا، اللذيْن حصلا عليه بأموالهما. وحدي أنا مَن ساعدهما، ولأجل ذلك أنفقتُ أموالي؛ وكنتُ أردّ عليه: صحيح يا أندري، إلَّا أنَّكم قد تدبَّرتم أمركم جميعًا، لدى جميعكم عملٌ بغضِّ النَّظر إن كان جيِّدًا أم سيِّئًا، أمَّا أنا فلا أملك شيئًا، وأشقَّاؤنا الآخرون موافقون على ترك هذا البيت لي. لكنَّه قال إنَّ البيت ينبغي بيعه وتقسيم ثمنه على الأشقاء الخمسة جميعًا. فإن تنازل الآخرون عن حصصهم فهذا خير، لكنَّه لن يتنازل عن حصَّته أبدًا. ودام النقاش

المحتدم شهورًا: والدكِ من جهة، وأنا وبقيَّة الإخوة من الجهة الأخرى. ونظرًا لانعدام الحلّ، تدخَّلَ إنزو عند ذلك الحدّ ـ انظري إليه، إلى ذلك الوجه وتينك العينيْن والابتسامة ـ لم يكن أحدُ على درايةٍ بقصَّة حبِّنا العظيم، ما عدا أبوكِ، لأنَّه كان صديقًا له وشقيقًا لي ومستشارًا لنا. دافع عنِّي إنزو قائلًا: أندري، شقيقتك لا يمكنها أن تدفع لك التعويضات، من أين لها أن تأتيك بالمال؟ فأجابه والدكِ: اخرس، فأنت لا أحد، ليس بوسعك أن تضع أربع كلماتٍ خلف بعضها بعضًا، ما الذي أقحمك بشؤوني وشؤون أختي. تألَّم إنزو كثيرًا، وقال: حسنًا، فلنقيِّم البيت وسأدفع لك حصَّتك من جيبي. لكنَّ والدكِ راح يجدِّف غاضبًا، وصاح عليه: ماذا تعطيني أنت أيُّها الوغد، لستَ إلَّا شاويشًا في الأمن العامّ! من أين لك المال، وإن كان لديْك، فهذا يُثبِت أنَّك فاسدٌ تستغلّ رتبتك. وهكذا دواليك... فهمتِ؟ حتَّى وصل المطاف بأبيكِ ليقول بوجهه ـ ركِّزي جيِّدًا، قد يبدو راقيًا لكنَّه وقحٌ ـ إنَّه، أي إنزو، لم يكن ينيكني أنا فحسب، بل يريد أن ينيكنا جميعًا ويسلبنا بيت العائلة. فهدَّده إنزو حينذاك أن يصمت وإلَّا أخرج مسدَّسه وأطلق عليه النار. قال له «أطلق عليك النار»، بنبرةٍ واثقةٍ لدرجة أنَّ أباكِ اصفرَّ وجهه من الخوف، وأغلق فمه وغادر. الآن يا جانّي ـ مخَّطت عمَّتي أنفها حينئذٍ، ونشَّفت عينيْها الرَّطبتيْن، وأخذت تُبرِّم فمها لتلجم تأثُّرها وتكظم غيظها ـ عليكِ أن تسمعي جيِّدًا ما الذي فعله والدكِ: اتّجه مباشرةً إلى زوجة إنزو، وقال لها أمام أبنائها الثلاثة: مارغيري، زوجكِ ينكح شقيقتي. هذا ما فعله بالضبط، وهذه هي المسؤوليَّة التي كلَّف نفسه بها. وهكذا، دمَّر حياتي وحياة إنزو ومرغريتا والأطفال الثلاثة المساكين الذين كانوا صغارًا.

باتت الشمس على الجنبة الخضراء، فتلألأت الورود في أوانيها أكثر من القنديل الذي على شكل شُعلة. كان ضوء النهار يبثُّ النضارةَ في الألوان حتَّى بدت لي أضواءُ الموتى مطفأةً ولا جدوى منها. شعرتُ

أنّي حزينةٌ، حزينةٌ على فيتّوريا، على إنزو، وزوجته مرغريتا، والأبناء الثلاثة الصغار. هل من المعقول أنَّ والدي تصرَّفَ على هذا النحو؟ لم أستطع تصديق ذلك، فلطالما قال لي: أسوأ الأفعال يا جوفانّا هو الوشاية. فإذا به بحسب فيتّوريا يقترف الفعلة، حتّى لو كانت أسبابه منطقيَّة ـ كنت واثقةً من ذلك ـ فقد ارتكب ما ليس من شِيَمه، كلّا، استبعدتُ ذلك كلّيًا. لكنّي لم أجرؤ على قول ما أفكّر فيه لفيتّوريا. كان سيبدو إهانةً جارحةً لو أنّني ادَّعيتُ أنَّها تكذب أمام قبر إنزو، وفي السنويَّة السابعة عشرة على حبِّهما. فالتزمتُ الصمت، على الرَّغم من انزعاجي، لأنَّني وللمرَّة الثانية، لا أدافع عن أبي. نظرتُ إليها بريبةٍ، بينما كانت تهدّئ روعها بتنظيف الزجاج البيضويّ الواقي للصورة بمنديلها المخضَّب بدمعها. أثقل عليَّ الصمت عندئذٍ، فسألتها:

ـ «كيف توفّي إنزو؟»

ـ «بمرضٍ خبيثٍ جدًّا».

ـ «متى؟»

ـ «بضعة أشهر بعد أن انتهى بيننا كلُّ شيء».

ـ «هل توفّي متألّمًا؟»

ـ «أجل، متألّمًا. لقد مرض بسبب أبيكِ، الذي كان السَّبب في انفصالنا. لقد قتله».

قلت:

ـ «فلماذا لم تمرضي أنتِ أيضًا وتموتي؟ ألم تتألّمي؟»

حدَّقت إلى عينيَّ مباشرةً، حتّى أخفضتُ نظري على الفور.

ـ «أنا يا جانّي، لقد عانيتُ، وما زلت أعاني. إلّا أنَّ الألم لم يُمِتني، وذلك لأظلّ أفكّر بإنزو ما حييت، هذا أوّلًا. وثانيًا، كرمى لأبنائه، ولزوجته

أيضًا، لأنَّني امرأةٌ شهمة، شعرتُ بواجبي أن أساعدها على تنشئة أولئك الصغار الثلاثة، ولأجلهم عملتُ خادمةً في بيوت أكابر نصف نابولي، من الصباح حتى المساء. وثالثًا، بسبب الحقد، الحقد على أبيكِ، الحقد الذي يعينكِ على الاستمرار في الحياة، حتَّى لو لم يَعُدْ لديْك رغبةٌ في الحياة».

ألححتُ عليها:

«وكيف حدث أنَّ مرغريتا لم تغضب حين عرفت أنَّكِ سلبتِ منها زوجها، لا بل تلقَّت منكِ مساعدةً وقد سرقتِه منها؟»

أشعلت سيجارةً وسحبت منها نَفَسًا بقوَّة. لئن كان أبي وأمِّي لا يرفّ لهما رمشٌ إزاء أسئلتي، ويتملَّصان إذا شعرا بالإحراج، حتَّى إنَّهما كانا يتشاوران قبل أن يجيباني، كانت فيتّوريا على النقيض منهما تستثار أعصابها، وتتفوَّه ببذيء الكلام، وتبرز ضجرها بلا وازع، لكنَّها كانت تجيب في النهاية، بشكلٍ واضحٍ جدًّا، مثلما لم يفعل أيُّ شخصٍ بالغٍ معي من قبل. أترين أنَّي محقَّة؟ ـ قالت ـ أنتِ ذكيَّة، قحبةٌ صغيرةٌ وذكيَّةٌ مثلي، لكنَّكِ لعينةٌ جدًّا، تتظاهرين بالسماحة مع أنَّكِ تحبِّين إيغال السكِّين في الجرح. سرقتُ زوجها، هذا صحيح، معكِ حقّ، هذا ما فعلتُه بالضبط. لقد سرقتُ إنزو، انتزعتُه من مرغريتا وأبنائه، وكان الموت يطيب لي على أن أُرجِعه لها. هذا شيءٌ فظيعٌ ـ هتفت ـ ولكنْ إن كان الحبُّ جبَّارًا قويًّا، ففي تلك الأحيان، ينبغي فعلها. فأنتِ لا تختارين، إنَّما تفطنين أنَّه لولا الأشياء الشرِّيرة لما كان للأشياء الخيِّرة وجود، وتتصرَّفين على هذا الأساس إذ لا يُمكنكِ الاستغناء عن ذلك بعد. بالنِّسبة إلى مرغريتا، أجل، لقد غضبت، وما استعادت زوجها إلَّا بعد زعيقٍ وعراك، لكنَّها حين تنبَّهت لاحقًا أنَّ إنزو صار مريضًا، بمرضٍ تفجَّر في باطنه بعد أسابيع قليلةٍ من الأزمة، خاب رجاؤها، وقالت له ارحل، عد إلى فيتّوريا، أنا متأسِّفة، لو كنت أعلم أنَّك ستمرض لأرجعتُك إليها قبل

ذلك. ولكنْ فات الأوان. وهكذا تقاسمنا مرضه، أنا وهي، حتَّى الدقيقة الأخيرة. ما أطيب مرغريتا! امرأةٌ عظيمة، حسَّاسةٌ، أودُّ أن أعرِّفكِ عليها. ما إن استوعبت مقدار حبِّي لزوجها، ومقدار تعاستي من دونه، قالت: موافقة. لقد أحببنا الرجل نفسه، وأنا أتفهَّمكِ، فكيف لا تعشق المرأةُ رجلًا مثل إنزو. لذا، هذا يكفي، لقد أنجبتُ هؤلاء الصغار من إنزو، إن كنتِ تريدين أن تغمريهم بالمودَّة أنتِ أيضًا، فليس لديَّ أيُّ اعتراض. فهمتِ؟ فهمتِ كم هي كريمة؟ هل يمتلك أبوكِ أو أمّكِ أو أصدقاؤهما ـ وكلُّهم شخصيَّاتٌ مهمَّة ـ هل يمتلكون هذه الكرامة، هل يمتلكون هذه العزَّة؟

لم أدرِ بما أردُّ، فاقتصرتُ على الغمغمة:

ـ «لقد أفسدتُ لكِ السنويَّة، أنا آسفة. ما كان ينبغي لي أن أطلب منكِ قصّ هذه الحكاية».

ـ «لم تفسدي لي أيّ شيء، لا بل أسعدتِني. لقد تحدَّثتُ عن إنزو، وكلَّما تحدَّثتُ عنه ما تذكَّرتُ الألم فحسب، إنّما بعض اللَّحظات السَّعيدة أيضًا».

ـ «هذه هي النُّقطة التي أودُّ معرفتها مزيدًا».

ـ «السَّعادة؟»

ـ «أجل».

التهبت عيناها أكثر فأكثر.

ـ «هل تعلمين ما الذي يقع بين الذكور والإناث؟»

ـ «نعم».

ـ «تقولين نعم، لكنَّكِ لا تعلمين شيئًا. النيك، هذا ما يقع. هل تعرفين هذه الكلمة؟»

ارتجفتُ.

«أجل».

«لقد مارسنا أنا وإنزو ذلك الشيء إحدى عشرة مرَّة بالمجمل. ثمَّ عاد إلى زوجته، ولم أمارس مع غيره بعد ذلك اليوم إطلاقًا. كان إنزو يقبّلني ويتلمَّسني ويلعق كلّ شبرٍ من جسدي، وأنا بالمقابل، كنت أتلمَّسه وأقبّله من رأسه حتى أخمص قدميْه وأداعبه وألعقه وأمصّه. ثمَّ كان يولج أيره فيَّ ويمسك مؤخَّرتي بكلتا يديْه، يدٌ من هنا ويدٌ من هناك، وينكحني بقوَّةٍ تجبرني على الصراخ. إن لم تفعلي ذلك الشيء في حياتكِ كلّها، مثلما فعلتُه أنا، بالولع الذي فعلتُه به، وبالحبّ الذي فعلتُه به، لا إحدى عشرة مرَّة، بل مرَّة واحدة على الأقلّ، فحياتكِ بلا جدوى. أخبري أباكِ ما يلي: فيتّوريا قالت إنَّني إن لم أمارس النيك مثلما ناكها إنزو، فلا جدوى من حياتي. عليكِ أن تخبريه بذلك حرفيًا. لأنَّه يظنّ أنَّه بفعلته الشنيعة تلك، حرمني من شيءٍ ما! كلَّا لم يحرمني من شيء، فلقد حصلتُ على كلِّ شيء، وما زلت حتى الآن أحظى بكلِّ شيء. بل إنَّ والدكِ هو الذي لا يملك شيئًا».

لم أتمكَّن بعدُ من نسيان كلماتها تلك. كانت تردني على غير المتوقَّع، لم أتخيَّل قطُّ أنَّها قادرةٌ على التفوُّه بها. بالتَّأكيد، كانت تعاملني كامرأةٍ بالغة، وكنت سعيدةً لأنَّها منذ اللَّحظة الأولى، استغنت عن السُّلوك الذي ينبغي للناس أن يتحدَّثوا به مع طفلةٍ صغيرةٍ عمرها ثلاثة عشر عامًا. إلَّا أنَّ تلك الجمل كانت تردني مباغتةً عمومًا، حتَّى كدتُ أسدّ أذنيَّ بيديَّ. لم أفعل، بقيتُ متصلِّبةً بلا حراك؛ ولم أستطع حتَّى أن أشيح عن نظرتها التي كانت تبحث في وجهي عن تأثير كلماتها. فمن الناحية الجسديَّة ـ أجل، من الناحية الجسديَّة ـ كان صادمًا أن تحدِّثني بهذه الطريقة، هناك في المقبرة، أمام صورة إنزو، من دون أن تخشى أن يسمعها أحد. أوَّاه... يا لها من حكاية! ليتني أتعلَّم السَّرد بهذا الأسلوب، بعيدًا عن العُرف السَّائد

في بيتنا. فحتَّى تلك اللَّحظة، لم يطلعني أحدٌ على الانجذاب نحو المتعة اللَّحميَّة الهائمة. كنت منذهلةً حقًّا. انتابني إحساسٌ بالدفء في بطني أقوى بكثيرٍ من ذلك الذي راودني عندما رقصتُ معها. لا مجال للمقارنة بدفء بعض الدردشات الحميميَّة التي أجريها مع أنجيلا، ولا بالذبول الذي يأتي نتيجةً لمعانقتنا التي فعلناها مؤخَّرًا حين انغلقنا في حمَّام بيتي أو بيتها. عندما كنت أصغي إلى فيتّوريا، لم أكن أشتهي المتعةَ التي قالت إنَّها جرَّبتها فحسب، إنَّما خُيِّل إليَّ أنَّ تلك المتعةَ من المستحيل أن تحصل ما لم تكن متبوعةً على الفور بألمٍ ما يزال يعذِّبها، وإخلاصٍ نقيّ. ولأنّي لم أقل شيئًا، رمتني بنظراتٍ مقلقة، وغمغمت:

ـ «فلنذهب، لقد تأخَّر الوقت. ولكنْ تذكَّري هذا الموضوع دائمًا، هل أعجبكِ؟»

ـ «أجل».

ـ «كنتُ أعرف ذلك: أنا وأنتِ متطابقتان».

نهضتْ مطمئنَّةً. طَوَتِ المقعد، ثمَّ حدَّقت برهةً إلى السّوار ذي الصفائح اللَّازورديَّة، وقالت:

ـ «لقد أهديتكِ سوارًا أجمل من هذا كثيرًا».

ـ 6 ـ

تحوَّلَ اللقاءُ بفيتّوريا إلى عادةٍ بوقتٍ قصير. أذهلني والداي لأنَّهما لم يوبِّخاني معًا ولا فرادى. ولعلّي إن فكَّرتُ مليًّا، أجد هذا السُّلوك يتناسب كلِّيًّا مع خياراتهما في الحياة والتربية التي ربَّياني عليها. تجنَّبا أن يقولا لي: كان عليكِ أن تخبرينا سلفًا بموعدكِ مع العمَّة فيتّوريا. تجنَّبا أن يقولا لي: لقد خطَّطتِ للتغيُّب عن المدرسة وأخفيتِ الأمر عنَّا، هذا شيءٌ سيِّئٌ، وتصرُّفكِ كان غبيًّا. تجنَّبا أن يقولا لي: المدينة خطيرةٌ جدًّا، لا يمكنكِ الذهاب في أرجائها بهذه الطريقة، ففي سنِّكِ، قد يقع لكِ مكروهٌ من كلِّ الأنواع. تجنَّبا أن يقولا لي خصوصًا: انسي أمر تلك المرأة، فأنتِ تعرفين كم تكرهنا، لن تريها بعد الآن أبدًا. بل فعلا العكس من ذلك، لاسيَّما والدتي. أرادا أن يعرفا إذا ما كان المشوار الصباحيّ مثيرًا للاهتمام. سألاني عن انطباعي عن المقبرة. وضحكا ما إن بدأتُ أقصّ عليهما قيادة فيتّوريا السَّيِّئة. بل وحتَّى حين سألني والدي ـ بلا اهتمامٍ تقريبًا ـ عمَّا تحدَّثنا، وأشرتُ ـ بلا أيِّ نيَّةٍ تقريبًا ـ عن الشِّجار الذي وقع على ورثة البيت وعلى إنزو. لم ينفعل أبي، بل ردّ بإيجاز: أجل، لقد تشاجرنا، لم أكن أشاركها خياراتها، وكان من الواضح لديَّ أنَّ إنزو هذا إنَّما يسعى للاستيلاء على شقَّة أبويَّ، كان يخفي في بدلة الضابط منحرفًا، وقد وصلتْ به الوقاحة أن يهدِّدني بالمسدَّس، لذا حاولتُ أن أمنعه من تدمير حياة شقيقتي، فاضطررتُ إلى قول كلّ شيءٍ

لزوجته. أمَّا والدتي، لم تضف إلى تلك النُّقطة إلَّا أنَّ شقيقة زوجها، رغم طباعها السَّيِّئة، كانت امرأةً ساذجةً وينبغي الإشفاق عليها لا الغضب منها، لأنَّها بسذاجتها دمَّرت حياتها. في كلِّ حال ـ قالت لي لاحقًا، وجهًا لوجه ـ أبوكِ وأنا نثق بكِ وبأخلاقكِ السليمة، لا تخيِّبي ظنَّنا بكِ. وعندما قلتُ لها إنِّي أودُّ التعرُّف على بقيَّة أعمامي، الذين أوردتهم فيتّوريا في حديثها، وأبنائهم في حال وُجِدوا، لا بدَّ أن يكونوا في سنِّي، وضعتني والدتي في حضنها، وقالت إنَّها سعيدةٌ لأنِّي أرغب في إشباع فضولي، واختتمتْ: إن كنتِ تريدين رؤية فيتّوريا ثانيةً فافعلي، المهمّ هو أن تخبرينا بذلك.

تناولنا حينذاك احتماليَّة تكرُّر اللّقاءات، وما لبثتُ أن اتَّخذتُ نبرةً متعقِّلة. قلتُ إنِّي يجب أن أدرس، وإنَّ التغيُّب عن المدرسة كان خطأً؛ وإن كان عليَّ أن أرى عمَّتي، فسألقاها في يوم الأحد. وبطبيعة الحال، لم أشر إلى أنَّ فيتّوريا حدَّثتني عن حبِّها لإنزو. أحسستُ أنَّ والديَّ سيغضبان إن أنا اقتبستُ كلمةً واحدةً من تلك الكلمات.

بدأتُ فترةً أقلّ توتُّرًا بهذا الشكل. تحسَّن وضعي في المدرسة، في المرحلة النهائيَّة من العام، ونجحتُ بمعدَّل سبعة، وبدأت العطلة. فقضينا، بحسب عادةٍ قديمة، خمسة عشر يومًا من يوليو على البحر، في مقاطعة كالابريا، رفقة ماريانو وكوستانسا وأنجيلا وإيدا. وقضينا بصحبتهم أيضًا الأيَّام العشر الأولى من أغسطس في فيليتا باريرا في مقاطعة أبروتسو. طار الوقتُ بسرعة، وبدأ العام الدراسيّ الجديد، فذهبتُ إلى الرَّابع الإعداديّ، ليس في المدرسة المتوسّطة حيث يدرِّس أبي أو حيث تدرِّس أمِّي، إنَّما في إحدى مدارس حيّ ڤوميرو. ولم تتبدَّد العلاقة بفيتّوريا، بل توطَّدت. إذ كنت قد بدأتُ بالاتِّصال بها منذ ما قبل بداية العطلة الصيفيَّة، كنت أشعر بحاجةٍ إلى نبرتها الخشنة، وكنت أحبّ أن أُعامَلَ كما لو أنِّي في عمرها. وخلال

الإقامة على البحر وفي الجبل، ما فتئتُ أستحضر اسمها كلَّما تباهت أنجيلا وإيدا بأجدادهما الأثرياء وأقارب آخرين ميسوري الحال. وفي سبتمبر، بعد أن أخذتُ إذن والديَّ، رأيتُها مرَّتيْن. حتَّى إذا جاء الخريف أخيرًا، وانعدمت التوتُّرات المتعلِّقة بالأمر في بيتي، صارت لقاءاتنا أمرًا اعتياديًّا.

ظننتُ للوهلة الأولى أنَّني سأكون صاحبةَ الفضل في تقاربٍ يلمّ شمل الشقيقيْن، ووصلتُ إلى درجة اقتناعٍ بأنَّ وظيفتي تكمن في دفعهما إلى مصالحة. لكنَّ هذا لم يقع. بل راج بدلًا عن ذلك مذهبٌ من جمودٍ لا حدود له. كانت والدتي تصحبني إلى تحت بيت شقيقة زوجها، لكنَّها تأتي بشيءٍ تقرأه أو تصحِّحه وتنتظرني في السيَّارة؛ أو إنَّ فيتّوريا كانت تأتي لاصطحابي من سان جاكومو دي كابري، لكنَّها لا تدقّ بابنا على حين غرَّة مثلما فعلت في المرَّة الأولى، فكنتُ أنا التي أبلُغها في الطريق. لم تقل عمَّتي يومًا أشياء مثل: اسألي أمَّكِ إن كانت تريد الصعود، لعلَّها تشرب فنجان قهوة! ومن جهته، احترس والدي من جملٍ ارتجاليَّةٍ مثل: دعيها تصعد لتستريح قليلًا، وندردش ثمَّ تمضيان. ظلَّت كراهيتهما المتبادلة على حالها، وسرعان ما تخلَّيتُ أنا نفسي عن أيِّ محاولةٍ للتوسُّط. وبدأتُ أقول لنفسي بشكلٍ واضحٍ إنَّ هذا الحقد يفيدني: فإن تصالح أبي وشقيقته، لن تبقى لقاءاتي بفيتّوريا أمرًا طارئًا، وربَّما كنتُ سأنحدر إلى مستوى حفيدة؛ وممَّا لا شكَّ فيه سأفقد دوري كصديقة، حميميَّة، ومتواطئة. وفي بعض الأحيان، شعرتُ أنَّهما لو تصالحا، كان عليَّ حينها أن أصطنع مشكلةً ليتنازعا من جديد.

- 7 -

ذات مرَّة، وبدون مقدِّمات، صحبتني عمَّتي للتعرُّف على إخوتها الآخرين. ذهبنا إلى العمّ نيكولا، الذي كان عاملًا في قطاع السكك الحديديَّة. كانت فيتّوريا تسمِّيه الشقيق الأكبر، كما لو أنَّ والدي، النجل، لم يولد قطّ. وذهبنا إلى العمَّة آنّا والعمَّة روزيتّا، وهما ربتّا بيوت. الأولى متزوِّجةٌ بعاملٍ في مطبعة جريدة ماتّينو/الصباح، والثانية زوجةٌ لموظَّفٍ في البريد. كان المشوار بمثابة استكشاف صلة الرَّحم. فيتّوريا نفسها سمَّته كذلك بالعامِّيَّة قائلةً: تعالي لأعرِّفكِ على دمكِ. تنقَّلنا في أرجاء نابولي بسيَّارة «1500» الخضراء، إلى كافوني أوَّلًا حيث تقيم العمَّة آنّا، ثمّ إلى كامبي فليغيري حيث العمّ نيكولا، وصولًا إلى بوتزوولي حيت العمَّة روزيتّا.

أدركتُ أنَّني لا أذكر إلَّا القليل من هؤلاء القرابة، بل وربَّما لم أكن أعرف أسماءهم حتَّى. حاولتُ إخفاء الأمر، لكنَّ فيتّوريا استشعرت، وانبرت على الفور بمهاجمة والدي الذي حرمني من حنان أشخاصٍ ليس لديْهم دراساتٍ وليسوا جهابذة متفوِّهين، لكنَّ قلوبهم كبيرة! كم كانت تضمّ قلبها، بحركات يديْها اللَّتيْن ترتطمان بثدييْها الضخميْن، وتندب على صدرها بيدٍ عريضة، وأصابع غليظة. بدأت في تلك الظروف تنصحني: عليكِ أن تنظري إلينا وإلى والدكِ ووالدتكِ، ثمَّ أخبريني بالنتيجة. أصرَّت مرارًا على مسألة

النظر تلك. كانت تقول إنَّهما وضعا غمَّامات على عينيَّ كالحصان، أنظر فلا أرى ما كان من شأنه أن يضايقني. انظري، انظري، انظري، كانت تلحُّ عليّ.

وفي الواقع، لم تدعني أفوّت أيّ شيء. أولئك الأشخاص، وأبناؤهم الذين من جيلي أو يكبرونني قليلًا، كانوا بالنِّسبة إليَّ أمرًا مستجِدًّا ومستحَبًّا. جرجرتني فيتّوريا إلى بيوتهم من دون أن تخطرهم، ومع ذلك، استقبلني الأعمام وأبناؤهم بمودَّةٍ أسريَّةٍ كبيرة، كما لو أنَّهم يعرفونني جيِّدًا ولم يفعلوا شيئًا طيلة تلك الأعوام سوى انتظار زيارتي! كانت شققهم صغيرةً، ورماديَّةً، مؤثَّثةً بأغراضٍ كنت قد تربَّيتُ على وصفها بعديمة الذوق إن لم تكن سوقيَّة. لا وجود للكتب، ما عدا في بيت العمَّة آنّا حيث رأيتُ رواياتٍ بوليسيَّة. حدَّثوني جميعهم بالعاميَّة اللَّائقة ممزوجةً بالإيطاليَّة، وحاولتُ جاهدةً أن أفعل مثلهم. وفي كلِّ الأحوال، أوجدتُ حيِّزًا في إيطاليَّتي التي لا يُعلى على دقَّتها لبعضٍ من اللَّكنة النابوليَّة. لم يشر أحدٌ إلى والدي، لم يسأل أحدٌ عن صحَّته، ولم يوصني أحدٌ بنقل تحيَّاته إليه: دلائل بديهيَّة على عدائهم. لكنَّهم حاولوا بشتَّى الطرق أن يلمِّحوا لي بأنَّ مشكلتهم ليست معي. نادوني جانّينا، مثلما كانت فيتّوريا تناديني، ومثلما لم يناديني والداي على الإطلاق. أحببتهم جميعًا. لم أشعر أنَّني مستعدَّةٌ لتلقِّي المودَّة مثلما حدث في تلك المناسبات. وكنت تلقائيَّةً ومستمتعةً لدرجةِ أنِّي تخيَّلتُ أنَّ تلك التَّسمية التي أطلقتها عليَّ فيتّوريا ـ جانّينا ـ كانت ستولِّد منِّي بأعجوبةٍ شخصًا آخر يخرج من جسمي نفسه، شخصًا مختلفًا وألطف من جوفَّانا التي يعرفها والداي وأنجيلا وإيدا ورفاق المدرسة. كانت تلك مناسباتٍ سعيدةً بالنِّسبة إليَّ، وأعتقد أنَّها كذلك بالنِّسبة إلى فيتّوريا أيضًا، التي تصرَّفت بطريقةٍ رزينةٍ خلال تلك الزيارات، عوضًا عن استعراض الجانب العدوانيّ من طبعها. وأدركتُ أيضًا أنَّ أخاها وشقيقتيْها وأبناءهم وأقاربهم يتعاملون معها برقَّة، مثلما نتعامل مع شخصٍ عاثر الحظّ نكِنُّ له مودَّةً كبيرة. لاسيَّما

العمّ نيكولا، غمرها بلطيف الكلام، وتذكَّر أنَّها تهوى المثلَّجات بالفراولة، وحين عرف أنَّني أهواها أيضًا، أوفد أحد أبنائه لشرائها للجميع. عندما غادرنا، قبّلني على جبيني، وقال:

«لحسن الحظّ أنَّكِ لا تشبهين أباكِ بشيء».

تعلَّمتُ أثناء ذلك أن أخفي على والديَّ ما يقع لي. أو بالأحرى، حسَّنتُ طريقتي بالكذب عن طريق قول الحقيقة. فحين أكون في البيت وأسمع تحرّكهما بين الغرف بالخطوة المعتادة التي أحبّها، وحين كنّا نتناول الفطور معًا، والغداء، والعشاء، وكانت الغلبةُ تُكتَب لحبّي لهما، كنت أوشك على الصراخ: بابا، ماما، معكما حقّ، فيتّوريا تكرهكما، طباعها انتقاميَّة، تريد أن تنزعني من أيديكما سعيًا لإيذائكما، احمياني، وامنعاني من رؤيتها. ثمَّ ما إن يبدآ بالحديث بعباراتهما المفرطة في دقَّتها وصحَّتها، بنبرتهما المتحفِّظة، كما لو أنَّ كلَّ كلمةٍ تخفي كلماتٍ أخرى حقيقيَّةً يريدان تجنيبي إيَّاها، كنت أتَّصل بفيتّوريا بالسرّ، وأحدِّد موعدًا.

وحدَها والدتي تكفَّلت باستقصاءٍ لبقٍ عمَّا يحدث لي.

- «إلى أين ذهبتما؟»

- «إلى بيت العمّ نيكولا، يسلِّم عليكما».

- «كيف بدا لكِ؟»

- «مغفّلٌ بعض الشيء».

- «لا تتحدَّثي هكذا على عمّكِ».

- «يضحك دومًا وبلا سبب».

- «أجل، أذكر أنَّه يفعل ذلك».

- «لا يشبه أبي ولا حتَّى قليلًا».

- «هذا صحيح».

تورَّطتُ بزيارةٍ مهمَّة أخرى بعد تلك بفترةٍ قصيرة. صحبتني عمَّتي - من دون سابق إخطارٍ كالعادة - إلى مرغريتا، التي كانت تسكن في منطقةٍ ليست بعيدةً كثيرًا عن بيتها. وكانت تلك الأجواء كلُّها تحيي فيَّ مخاوف الطفولة. أتوتَّر بمجرَّد النظر إلى الجدران المتشقِّقة، والأبنية المنخفضة التي تبدو خاوية، والألوان المتراوحة بين الرماديّ والأزرق أو الآخذة إلى اصفرار، الكلاب الضارية التي تنبح وتلحق بالسيَّارة بعض الوقت، ورائحة الغاز. ركنت فيتّوريا السيَّارة، واتَّجهت نحو فِناء واسعٍ محاطٍ بالأبنية الصغيرة التي شحب لونها السماويّ، ودلفتْ إلى بوَّابةٍ صغيرة، ولم تلتفت إليَّ إلَّا عندما همَّت بصعود السلالم قائلةً: هنا تسكن زوجة إنزو وأبناؤها.

وصلنا إلى الطابق الثالث، وبدلًا من رنّ الجرس - وهذه هي المفاجأة الأولى - فتحت فيتّوريا الباب بمفتاحٍ لها. وقالت بصوتٍ عالٍ: ها نحن ذا. وسرعان ما دوَّت صيحةٌ متحمِّسةٌ بالعامِّيَّة - أوه كم أنا سعيدة - أعلنت عن ظهور امرأةٍ ضامرة، مفلطحة، متَّشحةٍ بالسَّواد كلِّيًّا، ووجهها الجميل بعينيْها الزرقاويْن بدا غارقًا داخل دائرةٍ من دهنٍ زهريّ. أجلستنا في مطبخٍ مظلم، وقدَّمتني لأبنائها، شابَّيْن فوق العشرين عامًا، تونينو وكورّادو؛ وفتاة، جوليانا، قد تكون في الثامنة عشرة من عمرها. كانت ممشوقةَ القوام، في منتهى الجمال، سمراء، وعيناها مرسومتان رسمًا، ولا بدَّ أنَّ والدتها كانت على شكلها في شبابها! حتَّى تونينو، الأكبر، كان وسيمًا، وجسده يوحي بالقوَّة، لكنَّه بدا لناظريَّ خجولًا إلى حدٍّ بعيد، احمرَّ وجهه ما إن صافحته، ولم يتوجَّه إليَّ بكلمةٍ إلَّا ما ندر. أمَّا كورّادو، الصريح الوحيد، بدا لي مطابقًا للرجل الذي رأيتُ صورته في المقبرة: الشعر المتموِّج ذاته، الجبين الضيِّق ذاته، العينان المتوقِّدتان ذاتهما، والابتسامة ذاتها. رأيتُ صورةً لإنزو معلَّقةً

على ظهر حائط المطبخ، يظهر فيها بزيّ الضابط، والمسدّس على خاصرته، صورةً أكبر بكثيرٍ من صورة المقبرة ـ وكانت مؤطَّرةً بما يليق بها، وهناك ضوءٌ ضئيلٌ يوهج مقدِّمتها. ولاحظتُ أنَّه كان طويلَ الجذع قصيرَ الساقيْن، حتَّى بدا لي ابنُه شبحَه الحيّ. لا أذكر كم مازحني وأمطرني بوابلٍ من المجاملات المضحكة، بأسلوبٍ رفيعٍ وجاذب؛ وكم استمتعتُ بأحاديثه، وكنت سعيدةً لأنَّه يضعني في قلب الاهتمام! لكنَّ مرغريتا رأته سمجًا، وغمغمت له غير مرَّة: كورّا، أنت قليل الأدب، دع الطفلة وشأنها. وأمرته بالعامِّيَّة أن ينهي ما بادر إليه. فصمت كورّادو وهو يحدِّق إليَّ بعينيْن لامعتيْن، في حين كانت جوليانا الحسناء، صاحبةُ المظهر الفائض والألوان المتأجِّجة، تغدقني بالسكاكر وتداريني وتلاطفني، وكان تونينو يغمرني بلطفٍ أخرس.

أثناء تلك الزيارة، حدث غالبًا أن اتَّجهت مرغريتا وفيتّوريا على حدٍّ سواء بنظراتهما إلى الرجل الذي في الصورة. وكثيرًا ما أوردتاه في حديثهما، بجملٍ غير منتهية، مثل: لو تعلمين كم كان إنزو سيستمتع بذلك؛ لو تعلمين كم كان سيغضب؛ لو تعلمين كم كان سيحبّ ذلك... ومن الوارد أنَّهما يتصرَّفان على ذلك النحو منذ قرابة العشرين عامًا، ثنائيٌ نسائيّ يستحضر الرجلَ ذاته. نظرتُ إليهما، وأمعنتُ فيهما. فتخيَّلتُ مرغريتا وهي شابَّة، على شاكلة جوليانا، وإنزو شابًّا على شاكلة كورّادو، وفيتّوريا شابَّةً على شاكلة وجهي، ووالدي ـ والدي أيضًا ـ تخيَّلته شابًّا مثلما كان في الصورة المحبوسة في الصندوق المعدنيّ، تلك التي يُقرَأ في خلفيَّتها «...يَّة». من المؤكَّد أنَّه في تلك الشوارع كان هناك «صيدليَّة»، «بقَّاليَّة»، «حلونجيَّة»، ومَن يدري! وكانوا يتمشُّون فيها مرارًا، فالتقطوا تلك الصورة أيضًا؛ وربَّما حدث الأمر قبل أن تختطف فيتّوريا المفترسة من مرغريتا الجميلة والحنون زوجَها ذا أسنان الذئب، أو ربَّما بعد ذلك أيضًا، خلال علاقتهما السرِّيَّة! ولم تتكرَّر النزهة بعدُ إطلاقًا، إذ أفشى والدي سرَّهما، ولم يَعُد هناك متَّسعٌ إلَّا للعذاب

المرير والغضب الهائج. لكنَّ الأزمنة تتغيَّر: ها هما الآن عمَّتي ومرغريتا تتحادثان بنبرةٍ وديعةٍ ومسالمة. وعلى الرَّغم من هذا، لم أتمكَّن من عدم التَّفكير بأنَّ الرجل الذي في الصُّورة طبطب على أرداف مرغريتا تمامًا مثلما فعلها مع عمَّتي عندما اختطفته منها، بقوَّةٍ وبراعة. تضرَّجتُ من هول ذلك الخاطر حتَّى قال لي كورَّادو: تفكِّرين بشيءٍ جميل. فكدتُ أصيح: لا، لا. لكنِّي لم أتمكَّن من التخلُّص من تلك الرؤى، وما زلتُ أشطح في خيالي هناك، في المطبخ المظلم، أنَّ هاتيْن المرأتيْن تحادثتا مرارًا، وبشكلٍ مفصَّل، عن أفعالِ وأقوالِ ذلك الرجل الذي تقاسمتاه، ولا بدَّ أنَّهما تعبتا كثيرًا قبل إيجاد توازنٍ بين المشاعر الطيِّبة والمشاعر الخبيثة.

حتَّى تقاسُمُ الأبناء لم يكن بالأمر الهيِّن. ومن الوارد أنَّه لم يكن كذلك آنذاك أيضًا. إذ ما لبثتُ أن انتبهتُ إلى ثلاثة أشياء على الأقلّ: أوَّلًا، كورّادو كان المفضَّل عند فيتّوريا، وهذا ما يزعج الآخرَيْن؛ ثانيًا، مرغريتا كانت امرأةً خضوعًا لعمَّتي، فأثناء حديثها، كانت تتلصَّص عليها لترى إن وافقتها الرأي أم لا، وإن لم توافقها، فكانت تبلع ما قالته على الفور؛ ثالثًا، الأبناء ثلاثتُهم كانوا يحبُّون والدتهم، وأحيانًا ما يدافعون عنها في وجه فيتّوريا، ومع ذلك، كانت تربطهم بعمَّتي محبَّةٌ أساسها الرَّهبة، يحترمونها كما لو أنَّها الإله المُهَيمن الذي خلقهم، ويهابون جانبها. اتَّضحت لي طبيعةُ علاقاتهم نهائيًّا عندما انتقل الحديث ـ لا أدري كيف! إلى أنَّ تونينو له صديق، يدعى روبرتو، وقد نشأ هناك في باسكوني، وقد هاجر إلى ميلانو مع عائلته قبل أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره، لكنَّه حينذاك، كان سيصل إلى نابولي في المساء وقد دعاه تونينو للمبيت عنده. الأمر الذي أغضب مرغريتا:

ـ «كيف خطر هذا في بالك؟ أين سينام؟»

ـ «لم أستطع أن أرفض طلبه».

ـ «لماذا؟ هل أنت مجبَرٌ فيه؟ هل أسدى لك معروفًا؟»

ـ «أبدًا».

ـ «فإذن؟»

تشاجرا قليلًا: انحازت جوليانا إلى صفّ تونينو، وكورّادو إلى أمّه. فهمتُ أنّهم جميعًا كان يعرفون الشابّ منذ أمدٍ بعيد، لأنّه كان رفيق تونينو في المدرسة، وأكّدت جوليانا بشَغَفٍ خالصٍ أنّه شخصٌ طيّبٌ ومتواضعٌ وذكيٌّ للغاية. وحده كورّادو كان يكرهه. توجّه نحوي، مصحّحًا رأي شقيقته:

ـ «لا تصدّقيها، إنّه قميء».

ـ «مضمض فمك حين تتحدّث عنه» غضبت جوليانا، بينما قال تونينو بعدائيّة:

ـ «يبقى أفضل من أصدقائك».

ـ «أصدقائي سيهشّمون مؤخّرته إن تفوّه ثانيةً بما قاله في المرّة الفائتة»، ردّ كورّادو.

ساد الصمت للحظة. التفتتْ مرغريتا وجوليانا وتونينو نحو فيتّوريا، وحتّى كورّادو توقّف عن الكلام كمن يسعى للتراجع عمّا قاله. كسبت عمّتي لحظة صمتٍ إضافيّة، ثمّ تدخّلت بنبرةٍ لم أكن أعرفها، متوعّدةً ومتألّمةً في الآن ذاته كأنّها تعاني من وجع المعدة:

ـ «ومَن هم أصدقاؤك هؤلاء، فلنستمع!»

ـ «لا أحد»، قال كورّادو بقهقهةٍ عصابيّة.

ـ «تتحدّث عن ابن المحامي سارجينتي؟»

ـ «لا».

ـ «روزاريو سارجينتي؟»

ـ «قلتُ لا أحد».

ـ «كورّا، أنت تعرف أنّني أهشِّم عظامك إذا ألقيتَ نصف تحيَّةٍ على هذا «اللّاأحد»».

احتقنت الأجواء، حتّى إنَّ تونينو ومرغريتا وجوليانا أنفسَهم بدوا لي مقبلين على التَّقليل من شأن خلافهم مع كورّادو، للحيلولة دون إشعال غضب عمَّتي. إلّا أنَّ كورّادو لم يستسلم، وعاد يتحدَّث بالسوء على روبرتو.

«في كلِّ الأحوال، لقد ولَّى إلى ميلانو. وليس له الحقّ في أن يُملي علينا كيف ينبغي لنا أن نتصرَّف هنا».

عندئذٍ، عاودت جوليانا غضبها، لأنَّ شقيقها لم يسعَ إلى التهدئة، ما أثار حفيظة عمَّتي، فقالت:

ـ «بل أنت مَن عليه أن يخرس، فأنا لا مانع عندي من الإصغاء إلى روبرتو على الدوام».

ـ «لأنَّكِ حمقاء».

ـ «كفى يا كورّا»، وبَّخته أمُّه «روبرتو فتًى من ذهب. ولكن يا توني ما الذي يرغمه على النوم عندنا تحديدًا؟»

ـ «لأنّي دعوته»، قال تونينو.

ـ «وما المشكلة؟ قل له إنَّك أخطأتَ التَّقدير، وإنَّ البيت صغير، وليس فيه متَّسع».

ـ «بل قل له» ـ عاد كورّادو يُقحِم نفسه ـ «ألَّا يطأ هذا الحيّ كلِّيًا، فهذا خيرٌ له».

فالتفت تونينو وجوليانا بخيبةٍ تغمر وجهيْهما إلى فيتّوريا في آنٍ معًا، كأنَّها هي المعنيَّة في حسم الجدال، بالحسنى أم بالزجر على حدٍّ سواء. وصُدمتُ بأنَّ مرغريتا نفسها تتوجَّه إليها، كأنَّها تقول: ماذا أفعل يا فيتّو؟

قالت فيتّوريا بنبرةٍ خفيضة: «أمّكم على حقّ، لا يوجد متَّسع، فليأتِ كورّادو للنوم عندي». ما قلَّ ودلّ. لمعت أعين مرغريتا وتونينو وجوليانا امتنانًا. أمَّا كورّادو فتأفّف، وحاول أن يقول شيئًا بحقِّ الضيف، لكنَّ عمَّتي فحَّت: اخرس. رفع الفتى ذراعيْه علامةً على الاستسلام، لكنَّه استسلامٌ على مضض. ثمَّ وقف خلف فيتّوريا، كما لو أنَّ الواجب أملى عليه إبداءَ الطاعة لها، وقبَّلها غير مرَّة، بقبلاتٍ صائتة، على عنقها ووجنتها. تظاهرتْ بالضجر منه، جالسةً إلى طاولة المطبخ، وقالت بالعامِّيَّة: يا أمَّنا العذراء، كم أنت دبقٌ يا كورّا! كان أولئك الثلاثة من دمائها بشكلٍ أو بآخر، فهل هم من دمائي أيضًا؟ أحببتُ تونينو وجوليانا وكورّادو، وحتّى مرغريتا. خسارةٌ أنَّني الواصلة الأخيرة، خسارةٌ أنَّني لا أتقن اللُّغة التي يتكلَّمون بها، وأنَّني لا أحاط بألفةٍ حقيقيَّة!

ـ 8 ـ

يبدو أنَّ فيتّوريا استشعرت إحساسي بالاغتراب، في لحظةٍ معيَّنة، وأرادت أن تساعدني على تخطِّيه؛ أمَّا في لحظاتٍ أخرى، فكانت هي التي تُبرزه عمدًا. يا عذراء ـ تهتف ـ انظروا، أيدينا متشابهة. فتقرِّب يديْها من يديَّ، ليلتصق الإبهام على الإبهام، ليفرز إحساسًا يثير عاطفتي. وددتُ لو عانقتُها بقوَّة، أو أن أستلقي بجانبها وأسند رأسي على كتفها، لأحسَّ بأنفاسها، وصوتها الخامّ. إلَّا أنَّها غالبًا ما كانت تؤنِّبني إذا قلتُ شيئًا يبدو لها خاطئًا، فتصيح: هذه البنت من ذاك الأب؛ أو تسخر من ذائقة والدتي باختيار ثيابي: أنتِ كبيرة، ألا تشعرين بثدييْكِ الكبيريْن، لا يجوز أن تخرجي من البيت بزيِّ الدُّمية، عليكِ أن تتمرَّدي يا جانّي، إنَّهما يدمِّرانكِ. ثمَّ تعاود لازمتها المفضلَّة: انظري إليهما، أبويْكِ، انظري إليهما جيِّدًا، لا تنخدعي!

كانت تعوّل على هذا الأمر كثيرًا، وكلَّما تلاقينا ألحَّت لأنقل لها كيف كانا يقضيان أيَّامهما. وبما أنّي كنتُ أقتصر على معلوماتٍ عامَّة، سرعان ما يأخذها الغيظُ فتسخر منّي بلؤم، أو تقهقه فاغرةً فمها الكبير. كانت تحنق من اقتصاري على إخبارها بأنَّ والدي منكبٌّ على الدراسة والأبحاث، وأنَّه ينال احترامًا وتقديرًا، حتَّى إنَّهم أصدروا له مقالةً في مجلَّةٍ شهيرة، وأنَّ والدتي تعشقه لأنَّه وسيمٌ وذكيّ، وأنَّ كليْهما بارعٌ في عمله، فهي تصحِّح

المسوَّدات وغالبًا ما أعادت كتابة قصص الحبّ المكتوبة للإناث خصّيصًا، كانت تعرف كلَّ شيء، وكانت في منتهى اللُّطف. أنتِ تودّينهما ـ تقول لي فيتّوريا والنقمة تتأجَّج في صدرها ـ لأنَّهما أبواكِ، ولكنْ إن لم تنتبهي أنَّهما خرائيَّان، ستصبحين خرائيَّةً مثلهما، ولن أطيق رؤيتكِ.

ولإسعادها، قلت لها ذات مرَّةٍ إنَّ والدي لديْه أصواتٌ كثيرة، وإنَّه كان يبدِّل بينها وفق ما يقتضيه الظرف. لديْه صوتُ المودَّة، صوتُ الغطرسة، صوتُ الجمود، ويستخدمها كلّها بإيطاليَّةٍ رفيعةٍ وجميلة، ولكنْ لديْه أيضًا صوتُ الاحتقار، بالإيطاليَّة أيضًا، ويميل به إلى العامّيَّة أحيانًا، ويستخدمه مع كلّ الذين يزعجونه، لاسيَّما الباعة النصَّابين، أو السَّائقين الذين لا يعرفون السياقة، ومع غير المهذَّبين. أمَّا عن والدتي، فرويتُ لها أنَّها كانت تتذلَّل بعض الشيء لإحدى صديقاتها التي تدعى كوستانسا، وكانت أحيانًا تسخط على زوجها، الصديق الأخويّ لوالدي، ماريانو، صاحب المزاح اللَّاذع. لكنَّها لم تتمّن حتَّى ذلك البوح المفصَّل، بل وصفته بالثرثرة التافهة. اكتشفتُ أنَّها تتذكَّر ماريانو، وعرَّفته بالمغفَّل، هيهات أن يكون صديقًا أخويًّا. غضبتْ من نعته بالأخويّ. أندريا ـ قالت بنبرةٍ فائقة الحدَّة ـ لا يعرف ما معنى الأُخُوَّة. أذكر أنَّنا كنَّا في بيتها، في المطبخ، وكانت السماء في الخارج تمطر على ذلك الشارع الكئيب. ويبدو أنَّني أظهرتُ ملامح الأسى على وجهي، وترقرق الدَّمع في عينيّ، ففوجئتُ وأُعجِبتُ بأنَّ قلبها رقَّ على حالتي مثلما لم يحدث من قبل. ابتسمتْ لي، وأتت بي إلى جوارها، وأجلستني على ركبتيْها وقبَّلتني بقوَّةٍ على خدّي، وعضعضتْهُ. ثمَّ همست بالعامّيَّة: اعذريني، مشكلتي ليست معكِ، إنَّما مع أبيكِ. ثمَّ دسَّت يدها تحت تنُّورتي، وطبطبت بكفِّها أكثر من مرَّةٍ ما بين فخذيَّ وردفيَّ. وردَّدت في أذني للمرَّة الألف: انظري إليهما جيّدًا، أبويْكِ، وإلَّا لن تُكتَبَ لكِ النجاة.

- 9 -

تلك الانفجاراتُ الودِّيَّة المباغتة، في داخل صوتٍ حزينٍ دائمًا أو يكاد، تضاعفت مع الأيَّام، وجعلت الضرورةُ إلى وجودها تتزايد عندي كثيرًا. وصار الوقتُ الفارغ الذي يفصل لقاءاتنا يمرّ ببطءٍ لا يُطاق، وكنتُ في خلال الفترات التي لا أراها، ولا أستطيع الاتِّصال بها أشعر بالحاجة إلى التَّحدُّث معها. وهكذا، غدوتُ أبوح لأنجيلا وإيدا أكثر وأكثر، بعد أن جعلتُهما تُقسِمان على الكتمان التامّ. كانتا الوحيدتيْن اللَّتيْن بوسعي الافتخار أمامهما بعلاقتي بعمَّتي، لكنَّهما في البداية، لم يرقْهما الاستماع عنها كثيرًا، وسرعان ما كانتا تنتقلان لتحدّثاني حكاياتٍ وأقاصيصَ عن أقربائهما الملهمين. وما لبثتا أن أعلنتا استسلامهما، فالأقارب الذين تحدّثاني عنهم كانوا دون مستوى مقارنتهم بفيتّوريا التي ـ مثلما كنت أصِفُها أنا ـ كانت خارجةً عن مألوف تجاربهما كلِّيًا. لأنَّ عمَّاتهما وبنات أعمامهما وجدَّيْهما كانوا سادةً مُترفين يسكنون في منطقة ڤوميرو، بوزيليبو، شارع مانزوني، وشارع تاسّو. أمَّا أنا، فكنتُ أُطلق العنان لمخيِّلتي فأضع شقيقة والدي في قلب منطقة المقابر والسيول والكلاب المسعورة ومشاعل الغاز وهياكل الأبنية الضخمة، وأقول: حظيتْ على قصَّةِ حبٍّ تعيسةٍ ووحيدة، لقد مات ألمًا على فراقها، لكنَّها ما تزال تحبّه وإلى الأبد.

ذات مرَّة، صارحتُهما بصوتٍ خفيضٍ جدًّا: عندما تتحدَّث العمَّة فيتّوريا عن ممارسة الغرام، تستخدم كلمة «النيك»، لقد قصَّت عليَّ كم وكيف تنايكا هي وإنزو. ذُهلت أنجيلا على وجه الخصوص من تلك النُّقطة، واستجوبتني مطوَّلًا، ولعلِّي بالغتُ في الإجابات، وقوَّلتُ فيتّوريا أشياءً كنتُ أنسجها في مخيِّلتي منذ زمن. غير أنَّني لم أشعر بالذَّنب، فالجوهريّ كان ذاك، وقد وصفتْه لي عمَّتي كذلك بالضبط. أنتما لا تعرفان ـ قلت متأثِّرةً ـ مدى الصداقة الجميلة التي تجمعني بها، نشعر أنَّنا متقاربتان كثيرًا، تعانقني، تقبِّلني، وغالبًا ما تقول إنَّنا متطابقتان. أغفلتُ معاركها مع والدي بطبيعة الحال، والمشادَّات حول ورثة بيتٍ قميءٍ وبائس، والوشاية التي نجمت عنها؛ بدت لي تلك الأشياء ممسوحةَ الكرامة حقًّا. إنَّما قصصتُ كيف تعايشت مرغريتا وفيتّوريا بعد وفاة إنزو في روحٍ من التعاون المثمر، وكيف تساعدتا على الاعتناء بالأولاد كما لو أنَّهما أنجبتاهم كلٌّ بحسب دورها، مرَّةً هذه ومرَّةً تلك. عليَّ أن أقول إنَّ هذه الصُّورة خطرت ببالي بغتةً، لكنَّني نقَّحتُها في قصصي اللَّاحقة، حتَّى كدتُ أصدِّق أنا نفسي أنَّ كليْهما أنجبتا تونينو وجوليانا وكورّادو بأعجوبة، لاسيَّما حين كنتُ أقصّ على إيدا، أكاد أمنح المرأتيْن قُدرةً على التَّحليق عاليًا في سماوات اللَّيل، أو قدرةً على ابتكارِ عقاقيرَ سحريَّةٍ باقتطاف الأعشاب المسحورة من غابات كابوديمونتي. المؤكَّد أنَّني قلت لها إنَّ فيتّوريا تحادث إنزو في المقبرة، وكان يمدُّها بالنصائح.

ـ «يتحادثان مثلما نتحادث أنا وأنتِ؟» سألتني إيدا.

ـ «أجل».

ـ «إذن، هو الذي أراد أن تكون عمَّتكِ أيضًا أمًّا لأبنائه».

ـ «لا شكَّ في هذا. لقد كان ضابطًا، بإمكانه أن يفعل ما يشاء، كان لديْه مسدَّسٌ أيضًا».

ـ «يعني، كما لو أنَّ أمِّي وأمَّكِ تصبحان أُمَّيْن لنا نحن الثلاث؟»

ـ «أجل».

توتَّرت إيدا كثيرًا، وأنجيلا ولعت بما حكيتُ أيضًا. وكلَّما أعدتُ سرد تلك القصص وأثريتُها، ازداد تعجُّبُهما وقالتا: جميلٌ جدًّا، أكاد أبكي. وبكلِّ حال، تزايد اهتمامهما خصوصًا عندما بدأتُ بالحديث عن كورّادو وكم كان طريفًا، وكم كانت شقيقته جوليانا جميلة، وكم كان شقيقه تونينو لافتًا! أنا نفسي تعجَّبتُ من الدفء الذي استخدمتُه لوصف تونينو. وكان اكتشافًا بالنِّسبة إليَّ أيضًا أنَّه أعجبني، على الرَّغم من أنَّه لم يولِّد لديَّ أيَّ انطباع للوهلة الأولى، حتَّى لقد بدا لي أشدّ الأشقَّاء ميوعةً. لكنَّني تحدَّثتُ عنه بكثرة، وصنعتُ صورته بجودة، لدرجة أنَّ إيدا الخبيرة بالروايات قالت لي: أنتِ مغرمة به؛ فأقرَّيتُ ـ لمعرفة ردَّة فعل أنجيلا خصوصًا ـ أنَّ هذا صحيح، كنت أحبُّه.

وعلى ذلك المنوال، توطَّدت حالةٌ كانت صديقتاي فيها تسألانني باستمرارٍ تفاصيلَ جديدةً عن فيتّوريا، وتونينو وكورّادو وجوليانا وأمّهم؛ ولم أكن أبخل عليهما. وقد جرت الأمور على نحوٍ جيِّدٍ حتى لحظةٍ معيَّنة. حدث أنَّهما بدأتا تطالبانني بالتَّعرُّف على العمَّة فيتّوريا، وتونينو على الأقلّ، فأجبتُ بـ لا على الفور. فهذا الشيء لي، صفوة مخيَّلتي التي كلَّما أجادت أشعرتني بالارتياح: لقد شطحتُ بعيدًا جدًّا، وكان الواقع سيشوّه الحال. ثمَّ إنِّي بتّ أستشعر الزَيْف في علاقة والديّ الهانئة، وكنتُ أجاهد بأقصى ما عندي أساسًا لإبقاء كلّ شيءٍ متماسكًا ومتَّزنًا. لا بدَّ أنَّها نقلةٌ خاطئة ـ ماما، بابا، هلَّا سمحتما لي باصطحاب أنجيلا وإيدا إلى العمَّة فيتّوريا؟ ـ وها نحن ذا في خضمّ انفجار المشاعر السَّيِّئة. لكنَّ أنجيلا وإيدا فضوليَّتان، ولجوجتان. مررتُ بخريفٍ عاصفٍ، عالقةً بين ضغوطات صديقتيَّ وضغوطات فيتّوريا.

فصديقتاي تريدان التحقُّق من أنَّ العالم الذي كنت أطلّ عليه أشدُّ إثارةً من العالم الذي كنَّا نسكن فيه حقًّا؛ وعمَّتي تبدو ميَّالةً لإبعادي عن ذلك العالم، وعنها، ما لم أُقرّ بأنَّني أصطفّ إلى جانبها لا إلى جانب أبي وأمِّي. لذا، بتُّ أشعر أنَّني خائبةٌ مع أبويّ، خائبةٌ مع فيتّوريا، وبلا سيماء صادقةٍ مع صديقتيَّ. وفي تلك الأجواء المكدِّرة، وبدون إرادةٍ منِّي تقريبًا، بدأتُ أتجسَّس على والديَّ جدِّيًّا.

- 10 -

كلُّ ما استطعتُ استقصاءه عن والدي كان عن تعلُّقه الصارخ بالمال. تنصَّتُّ أكثر من مرَّةٍ عليه وهو يُحادث أمِّي بصوتٍ منخفض، ولكنْ بأسلوبٍ لحوح، ويتَّهمها بأنَّها تُنفق الكثير من النقود وعلى أشياء تافهة. أمَّا ما تبقَّى فكان اعتياديًّا: المدرسة في الصباح، والدراسة بعد الظهر، والاجتماعات في المساء في بيتنا أو بيوت آخرين. وبالنِّسبة إلى والدتي، بشأن المال، سمعتُها تردُّ غالبًا، وبصوتٍ منخفضٍ دائمًا: إنَّها نقودٌ أجنيها بنفسي، لي الحقّ أن أنفقها لشراء شيءٍ يخصُّني. إلَّا أنَّ المستجدّ هو أنَّها كانت في السَّابق تحطُّ من قَدْر اجتماعات والدي، لاسيَّما للسخرية من ماريانو، وتسمِّيها «مؤامرات لتصحيح مسار العالم»، وفجأةً بدأت تشارك فيها. لا عندما تُعقَد في بيتنا فحسب، الأمر الذي أزعج والدي بكلِّ وضوح، بل عندما تُعقَد في بيوت الآخرين أيضًا، حتَّى إنَّني كنت غالبًا ما أقضي الأمسيات على الهاتف اتِّصالًا بأنجيلا أو بفيتّوريا.

عرفتُ من أنجيلا أنَّ كوستانسا لم تكن على درجةٍ سواءَ من فضول والدتي نحو الاجتماعات، وحتى لو عُقِدت عندها في البيت كانت تفضِّل الخروج أو مشاهدة التلفاز حدًّا أقصى، أو المطالعة. وانتهى بي المطاف لأنقل إلى فيتّوريا، مع بعض التردُّد طبعًا، تلك المشاحنات حول المال، وفضول والدتي المستجدّ نحو نشاطات والدي المسائيَّة. فامتدحتني بشكلٍ غير متوقَّع:

- «أدركتِ أخيرًا تعلُّقَ أبيكِ بالمال».

- «أجل».

- «لقد دمّر حياتي بسبب حبّه للمال».

لم أردّ، فكنتُ سعيدةً أصلًا، لأنّي عثرتُ في النهاية على معلومةٍ تسرّها. ألحّت عليّ:

- «ماذا تشتري أمُّكِ؟»

- «ملابس، سراويل. والكثير من الدُّهون».

- «الجميلة اللَّعينة»، هتفت فرحانةً.

فهمتُ أنَّ فيتّوريا كانت تريد معرفة أحداثٍ وتصرُّفاتٍ من ذلك النوع، لا لإثبات أنّها في جانب الحقّ ووالديَّ في جانب الباطل فحسب، بل دلالةً على أنّني أتعلُّم النَّظر إلى ما وراء المظاهر، والإدراك.

في المحصّلة، أسعدني أنّها ابتهجتْ بوشاياتٍ من ذلك القبيل. لم يكن في نيّتي الكفّ عن أن أكون ابنتهما، مثلما بدا أنّها تُطالب، فعلاقتي بأبويّ كانت قويّة، وكنتُ أستبعد أنّني سأكفّ عن محبّتي لأبي نتيجةً لاهتمامه بالمال، ولأمّي نتيجةً لإسرافها. كانت الخطورةُ تَكمن بالأحرى في أنّني أباشر لاإراديًّا بتلفيق القصص واختلاقها، إذا نقصتني الحكايات. وكلُّ ذلك في سبيل أن أنال إعجاب فيتّوريا، وأن أوطّد الثقة بيننا. ولكنْ لحسن الحظّ، كانت الأكاذيب التي خطرت في بالي مبالغًا فيها، كنتُ أنسب جرائمَ روائيّةً إلى عائلتي لدرجةِ أنّني توقّفتُ عن ذلك، وخشيتُ أن تقول لي فيتّوريا: أنتِ كاذبة. لذا صرت أبحث عن غرائبَ صغيرةٍ وواقعيّة، وأنفخها قليلًا. لم أكن طفلةً ودودةً حقًّا، كما لم أكن جاسوسةً موثوقةً حقًّا.

ذات مساء، ذهبنا للعشاء في بيت ماريانو وكوستانسا. بالهبوط إلى شارع شيماروزا، روَّعني نذيرُ شؤمٍ متمثِّلٌ بسحابةٍ عملاقةٍ سوداء تمطِّط أصابعها المثلَّمة. وما إن دخلتُ شقَّة صديقتيَّ الكبيرة حتى انتابني شعورٌ بالبرد، لم تكن التدفئة المركزيَّة قد شُغِّلت بعد، وكنت قد أتيتُ بسُترةٍ صوفيَّةٍ تراها أمِّي أنيقةً جدًّا. ولئن كان الطعام لذيذًا في بيت مضيفينا ـ لديْهم خادمةٌ صموت تطهو بشكلٍ ممتاز، وكنت أنظر إليها وأفكِّر بفيتّوريا التي تقدِّم الخدمات في شققٍ كتلك ـ لم أتذوَّق منه إلَّا القليل كي لا أوسِّخ السترة، وكانت والدتي قد نصحتني بعدم المجيء بها. مللنا، إيدا وأنجيلا وأنا، وانتظرنا الحلوى دهرًا كاملًا يغصّ بثرثرة ماريانو. وأخيرًا، بات بإمكاننا أن نستأذن النهوضَ عن الطاولة، وسمحتْ لنا كوستانسا بذلك. خرجنا إلى الممرّ، وجلسنا على الأرض، وبدأت إيدا ترمي كرةً مطَّاطيَّة حمراء لإزعاجنا أنا وأنجيلا، وعاودتْ إلحاحها بالسُّؤال متى أقرِّر أن أعرِّفهما على عمَّتي. كانت لجوجةً جدًّا في ذلك المساء:

ـ «هل تريدين رأيي؟»

ـ «ماذا؟»

ـ «برأيي، عمَّتكِ هذه ليست موجودة».

ـ «موجودة بالتَّأكيد».

ـ «إن كانت موجودة حقًّا، فهي ليست كما تروين عنها. ولهذا السَّبب لا تريدين أن تعرِّفينا عليها».

ـ «بل هي أفضل ممَّا أرويه عليكما».

ـ «خذينا إليها إذن»، قالت إيدا ورمتني بالكرة بقوَّة. فارتميتُ إلى الخلف لأتنحَّى عنها، ووجدتُني مستلقيةً على ظهري بين الحائط والباب المفتوح على غرفة الطعام. كانت المائدة التي ما زال آباؤنا يجلسون إليها

مستطيلةً، وموضوعةً في وسط الصالة. وكنت أراهم جانبيًّا من مكاني: والدتي جالسةٌ قبالة ماريانو، وكوستانسا قبالة والدي، وكانوا يتحادثون بموضوعٍ لا أدري ما هو. أبي قال شيئًا، كوستانسا ضحكت، ماريانو ردّ. كنت مستلقيةً على الأرض، ولم أكنْ أرى وجوههم بقدر ما رأيت خطوط سيقانهم وأقدامهم. ماريانو يمطّ ساقيْه تحت المائدة، ويتحدَّث مع والدي، وفي أثناء ذلك يضغط قدم والدتي بين قدميْه.

نهضتُ على استعجالٍ بشعورٍ غامضٍ بالعار، ورميتُ الكرةَ على إيدا بقوَّة. قاومتُ بضع دقائق، ثمَّ عدتُ للاستلقاء على الأرض. ما زالت ساقا ماريانو ممطوطتيْن تحت الطاولة، إلَّا أنَّ والدتي آنذاك قد سحبت قدميْها، والتفتتْ بكامل جسمها نحو والدي. كان يقول: إنَّنا في نوفمبر، ولكنَّ الطقس ما يزال حارًّا.

ماذا تفعلين؟ سألتني أنجيلا، وتمدَّدتْ عليَّ برفقٍ، شيئًا فشيئًا، وهي تقول: منذ وقتٍ قصيرٍ، كانت قامتانا متساويتيْن تمامًا؛ أمَّا الآن، انظري، صرتِ أطول قامةً منِّي!

- 11 -

لم تغفل عيني عن والدتي وماريانو طيلة السهرة لحظةً واحدة. شاركتْ في النقاش قليلًا، ولم تبادله أيّ نظرة، بل حدَّقتْ إلى كوستانسا أو أبي دائمًا، ولكنَّها بدتْ سارحةً في خواطرَ طارئةٍ ولا تراهما. أمَّا ماريانو، فقد عجز في إشاحة بصره عنها. كان ينظر إلى قدميْها تارةً، وركبتها تارةً، وأذنها تارةً أخرى، بنظرةٍ واجمةٍ ملؤها تعاسةً، تناقض نبرته المعتادة في أحاديثه الطريفة. وفي المرَّات النادرة التي تبادلا فيها الكلام، أجابت والدتي بمقاطعَ صوتيَّةٍ منفردة، وكان هو يحدِّثها بلا سببٍ وبصوتٍ خفيض، وبطريقةٍ مُغريةٍ لم أعهدها منه. بعد قليل، أخذت أنجيلا تلحّ عليَّ لكي أنام عندهم، ولطالما فعلتُ ذلك في تلك المناسبات، وكانت والدتي في العادة تسمح لي بعد أن تُدلي بجُمَلٍ موجزةٍ حول الإحراج الذي أُسبِّبه، بينما كان والدي يصرِّح بموافقته دومًا. إلَّا أنَّ الطَّلب هذه المرَّة لم يلقَ ترحابًا سريعًا، وتملَّصتْ منه أمِّي. فتدخَّل ماريانو الذي أشار إلى أنَّ اليومَ التالي يومُ أحد، لا مدرسة؛ وأكَّد لها أنَّه سيصحبني بنفسه إلى سان جاكومو دي كابري قبل الغداء. سمعتهم يتناقشون بلا جدوى، إذ كان من شبه المضمون أنَّني سأبقى للنوم هناك، وشكَّكتُ أنَّهما خلال ذلك النقاش ـ كلام أمِّي مبنيٌّ على مقاومةٍ ضعيفة، وكلام ماريانو على طلبٍ ملحاح ـ يلمِّحان إلى شيءٍ معروفٍ بالنِّسبة إليهما ومُبهمٍ بالنِّسبة إلى الجميع. وعندما وافقت والدتي أن أنام مع أنجيلا،

ارتسمت ملامح الجدِّيَّة على وجه ماريانو، شبه متأثِّر، كما لو أنَّ مبيتي عندهم سيحقِّق له نجاحًا في مسيرته الجامعيَّة، أو حلًّا لأزماتٍ متفاقمةٍ تثير اهتمامه واهتمام أبي منذ عقود.

قبل الحادية عشرة بقليل، وبعد تردُّدٍ كثير، قرَّر والداي الانصراف.

ـ «ليس لديْكِ ملابس نوم»، قالت أمِّي.

ـ «سترتدي أحدَ ملابسي»، قالت أنجيلا.

ـ «وفرشاة الأسنان؟»

ـ «فرشاتها موجودة، تركتها هنا في المرَّة الماضية، وقد احتفظتُ بها لها».

تدخَّلت كوستانسا بهزليَّةٍ لاذعةٍ حيال تلك المقاومة المستغربة ضدّ ما هو اعتياديّ. حين تبقى أنجيلا عندكم ـ قالت ـ ألا ترتدي منامة جوفانّا، ألا تستعمل فرشاتها؟ أجل، بالتَّأكيد؛ هادنت والدتي على مضض، وقالت: فلنذهب يا أندريا، تأخَّر الوقت. نهض والدي عن الأريكة بوجهٍ ملول، وطلب منِّي قبلةَ اللَّيلةِ السَّعيدة. أمِّي كانت مشتَّتة الذهن ولم تطلبها منِّي، بل قبَّلت كوستانسا على كلا الخدَّيْن، بقُبُلاتٍ مُفرقعةٍ لم تفعلها من قبل، بدت لي نابعةً من حاجتها إلى التَّشديد على عهد الصداقة القديم بينهما. كانت عيناها متوتِّرتيْن، ففكَّرتُ: ما بها، ليست بخير. همَّت بالتَّوجُّه نحو الباب، فإذا هي تتذكَّر فجأةً أنَّ ماريانو كان خلفها ولم تودِّعه، بل كأنَّها باعدت ظهرها عن صدره بغية تجاهله عنوةً، وفي تلك الوضعيَّة ـ كان والدي يودِّع كوستانسا ويهنِّئها على العشاء اللذيذ كالعادة ـ دارت رأسها مقرِّبةً إليه فمها. كانت لحظةً سريعةً، شعرتُ بدقَّات قلبي تنبض في حلقي، وظننتُ أنَّهما سيتبادلان قبلةً كما في السينما. لكنَّه بالكاد لامس خدَّها بشفتيْه، وكذا فعلت أمِّي.

وما إن خرج والداي، هَمَّ ماريانو وكوستانسا بتفريغ الطاولة، وأمرانا بالتحضُّر للنوم. لكنَّني لم أستطع استعادة تركيزي. ما الذي وقع تحت عينيّ، ما الذي رأيته: مزحةٌ بريئةٌ من ماريانو، فعلٌ محظورٌ متعمَّدٌ من جانبه، أم من كليْهما؟ ووالدتي التي لطالما كانت واضحةً، كيف استطاعت أن تغفر ذلك التلامس من تحت الطاولة، ومن قِبَلِ رجلٍ أقلّ جاذبيَّةٍ من والدي بكثير؟ لم يكن لديْها أيُّ استلطافٍ ناحية ماريانو ـ ما أغباه، قالت عنه مرَّتيْن في حضوري ـ ولم تتحفَّظ برأيها حتَّى أمام كوستانسا، إذ غالبًا ما سألتها، بنبرة المزاح المائع، كيف كانت تحتمل شخصًا لا يمكنه الحفاظ على صمته دقيقةً واحدة. فما المعنى من أن تكون قدمها ما بين قدميْه؟ ومنذ متى كانا في تلك الوضعيَّة؟ منذ ثانية، دقيقة، عشر؟ ولماذا لم تسحب والدتي ساقها مباشرةً؟ وماذا عن الشرود الذي استبدَّ بها فيما بعد؟ شعرتُ أنَّني مشوَّشة.

نظَّفتُ أسناني خلال وقتٍ أطول ممَّا يلزم، حتَّى إنَّ إيدا قالت بأسلوبها الشرس: كفى، ستهلكين أسنانكِ. كان الأمر يحدث دائمًا، حالما ننغلق في غرفتها وغرفة أنجيلا، تصبح عدائيَّة. وكانت في الواقع تخشى أنَّنا الأكبر منها سنًّا نريد إقصاءها عنَّا، لذا كانت تقطِّب وجهها احترازًا. ولهذا السَّبب، أعلنت على الفور، بنبرةٍ قتاليَّة، أنَّها تريد النوم هي أيضًا على سرير أنجيلا، ولن تنام على سريرها بمفردها. تشاجرت الشقيقتان بعض الوقت ـ السَّرير ضيِّق، ابتعدي، كلَّا، سيتَّسع لنا ـ لكنَّ إيدا لم ترضخ، ولم تكن لتفعلها في مناسباتٍ كتلك. فغمزتني أنجيلا بعيْن، وقالت لها: حسنًا، ولكنْ ما إن تغفين سأذهب أنا للنوم وحيدةً في سريركِ. ممتاز، هتفت إيدا مسرورةً وراضية، لا لأنَّها ستنام طوال اللَّيل بجانبي، بل لأنَّني لن أنام بجانب شقيقتها، وحاولت أن تُشعل حربًا بالوسائد. تصدَّيْنا لغزوتها على مضض، فكفَّت، وهيَّأت نفسها للنوم ما بيننا وأطفأت الضوء. وقالت تحت الظلام بنبرةٍ في غاية البهجة: إنَّها تمطر، كم يطيب لي أنَّنا معًا! لست نعِسةً،

فلنتحدَّث طوال اللَّيل، أرجوكما. لكنَّ أنجيلا أسكتتها، وقالت إنَّها خلافًا عنها كانت نعِسة. وبعد بضع ضحكات، لم يبقَ إلَّا صوتُ المطر ينقر على الزجاج.

وسرعان ما عادت إلى ذهني قدمُ والدتي بين قدميْ ماريانو. حاولتُ أن أطمس بريقَ الصورة، وغصبتُ نفسي على الاقتناع بأنَّها لا تعني شيئًا، مجرَّد مزحةٍ بين أصدقاء. فأخفقتُ. إن كانت لا تعني شيئًا ـ قلت لنفسي ـ فأروي القصَّة على فيتّوريا. من المؤكَّد أنَّ عمَّتي قادرةٌ على مساعدتي في تقييم أبعاد ذلك المشهد، ألم تدفعني بنفسها للتلصُّص على أبويَّ؟ انظري، انظري جيِّدًا، كانت تقول. وها قد نظرتُ، ورأيتُ شيئًا ما. كان يكفي أن أطيعها بإخلاصٍ أكبر لأعرف منها إن كنتُ بصدد أمرٍ تافهٍ أم لا. ولكنِّي ما لبثتُ أن أدركتُ عدمَ وجوب إخبارها بما رأيتُ، أبدًا، أبدًا. حتَّى لو لم يكن في الأمر شرٌّ من أيِّ نوع، ستستخرج منه فيتّوريا شرًّا بشتَّى الطُّرق. كانت ستقول لي مثلًا: لقد شهدتِ بعينيْكِ على الرَّغبة في النيك، لا الرَّغبة في الجُماع الظاهرة في الكتيِّبات التربويَّة التي يهديها لكِ أبواكِ، تلك الصور الملوَّنة، والتَّوضيحات الابتدائيَّة والمهذَّبة، إنَّما شيءٌ مقزِّزٌ ومضحكٌ في الآن معًا، مثل غسول الفم الذي نستخدمه للتخلُّص من التهاب الحلق. لم أكن سأغفر لنفسي تلك الخطوة. إلَّا أنَّ عمَّتي، بمجرَّد أن أتذكَّرها، تغزو رأسي بقاموسها الطافح بالرذالة الهائجة؛ وها إنِّي أرى بكلِّ وضوح، تحت الظلام، ماريانو وأمِّي يتجاذبان بالأساليب المطروحة في قاموس فيتّوريا. هل من المعقول أنَّهما قادران على تجريب تلك المتعة الاستثنائيَّة التي قالت فيتّوريا إنَّها قد جرَّبتها، بل وتمنَّت لي أن أجرِّبها بصفتها النعمةَ الحقيقيَّةَ الوحيدة التي ستخبِّئها لي الحياة؟ اقتنعتُ أخيرًا بعدم وجوب إخبارها بذلك المشهد، بمجرَّد أن خطر لي أنَّها ستستمع إلى الوشاية، ثمَّ تستخدم الكلمات التي وصفت بها علاقتها بإنزو، وتشنِّع بها أكثر بحقِّ والدتي للنَّيْل من خلالها من والدي.

ـ «نامت»، همست أنجيلا.

ـ «فلننم نحن أيضًا».

ـ «أجل، ولكنْ على سريرها».

شعرتُ بها تتحرَّك تحت الظلام بحَذَر. ثمَّ ظهرت من جانبي، وأخذت بيدي، فانسللتُ بحرصٍ، وتبعتها إلى السَّرير الآخر. تغطَّيْنا باللِّحاف جيِّدًا، كان الطقس باردًا. فكَّرتُ بماريانو، بأمِّي، فكَّرتُ بأبي إذا اكتشف سرَّهما. وعرفتُ يقينًا أنَّ كلَّ شيءٍ في بيتي سيتغيَّر نحو الأسوأ، وفي وقتٍ قريب. فقلت في نفسي: حتى لو لم أطلع فيتّوريا على ذلك، ستكتشفه بمفردها؛ أو لعلَّها على علمٍ مسبق، وما دفعتني للتجسُّس إلَّا لأرى بأمّ عيني. وشوشتني أنجيلا:

ـ «حدِّثيني عن تونينو».

ـ «طويل القامة».

ـ «وماذا أيضًا؟»

ـ «عيناه سوداوان وعميقتان».

ـ «أحقًّا يريد الارتباط بكِ؟»

ـ «أجل».

ـ «وإن ارتبطتما، هل ستتبادلان القبل؟»

ـ «أجل».

ـ «باللِّسان؟»

ـ «أجل».

عانقتني بشدَّةٍ وعانقتُها، مثلما كنَّا نفعل دائمًا حين ننام معًا. وبقينا هكذا، تدفع كلٌّ منَّا نفسَها للالتصاق أكثر وأكثر بالأخرى، أنا بذراعيّ

حول عُنقها، وهي بذراعيْها حول أردافي. نمت إليَّ رائحةٌ لها أعرفها جيِّدًا، كانت حادَّةً وحلوةً في الوقت نفسه، تمنح الدفء. شددتُ أكثر، وهمهمتُ، فكتمت أنجيلا ضحكةً على صدري، ونادتني تونينو. تنهَّدتُ وقلت: أنجيلا. فردَّدت من دون ضحك هذه المرَّة: تونينو، تونينو، تونينو؛ وأضافت: احلفي لي بأنَّكِ ستعرِّفينني عليه، وإلَّا ما عدنا صديقتيْن. فأقسمتُ لها على ذلك، وتبادلنا قُبُلاتٍ مطوَّلة، وداعبتِ الواحدةُ الأخرى. ورغم النُّعاس، لم نتمكَّن من الكفِّ عمَّا نحن فيه. كانت متعةً صافيةً، تجلو الكآبة، لذا بدت لنا تجاوزًا بلا مدعاة.

III

-1-

راقبتُ والدتي لأيَّام. فكلَّما رنَّ الهاتف وهُرعتْ بانتشاءٍ فاضح، وردَّت بصوتٍ عالٍ ينخفض تدريجيًّا حتى يستحيل همسًا، فكَّرتُ أنَّ المتَّصل كان ماريانو. وكلَّما استغرقتْ وقتًا طويلًا في الاعتناء بمظهرها، وجرَّبت فستانًا ثمَّ جرَّبت غيره وغيره، حتَّى إنَّها تناديني لتأخذ رأيي في أيِّ الفساتين يليق بها، كنت على يقينٍ تامٍّ بأنَّها ذاهبةٌ إلى لقاءٍ سرِّيٍّ بعشيقها؛ وقد تعلَّمتُ هذه التعابير من مطالعة مسوَّدات الروايات الرُّومانسيَّة أحيانًا.

اكتشفتُ في تلك الحالة أنَّني قد أصاب بغيرةٍ لا أشفى منها. وحتى تلك اللَّحظة، كنتُ متأكِّدةً أنَّ والدتي من ضمن ما أملك، وأنَّ الحقَّ في إبقائها للرعاية بي أمرٌ لا جدال فيه. وكان والدي - في مسرح مخيِّلتي - لي، ولها أيضًا من الناحية الشرعيَّة. كانا ينامان معًا، ويتبادلان القُبَل، وقد حبَّلها بي وفقًا للطريقة التي شرحاها لي عندما كنت في عامي السادس تقريبًا. كانت علاقتهما في رأيي أمرًا واقعًا؛ ولهذا السَّبب تحديدًا لم أضطرب بشأنها يومًا. لكنَّ أمِّي، خارج تلك العلاقة، وبشكلٍ متناقضٍ، كنت أراها غير قابلةٍ للتقسيم وغير قابلةٍ للاختراق، وليست مُلك أحدٍ غيري. وكنت أعتبر جسمها لي، وعطرها لي، بل وحتَّى ما يدور في رأسها من أفكارٍ لي؛ وكنتُ متأكِّدةً منذ أن تشكَّلت ذاكرتي بأنَّها لا تفكِّر إلَّا بي. أمَّا آنذاك، فجأةً، بات

من المعقول ـ وهنا أيضًا كنت أستخدم صياغاتٍ تعلُّمتها من الروايات التي كانت تعمل عليها ـ أنَّها تمنح نفسها لرجلٍ آخر خارج المواثيق الأُسريَّة، وفي الخفاء. وذلك الرجل يحسب نفسه مخوَّلًا لمداعبة قدمها بقدميْه من تحت الطاولة، وفي أماكن لا أعرفها قد يسكب لعابه في فمها، ويلعق حلمتيْها اللتيْن مصصتُهما ـ على حدّ تعبير فيتّوريا، بلكنةٍ عاميَّةٍ لا أُتقنها، لكنّي حينذاك ومن هول الخيبة، وددتُ جدًّا لو أتقنتُها ـ وكان يُمسك ردفها بِيَدٍ، وردفها الآخر بِيَد. عندما كانت تعود إلى البيت مُنهكةً تهجس بعوائق العمل وأمور المنزل، كنت أرى عينيْها ممتلئتيْن بالنُّور، وأشعر بلمسات ماريانو تحت ثيابها، وأشمُّ من كلِّ ناحيةٍ من جسمها، وهي التي لا تدخِّن، رائحةَ الدخان الفائح من أصابعه المصفرَّة بفعل النيكوتين. بدأتُ أتقزَّز منها، بمجرَّد لمسها عن غير قصد. ومع ذلك، لم أكن أتقبَّل خسارتي المتعة من الجلوس على ركبتيْها، واللَّعب بشحمة أذنيْها لإزعاجها ولسماعها تقول: كفى، لقد احمرَّت أذناي؛ فنضحك سويَّةً. لماذا تُقدِم على هذا؟ كنتُ أتساءل غاضبةً. لم أجد أيَّ سببٍ يبرِّر خيانتها. لذا حاولتُ أن أوظِّف نفسي لإعادتها إلى ما قبل ذلك التلامس تحت المائدة واستعادتها مثلما كانت، عندما كنتُ لا أعرف كم أنا معلَّقة بها، بل كان يبدو لي من البديهيّ أنَّها معي، مستعدَّةٌ لتلبية احتياجاتي، وأنَّها ستبقى كذلك دومًا.

- 2 -

في تلك الحقبة، تجنَّبتُ الاتِّصال بفيتّوريا وملاقاتها. وفكَّرتُ مبرِّرةً: هكذا يسهِّل عليَّ أن أقول لأنجيلا وإيدا إنَّها مشغولةٌ وليس لديْها الوقت حتَّى لرؤيتي. لكنَّ السَّبب كان مختلفًا: كنتُ أوشك على البكاء دائمًا، وبتُّ أعرف أنَّني لن أستطيع أن أبكي وأصرخ وأجهش بحرِّيَّةٍ مُطلقةٍ إلَّا بجانب عمَّتي. آهٍ، أجل! كنت أريد لحظةَ تنفيس، لا كلامًا، ولا أسرارًا، لا أريد إلَّا انفجارًا للألم. ولكنْ مَن كان يضمن ـ في اللَّحظة التي أنفجر فيها باكيةً ـ أنَّني لن أفضح مسؤوليَّتها، وأنَّني لن أصيح بكلِّ ما أوتيتُ من غضبٍ أنَّها هي التي قالت لي أن أفعل ذلك: نظرتُ تمامًا مثلما أوصتني، حتَّى أدركتُ أنَّه ما كان ينبغي فعلها، تحت أيِّ ظرف، لأنَّني اكتشفتُ أنَّ رجلًا مقرفًا، هو أعزّ أصدقاء والدي، كان يداعب أقدام أمِّي بقدميْه خلال العشاء، وأنَّ والدتي لم تنتفض لكرامتها ولم تصرخ بعالي الصوت: كيف تسوِّل لك نفسك؟ لا، بل تركته يواصل فعلته. كنت أخشى في المحصِّلة أنَّني إذا رضختُ للبكاء تراجعتُ عن قراري بالسُّكوت، وهذا ما لم أكن أريده. كنت أعلم جيِّدًا أنَّه ما إن أُسرَّ لفيتّوريا، كانت سترفع سمَّاعة الهاتف على الفور لتفشي كلَّ شيءٍ لوالدي، وتتمتَّع بإيذائه.

ثمَّ ماذا؟ هدأ خاطري رويدًا رويدًا. وتمعَّنتُ للمرَّة الألف بالمشهد الذي رأيتُه. أقصيتُ المخيَّلة تمامًا، وحاولتُ يومًا بعد يومٍ أن أرفض فكرةَ

أنَّ عائلتي ستقع في مصيبة. كنت أشعر بالحاجة إلى رفيق، أردتُ أن أشرد عن مخاوفي. لذا تردَّدتُ إلى أنجيلا وإيدا أكثر من السَّابق، الأمر الذي متَّنَ طلبهما بلقاء عمَّتي. وفكَّرتُ في النهاية: ما ذا يكلِّفني؟ ما الضرر في ذلك؟ لذا، قرَّرت ذات مساء أن أسأل والدتي: ماذا لو صحبتُ أنجيلا وإيدا إلى العمَّة فيتّوريا في يوم أحد؟

بصرف النَّظر عن هواجسي، كانت أمِّي في تلك الفترة مشغولةً جدًّا في أعمالها. كانت تركض إلى المدرسة، تعود إلى البيت، تخرج من جديد، تعود، تنغلق في غرفتها للعمل حتى ساعةٍ متأخِّرةٍ من اللَّيل. كنت شبهَ واثقةٍ من أنَّها ستجيبني سارحة البال: لا بأس. لكنَّها لم تبدُ سعيدة.

ـ «وما شأن أنجيلا وإيدا بالعمَّة فيتّوريا؟»

ـ «إنَّهما صديقتاي، وتريدان التَّعرُّف عليها».

ـ «أنتِ تعلمين أنَّ العمَّة فيتّوريا لن تشكِّل انطباعًا حسنًا».

ـ «لماذا؟»

ـ «لأنَّها ليست امرأة يليق تقديمُها».

ـ «يعني؟»

ـ «كفى، ليس لديَّ وقتٌ للنقاش الآن. بالنِّسبة إليَّ، أنتِ أيضًا عليكِ أن تكفِّي عن رؤيتها».

غضبتُ. قلت إنَّني سأتحدَّث بالأمر مع والدي. ودوَّى في رأسي خاطرٌ، مخالفٌ لإرادتي: أنتِ التي لا يليق تقديمُها، لا العمَّة فيتّوريا؛ سأُخبر أبي الآن ماذا تفعلين مع ماريانو وستدفعين الثمن. لم أنتظر أن تؤدِّي دورها المعتاد بالوساطة، اتَّجهتُ إلى أبي في مكتبه فورًا، وشعرتُ أنِّي قادرةٌ حقًّا على أن أقلب فوق رأسه ما رأيتُه، إضافةً إلى ما فطنتُ إليه ـ فوجئتُ من

نفسي، كنت مذعورةً، ولا أقوى على كبح ثَوَراني. ولكنّي ما إن دخلتُ إلى الغرفة، وكدتُ أصيح أنّي أريد أن تتعرَّف أنجيلا وإيدا على فيتّوريا كما لو كانت مسألة حياةٍ أو موت، رفع أبي نظره عن أوراقه، وقال بلهجةٍ ودودة: لا داعي للصياح، ما الذي حدث؟

شعرتُ بالارتياح على الفور. وتراجعتُ عن الوشاية التي كانت على رأس لساني، وقبّلته على خدّه بقوَّة، وأخبرته عن مطلب أنجيلا وإيدا، واشتكيتُ من موقف والدتي. حافظ على لهجته المسالمة، ولم يمنع عنّي المبادرة، لكنَّه كرَّر خلافه مع شقيقته. قال: فيتّوريا هي مشكلتكِ أنتِ، فضولٌ يخصُّكِ أنتِ، ولا أريد أن أُقحم أنفي، لكنَّكِ سترين أنَّها لن تنال إعجاب أنجيلا وإيدا.

على الضفَّة الأخرى، حتى كوستانسا التي لم ترَ عمَّتي يومًا في حياتها، أبدت معارضتها، كأنَّها تشاورتْ في الأمر مع أمّي. ولا بدَّ أنَّ ابنتيْها بذلتا قُصارى الجهد للحصول على إذنها، أطلعتاني على اقتراح أمّهما: ادعوها إلى هنا، عندنا، أو التقوا بها في أحد مقاهي ساحة فانفيتيلي، ما يكفي لإرضاء جوفانّا، ثمَّ السَّلامة. أمَّا ماريانو، فلم يكن أهون من زوجته: ما الحاجة لقضاء يوم الأحد مع تلك السيّدة، ثمَّ إنَّ الذهاب إلى هناك في أسفل، يا إلهي! مكانٌ مريعٌ، ليس فيه ما يثير الاهتمام. إلَّا أنَّه في نظري لا يحقّ له حتَّى أن يفتح فمه. لذا قلت لأنجيلا، بالكذب عليها، إنَّ عمَّتي قالت إمَّا أن نذهب إليها في البيت، وإمَّا فلا. وفي النهاية، رضخ ماريانو وكوستانسا، لكنَّهما رتَّبا الخطوات بالتَّفصيل بالتشاور مع أبويَّ: ستمرّ فيتّوريا لتأخذني في التاسعة والنُّصف؛ ثمَّ نذهب معًا في العاشرة لنأخذ أنجيلا وإيدا؛ وفي العودة، ستُنزِلهما في بيتهما حوالى الثانية بعد الظهر، وأنا في بيتي عند الثانية والنصف.

اتَّصلتُ بفيتّوريا حينذاك، فعلتُها بخوفٍ في الواقع، لأنّي لم أستشرها في شيءٍ منذ زمن. كانت فظّةً كالعادة. وبّختني لأنّني اختفيتُ طوال تلك المدّة، لكنّها في النهاية بدت سعيدةً لأنّي أردتُ أن أعرّف صديقتيَّ عليها. قالت: كلُّ ما يرضيكِ يرضيني. وافقتْ على المواعيد المتعنّتة المفروضة علينا، مع أنَّ نبرتها جاءت كمَنْ يفكّر في سرّه: طبعًا، وكيف لا، أنا أفعل ما يحلو لي.

- 3 -

وهكذا، في يوم أحد، عندما كانت واجهات المحلّات قد ازدهت بزينة الميلاد، وصلت فيتّوريا على الموعد تمامًا إلى بيتي. كنتُ على درجةٍ من الارتباك، أنتظرها منذ ربع ساعةٍ أمام البوّابة. بدت لي مبتهجةً، هبطت بسيّارتها الـ «1500» بسرعةٍ فائقةٍ لغاية شارع شيماروزا وهي تدمدم وتفرض عليَّ أن أغنّي معها أيضًا. وهناك، وجدنا كوستانسا تنتظر مع ابنتيْها، كانت ثلاثتهنَّ جميلاتٍ ومهندماتٍ كأنَّهنَّ في دعايةٍ تلفزيونيّة. وإذ انتبهتُ على الفور أنَّ عمّتي لم تركن السيّارة على الرصيف، وكانت سيجارتها بين شفتيْها، تسجّل الأناقة القصوى لكوستانسا بنظرةِ ازدراء، قلتُ بنبرةٍ قلقة:

«لا تنزلي، سأطلب من صديقتيّ أن تصعدا وننطلق».

لكنّها لم تسمعني حتّى، إنّما ضحكت وغمغمت بالعامّيّة:

«ما بال هذه المرأة، هل تنام بهذه الملابس أم أنَّ لديْها حفل استقبال في الصباح الباكر؟»

خرجتْ من السيّارة، وسلّمت على كوستانسا باحترامٍ مفرطٍ لدرجة أنّه ظهر مصطنعًا بكلٍّ وضوح. حاولتُ أن أنزل أنا أيضًا، لكنَّ فُتحة الباب كانت مستعصية؛ وبينما كنتُ أصارعها، كنت أراقب ارتباك كوستانسا

الكبير وهي تبتسم بلُطف، تُمسك بأنجيلا من جانب وإيدا من الآخر، في حين كانت فيتّوريا تقول شيئًا ما وهي تشطر الهواء بتلويحاتها الواسعة. أملتُ أنَّها لا تستخدم الكلمات البذيئة. وفي تلك الأثناء، انفتح الباب فنزلتُ راكضةً لأسمع عمَّتي تغمر صديقتيَّ بالمجاملات، نصفها بالإيطاليَّة ونصفها بالعامِّيَّة:

ـ «جميلتان، جميلتان، جميلتان. مثل أمّهما».

ـ «شكرًا»، قالت كوستانسا.

ـ «وما هذه الأقراط الجميلة؟»

راحت تمتدح أقراط كوستانسا ـ ولمستها بأصابعها ـ ثمَّ انتقلت إلى الطوْق، والفستان. تلمَّستْ كلَّ شيءٍ بغضون ثوانٍ، كما لو أنَّها أمام إحدى دمى الأزياء المزيَّنة. خشيتُ عندئذٍ أن تنتزع قطعةً من الفستان لتتفحَّص الجوارب والسّروال، كانت قادرةً على ذلك. إلَّا أنَّها هدأت فجأةً، كأنَّ حبلًا خفيًّا التفَّ على عُنقها ليذكّرها بأن تكون أكثر رصانةً، وتوقَّفت بتعبيرٍ جادٍّ للغاية على السّوار الذي تضعه كوستانسا في معصمها، السّوار الذي أعرفه جيِّدًا، العزيز على قلب كوستانسا كثيرًا، المصنوع من الذهب الأبيض، والمزوَّق بالياقوت والزُّهيْرات لامعة التويجات، ساطعًا حقًّا، بمعنى أنَّه يشعّ نورًا، حتَّى والدتي كانت تحسدها عليه.

ـ «ما أجمله»! قالت فيتّوريا وهي تحمل يد كوستانسا، وتتلمَّس الجوهرة بأناملها بحيث بدا لي السّوار محطّ إعجابٍ بصراحة.

ـ «أجلْ، يُعجبني كثيرًا».

ـ «عزيزٌ عليكِ؟»

ـ «أحبُّه، وهو عندي منذ أعوامٍ بعيدة».

ـ «توخَّي الحَذَر إذن، فهو جميلٌ يجذب أنظارَ النشَّالين فيسرقونه منكِ».

ثمَّ تركتْ يدها كما لو أنَّ المدائح استُبدِلت بغتةً بحركة اشمئزاز، وعادت إلى أنجيلا وإيدا. قالت بهيئةٍ مصطنعةٍ إنَّهما أغلى من كلّ أساور العالم، وأركبتنا في سيَّارتها، بينما كانت كوستانسا توصينا: كنَّ عاقلات يا بنات، لا تجعلنني أقلق عليكنّ، سأنتظركنَّ هنا في الساعة الثانية. وبما أنَّ عمَّتي لم تردّ، بل انطلقت بأشدّ تعابيرها استياءً، ومن دون أن تودّعها، اضطررتُ إلى الصياح من النافذة بلهجةٍ تصطنع الفرح: أجل يا كوستانسا، في الساعة الثانية، لا تقلقي.

مكتبة
t.me/t_pdf

- 4 -

سلكت فيتّوريا الطريقَ الدائريّ، بقيادتها المتهوِّرة وعديمة الخبرة، ثمَّ ظلَّت تهبط أسفل فأسفل لغاية باسكوني. لم تكن لطيفةً مع صديقتيّ، وغالبًا ما وبَّختهما خلال الرحلة، لأنَّهما تتحدَّثان بصوت عالٍ. كنت أصيح أنا أيضًا، لأنَّ المحرِّك يُصدِر قرقعةً مُدوِّية، ومن الطبيعيّ أن يرفع المرء صوته، لكنَّها لم تتضايق إلَّا منهما. حاولنا أن نسيطر على أنفسنا، فغضبت بكلِّ الأحوال، قائلةً إنَّ رأسها يوجعها، وفرضت علينا ألَّا نفتح أفواهنا حتَّى. لاحظتُ أنَّ هناك شيئًا لم يُعجبها، ربَّما لم تستلطف الفتاتيْن، يصعب الحُكم على ذلك! قطعنا شوطًا كبيرًا من دون أن ننبس بكلمة: أنا بجانبها، وأنجيلا وإيدا جالستان على المقعد الخلفيّ غير المريح إطلاقًا. إلى أن حطَّمت عمَّتي الصمت بنفسها فجأةً، لكنَّ صوتها كان أجشَّ بطابعٍ لئيم، سألت البنتيْن:

ـ «وأنتما أيضًا لم تحصلا على المعموديَّة؟»

ـ «لا» ردَّت إيدا متأهِّبة.

ـ «ولكن»، أضافت أنجيلا، «بابا يقول إنَّنا إذا أردنا بوسعنا أن نتعمَّد حين نصبح كبيرتيْن».

ـ «وماذا لو متُّما قبل ذلك؟ هل تعلمان أنَّكما ستنتهيان باللمبو؟»[1]

ـ «ليس للّمبو وجود»، قالت إيدا.

ـ «وليس للفردوس وجود أيضًا، ولا المطهر ولا الجحيم»، أضافت أنجيلا.

ـ «ومَن قال ذلك؟»

ـ «بابا».

ـ «وبرأيه، أين يضع الربّ أولئك الذين ارتكبوا الحرام، وأولئك الذين لم يرتكبوه؟»

ـ «حتَّى الربّ ليس له وجود»، قالت إيدا.

ـ «ولا وجود حتَّى للحرام»، أوضحت أنجيلا.

ـ «وهل قال لكما أبوكما ذلك أيضًا؟»

ـ «نعم».

ـ «أبوكما حقير».

ـ «الشتائم لا تجوز»، أنَّبتها إيدا.

تدخَّلتُ خشية أن ينفد صبر فيتّوريا كلِّيًا:

ـ «الحرام موجود: يوجد عندما لا توجد الصداقة، فينعدم الحبّ، فنفتقد شيئًا جميلًا».

ـ «أرأيتما؟ ـ قالت فيتّوريا ـ جانّينا تفهم الأمور، أمَّا أنتما، فلا».

ـ «ليس صحيحًا، أنا أفهم أيضًا»، سخطت إيدا. «الحرام مجرَّد شعورٍ بالمرارة. فنحن نقول ـ يا حرام ـ عندما يسقط شيءٌ يعجبنا على الأرض ويتكسَّر».

---

(1) اللَّمبو: هي أولى دوائر الجحيم المخصَّصة لأولئك الذين لم يفعلوا خيرًا ولا شرًّا، فلا استحقُّوا الفردوس ولا استحقُّوا الجحيم. وبينهم الأطفال الذين تُوفُّوا قبل حصولهم على المعموديَّة. (المترجم)

انتظرت الثناء، لكنَّه لم يأتِ، سوى أنَّ عمَّتي قالت: «مرارة، ها؟» إلَّا أنِّي رأيتها ظالمةً بالتَّصرُّف هكذا مع صديقتي، كانت لبيبةً للغاية على الرَّغم من صغر سنِّها، تلتهم كتبًا مهمَّةً، وقد نالت ملاحظتها إعجابي. لذا ردَّدتُ مرَّةً أو اثنتيْن: يا حرام، أردتُ أن تسمعها فيتّوريا جيِّدًا، يا حرام، يا حرام. وفي تلك الأثناء، ازداد قلقي، بلا أيِّ سببٍ محدَّد. ربَّما لأنِّي فكَّرتُ كيف أصبح كلُّ شيءٍ متزعزعًا، ولأنَّني تذكَّرتُ الجملةَ السَّيِّئةَ التي قالها والدي عن وجهي، ولأنَّني تذكَّرتُ كيف جاءني الحيْض، وكيف انتفخ صدري... مَن يدري! ما العمل؟ لقد أعطيتُ الكلمات التي جرحتني أكبر من حجمها؛ وأعطيتُ قدرًا لهذه العمَّة أكثر ممَّا تستحقّ. آهٍ... يا ليتني أعود طفلةً صغيرة، قبل ستَّة أعوام، سبعة، أو ثمانية، أو ما قبل ذلك أيضًا، لكي أمحو كلّ الخطوات التي قادتني إلى أقدام ماريانو ووالدتي، وإلى الحبس الذي كنت فيه داخل تلك السيَّارة بوضعٍ محرجٍ وسيِّئٍ جدًّا، والخوف الدَّائم من التصادم بسيَّارةٍ أخرى، أو الخروج عن المسار، حتَّى كنت سأموت بين اللَّحظة والأخرى، أو أتعرَّض لجروحٍ بالغة، أن أفقد ذراعًا أو ساقًا، أو أن أصير كفيفةً بقيَّة حياتي.

«أين نحن ذاهبون؟» سألتُ، وكنت أعرف أنَّ سؤالًا كهذا بمثابة خرق؛ ففي الماضي، تجرَّأتُ مرَّةً واحدةً على طرح سؤالٍ من هذا النوع، فإذا بفيتّوريا تردّ بانفعال: ليس شأنكِ. أمَّا في تلك الحالة، فبدت أنَّها مستعدَّةً للإجابة بسرور. لم تنظر إليَّ، إنَّما إلى أنجيلا وإيدا عبْر المرآة الأفقيَّة، وقالت:

- «إلى الكنيسة».

- «نحن لا نعرف أيًّا من الصلوات»، أنذرتُها.

- «سيِّئ. عليكنَّ أن تتعلَّمنها، فهي أشياءٌ مفيدة».

ـ «لكنَّنا لا نعرفها حتى اللَّحظة».

ـ «الآن، لا مشكلة. الآن، لن نذهب لإقامة الصلوات، إنَّما إلى سوق الكنيسة. لا تعرفن الصلوات، لكنَّكنَّ تستطعن المساعدة في البيع على الأقلّ».

ـ «أجل»، هتفت إيدا مسرورةً، «أنا شاطرة».

شعرتُ بالارتياح.

ـ «هل أنتِ مَن نظَّم السوق؟»، سألتُ فيتّوريا.

ـ «الخوريَّة كلُّها، لاسيَّما أبنائي».

كانت تلك هي المرَّة الأولى التي تصف فيها أبناء مرغريتا الثلاثة أبناءها في حضوري، وقالتها باعتزاز.

ـ «كورّادو أيضًا؟»، سألتُ.

ـ «كورّادو خرائيّ، لكنَّه ينفِّذ ما أمليه عليه، وإلَّا هشَّمتُ ساقيْه».

ـ «وتونينو؟»

ـ «تونينو شاطر».

لم تستطع أنجيلا التكتُّم، فدوَّت بصيْحةٍ حماسيَّة.

-5-

لم أدخل الكنيسة إلَّا نادرًا، حينما أراد والدي أن يريني بعض الكنائس الجميلة جدًّا في رأيه. فكنائس نابولي بالنّسبة إليه لها بنيانٌ رفيع، ثريَّةٌ بالروائع الفنيَّة، ولا يجوز تركها للإهمال التي كانت تعانيه! في إحدى تلك المناسبات ـ أعتقد أنَّنا كنَّا في عيد القدّيس لورنزو، لكنّي لا أقسم على ذلك ـ أنّبني، لأنّني رحت أركض في الأرْوِقة؛ وعندما تهتُ عنه، أخذتُ أزعق بصراخٍ مذعور. فبالنِّسبة إليه، مَن لا يؤمن بالربّ، مثلما كنَّا هو وأنا بالضبط، يجب عليه بكلِّ الأحوال أن يتصرَّف بتهذيبٍ احترامًا لأولئك الذين يؤمنون: لا بأس إن لم تبلِّلي أصابعك بالماء المقدَّس، لا بأس إن لم ترشمي الصليب، ولكنْ عليكِ أن تخلعي قبّعتكِ حتى لو كان الطقسُ باردًا، وأن تتجنَّبي الحديث بصوتٍ عالٍ، وألَّا تشعلي سيجارةً أو تدخلي وأنتِ تدخِّنين. أمَّا فيتّوريا، والسيجارة بين شفتيْها، جرجرتنا إلى كنيسةٍ رماديَّةٍ وبيضاءَ من الخارج، ومظلمةٍ من الداخل، وهي تقول بأعلى صوت: ارشمن الصليب، هيَّا! لكنَّنا لم نفعل. فانتبهت إلينا وأمسكتنا واحدةً تلو الأخرى ـ إيدا أوَّلًا، وأنا أخيرًا ـ واقتادت أيدينا بيدها على الجبين، ثمَّ على الصدر فالمنكبيْن، وهي تقول مغتاظةً: باسم الآب والابن والرُّوح القدس. ثمَّ جرجرتنا، بمزاجها الكدر دومًا، عبْر أحد الأرْوِقة سيِّئ الإضاءة، وهي تغمغم: لقد أخَّرتنَّني. وصلنا قبالة بابٍ تلمع قبضته بشكلٍ مهول. فَتَحتْه من دون أن تطرق، وأغلقته خلف ظهرها لتتركنا وحدنا.

ـ «عمَّتكِ ليست لطيفةً على الإطلاق؛ وإنَّها في غاية القبح»، وشوشتني إيدا.

ـ «ليس صحيحًا».

ـ «بل صحيح»، قالت أنجيلا بنبرةٍ منزعجة.

شعرتُ أنَّ عينيَّ تترقرقان بالدَّموع، وجاهدتُ لكبتها.

ـ «هي تقول إنَّنا متطابقتان».

ـ «أيّ هراء! ـ قالت أنجيلا ـ أنتِ لستِ قبيحة، ولا فظَّة».

حدَّدت إيدا:

ـ «تصبحين كذلك في بعض الأحيان، ولكنْ نادرًا».

عاودت فيتّوريا ظهورها رفقةَ رجلٍ شابّ، قصير القامة، جميل الوجه، بشوش المحيّا. يرتدي كنزةً سوداء وبنطلونًا رماديًّا، وثمَّة صليبٌ خشبيٌّ بلا جسد المسيح يتدلَّى على عنقه معلَّقًا بخيطٍ جلديّ.

ـ «هذه جانّينا وهاتان صديقتاها»، قالت عمَّتي.

ـ «جاكومو»، قدَّم الشابّ نفسه، وكان صوته رفيعًا يخلو من شوائب العامِّيَّة.

ـ «الدون جاكومو»، صحَّحت له فيتّوريا منزعجة.

ـ «هل أنت الخوريّ؟» سألته إيدا.

ـ «أجل».

ـ «نحن لا نتلو الصلوات».

ـ «لا مشكلة. بالإمكان الصلاة حتَّى من دون تلاوة».

استغربتُ.

ـ «كيف؟»

ـ «يكفي أن يكون المرء صادقًا. ضمّي كفَّيْكِ وقولي: إلهي، أصلّي إليك، احمني، ساعدني.. إلخ».

ـ «هل الصلاة تُجرى في الكنيسة حصرًا؟»

ـ «بل في كلّ مكان».

ـ «وهل يستجيب لك اللّٰه حتّى إن كنتَ لا تعلم عنه شيئًا، بل لا تؤمن بوجوده أيضًا؟»

ـ «اللّٰه يسمع الجميع»، أجاب الخوريّ بكلّ لطف.

ـ «مستحيل ـ قالت إيدا ـ «هناك ضجّةٌ كبيرةٌ لا يُفهَم بسببها شيء».

نعرتها عمّتي برؤوس أصابعها، وأنّبتها: لا يجوز أن تقولي مستحيل للّٰه، كلّ شيءٍ مُمكن بالنّسبة إليه. تلقّى الدون جاكومو كدرَ إيدا الطافح من عينيْها، وداعبها بدقّةٍ حيث نعرتها فيتّوريا، بينما كان يهمس أنّ الأطفال بوسعهم أن يقولوا ويفعلوا ما يشاؤون، لأنّهم بريئون بكلّ الأحوال. ثمّ فوجئتُ به يأتي على ذكر روبرتو، الذي سمعتُ عنه في وقتٍ مضى في بيت مرغريتا، أي الفتى المتحدّر من تلك المنطقة، والذي كان آنذاك يقيم ويدرس في ميلانو، صديق تونينو وجوليانا. سمّاه جاكومو روبرتو عزيزنا، وأتى على ذكره بمودّة، لأنّه هو الذي جعله يلاحظ أنّ إظهار العداء في وجه الأطفال لم يكن شيئًا نادرًا، فكثيرٌ من القدّيسين الرسل فعلوها، لم يدركوا أنّه ينبغي أن نصبح صغارًا كي ندخل في مملكة السماوات، وأنّ يسوع سيؤنّبهم على ذلك، يقول: ماذا تفعلون، إيّاكم أن تبعدوا الأطفال، دعوهم يأتون إليّ. وهنا توجّه ضمنيًّا إلى عمّتي ـ لا يجوز أن نسمح لتعاستنا أن تمسّ الصغار، قال. ففكّرتُ أنّ الخوري أيضًا لاحظ في فيتّوريا سوءًا مختلفًا عن سوئها المعتاد ـ وما زال يحنو بيده على رأس إيدا. ثمّ تابع ببضع عباراتٍ متألّمةٍ حول الطفولة، والبراءة، والشباب، ومخاطر الطريق.

ـ «ألا توافقينني؟»، سأل عمَّتي بلهجةٍ متسامحةٍ، فاحمرّ وجهها كما لو أنَّه كشف عن شرودها.

ـ «حول مَن؟»

ـ «حول روبرتو».

ـ «لقد قال كلامًا صائبًا، لكنَّه لم يفكِّر بالعواقب».

ـ «الحديث الصائب تمامًا هو الذي يقال حينما لا نفكِّر في العواقب».

همست إليَّ أنجيلا المستغربة:

ـ «ومَن روبرتو هذا؟»

كنت أجهل كلَّ شيءٍ عن روبرتو. وددتُ أن أقول: أعرفه جيِّدًا، إنَّه شاطر؛ أو أن أرتجل استنادًا لكلام كورّادو: كلَّا، إنَّه قميء. لكنِّي أومأتُ لها بأن تسكت، منزعجةً كما في كلِّ مرَّةٍ تتبيَّن سطحيَّةُ انتمائي إلى عالم عمَّتي. أطاعتني أنجيلا وسكتت، لكنَّ إيدا لم تفعل، بل توجَّهت إلى الخوريّ:

ـ «صِفْ لنا روبرتو!»

ضحك الدون جاكومو، وقال إنَّ روبرتو له وسامةُ المؤمنين وذكاؤهم. عندما يأتي في المرَّة المقبلة ـ وعدنا ـ سأعرِّفكنَّ عليه، أمَّا الآن سنذهب للبيع، هيَّا.. وإلَّا اشتكى الفقراء. وهكذا، ولجنا بوَّابةً صغيرةً تؤدِّي إلى ما يشبه الفِناء، حيث نُصِبت المصاطب الزاخرة بالأغراض المستعملة، تحت قناطر قائمة الزوايا، ومزيَّنةٍ بأشرطةٍ مزخرفةٍ وأضواء ميلاديَّةٍ متعدِّدة الألوان، وكان هناك مَن صمَّم ورتَّب كلَّ شيء: مرغريتا وجوليانا وكورّادو وتونينو وآخرون لا أعرفهم، يرحِّبون بفرحةٍ صارخةٍ بالمشترين الكرماء؛ وأناسٌ بدا لي مظهرُهم بأنَّهم أقلّ فقرًا بكثيرٍ ممَّا كنت أتصوَّر الفقراء.

ـ 6 ـ

أثنت مرغريتا على صديقتيّ، ووصفتهما بالآنستيْن الجميلتيْن، وقدَّمتهما إلى أبنائها الذين احتفوا بهما خيرَ احتفاء. جوليانا اختارت إيدا كمساعدة، وتونينو أراد أنجيلا، فبقيتُ أنا أستمع إلى ثرثرة كورّادو الذي كان يحاول ممازحة فيتّوريا، لكنَّها كانت تعامله بطريقةٍ سيِّئة. صمدتُ قليلًا في كلِّ حال. غلبني الشرود، فتذرَّعتُ برغبتي في رؤية البضائع، وتنقَّلتُ بين المصاطب أتلمّس هذا الغرض برفقٍ ثمَّ ذاك. ثمَّة الكثير من الحلويات والسكاكر المُعدَّة في البيت، والكثير من النظَّارات، وورق اللَّعب، وهاتفٌ قديمٌ، كؤوسٌ وأكوابٌ وأوانٍ وكتب، وآلةٌ لتحضير القهوة... كلُّها مستعملة حتَّى التلف أو تكاد، استخدمتْها أيدٍ على مدى الأيَّام، ومن المحتمل أنَّ أصحابها غدوا موتى اليوم: بؤسٌ يباع ببؤس، بأرخص الأثمان.

كان الناس يتوافدون، وسمعتُ أنَّ أحدًا يتحدَّث مع الخوريّ، ويستخدم كلمة «أرملة» ـ الأرملة هنا أيضًا ـ كانوا يقولون، وينظرون نحو المصاطب التي تراقبها مرغريتا، وأبناؤها، وعمَّتي، فظننتُ أنَّهم يقصدون مرغريتا. ثم أدركتُ شيئًا فشيئًا أنَّ فيتّوريا هي المقصودة بتلك التسمية. الأرملة هنا، يقولون، فاليومَ سنعزف ونرقص إذن. ولم أفهم إن كانوا يلفظون كلمة أرملة بدافع التهكُّم أم التبجيل: ومن المؤكَّد أيضًا أنَّني فوجئتُ لكونهم يربطون عمَّتي، غير المتزوِّجة، بالترمُّل والتسلية على حدٍّ سواء.

نظرتُ إليها بانتباهٍ شديد، من البعيد. كانت منتصبةً خلف إحدى المصاطب، كان جذعها النحيل ذو الصدر الكبير يبدو متدفِّقًا من كومة الأغراض المغبَّرة. لم تبدُ لي قبيحةً؛ لم أشأ أن يكون ذلك، لكنَّ أنجيلا وإيدا قالتا إنَّها قبيحة. ربَّما لأنَّ شيئًا ما لم يجرِ على قدمٍ وساقٍ في هذا اليوم، فكَّرتُ. كانت عيناها مضطربتيْن، تلوِّح بطريقتها العدائيَّة، أو تفاجئ الجمعَ بصيحةٍ حادَّة، وتتحرَّك بضعَ لحظاتٍ وفقًا لإيقاع الأنغام الآتية من مدوِّر أسطواناتٍ قديم. قلت لنفسي: أجل، إمَّا أنَّها غاضبةٌ لشأنٍ يخصُّها وأجهله، أو أنَّها مشغولةُ البال على كورّادو. نحن الاثنتيْن هكذا! إذا راودتنا الخواطر الطيِّبة أصبحنا جميلتيْن، ثمَّ نغدو قبيحتيْن مع الخواطر السَّيِّئة التي لا بدَّ أن ننزعَها من رؤوسنا.

تسكَّعتُ على مضضٍ في أرجاء الفِناء. كنت أريد التخلُّص من قلقي الذي تصاعد في ذلك الصباح، لكنَّني لم أستطع. ما زالت أمِّي وماريانو يمثِّلان عبئًا كبيرًا بين هواجسي، عبئًا يوجع عظامي كأنَّني أصبتُ بالحُمَّى. بالنَّظر إلى أنجيلا، كانت تختال ابتهاجًا. كانت جميلةً، تضاحك تونينو. بدا لي الجميع حينذاك في غاية الجمال والطِّيبة والصواب، لاسيَّما الدون جاكومو وهو يرحِّب بزوَّار الكنيسة ويصافحهم، ولا يمتنع عن معانقتهم، كأنَّما الشمس تسكن وجدانه. هل من المعقول أنَّني وعمَّتي الوحيدتان المتجهِّمتان المتشنِّجتان؟ حتَّى عيناي كانتا تحرقانني في تلك اللَّحظة، وفمي تنازعه المرارةُ، كنت أخشى أنَّ كورّادو ـ الذي عدتُ إلى جانبه لمساعدته في البيع من جهةٍ ولاكتساب المعنويَّات من جهةٍ أخرى ـ كنتُ أخشى أن يستشعر رائحة فمي الثقيلة. وربَّما كانت الرائحة الحامضة والحلوة في آنٍ معًا لا تنبعث من حلقي، إنَّما من الأغراض الموضوعة على البسطات. شعرتُ أنَّني حزينةٌ جدًّا. وطوال المدَّة التي استغرقتْها سوق الميلاد الصَّغيرة هذه، أحسستُ بالخيبة من كوني أتَّخذ من عمَّتي مرآةً وهي تستقبل المؤمنين بحيويَّةٍ مصطنعةٍ تارةً، وتحدّق إلى الفراغ بعينيْن جاحظتيْن طورًا. أجل، كانت بحالٍ سيِّئةٍ مثلما كنتُ أنا. قال لها كورّادو: ما بكِ يا فيتّو، ما أقبح وجهكِ، هل أنتِ

مريضة؟ فأجابت: أجل، أنا مريضةٌ في القلب، مريضةٌ في الصدر، مريضةٌ في البطن، ووجهي قبيحٌ قبيحْ. وبذلتْ ما بوسعها لتبتسم بفمها العريض، لكنَّها لم تستطع. حتَّى قالت له عند حدٍّ ما، بمظهرٍ شاحب: آتِني بكأس ماء.

وبينما ذهب كورّادو ليأتي لها بالماء، فكَّرتُ: إنَّها مريضةٌ من الداخل، وأنا مثلها تمامًا، إنَّها أكثرُ شخصٍ أشعرُ بقربه منِّي. كان الصباح يمضي، سأعود إلى أمِّي وأبي، ولم أكن واثقةً من صمودي في وجه فوضى البيت. ومثلما وقع سابقًا حين أزعجتني والدتي فهُرِعتُ إلى والدي لأشكوه منها، برزت في صدري ضرورةٌ مباغتةٌ وملحَّةٌ للبوح. لم أكن لأغتفر أن يعانق ماريانو أمِّي ويضمُّها إليه وهي ترتدي الثياب التي أعرفها بها، وهي متزيِّنةٌ بالأقراط والمجوهرات الأخرى التي كنت ألهو بها في صِغَري، وأتزيَّن بها أنا نفسي بين الحين والآخر. تنامت الغيرة، وصنعتْ صُوَرًا مقزِّزة. لم أكن أحتمل تطفُّل ذلك الغريب الدنيء، فلم أعد أستطيع المقاومة، واتَّخذتُ قرارًا، من دون أن أنتبه أنَّني اتَّخذته، وقلت فجأةً، بصوتٍ يردني مثل بلَّوْرٍ يتكسَّر: عمَّتي (مع أنَّها أمرتني بعدم مناداتها كذلك)، عمَّتي، عليَّ أن أخبرك بأمرٍ، لكنَّه سرٌّ لا تفشينه لأحد، أقسمي على ذلك. ردَّت بلامبالاة أنَّها لا تحلف أبدًا، والحلفان الوحيد الذي أدَّته كان أن تحبّ إنزو إلى الأبد، وستصون عهدها حتَّى تموت. خاب أملي. قلت لها إنَّني لا أستطيع أن أحكي لها ما لم تحلف. فذُوقي العذابَ إذن ـ غمغمت ـ الأشياء السَّيِّئة التي لا تقولينها لأحدٍ تصبح كلابًا تنهش رأسكِ في اللَّيل وأنتِ نائمة. ذُعرتُ من تلك الصُّورة، وكنت في أمسّ الحاجة إلى مواساة، فإذا بي أنفرد بها بعد لحظاتٍ وأروي لها عن ماريانو وأمِّي، وما رأيتُه ممزوجًا بما تخيَّلتُه. ثمَّ توسَّلتُ إليها:

«أرجوكِ، لا تخبري أبي».

حدَّقت إليَّ خلال لحظةٍ طالت كثيرًا، ثمَّ ردَّت بالعامِّيَّة، بلؤم، وبعدم اكتراثٍ غير مفهوم:

«أبوكِ؟ وهل تظنِّين أنَّ أباكِ يهتمّ لأقدام ماريانو ونيلَّا تحت الطاولة؟»

- 7 -

مرّ الوقت ببطءٍ شديد، وكنتُ أراقب الساعة باستمرار. كانت إيدا مستمتعةً مع جوليانا، وتونينو يبدو في أوج سروره مع أنجيلا، فشعرتُ أنَّني فاشلةٌ مثل قالب حلوى بمكوّناتٍ خاطئة. ما الذي فعلته؟ ما الذي سيحدث الآن؟ عاد كورّادو بالماء لفيتّوريا، على مضضٍ، وبلا عجالة. كنت أراه مملًّا، لكنَّني في تلك اللَّحظة، كنت أشعر بالضياع، فأملتُ أن يهتمّ بي قليلًا. لم يفعل، بل لم ينتظر حتى أن تنهي عمَّتي الشرب، واختفى بين الزوَّار. تبعته فيتّوريا بأنظارها، كانت تنسى أنَّني هناك بجانبها أنتظر إيضاحاتٍ ونصائح. هل يُعقَل أنَّها اعتبرت ذلك الأمر الخطير الذي بحثُ لها به أمرًا تافهًا؟ تلصَّصتُ عليها، كانت منهمكةً بأعصابها تطالب سيِّدةً بدينةً في الخمسينيَّات من عمرها بمبلغٍ باهظٍ لقاءَ نظَّارتيْن شمسيَّتيْن، ولم تكن تغفل عن كورّادو. تولَّد لديَّ انطباعٌ أنَّ ثمَّة شيئًا في سلوك الفتى يبدو لها أخطرَ من الموضوع الذي أطلعتُها عليه. انظري إليه ـ قالت لي ـ إنَّه مخالطٌ جيِّد، تمامًا مثل والده. نادته على حين غرَّة: كورّا. ولأنَّ الفتى لم يسمعها أو تظاهر بذلك، تركت عمَّتي المرأةَ البدينةَ التي كانت تغلِّف لها النظَّارات، وشدَّت يدها على المقصّ الذي كانت تقصقص به شرائط تغليف الظروف والعلب، وأمسكتني بيسراها، وجرجرتني خلفها في الفِناء.

كان كورّادو يثرثر مع ثلاثة شبّان أو أربعة، أحدهم طويلٌ نحيلٌ، أسنانه الأماميّة بارزة، بحيث يعطي انطباعًا أنّه يضحك حتى لو لم يكن هناك أيُّ باعثٍ للضحك. كانت عمّتي تتظاهر بالهدوء، أوحت لابنها المعموديّ ـ يبدو لي هذا التوصيف الآن مناسبًا للأبناء الثلاثة ـ أن يعود إلى المصطبة مباشرةً. فأجابها بلهجةٍ هزليّة: دقيقتان وآتي؛ وبدا أنَّ الشابّ ذا الأسنان البارزة يضحك. فانتفضت عمّتي بوجه الأخير، وقالت له إنّها ستقطع سمكته ـ استخدمت تلك المفردة تحديدًا، بالعامّيّة، وبصوتٍ هادئٍ، وهي تشهر المقصّ ـ ما لم يكفّ عن الضحك. لكنَّ الشابّ كان كمَنْ لا يريد الكفّ، فاستشعرتُ الغضب المتنامي في عمّتي يثور ويوشك على الانفجار. سكنني القلق، لم تدرك أنَّ الأسنان البارزة إلى درجةٍ كبيرةٍ تمنع الفتى من إبقاء فمه مغلقًا، لم تُدرك أنّه كان سيبدو ضاحكًا حتّى أثناء زلزال. وبالفعل، صاحت به فجأةً:

ـ «تضحك يا روزا، هل تسمح لنفسك؟»

ـ «لا».

ـ «بلى، أنت تضحك، لأنّك تعتقد أنَّ والدك سيحميك، لكنّك على خطأ، لن يحميك منّي أحد. عليك أن تترك كورّادو وشأنه، هل فهمت؟»

ـ «أجل».

ـ «كلّا، أنت لا تفهم، أنت متأكّدٌ من أنّني لا أستطيع إيذاءك، ولكنْ انظر».

تقدّمت نحوه بالمقصّ المدبّب، على مرأى منّي ومن بعض الزوّار الذين بدأوا يستغربون تلك النبرات التي علت بغتةً، غزّت الشابَّ على إحدى ساقيْه، حتّى قفز الأخير إلى الخلف، فأفسد قناع وجهه المثبّت على الضحك بدهشةٍ مذعورةٍ في عينيْه.

أصرَّت عمَّتي وتوعَّدته بطعنةٍ أخرى.

«هل فهمتَ الآن يا روزا ـ قالت له ـ أم أنحرك؟ أنا لا أكترث أبدًا من كونك ابن المحامي سارجنيتي».

كان الشابّ يدعى روزاريو، وهو ابنٌ بطبيعة الحال لذلك المحامي المجهول بالنِّسبة إليَّ؛ رفع يده دلالةً على الاستسلام. تراجع وفرَّ بجلده رفقة أصدقائه.

أحسّ كورّادو حينها بالإهانة، وحاول أن يلحق بهم، لكنَّ فيتّوريا ظهرت أمامه والمقصّ في يدها قائلةً:

ـ «لا تتحرَّك، فإذا أغضبتني، أعملتُ فيك هذا».

أمسكتُ بذراعها.

ـ «ذاك الفتى لا يستطيع أن يغلق فمه»، قلتُ مذعورة.

ـ «سمح لنفسه بالضحك في وجهي»، ردَّت فيتّوريا وكانت تلهث: «وأنا لا يضحك في وجهي أحد».

ـ «كان يضحك، ولكنْ لم يفعلها عمدًا».

ـ «عمدًا أم لا، كان يضحك».

تأفَّف كورّادو، وقال:

ـ «انسي أمرها يا جانّي، لا جدوى من الحديث معها».

دوَّت عمَّتي بصيحةٍ، وزعقت عليه بأنفاسٍ مقطوعة:

ـ «اخرس أنت، لا أريد أن أسمع منك كلمةً واحدة».

ما زالت تشدّ على المقصّ؛ أدركتُ أنَّها تقاسي لتتمالك أعصابها. لا بدَّ أنَّ قدرتها على المحبَّة قد تبدَّدت منذ أمد، بوفاة إنزو أغلب الظنّ، لكنَّ قدرتها على الكراهية بدت لي بلا حدود. لقد شاهدتُ للتوّ كيف تصرَّفت

مع المسكين روزاريو سارجينتي، وكانت لتؤذينَّ كورّادو أيضًا؛ فتخيَّلوا ما الذي كانت ستفعله بأمّي وأبي، خصوصًا آنذاك وقد أطلعتُها على أمر ماريانو. تخبَّط الدمع في عينيَّ ثانيةً جرّاء تلك الفكرة. لقد تهوَّرتُ، انزلقتِ الكلماتُ منّي خلافًا لإرادتي، أو ربَّما لا. ربَّما في ناحيةٍ منّي، كنت قد قرَّرتُ منذ زمنٍ أن أقصّ على فيتّوريا ما رأيته، منذ أن رضختُ لضغوطات صديقتيَّ ورتَّبتُ ذلك اللِّقاء. لم أعد أستطيع أن أكون بريئةً، فخلف الأفكار أفكارٌ أخرى، وقد ولَّت مرحلة الطفولة. كنت أبذل جهدي، لكنَّ البراءة تتهاوى، دموعي نفسها التي كنت أشعر بها في عينيَّ على الدوام، لم تكن إلَّا دليلًا على عدم الإحساس بالذَّنب. لحسن الحظّ أن أقبل الدون جاكومو، بوجهه السموح، ما منعني من البكاء. هيَّا، هيَّا، قال لكورّادو وهو يشبك ظهره بذراعه، لن نُغضِبَ فيتّوريا؛ فاليوم ليست على ما يرام، ساعِدْها على حمل المعجَّنات. شهقت عمَّتي غِلًّا، ووضعت المقصّ على متن إحدى المصاطب، سدَّدت نظرةً نحو الشارع ما وراء الفِناء، ربَّما لتراقب إن عاد روزاريو والآخرون، ثمَّ قالت بنقمةٍ سوداء: لا أريد أن يساعدني أحد؛ واختفت خلف البوَّابة الصَّغيرة المؤدِّية إلى الكنيسة.

- 8 -

عادت بعد قليلٍ تحمل إناءيْن كبيريْن ممتلئيْن بمعجَّنات اللَّوز المحزَّزة بخطوطٍ سماويَّةٍ وزهريَّة، وصرَّةَ ملبَّسٍ على كلٍّ منهما. تشاجر الزوَّار عليها، أمَّا أنا فارتضيتُ بواحدةٍ، واشمئزَّيْت. كانت معدتي منقبضة، وقلبي ينبض في حلقي. وفي تلك الأثناء جاء الدون جاكومو بالأكورديون، كان يحمله بكلتا ذراعيْه كأنَّه طفلٌ أبيض وأحمر. ظننتُ أنَّه يعزف عليه، إلَّا أنَّه سلَّمه بطريقةٍ ضاحكةٍ لفيتّوريا التي أخذته بلا اعتراض ـ هل كانت الآلة نفسها التي رأيتها في إحدى زوايا بيتها؟ ـ جلستْ على كرسيٍّ صغيرٍ مكفهرَّةً ومكشِّرةً ومغمضةَ العينيْن.

جاءت أنجيلا من خلفي، وقالت ببهجةٍ غامرة: انظري إلى عمَّتكِ كم هي قبيحة! وفي تلك اللَّحظة، كانت محقَّة. كانت فيتّوريا أثناء العزف تبرّم وجهها كالشيطان، ومع أنَّها برعت في العزف وصفَّق لها الزوَّار، فقد كانت تؤدِّي مشهدًا مقرفًا. تهزّ كتفيْها، وتجعِّد شفتيْها، وتقطِّب جبينها، وتُرجِع جذعها إلى الوراء كثيرًا حتى بدا أطولَ من ساقيْها، ساقيْها المفرجتيْن كما لا ينبغي. ولحسن الحظّ، فإنَّ أحدًا شائب الشعر أخذ مكانها عندئذٍ، وراح يعزف بدلًا عنها. لكنَّ عمَّتي لم يهدأ لها بال. ذهبت إلى تونينو، أمسكته من ذراعه، وأرغمته على الرَّقص بإبعاده عن أنجيلا. بدت مبتهجةً آنذاك،

ربَّما بسبب الضراوة الحادَّة التي كانت في جسمها، وأرادت أن تفرغها في الرَّقص. حين رآها الآخرون انضمُّوا إلى الرقص، شيبًا وشبابًا، بل وحتَّى الدون جاكومو. أغمضتُ عينيَّ لأمحو كلَّ شيء. شعرتُ أنَّني مهجورةٌ، فحاولتُ أن أصلِّي، للمرَّة الأولى في حياتي، وخلافًا لكلّ التربية التي تلقَّيتها. ربَّاه ـ قلت ـ أرجوك، إن كنتَ قادرًا على كلِّ شيءٍ حقًّا، افعل بحيث لا تقول عمَّتي شيئًا لوالدي؛ وضغطتُ عينيَّ المغمضتيْن بقوَّة، كما لو أنَّ عصر الجفنيْن بتلك الطريقة سيساعدني في الدُّعاء على تكثيف القوَّةِ الكافيةِ لرميه إلى الربّ في ملكوت السَّماء. ثمَّ صلَّيتُ أيضًا لكي تتوقَّف عمَّتي عن الرقص، وأن تعيدنا في الوقت المحدَّد إلى كوستانسا. وقد استجاب الربّ لدعائي، وحقَّقه بسرعةٍ عجائبيَّة. غادرنا في التمام، رغم وجود الحلويات والموسيقى والأغاني والرقصات التي لا تنتهي، وتركنا خلفنا المنطقة الصناعيَّة الغائمة للوصول على الموعد إلى حيّ ڤوميرو، شارع شيماروزا، تحت بيت أنجيلا وإيدا.

كوستانسا أيضًا التزمتْ بالموعد، ظهرت بفستانٍ أجمل بكثيرٍ من ذاك الصباحيّ. نزلت فيتّوريا من سيَّارتها، وسلَّمتها البنتيْن، ثمَّ جاملتها ثانيةً، وهنَّأتها على كامل أناقتها من جديد. هنَّأتها على الفستان، والتسريحة، والمكياج، والأقراط، والطوْق، والسّوار الذي تلمَّسته وكأنَّها تداعبه، وتسألني: هل أَعْجَبَكِ يا جانّي؟

طوال ذلك الوقت، بدا لي أنَّها لا تنهال عليها بالمديح إلَّا لتسخر منها بأسوأ ممَّا فعلته في الصباح. لقد وصل الانسجام بيننا إلى حدٍّ سمعتُ صوتها الشرِّير وكلماتها البذيئة في رأسي قوَّةً هدَّامة: ما حاجتكِ أيَّتها الحقيرةُ إلى كلِّ هذه الملحقات، طالما أنَّ زوجكِ ينيك والدة ابنة أخي، ها ها ها. لذا عدت أصلِّي للربّ، لاسيَّما عندما ركبت فيتّوريا السيَّارة وانطلقنا.

صلَّيتُ طوال الرحلة حتى سان جاكومو دي كابري، رحلةً لا تنتهي، لم تتفوَّه فيتّوريا خلالها بكلمة، ولم أجرؤ على الطلب مجدَّدًا: لا تخبري والدي بشيءٍ، أحلِّفكِ! إن كنتِ تودِّين فعلَ شيءٍ من أجلي وبِّخي أمِّي، واكتمي السرّ عن والدي. لكنِّي رجوتُ اللّٰه، حتَّى لو لم يكن موجودًا: يا ربّ، افعل بحيث لا تقول فيتّوريا «سأصعد معكِ، عليَّ أن أتحدَّث مع أبيكِ».

واستجاب الربّ لدُعائي مرَّةً أخرى بأعجوبة، على نحوٍ فاجأني. ما أجمل تلك المعجزات، وكم هي حاسمة: تركتني فيتّوريا تحت البيت من دون أيِّ إشارةٍ إلى أمِّي وماريانو وأبي. قالت فقط، وبالعامِّيَّة: جانّي، تذكَّري أنَّكِ ابنة أخي، وأنَّنا متشابهتان، وأنَّكِ إن ناديتِني، لبَّيتُكِ على الفور وأتيتُ ركضًا، لن أتركَكِ وحيدةً أبدًا. بدا لي وجهها بعد تلك الكلمات أصفى، وكدتُ أقتنع بأنَّ أنجيلا لو رأتها الآن لوجدتها جميلةً مثلما كنت أراها. ولكنْ ما إن صرتُ بمفردي، في البيت ـ كنت في غرفتي أنظر إلى مرآة الخزانة، وأتحقَّق من عدم تمكُّن أيِّ معجزةٍ من محو التعابير التي استولت على وجهي ـ ارتخيتُ وانهمرتُ بالبكاء أخيرًا. وارتأيتُ ألَّا أتلصَّص على والديّ، وألَّا أقابل عمَّتي بعد.

- 9 -

عندما أجتهد في تصنيف المراحل التي مرَّت بمجرى حياتي المتواصل حتَّى اليوم، أقتنع أنَّني أصبحتُ شخصًا آخر نهائيًّا، ذات مساءٍ عندما جاءت كوستانسا لزيارتنا من دون ابنتيْها ـ وكنت تحت رقابة والدتي التي باتت عيناها منتفختيْن منذ أيَّامٍ ووجهها محمرًّا بفعل الرياح الجامدة على حدِّ زعمها، التي تهبّ من البحر وتهزّ زجاج النوافذ وسياج الشرفات ـ سلَّمتني كوستانسا حينها سوارها المصنوع من الذهب الأبيض، بوجهٍ عابس ومصفرّ.

ـ «لماذا تهدينه لي؟» سألتُ بارتباك.

ـ «لا تهديه لكِ ـ قالت أمِّي ـ إنَّما تعيده إليكِ».

شهقت كوستانسا بفمها الجميل مدَّة ثانيةٍ طويلةٍ جدًّا قبل أن تتمكَّن من القول:

ـ «كنت أظنُّ أنَّه لي، لكنَّه كان لكِ».

لم أفهم، ولم أشأ أن أفهم. فضَّلتُ أن أشكرها، وحاولتُ أن أضعه على معصمي، لكنَّني لم أستطع. فساعدتني كوستانسا بأصابعها المرتجفة في ظلّ صمتٍ مطبق.

- «كيف يبدو عليَّ؟» سألتُ أمّي متصنّعةً الاستهتار.

- «جيّد»، قالت من دون أيّ ابتسامةٍ وخرجت من الغرفة، متبوعةً بكوستانسا التي لم تَعُد إلى بيتنا منذ تلك اللَّحظة.

حتَّى ماريانو اختفى من بيتنا في شارع سان جاكومو دي كابري، وأصبحت علاقتي بأنجيلا وإيدا تضمحلّ نتيجةً لتلك التطوُّرات. في البدء، تواصلنا هاتفيًّا، لا أحدٌ منَّا نحن الثلاثة فهم ما الذي يحدث. فقبل يومَيْن من زيارة كوستانسا، قالت لي أنجيلا إنَّ أبي وأباها تشاجرا، في شقَّتها في شارع شيماروزا. كان النقاش في بدايته شبيهًا بتلك التي تتناول مواضيع اعتياديَّة، السياسة والماركسيَّة ونهاية التاريخ والاقتصاد والدولة، ثمَّ جنحا إلى التَّصعيد بشكلٍ مفاجئ. صاح ماريانو: اخرج من بيتي حالًا، لا أريد رؤيتك بعد الآن؛ فنزع أبي قناعَ الصديق الصبور عن وجهه فجأةً، وراح يصيح بدوره ويتفوَّه بكلماتٍ بذيئةٍ بالعامّيَّة. ذعرت أنجيلا وإيدا، لكنَّهما لم تلقيا أيَّ اهتمامٍ من أحد، بمن فيهم كوستانسا التي قالت إنَّها لم تَعُد تتحمَّل سماع الصراخ، وأرادت الخروج لتنشُّق الهواء. فصاح عليها ماريانو، بالعامّيَّة هو أيضًا: أجل، اخرجي أيَّتها القحبة، لا تعودي أبدًا. صفقت كوستانسا الباب بقوَّةٍ حتَّى انفتح ثانيةً، واضطرَّ ماريانو لإغلاقه برفسة، ففتحه والدي راكضًا خلف كوستانسا.

وفي الأيَّام اللَّاحقة، لم نفعل شيئًا سوى التَّحدُّث عبر الهاتف عن تلك المشاجرة. لا أنجيلا ولا إيدا ولا أنا فهمنا لماذا سبَّبت الماركسيَّةُ والمواضيعُ الأخرى التي يتناقش فيها أبوانا بكلّ سرورٍ حتى من قبل أن نولد، لماذا سبَّبت مشاكلَ كثيرةً على حين غرَّة. وفي الواقع، كنَّا جميعًا نعرف عن خفايا ذلك المشهد أكثر بكثيرٍ ممَّا صرَّحنا عنه. كنَّا نعرف مثلًا أنَّ الماركسيَّة لم تكن السَّبب بقدر ما كان الجنس، ولكنْ ليس الجنس

الذي يثير فضولنا ويُمْتعنا في كلِّ ظرف؛ كنَّا نشعر أنَّ حياتنا تتعرَّض لصعودِ نوعٍ آخر من الجنس على نحوٍ غير متوقَّع، جنسٌ لا يثير الجاذبيَّة، بل كان يشعرنا بالاشمئزاز، لأنَّنا استشعرنا أنَّه لا يتعلَّق بأجسادنا، ولا أجساد الشبَّان من جيلنا أو أجساد الممثِّلين والمطربين، إنَّما بأجساد آبائنا. كنَّا نتخيَّل أنَّ الجنس جَرَفهم بموجةٍ لزجة، مقزِّزة، مختلفةٍ كلِّيًّا عن الجنس الذي روَّجوه في فترة تربيتهم لنا. الكلمات النابية التي تبادلها ماريانو ووالدي ـ برأي إيدا ـ وفكرة البلغم المحموم، وسَيَلان المخاط الذي يدنِّس كلَّ شيء، ولاسيَّما أكثر شهواتنا سرِّيَّةً. وربَّما هذا ما أحزن صديقتيَّ ـ وهما اللَّتان كانتا تميلان للحديث كثيرًا عن تونينو وكورّادو، وكم أحبَّتا ذينك الشابَّيْن ـ وصارتا تتملَّصان من ذلك النوع من الجنس. أمَّا بالنِّسبة إليَّ، حسنًا، كنت أعرف أسرارًا مشبوهةً في عائلتنا أكثر ممَّا تعرفه أنجيلا وإيدا، لذا ترتَّبَ عليَّ مجهودٌ أكبر لكي أتعامى عمَّا يحدث لأبي وأمِّي وماريانو وكوستانسا، الأمر الذي استنفد قواي. فكنت أنا في المحصِّلة أولى مَن بدت عليها أمارات القلق، وبادرتُ بالتوقُّف عن المصارحات الهاتفيَّة. كنتُ أشعر أكثر من أنجيلا وإيدا بأنَّ كلمةً واحدةً خاطئةً ستفتح بابًا خطيرًا على واقع الأحداث.

توطَّدت الأكاذيب والأدعية في حياتي اليوميَّة إبَّان تلك المرحلة، وساعدتني كثيرًا مرَّةً أخرى. كنت أقصّ الأكاذيب على نفسي أيضًا. كنتُ تعيسةً، وأتظاهر بالبهجة المُطلقة في المدرسة والبيت. كنتُ أرى في الصباح وجهَ أمِّي توشك ملامحُه على الانهيار، وجهها المحمرّ حول الأنف، والمشوَّه بسبب الإحباط، وكنت أقول لها بنبرةِ مَن يتحقَّق بمرح: كم أنتِ جميلةً هذا اليوم! أمَّا والدي ـ الذي توقَّف فجأةً عن الدراسة عند استيقاظه، وما كنتُ أراه إلَّا متأهِّبًا للخروج في الصباح الباكر، وفي المساء مطفأ العينيْن شاحب الوجه دومًا ـ كنت أقدِّم له الواجبات المدرسيَّة باستمرار، حتى لو لم تكن معقَّدة، علمًا بأنَّ شرود فكره وانعدام رغبته في المساعدة كانا واضحيْن تمامًا.

وفي الوقت نفسه، وعلى الرَّغم من أنِّي كنت ما أزال غير مؤمنةٍ بالربّ، كنت أكرِّس نفسي للصلوات كما لو أنَّني مؤمنة. إلهي - كنت أتوسَّل - لتكن مشيئتك بحيث يبدو أنَّ أبي وماريانو قد تشاجرا بسبب الماركسيَّة ونهاية التاريخ، لتكن مشيئتك أن يكون ما وقع ليس نتيجةً لاتِّصال فيتوريا بوالدي وإفشائها لما رويتُ لها. وللوهلة الأولى، بدا لي أنَّ الربّ ما يزال يستمع إلى دعائي. فعلى حدِّ معرفتي، كان ماريانو هو البادئ بالتعدِّي على والدي وليس العكس، خلافًا لما كان سيحدث لو أنَّ فيتّوريا نقلت لأبي وشايتي. إلَّا أنِّي سرعان ما أدركتُ وجودَ مشكلةٍ في ذلك التقييم. لماذا ثار والدي على ماريانو بعامِّيَّةٍ لا يستخدمها أبدًا؟ لماذا خرجت كوستانسا من البيت وصفقت الباب وراءها؟ ثمَّ لماذا والدي، لا زوجها، ركض خلفها؟

كنت أعيش متواريةً بأكاذيبي اللَّائقة وأدعيتي، كنت أعيش في جَزَع. ولا بدَّ أنَّ فيتّوريا باحت بكلِّ شيءٍ لوالدي، فما كان منه إلَّا أن هُرِع إلى بيت ماريانو ليتشاجر معه. وهكذا، بفضل تلك المشاجرة، اكتشفت كوستانسا أنَّ زوجها يداعب قدميْ أمِّي بقدميْه من تحت الطاولة، فأرادت أن تخرج بمشهديَّةٍ أليمةٍ بدورها. لا بدَّ أنَّ الأمور جرت على ذلك الشَّكل. ولكنْ، لماذا صرخ ماريانو على زوجته بينما كانت تخرج خائبةً من الشقَّة: أجل، اخرجي أيَّتها القحبة، ولا تعودي أبدًا؟ ولماذا والدي هو الذي ركض خلفها؟

كنت أشعر أنَّ شيئًا ما يفوتني، وكلَّما اقتربتُ من الإلمام به لإدراك معناه، تبدَّد واختفى. فأعود باستمرارٍ إلى الوقائع المبهمة: زيارة كوستانسا، على سبيل المثال، التي تلت المشاجرة؛ وجه والدتي الذي كان يُتلف، وعيناها المحمرَّتان اللَّتان تقدحان بنظراتٍ آمرةٍ ومباغتةٍ على صديقتها القديمة التي كانت تعتبرها قدوةً لها ضمنيًّا؛ المظهر النادم الذي اكتسى كوستانسا ومبادرتها التي تنمّ عن تأنيبِ ضميرٍ والمتمثِّلة بهديَّةٍ لي، في

حين أنَّ والدتي حدَّدت أنَّها ليست بهديَّة، إنَّما إرجاع؛ أصابعها المرتجفة بينما كانت تساعدني على لفّ السّوار ذي الذهب الأبيض العزيز على قلبها بمعصمي؛ السّوار نفسه، الذي بتُّ أضعه ليلًا ونهارًا. آهٍ.. يا لكلّ تلك الأحداث التي جرت في غرفتي، وتلك الشبكة المعقَّدة من النظرات والحركات والكلمات التي تدور حول سوارٍ سُلِّمَ إليَّ بلا تفسير، وصار مُلكي رسميًّا. كنت أعرف أكثر ممَّا أجرؤ على قوله بالتَّأكيد. لذا كنت أصلِّي، لاسيَّما في اللَّيل، حين أجفل فزعةً ممَّا كنت أخشى وقوعه حالًا. إلهي ـ كنت أتضرَّع ـ يا إلهي، أعلم أنَّ الذَّنب ذنبي، ما كان ينبغي لي المطالبة بلقاء فيتّوريا، ما كان ينبغي أن أخالف إرادة والديَّ؛ لكنَّ ما وقع قد وقع، أرجوك أن تعيد كلَّ شيءٍ إلى نصابه. كنت آمل أنَّ الربَّ سيفعلها حقًّا، وإلَّا كان كلُّ شيءٍ سيتهدَّم. سيتدحرج حيّ سان جاكومو دي كابري على حيّ ڤوميرو، وحيُّ ڤوميرو سيتداعى على المدينة بأكملها، والمدينة بأكملها ستغرق في البحر.

تحت الظلام، كنت أموت من الغمّ. وأشعر باعتصارٍ في معدتي لدرجة النهوض في منتصف اللَّيل للتقيُّؤ. وكنتُ أتعمَّد إحداث الجلبة، فكانت الأحاسيس الفتَّاكة تهتك رأسي وصدري، وتجرحني في العمق؛ وأملتُ أن يظهر والداي ويساعداني. لكنَّ ذلك لم يحدث، مع أنَّهما كانا مستيقظيْن. ثمَّة خطٌّ ضوئيٌّ يخدش العتمة على مستوى غرفة نومهما. وكنت أستنتج أنَّهما صارا بلا رغبةٍ في العناية بي، لذا لا يقطعان همهمتهما اللَّيليَّة تحت أيِّ سبب. لا يصدر عنهما سوى وخزاتٍ مُفاجئةٍ تقطع الرتابة، أو مقطعٍ صوتيّ، أو نصف كلمةٍ تلفظها أمِّي كحدِّ السكِّين على الزجاج، ووالدي كرعدٍ بعيد. وفي الصباح، كنت أراهما متشائميْن. نتناول الفطور بصمت، بأعينٍ منخفضة. لم أعد أحتمل ذلك. كنت أصلِّي: ربَّاه، هذا يكفي، افعل بحيث يقع أمرٌ ما، أيًّا كان، خيرًا أم شرًّا لا يهمّ: دعني أمت على سبيل

المثال، قد يهزُّهما هذا الحدث من الداخل، ويعيد رشدهما فيتصالحا، وبعد ذلك، احييني في عائلةٍ أخرى سعيدةً من جديد.

في يوم أحد، على الغداء، حدث أنَّ طاقةً باطنيَّةً رهيبةً وعنيفة زلزلت رأسي ولساني بغتةً. قلت بنبرةٍ مرحة، وأنا أُبرِز السّوار:

«بابا، لقد أهدتني العمَّة فيتّوريا هذا السّوار، صحيح؟»

رشفت أمّي رشفةً من النبيذ، ولم يرفع أبي نظره عن الطَّبَق، وقال:

ـ «بمعنًى ما، صحيح».

ـ «فما الذي دفعك لإعطائه لكوستانسا؟»

رفع عينيْه هذه المرَّة، ورأى إليَّ محدّقًا بنظرةٍ متجمّدة، من دون أن يقول شيئًا.

ـ «أجبها»، أمرته أمّي، لكنَّه لم يُطعها. فصاحت عندئذٍ:

ـ «أبوكِ لديْه زوجةٌ أخرى منذ خمسة عشر عامًا».

اشتعل وجهها ببقعٍ حمراء، وكانت عيناها مُحبطتيْن. أدركتُ أنَّها رأت ما قالته فضحًا مريعًا، فندمتْ. لكنَّني لم أتفاجأ ولم يبدُ لي الأمر خطأً، بل تملَّكني انطباعٌ بأنَّني كنت أعرف هذا منذ البداية. وفي تلك الوهلة، كنت واثقةً من أنَّ كلَّ مشكلةٍ لها حلّ. فإن كانت القصَّة تدوم منذ خمسة عشر عامًا، فلا عائق أمامها لكي تدوم إلى الأبد، يكفي أن يتَّفق الثلاثة على تلك الحال ليعود السلام: أمّي في غرفتها، والدي في مكتبه، واجتماعاته وكتبه. لذا أردتُ أن أساعدهما للذهاب نحو تلك المصالحة، فقلت متوجّهةً إلى أمّي:

ـ «أنتِ أيضًا لديْكِ زوجٌ آخر».

شَحُب وجه والدتي، فغمغمت:

ـ «أنا، لا، أؤكّد لكِ، غير صحيح».

نفت بخيبةٍ كبرى، وربّما لأنَّ تلك المأساة كانت تثقل عليَّ وتؤذيني، خطر لي أن أردِّد بصوتٍ رفيعٍ جدًّا: أؤكّد لكِ، أؤكّد لكِ؛ وضحكتُ. فلتت منّي الضحكة خلافًا لإرادتي، ورأيتُ المهانةَ في عينيْ والدي، فخفتُ وشعرتُ بالحياء. كنتُ أودُّ أن أشرح له: لم تكن ضحكةً حقيقيَّةً يا بابا، إنَّما تشنّجٌ لم أستطع التحكُّم به، أمرٌ عاديّ، رأيته مؤخَّرًا على وجه شابٍّ يدعى روزاريو سارجينتي. إلَّا أنَّ الضحكة لم تشأ أن تنتهي، وتحوَّلتْ إلى ابتسامةٍ باردة، شعرتُ بها على وجهي، وأخفقتُ في محوها.

نهض والدي ببطء، وهَمَّ لترك الطاولة.

ـ «أين تذهب؟»، قلقت أمّي.

ـ «إلى النوم»، قال.

كانت السَّاعة الثانية ظهرًا: كانت عادته في ذلك الوقت، خصوصًا يوم الأحد أو في الإجازات، أن ينغلق على نفسه وينكبّ على الدِّراسة لساعاتٍ متواصلةٍ حتَّى موعد العشاء. لكنَّه تثاءب بصوتٍ عالٍ لنفهمَ أنَّه كان نعِسًا بالفعل. قالت أمّي:

ـ «سآتي للنوم أنا أيضًا».

رفض بهزَّةٍ من رأسه، فقرأنا أنا وأمّي على وجهه أنَّه لم يَعُدْ يطيق الاستلقاء المعتاد إلى جانبها في السَّرير نفسه. وقبل أن يخرج من المطبخ، قال متوجِّهًا إليَّ، بنبرة استسلامٍ نادرًا ما يلجأ إليها:

ـ «لا جدوى يا جوفانّا، فأنتِ مثل شقيقتي تمامًا».

IV

-1-

استغرق والداي حوالى العاميْن لاتّخاذ قرار الانفصال، مع أنَّهما لم يعيشا تحت السَّقف نفسه في الواقع إلَّا لفتراتٍ قصيرة. كان والدي يختفي لأسابيع من دون إنذارٍ مُسبق، ليترُكني أسيرةً للخوف ممَّا إذا كان قد انتحر في أحد الأماكن المُظلمة والقذرة في نابولي! سوى أنّي اكتشفتُ لاحقًا أنَّه كان يقضي أجمل الأوقات في بيتٍ رائعٍ في حيّ بوزيليبو، البيت الذي ورثته كوستانسا عن أبويْها، وهي التي باتت في نزاعٍ متواصلٍ مع ماريانو. وكان أبي حينما يدخل علينا، يظهر ودودًا ولطيفًا، كأنَّه يرغب في العودة إلى أمّي وإليَّ نهائيًّا. ثمَّ تنقضي أيَّام الصُّلح المعدودة، ويُعاود والداي الشجار على كلّ شيء، ما عدا شيءٍ واحدٍ اتَّفقا عليه دائمًا: يجب عليَّ ألّا أرى فيتُّوريا ثانيةً، وأنَّ ذلك يصبّ في مصلحتي.

لم أعترض، كنتُ أوافقهما الرأي. ومن جهةٍ أخرى، لم تَعُدْ عمَّتي تظهر أو تتَّصل منذ أن اندلعت الأزمة. كنتُ أظنُّ أنَّها تنتظر أن أبحث عنها من تلقاء نفسي: هي، الخادمة، كانت تعتقد أنَّني في خدمتها وتحت تصرُّفها إلى الأبد. لكنِّي كنتُ قد قطعتُ عهدًا على نفسي بعدم مُساندتها بعدُ. كنت خائرةَ القوى، ولقد صبَّت عليَّ ذاتَها وأحقادها ورغبتها في الانتقام ولهجتها، وكنتُ آمل أنَّ تتفتَّتَ عجينةُ الخوف والافتتان اللذيْن شعرتُ بهما تجاهها، أو أن يتبدَّد الافتتان على الأقلّ.

إلى أن عادت فيتُّوريا تغريني ذات مساء. رنَّ الهاتف، أجبتُ وسَمِعْتُها من الطرف الآخر تقول: ألو، هل جانّينا هنا، أريد التَّحدُّث مع جانّينا. أغلقتُ السمَّاعة وأنا أحبس أنفاسي. لكنَّها عاودت الاتِّصال مرَّةً واثنتيْن وثلاث، يوميًّا، في الساعة نفسها، ما عدا أيَّام الأحد. صمَّمتُ على عدم الردّ عليها. وكنتُ أترك الهاتف يرنّ، وإن كانت والدتي في البيت وتتَّجه إلى الهاتف، كنتُ أصيح: لستُ موجودةً أيًّا كان المتَّصل؛ مقلِّدةً بذلك عبارتها نفسها التي تصيح بها عليَّ بنبرةٍ آمرةٍ من غرفتها.

وفي تلك الحالات، كانت أنفاسي تبقى معلَّقة، أصلِّي بعينيْن مواربتيْن ألَّا تكون فيتُّوريا هي المتَّصلة. ولحسن الحظ، لم يحدث قطعًا، أو إذا افترضنا أنَّه حدث، فإنَّ والدتي لم تُخبرني به. وعندما تضاءلت اتِّصالاتها، توقَّعتُ أنَّها استسلمتْ، فعدتُ للردّ على الهاتف بلا قلق. لكنَّ فيتّوريا فاجأتني باستئناف الهجوم، كانت تزعق من الطرف الآخر: ألو، هل أنتِ جانّينا، أريد التَّحدُّث مع جانّينا. لكنَّني لم أَعُد أريد أن أكون جانّينا، ففصلتُ المكالمة في كلّ مرَّة. ومن المؤكَّد أنَّ صوتها المُنهك بدا لي متألِّمًا، فحزنتُ عليها، وراودني الفضول لملاقاتها واستجوابها واستفزازها. وفي بعض اللَّحظات التي كنتُ فيها أشعرُ بالمهانة، كدتُ أصرخ: أجل، أنا هي، اشرحي لي ما الذي حدث، ما الذي فعلتِه بأبي وأمّي. لكنَّني آثرتُ الصَّمت وإنهاء المكالمة دومًا، واعتدتُ على عدم ذكر اسمها حتَّى ما بين نفسي وبيني.

وقرَّرتُ منذ لحظةٍ معيَّنةٍ فصاعدًا أن أنفصل عن سوارها. كففتُ عن وضعه على معصمي، وأغلقتُ عليه في إحدى دفَّات دُرجي. ولكنّي كلَّما تذكَّرته أوجعتني معدتي، وتصبَّبتُ عرقًا، واجتاحتني هواجسُ لا تكلُّ ولا تنجلي. كيف يُعقَل أنَّ أبي وكوستانسا كانا متحابَّيْن منذ أمدٍ بعيد ـ من

قبل أن أولد أيضًا ـ من دون أن يثيرا انتباه أمّي وماريانو؟ وكيف حدث أن أُغرم والدي بزوجة صديقه المفضّل، لا لأنَّه ضحيَّةُ ولعٍ عابرٍ إنَّما بتدبيرٍ مدروسٍ، والدَّليل أنَّ حبَّه ما يزال مستمرًّا؟ وماذا عن كوستانسا، الرَّقيقة الراقية المهذَّبة الودودة، التي ترتاد بيتنا منذ أن تشكَّلت ذاكرتي، كيف استطاعت أن تَحظى بزوْج صديقتها مدَّة خمسة عشر عامًا وتحت عينيْها؟ ولماذا ماريانو، الذي كان يعرف والدتي منذ زمن، لم يداعب قدميْها بقدميْه إلَّا في الفترة الأخيرة، ومن دون موافقتها، كما حلفت لي والدتي مرارًا؟ في المحصّلة، ما الذي كان يحدث في عالم البالغين، في رؤوس الأشخاص العقلاء، وفي أجسادهم المشحونة بالمعرفة؟ ما الذي كان يحيلهم إلى حيواناتٍ لا يُمكن الوثوق بها، وأخطر من التماسيح؟

كان الأذى النَّفسيّ جرَّاء تلك التساؤلات وغيرها شديدًا لدرجة أنَّني لم أبحث عن إجاباتٍ حقيقيَّة. وكنتُ أصدُّها حالما تظهر، وما زلت إلى اليوم أعاني حين أعود إليها. المشكلة تكمن في السّوار، بدأتُ أشكُّ. كان بطبيعة الحال ملطَّخًا بقذارة تلك القصَّة، ومع أنّي كنت عازمةً على عدم فتح الدفَّة حيث أغلقتُ عليه، فإنّه كان يفرض نفسه عمومًا، كما لو أنَّ لمعانَ أحجاره الكريمة ومعدنَه تبثُّ الآلام. كيف يُعقَل أنَّ والدي، الذي كان حبُّه لي بلا حدود، انتزع منّي هديَّة عمَّتي وأعطاها لكوستانسا؟ وإن كان السّوار في الأصل مُلكًا لعمَّتي، وإن كان للسَّبب نفسه يمثِّل أذواقها وأفكارها عن الجمال والأناقة، ما الذي جعل كوستانسا تُعجب به لدرجة أنَّها احتفظت به، واستخدمته طوال ثلاثة عشر عامًا؟ والدي نفسه ـ كنتُ أفكِّر ـ العدوُّ اللَّدود لشقيقته، البعيد كلّ البعد عنها، كيف اقتنع بأنَّ سوارًا يعود لها، وموجَّهًا إليَّ، قد يكون لائقًا لا بوالدتي، على سبيل المثال، إنَّما بزوجته الثانية فائقة الأناقة، المتحدِّرة من عائلة صاغة، ميسورة الحال إلى حدٍّ لا تحتاج فيه إلى أيّ مجوهرات؟ فيتّوريا وكوستانسا كانتا مختلفتيْن لدرجة أنَّ كلّ ما فيهما

يتناقض. الأولى لم تحصل على التَّعليم، الثانية كانت مثقَّفة؛ الأولى سوقيَّة، الثانية راقية؛ الأولى فقيرة، الثانية ثريَّة. وعلى الرَّغم من ذلك، فإنَّ السّوار كان في عينيَّ يدمج الواحدة بالأخرى ويخلطهما، ويشوِّشني.

واليومَ، أعتقد أنَّني بفضل ذلك الهَذْر المُوسْوِس، تمكَّنتُ بمشقَّةٍ من الابتعاد عن عذابات والديَّ، والاقتناع بأنَّني لا أُعنى نهائيًّا باتِّهامهما، أو التوسُّل إليهما، أو احتقارهما. لكنَّ الأمر تطلَّبَ أشهرًا. ففي الفترة الأولى، كنتُ ألهثُ كأنَّني أغرق وأبحث عن شيءٍ أتشبَّث به مذعورةً. وفي بعض الأحيان، لاسيَّما في اللَّيل، عندما كنتُ أستيقظ من شدَّة الكرب، أظنّ أنَّ والدي، الذي كان عدوًّا صريحًا لكلّ أنواع الخرافة، كان قد خشي من تأثير ذلك الغرض، بالنَّظر إلى مصدره، وخشي أن يؤذيني بسحره، فأبعده عن بيتنا حرصًا على سلامتي. كانت تلك الفكرة تهدِّئ روعي، وكان لها الفضل في استرجاع صورةٍ إيجابيَّةٍ عن والدي الحنون الذي حاول منذ الأشهر الأولى لولادتي أن يبقيني بعيدةً عن شرور العمَّة فيتّوريا، والرَّغبة التي استشرتْ في تلك العمَّة ـ الساحرة للاستيلاء عليَّ وجعلي شبيهةً بها. لكنَّ الفكرة لم تكن تدوم طويلًا، فعاجلًا أم آجلًا كنت أنتهي إلى التساؤل: إن كان هو يحبّ كوستانسا حتَّى إنَّه خان أمِّي، وانفصل عنها وعنِّي، فلماذا أعطاها سوارًا شرِّيرًا؟ ربَّما ـ أُطلِقُ العنانَ لمخيِّلتي ما بين الغفو واليقظة ـ لأنَّ السّوار أعجبه كثيرًا ما منعه عن رميه في البحر. أو لأنَّه تعرَّض هو نفسه لمفعول السّوار، فأراد أن يراه للمرَّة الأخيرة في معصم كوستانسا قبل أن يتخلَّص منه! وهكذا ضيَّعتْه تلك الرَّغبة. بدت له كوستانسا أجمل بكثيرٍ ممَّا كانت عليه، فكبَّله بها السّوارُ المسحورُ إلى الأبد، ومنعه من محبَّة أمِّي وحدَها. فلكي يقيني شرَّه، في المحصِّلة، اضطرَّ والدي للخضوع بنفسه لشرور أخته الساحرة (غالبًا ما كنت أتخيَّل أنَّ فيتُّوريا تنبَّأت بأدقّ تفاصيل نقلته الخاطئة تلك) الأمر الذي دمَّر العائلة بأسرها.

إنَّ العودة لخرافات الطفولة، تحديدًا في الوقت الذي شعرتُ فيه أنّي تجاوزتُ الطفولة نهائيًا، لم يكن لها الفضل في تقليص المسؤوليّاتِ المُلقاةِ على عاتق والديّ إلى حدودها الدُّنيا فحسب، بل مسؤوليّاتي أيضًا. فإن كان الأصل في كلِّ الشرور عائدًا إلى شعوذة فيتّوريا، فإنَّ المأساة الراهنة كانت قد بدأت إبّان ولادتي، ما يعني أنّني لا أحمل وزرها أنا، وإنَّ القوّةَ الغامضة التي دفعتني للبحث عن عمَّتي وملاقاتها كانت مُفعَّلةً منذ زمن، فلا شأن لي بها. أنا مثلُ أبناءِ يسوع، بريئة. إلّا أنَّ هذا الإطار أيضًا كان يتزعزع، عاجلًا أم آجلًا. بمعزلٍ عن السّحر من عدمه، الأمر الواقع أنَّ أبي قبل ثلاثة عشر عامًا اعتبر الغرض الذي أهدته لي شقيقته غرضًا جميلًا، وأنَّ هذا الجمال لا يُمكن إقراره إلّا من قِبَلِ امرأةٍ راقيةٍ مثل كوستانسا. وهذا بالتالي يضع السوقيّة والرقيّ على سويّةٍ غير منطقيّة ـ حتّى داخل العالم الخياليّ الذي كنتُ أشرع في بنائه ـ وإنَّ امّحاء تلك الحدود الدّقيقة، خلال فترةٍ كنت أفقد فيها بوصلتي التي نشأتُ عليها، عزّز شعوري بالضياع أكثر فأكثر. فعمَّتي تتحوَّل من امرأةٍ سافلةٍ إلى امرأة سامية؛ ووالدي وكوستانسا يتحوَّلان من شخصيْن ساميين إلى سافليْن، وهذا ما تشهد عليه تصرُّفاتهما النكراء بحقّ والدتي، وحتّى بحقِّ الكريه ماريانو. وهكذا كنت أحيانًا، قبل أن أغطّ في النوم، أتخيَّل دهليزًا تحت الأرض يوصل بين والدي وكوستانسا وفيتّوريا، رغمًا عن أنوفهم. فبقدر ادّعائهم الاختلاف عن الآخر، يبدون لي مخلوقين من الطّينة نفسها. أبي، في مخيّلتي، يُمسك بأرداف كوستانسا، ويجذبها إليه مثلما كان إنزو في الماضي يفعل بعمَّتي ومرغريتا بلا شكّ. وهذا ما كان يؤلم والدتي. كانت تبكي كما في الأقاصيص، تعبّئ مئات الجِرار من دموعها إلى أن تفقد رشدها. وأنا، إذ بقيتُ معها، ستكون حياتي غائمةً من دون اللّهو الذي عوّدني عليه، ومن دون نظرته الذكيّة حيال الأشياء في هذا العالم، مزاياه التي ستتمتّع بها كوستانسا وإيدا وأنجيلا.

كانت الأجواء على هذه الحال عندما اكتشفتُ ذات مرَّةٍ، بعودتي من المدرسة، أنَّ السّوار كان ذا قيمةٍ كبيرةٍ مصحوبةٍ بألمٍ عميقٍ لا يخصّني وحدي. فتحتُ باب البيت بالمفتاح، ووجدتُ أمّي في غرفتي، واقفةً أمام الدُّرج، مشغولةً في شيءٍ ما. كانت قد أخرجت السّوار من الدُّرج وأمسكت به بين أصابعها تحدّق إليه كما لو أنّه طوْق هارمونيا، وأرادت أن تخترق سطحه لبلوغ جوهره السّحريّ. انتبهتُ إلى أنَّ كتفيْها في تلك المناسبة كانتا منحنيتيْن كثيرًا، فقد أمست هزيلةً وحدباء.

«ألا تستخدمينه بعد؟» سألتْ إذ أحسَّت حضوري، لكنَّها لم تلتفت.

- «لا يعجبني».

- «هل تعلمين أنَّه لم يكن لفيتُّوريا، إنَّما لجدَّتكِ؟»

- «من أخبركِ بذلك؟»

روت عليَّ أنَّها اتَّصلت بفيتُّوريا شخصيًّا، وعرفت منها أنَّ أمّها تركته لها وهي تُحتَضر. نظرتُ إليها مرتبكةً، كنت أعتقد أنَّه يجب ألَّا نتحدَّث مع فيتُّوريا لأنَّها خطيرةٌ ولا تستحقّ الثقة، ولكنْ كان من الواضح أنَّ الحظر لا يشمل أحدًا سواي.

- «أهذا صحيح؟» سألتُها مُبرِزةً تشكُّكي.

- «ومن يدري! كلُّ شيءٍ يأتي من جانب عائلة أبيكِ، بما فيه أبوكِ نفسه، هو باطلٌ إلى أبعد الحدود».

- «هل تحدَّثتِ معه؟»

- «أجل».

اتَّصلتْ به لتفهم مغزى تلك المسألة تحديدًا. ألحَّت عليه - هل صحيحٌ أنَّ السّوار كان لأمّك، هل صحيحٌ أنَّها تركته لشقيقتك؟ - فبدأ

والدي يتلعثم قائلًا إنَّه كان متعلِّقًا بذلك السّوار كثيرًا، وأنَّه لا يذكره إلَّا ملفوفًا بمعصم والدته، وأنَّه حين علم بأنَّ فيتّوريا تريد بيعه، أعطاها نقودًا واحتفظ به لنفسه.

ـ «متى توفِّيت جدَّتي؟» سألتُ.

ـ «قبل أن تولدي».

ـ «ما يعني أنَّ فيتّوريا كذبت، هي لم تَهْدني السّوار».

ـ «هذا ما يقوله أبوكِ».

استشعرتُ أنَّها لا تصدِّقه، وبما أنَّني كنتُ أصدِّق فيتُّوريا وما زلتُ، وإن على مضض، لم أصدِّقه أنا أيضًا. ولكنْ، خلافًا لإرادتي نفسها، ها هو السّوار يَسْلك طريق حكايةٍ أخرى، مليئةٍ بالعواقب. وسرعان ما صار الغرض في ذهني جزءًا أساسيًّا من نزاعات الشقيقيْن، وحلقةً إضافيَّةً من سلسلة أحقادهما. تصوَّرتُ جدَّتي ترقد لاهثةً، بعينيْن جاحظتيْن، وفمٍ فاغر، في حين أنَّ والدي وفيتُّوريا، على هامش احتضار والدتهما، يتنازعان على السّوار. ينتزعه من بين يديْها، ويحمله بعيدًا ما بين شتائم وتجديف وهو يرمي القطع النَّقديَّة في الهواء. سألتُ:

ـ «وهل تعتقدين أنَّ أبي، في البداية على الأقلّ، أخذ السّوار من فيتّوريا ليعطيه لي عندما أكبر؟»

ـ «لا».

جرحني ذلك المقطع الصوتيّ المُنفرد، فقلت:

ـ «لكنَّه لم يأخذه حتَّى ليُعطيه لكِ».

أومأت أمّي بنعم. أعادت السّوار إلى الدُّرْج. وكما لو أنَّها افتقدتْ قواها، استلقت على سريري تشهق بالبكاء. انزعجتُ، فهي لم تكن تبكي مطلقًا،

إلَّا أنَّها منذ أشهرٍ لا تفوِّت مناسبةً لتبكي. أنا أيضًا أردتُ أن أبكي، لكنَّني لجمتُ دمعي، فلماذا لا تفعل مثلي؟ داعبتُ كتفها، وقبَّلتُها من شعرها. بات جليًّا أنَّ غاية والدي هي أن يلفَّ معصم كوستانسا الرَّقيق بالسّوار، أيًّا كان مالك تلك الجوهرة. السّوار، أيًّا كان الجانب الذي نحلِّله منه، وأيًّا كان نوع القصَّة التي نُدخِله بها ـ خرافة، حكاية مثيرة للاهتمام أو تافهة ـ كان يبيِّن بوضوحٍ أنَّ جسمنا، المدفوع من الحياة التي تطحنه فيها وتتلفه، يقوم بأشياءٍ غبيَّةٍ لا ينبغي له القيام بها. وإن كنتُ قادرةً على تقبُّل هذا الأمر بشكلٍ عامّ ـ من ماريانو مثلًا، وحتَّى من والدتي ومنِّي ـ لم يكن بوسعي تصوُّر أنَّ الغباء قد يُفسِد أشخاصًا بمنزلةٍ ساميةٍ مثل كوستانسا ووالدي. تمعَّنتُ بهذه الحادثة طويلًا، ونسجتُ خيالاتٍ حولها، في المدرسة، على الطريق، على الغداء، على العشاء، وفي اللَّيل. كنت أبحث عن معانٍ للإحاطة بذلك الانطباع حول الذَّكاء الشَّحيح لدى أشخاصٍ يملكون من الذكاء كثيرًا.

- 2 -

خلال تينك السنتيْن، وقعت أحداثٌ بارزةٌ كثيرة. عندما اختفى والدي من البيت للمرَّة الأولى، بعد أن أكَّد على أنَّني مثل شقيقته تمامًا، فكَّرتُ بأنَّه قال ما قال بفعل الاشمئزاز الذي سبَّبتُه له. تضايقتُ وتعذَّبتُ، فقرَّرتُ التوقُّف عن الدراسة. لم أفتح كتابًا، كففتُ عن إنجاز الواجبات المدرسيَّة، وانقضى الشتاء فيما كنتُ أحاول أن أصبح غريبةً عن نفسي أكثر فأكثر. أعرضتُ عن عاداتٍ كان قد فرضها عليَّ: مطالعة الجريدة، مشاهدة نشرة الأخبار. وانتقلتُ من اللَّون الأبيض أو الزهريّ إلى الأسود: سوداء العينيْن، سوداء الشفتيْن، سوداء كلُّ قطعةٍ من ملابسي. غدوتُ سارحةً، صمَّاء من تأنيب المعلِّمين، لامباليةً بعويل والدتي. وبدلًا من الدراسة، رحتُ ألتهم الروايات، وأشاهد الأفلام في التلفاز، وأصدِّع أذنيَّ بالموسيقى. وقد عشتُ في صمتٍ على وجه الخصوص، كلماتٌ قليلةٌ وكفى. وبطبيعة الحال، لم يكن لديَّ أصدقاء، باستثناء الاعتياد الطويل على أنجيلا وإيدا. ولكنْ ابتداءً باللَّحظة التي ابتلعتْهما مأساة عائلتيْنا، أمسيتُ وحيدةً كلِّيًا إلَّا من صوتي الذي يجولُ في رأسي بلا غاية. كنتُ أضحكُ بيني وبين نفسي، وأعبِّر بتكشيراتٍ عن نفسي، وأقضي وقتًا طويلًا إمَّا على أعتاب السُّلَّم الحجريّ خلف مدرستي أو في فلوريديانا، أجوب الدُّروبَ المصفوفةَ بالأشجار والأسيجة التي قطعتُها ذات مرَّةٍ رفقة والدتي، وكوستانسا، وأنجيلا،

وإيدا التي كانت حينها في عربة الأطفال. كنت أهوى الهبوط مذهولةً بالزمن الجميل الخالي كما لو أنّني بتُّ امرأةً عجوزًا، أحدِّق إلى السُّور من دون أن أراه، وحدائق سانتاريلا، أو أجلس في فلوريديانا على أحد المقاعد في مواجهة البحر والمدينة برمَّتها.

عاودت أنجيلا وإيدا ظهورهما متأخِّرًا، وعبْر الهاتف فقط. اتَّصلت بي أنجيلا التي أخذتها سعادةٌ كبرى، قالت إنَّها تريد أن تريني البيت الجديد في بوزيليبو بأسرع وقتٍ مُمكن.

ـ «متى تأتين؟» سألتني.

ـ «لا أدري».

ـ «أبوكِ قال إنَّكِ ستبقين معنا أغلب الوقت».

ـ «عليَّ أن أؤنس والدتي».

ـ «هل أنتِ غاضبةٌ منِّي؟»

ـ «لا».

وعندما تحقَّقتْ أنِّي ما زلت أودُّ بها خيرًا، غيَّرتْ نبرتها وجنحتْ مجنحَ القلق، وأطلعتني على بعض أسرارها حتَّى لو أنَّها أدركت بالتَّأكيد أنَّني بلا رغبةٍ في سماعها. قالت إنَّ والدي سيصبح بمثابة أبٍ لهما، لأنَّه بعد الطلاق، كان سيتزوَّج كوستانسا. قالت إنَّ ماريانو لم ينوِ عدم رؤية كوستانسا فحسب بل ابنتيْه أيضًا، ذلك أنَّه صاح ذات مساء ـ وسمعته هي وإيدا ـ لم يكن يشكُّ البتَّة بأنَّ والدهما الحقيقيّ هو والدي. وكشفت لي في النهاية، شرط ألَّا أُخبر أحدًا، عن ارتباطها بشابّ: والشابّ هو تونينو؛ اتَّصل بها غالبًا، وتلاقيا في بوزيليبو، وقاما بعددٍ كبيرٍ من النزهات في مارجيلينا، وقد تصارحا بالحبِّ منذ أقلّ من أسبوع.

كانت مكالمتها طويلة، وكنت ساكتةً في مُجملها. لم أقل شيئًا حتى عندما همستْ بهزليَّةٍ أنّي سأصبح قريبةً لتونينو، طالما أنَّنا كنَّا شقيقتيْن ربَّما! لم أقل شيئًا إلَّا حين نطقت إيدا، التي كانت بجانبها أغلب الظنّ، وصاحت إليَّ متأسِّفة: ليس صحيحًا أنَّنا شقيقات، أبوكِ لطيف، لكنّي أريد والدي. فقلت بهدوء: أوافق إيدا، وحتى لو تزوَّجت أمُّكما بوالدي، فأنتما ستبقيان ابنتيْ ماريانو، وأنا بنت أندريا. أمَّا بما يتعلَّق بارتباطها بتونينو، فاحتفظتُ بالانزعاج لي وحدي. سوى أنّي غمغمتُ:

ـ «كنتُ أمزحُ حين قلت إنَّه معجبٌ بي، لم أكن يومًا محطّ إعجاب تونينو».

ـ «أعرف. سألتُه عن الأمر قبل أن أجيبه بنعم، وأَقسمَ لي إنَّه لا يحمل أيَّ عاطفةٍ تجاهكِ. لقد أحبَّني منذ أوَّل لحظةٍ رآني فيها، ولا يفكّر إلَّا بي».

وكما لو أنَّ الحزن الضاغط من خلف الدردشة دمَّر الحواجز، انفجرتْ باكيةً، وقالت: عذرًا؛ وأنهت المكالمة.

كم كنَّا نبكي جميعًا! لم أَعُد أحتمل الدموع. ذهبتْ والدتي في شهر يونيو للاطِّلاع على وضعي في المدرسة، فاكتشفتْ أنّني راسبة. كانت تعلم بطبيعة الحال عن تدهوري في الدِّراسة، إلَّا أنَّ الرُّسوب كان مبالَغًا فيه. أرادت أن تتحدَّث إلى الأساتذة، والمديرة. جرجرتني معها كأنّي الدَّليل على أذيَّةٍ تلقَّيتُها. كان عذابًا نفسيًّا لكليْنا. تذكَّرني الأساتذةُ بالكاد، لكنَّهم أظهروا سجلَّاتهم المليئة بالعلامات المتدنِّية، وأثبتوا لها أنّي تغيَّبتُ مرَّاتٍ كثيرة. أحزنها الأمر، لاسيَّما الجانب المتعلِّق بالغيابات. غمغمتْ: أين ذهبتِ، ماذا فعلتِ؟ قلتُ: ذهبتُ إلى فلوريديانا. الفتاة ـ تدخَّلَ أستاذ الآداب في لحظةٍ معيَّنة ـ ليست مهيَّأةً للدِّراسات الكلاسيكيَّة بكلِّ وضوح.

وتوجَّه إليَّ بلُطفٍ: صحيح؟ لم أردّ، لكنِّي وددتُ أن أصرخ، آنذاك وقد كبرتُ، آنذاك ولم أعد دميةً صغيرة، أنَّني لستُ مهيَّأةً لأيِّ شيء، أنِّي لستُ ذكيَّةً، ولستُ قادرةً على اكتناه مشاعرَ طيِّبة، ولستُ جميلةً، ولستُ لطيفةً بالطبع. أجابت والدتي نيابةً عنِّي ـ وكانت قد أكثرتْ من كحلة العينيْن، ومساحيق الوجنتيْن، حتى بدت بشرتها المشدودة مثل شراع: إنَّها مهيَّأة، مهيَّأةٌ جدًّا، سوى أنَّها هامت على وجهها خلال هذا العامّ!

وما إن خرجنا حتّى ألقت اللَّائمة على أبي: الذَّنب ذنبه، لقد رحل وتركنا، هو الذي كان ينبغي له أن يراقبكِ، وأن يساعدكِ وأن يشجِّعكِ. وواصلتْ كلامَها في البيت، وبما أنَّها لم تكن تستطيع تقفِّي أثر زوجها، بحثت عنه في الصباح التالي في المدرسة. لا أعرف كيف جرت الأمور بينهما، لكنَّ والدتي قالت في المساء:

ـ «لن نُخبر أحدًا».

ـ «بماذا؟»

ـ «بأنَّكِ رسبتِ».

شعرتُ أنَّني مُهانةٌ أكثر من قبل. واكتشفتُ فجأةً أنَّني أريد أن يعرف الجميع بأمري، فرسوبي في نهاية المطاف كان الإشارة الوحيدة على تميُّزي. كنت آملُ أن تُخبر والدتي زملاءها بالمدرسة، والأشخاص الذين تصحِّح وتخربش مسوّداتهم، وأنَّ أبي ـ خصوصًا هو ـ ينقل الخبر لأولئك الذين يحترمونه ويقدِّرونه: جوفانّا ليست مثلي ومثل والدتها، لا تتعلَّم، لا تلتزم، قبيحةٌ من الباطن والظاهر مثل عمَّتها، ربَّما ستذهب للعيش معها، فهي تعيش في أنحاء المقبرة، في المنطقة الصناعيَّة.

ـ «لماذا؟» سألتُ.

ـ «لأنَّه لا جدوى من افتعال مأساةٍ عن القصَّة، نحن بصدد فشلٍ صغيرٍ ليس إلَّا. ستُعيدين العام، وستدرسين وتُصبحين أشطر مَن في الصفّ. اتَّفقنا؟»

ـ «أجل» أجبتُ على مضض، وهممتُ بالذهاب إلى غرفتي فإذا هي استبقتني:

ـ «انتظري، تذكَّري ألَّا تُخبري حتى أنجيلا وإيدا».

ـ «هل نجحتا؟»

ـ «أجل».

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ «هل طلب أبي منكِ ألّا نخبرهما؟»

لم تجب، انكفأتْ على عملها، وبدت لي أشدَّ ضمورًا. أدركتُ أنَّهما كانا يشعران بالعار من فشلي، ولعلَّه الشعور الوحيد الذي كان مشتركًا بينهما!

-3-

لم يكن هناك عطلةٌ في ذلك الصيف. والدتي لم تقم بها، ولا أدري بخصوص والدي! لم نره إلَّا في العامَ اللَّاحق، في وقتٍ متقدِّمٍ من الشتاء، عندما استدعته أمِّي لتطلب منه أن يشرعن طلاقهما. لكنَّني لم أتألَّم، أمضيتُ الصيف بأكمله أتظاهر بأنِّي لا أنتبه إلى إحباطها. وحافظتُ على الحياد حتى عندما بدأ والداي بالنقاش حول اقتسام الأغراض، وتشاجرا بطريقةٍ ساخطةٍ عندما هاجمها قائلًا: نيلًا، لديَّ حاجةٌ ماسَّةٌ بالملاحظات الموجودة في الدُّرْج الأوَّل من المكتب؛ فصاحت عليه أنَّها ستمنعه بشتَّى الوسائل من أخذ ولو كتابٍ واحدٍ من البيت، ولا حتى دفتر، ولا حتى القلم الذي كان يستخدمه في العادة، ولا حتى الآلة الكاتبة. لكنَّها أحزنتني وأهانتني بتلك العبارة: لا تُخبري أحدًا بأنَّكِ رسبتِ. رأيتُهما عندئذٍ وللمرَّة الأولى سافليْن تمامًا مثلما وصفتهما لي فيتّوريا، لذا امتنعتُ عن الاتِّصال بأنجيلا وإيدا أو رؤيتهما بكلِّ الطرق: كنتُ أخشى أن يسألاني عن النتائج المدرسيَّة، أو لستُ أدري، عن مجريات الدِّراسة في الخامس الإعداديّ، في حين كنتُ أعيد الصفّ الرابع في الواقع. صار الكذب يُعجبني أكثر وأكثر، وبتُّ أشعرُ أنَّ الصلوات واختلاق الأكاذيب يمنحان الارتياح ذاته. إلَّا أنَّ اللُّجوء إلى أكذوبةٍ تمنع من أن يُكشَف كذبُ والديَّ، ليُصبح من الواضح أنَّني لم أرث كفاءاتهما، كان يجرحني ويُشعرني بالإحباط.

ذات مرّةٍ اتّصلتْ إيدا، فجعلتُ والدتي تقول لها إنّي لستُ موجودةً، على الرّغم من أنّي في تلك المرحلة، كنت أقرأ كثيرًا وأشاهد أفلامًا كثيرةً، فوددتُ أن أتحادث معها بكلِّ سرورٍ لا مع أنجيلا. كنت أفضّل الانعزال المطلق، ولو كان بالإمكان، ما كنت حتّى لأتوجّه بكلمةٍ واحدةٍ لوالدتي نفسها. وكنتُ في المدرسة آنذاك أرتدي ثيابًا وأضع مساحيقَ، بحيث أظهر امرأةً رديئةَ الذوق بين فِتيةٍ أكابر، وكنتُ أحافظ على مسافةٍ عن الجميع، حتى الأساتذة، الذين غفروا لي تصرُّفاتي العنيفة، لا لشيءٍ سوى لأنَّ أمّي وجدتْ طريقةً لتعريفهم بأنّها هي أيضًا معلّمة. وفي البيت، حين لا تكون موجودةً، كنتُ أضع الموسيقى على أعلى صوت، وأحيانًا ما أرقص بتجاذبٍ محموم. وغالبًا ما دقَّ الجيران الباب يعترضون، لكنّي لا أفتح لهم.

وفي ظهيرة أحد الأيّام، إذ كنتُ وحيدةً أهتاج وأثور، رنَّ الجرس. نطرتُ من عين الباب واثقةً أنّهم أناسٌ ممتعضون، لكنّي رأيتُ كورّادو واقفًا عند المستراح. قرّرتُ ألّا أفتح في تلك الحالة أيضًا، لكنّي شعرتُ بأنّه سمع خطواتي في الممرّ. كان ينظر مركّزًا على عين الباب بوقاحته المعهودة، ولعلَّه استشعر أنفاسي من وراء الباب. وبالفعل، ها هو يغيّر تعبيره الجادّ إلى ابتسامةٍ واسعةٍ ومطمئنة. خطرت في ذهني صورةُ والده التي رأيتها في المقبرة، تلك التي كان فيها عشيقُ فيتّوريا ضاحكًا مسرورًا، وفكّرتُ أنّه لا ينبغي وضعُ صورٍ للموتى في المقابر يظهرون فيها ضاحكين؛ ولحسن الحظّ أنَّ ابتسامة كورّادو كانت لشابٍّ حيّ. أدخلتُه خصّيصًا لأنَّ والديَّ حذّراني دائمًا من إدخال أحدٍ في غيابهما، ولم أندم على ذلك. بقي ضيفًا لساعة، وكانت هي المرّة الأولى منذ بداية تلك الأزمة الطويلة أراني أبدي ابتهاجًا لم أكن أظنُّ أنّي قادرةٌ على إبدائه!

عندما تعرَّفتُ على أبناء مرغريتا، قدَّرتُ أسلوب تونينو المتحفِّظ، وحيويَّة جوليانا في ردود أفعالها، لكنَّ كورّادو أزعجني بثرثرته اللَّئيمة وتهكُّمه من أيِّ أحدٍ، حتَّى العمَّةِ فيتُّوريا، بنكاته التي لا تُضحِك. أمَّا في تلك الظهيرة، فكنتُ أنثني من الضحك والدُّموع في عينيَّ جرَّاء أيّ كلمةٍ تخرج من فمه، وكلامه المميَّز عمومًا بغباوةٍ ليست موضع جدل. كان أمرًا مستجدًّا، لكنَّه أصبح يشكِّل أحد طباعي لاحقًا: أبدأ بضحكةٍ مصنوعةٍ من لا شيء، ثمَّ لا أتمكَّن من التوقُّف، والضحكة تغدو متواصلة. والذروة في ذلك اليوم كانت كلمة «باتّيلوكيو»(1). لم أكن قد سمعتها من قبلُ، وحين لفظها وجدتُها هزليَّةً، فانفجرتُ من الضحك. انتبه كورّادو، فراح بعاميَّته المطلْيَنة ينطقها باستمرار ـ هذا باتّيلوكيو، وتلك باتّيلوكيا ـ لاحتقار شقيقه تونينو تارةً، وشقيقته جوليانا تارةً أخرى، وفي المقابل يكسب سرورًا ونشوةً بضحكاتي. تونينو، بالنِّسبة إليه، كان باتّيلوكيو لأنَّه ارتبط بصديقتي أنجيلا التي كانت باتّيلوكيا مثله وأكثر. وكان يسأله: ـ هل قبّلتها؟ بعض المرَّات. ـ وهل وضعتَ يديْك على صدرها؟ كلَّا، لأنَّني أحترمها. ـ تحترمها؟ فأنت باتّيلوكيو إذن، الباتّيلوكيو هو الوحيد الذي يرتبط بإحداهنّ ويحترمها، ما الذي تفعله بارتباطك بها إن كنتَ تحترمها أيُّها الأحمق؟ سترى أنَّ أنجيلا، وهي باتّيلوكيا أكثر منك، ستقول لك: توني، أرجوك، لا تحترمني بعد وإلَّا تركتك. ها، ها، ها.

كم تسلَّيتُ في تلك العصريَّة. أعجبتني السلاسةُ التي كان كورّادو يتحدَّث بها عن الجنس، أعجبني كيف حطَّ من شأن ارتباط أخيه بأنجيلا! كان يبدو أنَّه يعرف الكثير ـ استنادًا إلى خبرةٍ مباشرة ـ حول ما يقع بين المرتبطين،

---

(1) (Battilocchio) للكلمة معانٍ كثيرة، أهمُّها يدلُّ على خمارٍ نسائيّ ينسدل على العينيْن، ومن هذا المعنى، يستخدمها أهل نابولي بعاميَّتهم للإشارة إلى الشخص الساهي والأبله الذي تتشوَّش عنده الرؤية. (المترجم)

وكان في كلِّ حينٍ يقذف كلمةً عامِّيَّةً تدلّ على اسم طريقةٍ جنسيَّة، ثمَّ يشرح لي تفاصيلها بالعامِّيَّة أيضًا. وأنا، رغم أنِّي لم أكن أفهم جيِّدًا بسبب ذلك القاموس الذي لا أتقنه، كنت أؤدِّي ضحكاتٍ حذرةً، ومتقطِّعة، ثمَّ لا أضحك بشكلٍ جدِّيٍّ إلَّا حين يكرِّر تلك الكلمة بطريقةٍ أو بأخرى: باتِّيلوكيو.

كان عاجزًا عن التَّمييز بين الجدّ والفكاهة. والجنسُ يبدو له كوميديًّا على الدوام. فهمتُ أنَّه يرى التَّقبيل مُضحكًا، وعدم التَّقبيل مضحكًا أيضًا؛ المُداعبة وعدم المُداعبة أمران مُضحكان. أكثر المُضحكين برأيه كانا أخته جوليانا وروبرتو، الصديق حادّ الذكاء لتونينو. هذان الاثنان، بعد أن تحابَّا منذ صغرهما من دون أن يصارح أحدُهما الآخر، ارتبطا أخيرًا. جوليانا مُغرمةٌ بروبرتو بجنون، فهو الأجمل في نظرها، والأذكى، والأشجع، والأصلح، إضافةً إلى أنَّه يؤمن بالربِّ أكثر ممَّا يؤمن به يسوع المسيح ـ مع أنَّه كان ابنًا له. كلّ المؤمنات المنافقات في حيِّ باسكوني، مع أولئك اللَّواتي في ميلانو، المدينة التي يدرس فيها روبرتو، كُنَّ على رأي جوليانا نفسه؛ ولكنْ، كورَّادو يقول إنَّ هناك كثيرًا من العقلاء لا يتقاسمون ذلك الرأي المتحمِّس قطعًا. وبين هؤلاء العقلاء كورّادو نفسه وأصدقاؤه، الشابّ ذو الأسنان الأماميَّة البارزة مثلًا، روزاريو.

«ربَّما تكونون مُخطئين، ربَّما جوليانا مُحقَّة»، قلت له.

اتَّخذ نبرةً جادَّة، لكنِّي سرعان ما فهمتُ أنَّها مُصطنعة.

«أنتِ لا تعرفين روبرتو، لكنَّكِ تعرفين جوليانا، وكنتِ في سوق الكنيسة ورأيتِ الرقصات، وفيتّوريا وهي تعزف الأكورديون، وبقيَّة الناس هناك. لذا عليكِ أن تقولي لي: هل تثقين بما يفكِّرون فيه هم أم بما أفكِّر فيه أنا؟»

كنتُ أضحك مسبقًا، قلت:

ـ «ما تفكِّر فيه أنت».

ـ «فإذن، بحسب رأيكِ أنتِ، ومن دون أحكامٍ مُسبقة، ما هو روبرتو؟»

ـ «باتّيلوكيو»، كدتُ أصيح، وضحكتُ باهتياج، حتى أوجعتني عضلات وجهي من فرط الضحك.

وكلَّما تحدَّثنا على ذلك المنوال، تولَّاني إحساسٌ مُحبَّبٌ بالانتهاك: أنا أدخلتُ إلى بيتي الخاوي ذلك الشابّ الذي كان أكبر منِّي بستَّة أو سبعة أعوام على الأقلّ، أنا وافقتُ على التَّحدُّث بأريحيَّة معه، قرابة الساعة، عن مواضيع جنسيَّة. شعرتُ رويدًا رويدًا أنَّني مستعدَّةٌ لارتكاب أيّ انتهاكٍ مُمكن، وقد فطن كورَّادو إلى الأمر، فقدحت عيناه وقال: أتريدين رؤية شيء؟ أومأتُ بلا، وأنا ما زلت أضحك. فقهقه كورَّادو بدوره، وأنزل سحَّاب بنطلونه، وغمغم: أعطيني يدكِ لكي أجعلكِ تتلمَّسينه على الأقلّ. وبما أنِّي كنتُ أضحك ولا أعطيه يدي، أخذها برفق. شدّي عليه، قال: كلَّا، ليس بهذه القوَّة. هكذا جيِّد، شاطرة، لم تتلمَّسي الباتّيلوكيو من قبل، ها؟ قالها عمدًا ليُعيدني إلى نوبة الضحك، فضحكتُ وهمستُ له هذا يكفي، قد تعود والدتي في أيِّ وقت؛ فردَّ: سندعوها لتلمُّس الباتّيلوكيو هي أيضًا. آهٍ، كم ضحكنا! بدا لي من المُضحك أنَّني أمسك قضيبه العريض والغليظ في يدي، حتى إنِّي أخرجتُه بنفسي، وفكَّرتُ أنَّه لم يقبِّلني. فكَّرتُ بذلك حين سألني: هلَّا وضعتِه في فمكِ؛ وكنتُ سأفعلها أيضًا، كنت آنذاك مستعدَّةً لتنفيذ أيِّ شيءٍ يطلبه منِّي شرط ألَّا أتوقَّف عن الضَّحك، ولكنْ حينذاك انبعثت من بنطلونه رائحةُ بولٍ ثقيلةٌ تقزَّزتُ منها؛ كما أنَّه من جهته، في تلك اللَّحظة تحديدًا، قال: كفى؛ وسحب قضيبه من يدي وأعاده إلى سرواله وهو يُصدِر أنينًا خارجًا من الحنجرة كليًّا أذهلني. رأيتُه يسترخي على مسند الأريكة مغمض العينيْن عدَّة ثوانٍ، ثمَّ انتفض، رفع سحَّابه وهبَّ واقفًا، نظر إلى السَّاعة وقال:

ـ «عليَّ أن أغادر يا جانّي، لكنَّنا استمتعنا، وسنلتقي ثانيةً بالتَّأكيد».

ـ «أمِّي لا تسمح لي بالخروج، يجب أن أدرس».

ـ «من غير المُجدي أن تدرسي، فأنتِ شاطرة من الأساس».

ـ «لستُ شاطرة. لقد رسَّبوني، وها أنا أعيد العام».

نظر إليَّ مصدومًا:

ـ «ماذا، هذا مستحيل. أنا لم أرسب مرَّةً في حياتي وأنتِ ترسبين؟ هذا ظلم، عليكِ أن تتمرَّدي. هل تعلمين أنَّني لم أكن مهيَّأً للدِّراسة؟ فلقد أهدوني دبلوم التَّخصُّص الميكانيكيّ هديَّةً لأنِّي طريف».

ـ «لستَ طريفًا، أنت أحمق».

ـ «هل تقصدين أنَّكِ استمتعتِ مع أحمق؟»

ـ «أجل».

ـ «ما يعني أنَّكِ حمقاء أيضًا؟»

ـ «أجل».

ولمَّا صار خارج الباب، لطم كورّادو جبينه، وهتف: كدتُ أنسى شيئًا مهمًّا؛ أخرج من جيب بنطلونه ظرفًا متردِّي الحال. قال إنَّه جاء خصِّيصًا لكي يُعطيه لي، أرسلتْه فيتّوريا إليَّ. لحسن الحظّ أنَّه تذكَّر، فلو نَسِيَ لزعقت عمَّتي في وجهه مثل الضفدع. قال «ضفدع» ليضحكني بتشبيهٍ مبتذل، لكنَّني لم أضحك هذه المرَّة. سلَّمني الظرف واختفى أسفل السلالم، فعاد القلق يستبدّ بي.

كان الظرف مصمّغًا، ومطويًّا كثيرًا، ومتَّسخًا. فتحته بعُجالة وهِياج قبل أن تعود والدتي. بضعة سطور، تغصّ على قلَّتها بالأخطاء الإملائيَّة. كانت فيتّوريا تقول إنَّني لم أعد أتَّصل بها أو أردّ على مكالماتها، فبهذا أظهرتُ لها أنِّي لستُ قادرةً على إبداء المودَّة تجاه الأقارب، أي أنِّي مثل والدي ووالدتي تمامًا، لذا يتوجَّب عليَّ أن أعيد لها السّوار. وكانت سترسل كورّادو لاستعادته.

- 4 -

عدت لوضع السّوار في معصمي لسببيْن: أوّلًا، طالما أنَّ فيتّوريا أرادت استرجاعه، رغبتُ أن أتباهى به في الصفّ وإن لوقتٍ قصير، وأن أشكّل انطباعًا بأنَّ ظرفي كراسبةٍ تُعيد العام لا يكشف كلّ شيءٍ عن شخصيَّتي؛ وثانيًا، لأنَّ والدي قُبَيلَ الانفصال، كان يحاول توطيد العلاقة معي من جديد، فأردتُ أن أريه في كلّ مرَّةٍ يأتي إلى المدرسة لاصطحابي أنَّ الجوهرة في معصمي، لعلَّه يفهم أنَّني إذا حدث ودُعِيتُ إلى بيت كوستانسا، كنت سأضع السّوار بالتَّأكيد. إلَّا أنَّ رفيقاتي، وأبي أيضًا، لا يبدو أنَّهم لاحظوا وجود السّوار. رفيقاتي بسبب الحسد، ووالدي لأنَّه قد يرتبك بمجرَّد أن يؤتى على ذكر ذلك الغرض.

كان ينتظرني عادةً عند ساعة الانصراف من المدرسة، ويلاقيني بنبرةٍ ودودة، لنذهب سويًّا لتناول معجَّنات البانزاروتة والباستاكريشوتة النابوليتانيَّة، في أحد مطاعم المقليَّات بالقرب من موقف السكَّة الجبليَّة. وكان يسألني عن الأساتذة، والدروس، والعلامات، لكنّي أحسستُ أنَّه ليس مهتمًّا بإجاباتي، حتى لو تظاهر بعكس ذلك. ثمّ إنَّ هذا الموضوع سرعان ما ينتهي، فلم يكن ينتقل إلى موضوعٍ آخر، ولم أكن أجرؤ على طرح أسئلةٍ تخصّ حياته الجديدة، فيسودنا الصَّمتُ في النهاية.

الصَّمت كان يُحزنني، ويُغيظني، أشعر أنَّ أبي يكفّ عن كونه أبًا لي. ينظر إليَّ حين يظنُّ أنَّني شاردةٌ ولا أنتبه إليه، لكنِّي كنتُ أنتبه وأحسّ بأنَّ نظراته ترتبك، كما لو أنَّه يبذل جهدًا في التعرُّف عليَّ، سوداءُ كلِّيّ من رأسي إلى قدميَّ، بمكياجٍ ثقيل؛ أو ربَّما لأنِّي بتُّ في نظره مألوفةً، أكثر ممَّا كنت مألوفةً أيَّامَ كنتُ ابنته المحبوبة جدًّا، كان يعلم أنَّني مزدوجةٌ وماكرة. حين نصل إلى تحت البيت، كان يسترجع ودَّه، يقبّلني على جبيني، ويقول: سلِّمي على ماما. فألقي عليه التحيَّة الأخيرة، وتنغلق البوَّابة خلف ظهري، فأتخيَّله بتعاسةٍ أنَّه يُغادر منفرج الأسارير بسرعةٍ جنونيَّة.

وغالبًا ما كان يخطر لي أن أدمدم أغنياتٍ نابوليتانيَّةٍ أكرهها، على السلالم أو في المصعد. أتظاهر بأنَّني مطربة، وأغنِّي بصوتٍ فضائحيّ، وأعدِّل الأبيات التي ترنّ في أذنيَّ هزليَّةً بفمٍ فاغر. وعند المستراح، أستعيد الوقار، وأدخل البيت بفتح الباب بالمفتاح، فأجد أمِّي عائدةً للتوّ من المدرسة بدورها.

ـ «يسلِّم عليكِ بابا».

ـ «أصيل. هل أكلتِ؟»

ـ «أجل».

ـ «ماذا؟»

ـ «بانزاروتة وباستاكريشوتة».

«قولي له، من فضلك، أنَّكِ لا تستطيعين أن تتناولي هذه المأكولات على الدوام. ثمَّ إنَّها تضرّ بصحَّته هو أيضًا».

كنت أتفاجأ من النَّبرة الصادقة لتلك الجملةِ الأخيرة، ومن أشياءٍ كثيرةٍ مشابهةٍ تفلت من فمها. كان فيها شيءٌ يتغيَّر، بعد ذلك الإحباط الطويل، ربَّما كان جوهر الإحباط بحدّ ذاته يتغيَّر. أضحت جِلدًا على عظم، تدخِّن أكثر من فيتّوريا، كتفاها أشدُّ انحناءً، وحينما تجلس للعمل، تبدو صنَّارةً مرميَّةً

لاصطياد أسماكٍ يصعب نيلها. ومع هذا، كانت تبدو منذ مدَّةٍ أكثر انشغالًا بزوجها السَّابق من انشغالها بنفسها. في بعض اللَّحظات، كنت أقنع نفسي أنَّها تعتبره مقبلًا على الموت، أو ميِّتًا أصلًا ولم ينتبه أحدُ إلى موته. لم تتوقَّف عن نسب كلّ الخطايا المُمكنة إليه، لكنَّها باتت تمزج أحقادها بمخاوفها؛ فكانت تكرهه، لكنَّها تبدو متخوِّفةً من أنَّه قد يُلحق الضرر بصحَّته وحياته إذا لم تشمله برعايتها. لم أكن أعرف ما العمل! مظهرها الجسديّ يُقلقني، إلَّا أنَّ الخسارة التدريجيَّة لكلِّ اهتماماتها ما عدا الوقت الذي أمضته مع زوجها، كانت تغضبني. عندما كنت أطالع القصص التي تصحِّحها وغالبًا ما تُعيد كتابتها، كنت أجد دائمًا رجلًا فريد المزايا يختفي لسببٍ تارةً أو لسببٍ آخر تارةً أخرى. وإذا جاءت إحدى صديقاتها إلى البيت ـ في غالبيَّتهنّ معلِّماتٌ في المدرسة التي تعمل فيها ـ كنت أسمعها غالبًا ما تقول جُمَلًا مثل: زوجي السَّابق لديه عيوبٌ كثيرة، لكنَّه محقٌّ بالتَّأكيد في رأيه بهذا الموضوع؛ هو يقول كذا؛ هو يفكِّر كذا.. كان يَرِدُ على لسانها مرارًا وباحترامٍ مُطلق. وليس هذا فحسب. حين اكتشفتْ أنَّ والدي بدأ يكتب بانتظامٍ متفاوتٍ على صفحات جريدة الاتِّحاد، وهي التي كانت تشتري صحيفة الجمهوريَّة عادةً، راحت تشتري جريدة الاتِّحاد أيضًا، وتريني توقيعه، وتظلِّل بعض الجمل، وتؤرشف المقالات. كنتُ أفكِّر في نفسي أنَّني لو فعل رجلٌ بي مثلما فعل بها، كنت سأهشِّم قفصه الصدريّ وأنتزع قلبه، وكنتُ متأكِّدةً من أنَّها هي أيضًا تحلم بمجازر من هذا النوع طوال تلك المدَّة كلِّها. غير أنَّها في تلك الآونة صارت تستبدل التهكُّمَ الحقود بسكينةِ الذاكرةِ المثقَّفة. ذات مساء، وجدتُها ترتِّب صور العائلة، بما فيها المخبَّأة في العلبة المعدنيَّة. قالت:

«تعالي، انظري كم كان والدكِ وسيمًا!»

أرتني صورةً بالأبيض والأسود لم أرها من قبل، مع أنِّي فتَّشتُ في كلِّ مكانٍ منذ مدَّة. كانت قد سحبتها توًّا من بين صفحات قاموسها الإيطاليّ

الذي ما تزال تحتفظ به منذ أيّام المدرسة، مكانٌ لم يكن سيخطر في بالي أن أفتّش فيه عن صورة. وحتّى أبي قد لا يعرف عنها شيئًا، طالما أنَّ فيتّوريا تظهر فيها جليةً، لا ممحوّة الأثر بفعل القلم الخطّاط؛ تظهر فيها صبيّةً وبجانبها إنزو دفعةً واحدة ـ عرفتُه فورًا. أكثر من ذلك: كان والدي وعمّتي من جانب، وإنزو من الجانب الآخر، تتوسّطهم امرأةٌ هزيلةٌ تجلس على أريكة؛ لم تكن في أرذل العمر، لكنّها ليست بشابّةٍ أيضًا، وبدت لي صارمةً للغاية. غمغمتُ:

ـ «هنا يبدو بابا وعمّتي فيتّوريا سعيديْن، انظري إليها كيف تبتسم له».

ـ «أجل».

ـ «وهذا إنزو، الضّابط المنحرف».

ـ «أجل».

ـ «هو ووالدي ليسا غاضبيْن هنا».

ـ «لا، في البدء كانا صديقيْن، وكان إنزو يتردّد إلى العائلة».

ـ «ومَن هي هذه السّيّدة؟»

ـ «جدّتكِ».

ـ «كيف كانت؟»

ـ «حقود».

ـ «لماذا؟»

ـ «لم تكن تودُّ أباكِ، ولا تودّني بالنتيجة. لم تشأ أن تتكلّم معي يومًا، ولا أن تراني. فكنتُ دائمًا تلك التي لا تنتمي إلى العائلة، غريبة. تصوّري أنّها كانت تفضّل إنزو على أبيكِ».

عاينتُ الصُّورة بانتباهٍ كبير، وانتابتني غصّةٌ في الفؤاد. أخرجتُ من مقلمتي عدسةً مكبّرة، وكبّرتُ المعصم الأيمن لوالدة أبي وفيتّوريا.

ـ «انظري ـ قلت ـ الجدَّة تضع سواري».

لم تأخذ أمِّي العدسة، انحنت إلى الصورة بوضعيَّة الصنَّارة المعتادة، هزَّت رأسها وغمغمت:

ـ «لم أفطن إليه من قبل».

ـ «أنا رأيتُه على الفور».

راودتها تكشيرةُ انزعاج.

ـ «أجل، رأيتِه على الفور. لكنِّي أظهرتُ لكِ أباكِ ولم تتصدَّقي عليه حتى بنظرةٍ واحدة».

ـ «نظرتُ إليه، ولم يبدُ لي وسيمًا مثلما تقولين».

ـ «بل في قمَّة الوسامة، ما زلتِ صغيرةً، ولا تفهمين كيف يكون الرجلُ حادُّ الذكاء وسيمًا».

ـ «بل أنا أفهم جيِّدًا. في هذه الصورة، يظهر شقيقًا توأمًا للعمَّة فيتّوريا».

أبرزت أمِّي نبرتها الواهنة.

ـ «تذكَّري أنَّه هجرني أنا، لا أنتِ».

ـ «لقد هجر كليْنا. أنا أكرهه».

هزَّت رأسها.

ـ «أنا التي يتعيَّن عليها أن تكرهه».

ـ «وأنا أيضًا».

ـ «كلَّا، أنتِ الآن غاضبةٌ ليس إلَّا، وتتفوَّهين بأشياء لا تدركينها. لكنَّه في جوهره رجلٌ طيِّب. قد يبدو خائنًا وكاذبًا، غير أنَّه صادقٌ وفي معنى من المعاني مخلصٌ أيضًا. حبُّه الحقيقيّ الكبير هي كوستانسا، ظلَّ معها طوال تلك السنوات كلِّها، وسيبقى معها حتى الموت. ثمَّ إنَّه أراد أن يعطي سوار أمِّه لها تحديدًا».

- 5 -

تأذَّت كلٌّ منَّا بسبب اكتشافي هذا، لكنَّنا تفاعلنا بطريقةٍ مختلفة. من يدري كم تصفَّحت والدتي ذلك القاموس، ومن يدري كم مرَّةٍ رأت تلك الصُّورة! ورغم ذلك لم تنتبه يومًا أنَّ السّوار الذي تفاخرت به زوجة ماريانو طيلة أعوام، والذي كانت تعتبره غرضًا نفيسًا تتمنَّى أن تحصل عليه، كان هو نفسه الذي يظهر في معصم حماتها في تلك الصُّورة. لم تكن ترى في الصُّورة المُلتقطة بالأبيض والأسود إلَّا والدي حين كان شابًّا. وهناك، كانت تعرف الأسباب التي أحبَّته من أجلها. ولذا احتفظت بالصُّورة في القاموس كما لو أنَّها وردةٌ، فحتَّى لو يَبِسَت ستبقى تذكِّرنا باللَّحظة التي تلقَّيناها كهديَّة. أمَّا بقيَّة عناصر الصُّورة فلم يخطر في بالها أن تُمعن النَّظر فيها، ولا بدَّ أنَّها قاست بشكلٍ مريعٍ عندما لفتُّ انتباهها إلى الحِلية. لكنَّها انتبهت من دون أن تريني ذلك، سيطرتْ على ردود أفعالها، وحاولت أن تشوِّش نظرتي المستفَزَّة بأحاديثَ مُبتذلةٍ ونوستالجيَّة. فهل يُعقَل أنَّ والدي طيِّبٌ، صادقٌ، مُخلص؟ وهل كوستانسا حبُّه الكبير، زوجته الحقيقيَّة؟ وجدَّتي تفضِّل إنزو، الذي أغوى فيتّوريا، على ابنها؟ ارتجلتْ قصصًا بليدةً من هذا النوع، وقفزت من إحداها إلى أخرى لتلتجئ ثانيةً إلى معبد زوجها السَّابق. لا شكَّ أنَّني اليومَ أستطيع القول إنَّها لو لم تجد وسيلةً لردم الفراغ الذي خلَّفه والدي، لكانت قد سقطت فيه وماتت. إلَّا أنَّ تلك الوسيلة التي اختارتها بدت في عينيَّ أكثرها إثارةً للاشمئزاز.

أمَّا بالنِّسبة إليَّ، فإنَّ الصُّورة أمدَّتني بجسارةٍ لأفكِّر بعدم إرجاع السِّوار إلى فيتّوريا تحت أيِّ مبرِّر. وقد استعنتُ بأسبابٍ مشتَّتةٍ جدًّا. إنَّه لي ـ قلت لنفسي ـ لأنَّه كان لجدَّتي. إنَّه لي ـ قلت لنفسي ـ لأنَّ فيتّوريا استولت عليه مخالِفةً إرادة أبي، ولأنَّ أبي استولى عليه مخالِفًا إرادة فيتّوريا. إنَّه لي ـ قلت لنفسي ـ لأنَّني أستحقُّه، أستحقُّه بكلِّ الأحوال، لأنَّ فيتّوريا أهدته لي بالفعل، ولأنَّه متعلِّقٌ بكذبةٍ على حدٍّ سواء، فكان والدي هو الذي أخذه منها وقدَّمه لامرأةٍ غريبة. إنَّه لي ـ قلت لنفسي ـ لأنَّ تلك الغريبة، كوستانسا، أرجعته إليَّ، فليس من الصَّواب أن تطالب عمَّتي به. إنَّه لي ـ اختتمتُ ـ لأنَّني أنا الذي حدَّدتُه في الصُّورة لا والدتي، لأنَّني أستطيع النظر إلى الألم في وجهه والمعاناة منه وتسبيبه أيضًا، أمَّا هي فلا. هي تثير شفقتي. لم تكن قادرةً حتى أن تصير عشيقة ماريانو، لا تعرف كيف تُبهِج نفسها، وهي النحيفة الحدباء، تهدر طاقاتها على صفحاتٍ غبيَّةٍ من أجل أناسٍ يشبهونها.

أمَّا أنا، فلم أكن أشبهها. إنَّما كنت أشبه فيتّوريا ووالدي، اللذيْن ظهرا في تلك الصُّوَر متشابهيْن كثيرًا من الناحية الجسديَّة. لذا حضَّرتُ رسالةً لعمَّتي. ونتجت أطول بكثير من رسالتها التي كتبتْها إليَّ، وعدَّدتُ لها أسبابي المضطربة التي استندتُ إليها لإبقاء السِّوار عندي. ثمَّ وضعتُ الرِّسالة في الحقيبة التي أحمل بها الكتب المدرسيَّة، وانتظرتُ اليوم الذي سيظهر فيه كورَّادو أو فيتّوريا ثانيةً.

ـ 6 ـ

فوجئتُ بأنَّ كوستانسا هي التي ظهرت، على باب مدرستي. لم أرها منذ الصباح الذي أجبرتْها فيه أمِّي على إعادة السِّوار إليَّ. ووجدتُها أجمل من الماضي كثيرًا، وأكثر أناقةً، بعطرٍ خفيفٍ اعتمدته والدتي لأعوام، ثمَّ توقَّفت عن استخدامه. تفصيلٌ وحيدٌ لم ينل إعجابي: كانت عيناها منتفختيْن. قالت لي بصوتها الجذَّاب والرَّخيم إنَّها تريد أن تأخذني إلى حفلةٍ عائليَّةٍ صغيرة، أنا وابنتيْها: كان والدي ملتزمًا بالمدرسة لفترةٍ طويلةٍ من بعد الظهر، لكنَّه اتَّصل بوالدتي مُسبقًا، ووافقت.

ـ «أين؟» سألتها.

ـ «في بيتي».

ـ «لماذا؟»

ـ «ألا تذكرين؟ إنَّه عيد ميلاد إيدا».

ـ «لديَّ واجباتٌ كثيرة».

ـ «غدًا يوم الأحد».

ـ «أكره الدراسة في يوم الأحد».

ـ «ألستِ مستعدَّةً لأداء تضحيةٍ صغيرة؟ إيدا تتحدَّث عنكِ دائمًا، وتودّكِ كثيرًا».

رضختُ، وركبتُ سيَّارتها المعطَّرة مثلها، وسرنا نحو بوزيليبو. سألتْني عن المدرسة، وحرصتُ جيِّدًا ألَّا أخبرها بأنِّي ما زلت في الصفّ الرابع، على الرَّغم من أنِّي لم أكن أعرف ما الذي يُدرَّس بالصفّ الخامس! وبما أنَّها أستاذةٌ، خشيتُ أن أخطئ في كلِّ إجابةٍ أقدِّمها. وتملَّصتُ بطرح أسئلةٍ حول أنجيلا، وسرعان ما راحت كوستانسا تحدِّثني عن حجم معاناة ابنتيْها، لأنَّني لم أعد ألتقي بهما. روت لي أنَّ أنجيلا حلمت بي مؤخَّرًا أنَّها ضيّعت فردةَ حذائها، وأنَّني وجدتُها وأعدتُها لها، أو شيءٌ من هذا القبيل. وبينما كانت تتحدَّث أخذتُ أداعب السّوار، أردتُ أن تنتبه أنَّه في معصمي. ثمَّ قلت: ليس ذنبنا أنَّنا لم نَعُد نلتقي. وما إن لفظتُ تلك الكلمات حتى تخلَّت كوستانسا عن نبرتها الودودة، وغمغمت: معكِ حقّ، ليس ذنبكنّ. وسكتت كأنَّها قرَّرت التَّركيز على السياقة حصرًا بسبب الزحمة. لكنَّها أخفقت في تمالك نفسها، وأضافت على حين غرَّة: لا تظنِّي أنَّ اللَّوم يقع على أبيكِ، ففيما حدث لا يوجد ذنب، نرتكب الخطايا رغمًا عن إرادتنا. خفَّفت السُّرعة، ركنت السيَّارة، وقالت عذرًا؛ وها هي ـ أوه يا إلهي ضقتُ ذرعًا بالدُّموع ـ تنفجر باكيةً.

ـ «أنتِ لا تعلمين ـ شهقت ـ كم يعاني أبوكِ، كم يتألَّم لأجلكِ، لا ينام، يشتاق إليكِ، ونشتاق إليكِ: أنجيلا وإيدا وأنا أيضًا».

ـ «وأنا أشتاق إليه»، قلت بانزعاج. «أشتاق إليكم جميعًا، أشتاق إلى ماريانو أيضًا. وأعلم أنَّه ما من ذنب، فما وقع قد وقع، لا أحد بوسعه فعل شيء».

مسحت عينيْها برؤوس أصابعها، كلُّ حركاتها كانت ناعمةً وواعية.

ـ «كم أنتِ حكيمة ـ قالت ـ ولطالما كان لديْكِ تأثيرٌ ممتازٌ على ابنتيَّ».

ـ «لستُ حكيمةً، لكنّي أقرأ رواياتٍ كثيرة».

ـ «شاطرة. أنتِ تكبرين، تعطين إجاباتٍ طريفة».

ـ «لا، أتحدَّث جدِّيًا: لا تخطر في بالي كلماتي، إنَّما جملٌ من الكتب».

ـ «أنجيلا لم تَعُد تقرأ. أتعلمين أنَّها مرتبطةٌ بفتى؟»

ـ «أجل».

ـ «وهل لديكِ فتى؟»

ـ «لا».

ـ «الحبّ معقَّد. أنجيلا بدأت فيه باكرًا جدًّا».

أضافت الكحلة إلى عينيْها المحمرَّتيْن، وسألتني إن كان مظهرها لائقًا، وانطلقت مجدَّدًا. وفي تلك الأثناء، ما زالت تلمّح باعتدال عن ابنتها. أرادت أن تفهم، من دون أن توجّه لي أسئلةً واضحة، إن كنت أعرف عن ابنتها أكثر منها. فثارت أعصابي، لم أشأ قول أشياء خاطئة. وسرعان ما استوعبتُ أنَّها لا تعرف عن تونينو شيئًا، لا سنَّه ولا ماذا يفعل، ولا حتى اسمه! ومن جهتي، امتنعتُ عن وصله بفيتّوريا ومرغريتا وإنزو، لم أقل حتى إنَّه يكبر أنجيلا بعشرة أعوام تقريبًا. سوى أنّي غمغمتُ أنَّه شابّ جادّ، وخشية أن أبوح بأمورٍ أخرى، كدتُ أختلق أنّي لست على ما يرام، وأودُّ العودةَ إلى المنزل. لكنَّنا وصلنا. دلفت كوستانسا بالسيَّارة في دربٍ مشجَّر ثمَّ ركنتها. أبهرتني أشعَّةُ الضوء القادمة من البحر، ومن بهاء الحديقة: كانت تَشرف على جزءٍ واسعٍ من نابولي، وعلى السَّماء، وعلى بركان الفيزوف. هنا يعيش والدي إذن. غادر سان جاكومو دي كابري، لكنَّه لم يخسر كثيرًا من حيث الارتفاع بل وكسب من حيث جمال الموقع. سألتني كوستانسا:

ـ «هلّا أسديتِ إليَّ معروفًا صغيرًا؟»

ـ «أجل».

ـ «هلّا نزعتِ السّوار عن يدكِ؟ ابنتاي لا تعلمان أنّني أعطيتُه لكِ».

ـ «لعلَّ الحقيقةَ إذا اتَّضحت، تتحلحل عقدةُ كلّ الأمور».

قالت بصوت منهك:

ـ «الحقيقة صعبة، ستفهمين ذلك حين تكبرين، إنَّها شيءٌ لا تكفي معه الروايات. هلّا أسديتِ إليَّ هذا المعروف إذن؟»

أكاذيب، أكاذيب، يحظرها البالغون ثمَّ يتفوَّهون بكثيرٍ منها. أومأتُ بنعم، ونزعتُ السّوار ووضعتُه في جيبي. شكرتني، ودخلنا إلى البيت. التقيتُ بأنجيلا بعد وقتٍ طويل، والتقيتُ بإيدا، وسرعان ما أوجدنا انسجامًا ظاهريًّا، مع أنَّنا تغيَّرنا نحن الثلاث. كم أنتِ نحيفة، قالت لي إيدا، ما أطول قدميْكِ، لكنَّ صدركِ كبيرٌ، كبيرٌ جدًّا! لماذا ارتديتِ ثيابًا سوداء؟

أكلنا في مطبخٍ زاخرٍ بالشمس، ومجهَّزٍ بأثاثٍ وأدواتٍ كهربائيَّةٍ برَّاقة. وبدأنا نحن الفتيات الثلاث بالمزاح، وأغشتني نوبةُ ضحك، فانفرجت أسارير كوستانسا برؤيتنا على ما يبدو. وامّحت عن وجهها كلّ آثار البكاء. كانت لطيفةً لدرجةِ أنَّها اهتمَّت بي أكثر من اهتمامها بابنتيْها. وعندئذٍ، أنَّبتهما لأنَّهما أُخِذَتا بالهوجة، وراحتا تقصَّان عليَّ تفاصيل دقيقةً عن رحلةٍ أقامتاها مع جدَّيْهما إلى لندن، ولم تفسحا لي المجال للحديث. كانت تنظر إليَّ طيلة الوقت بسيماءٍ ودود، ووشوشتني مرَّتيْن: كم أنا سعيدةٌ لأنَّكِ هنا، لقد أصبحتِ آنسةً جميلة! علامَ تنوي؟ تساءلتُ. ربَّما تريد أن تنتزعني أنا أيضًا من أمِّي، وتريد أن آتي للسكن في هذا المنزل! هل كان سيؤسفني؟ لا، ربَّما لا. كان البيت رحبًا، منيرًا، مليئًا بالكماليّات. أكاد أجزم أنَّني كنت سأعيش فيه على ما يرام، لو أنَّ أبي لا ينام ولا يأكل ولا يستخدم الحمَّام في

ذلك المكان مثلما كان يفعل عندما كان معنا في سان جاكومو دي كابري. إلّا أنَّ العائق هو ذاك تحديدًا: أبي يسكن هناك، وحضوره كان سيجعل وجودي أمرًا غيرَ معقول: فكيف أستقرُّ في هذا البيت، وأعيدُ علاقاتي بأنجيلا وإيدا، وأتناولُ طعامَ خادمة كوستانسا الصامتة والماهرة؟ أدركتُ أنَّ أكثر ما أخشاه دون سواه هي اللَّحظة التي سيعود فيها والدي من مكانٍ ما بحقيبته المليئة بالكتب ليقبّل جبين تلك الزوجة، مثلما فعل دائمًا مع الأخرى؛ ويقول إنَّه متعبٌ جدًّا، ورغم هذا يمازحنا نحن الفتيات الثلاث. كان سيتظاهر بأنَّه يحبُّنا، وكان سيُجلِسُ إيدا في حضنه ويساعدها لتنفخ على الشموع، وسيصدح بعيد ميلادٍ سعيد، ثمَّ ينتهز لحظة جمودٍ مباغتةً يُتقنها جيّدًا، لينسحب إلى غرفةٍ أخرى، مكتبه الجديد، المخصَّص لما كان يفعله بالضَّبط في مكتب بيتنا، وينغلق على نفسه، وكانت كوستانسا ستقول ما تقوله أمّي دائمًا: تحدَّثن بصوتٍ منخفضٍ، أرجوكنَّ، لا تزعجن أندريا، عليه أن يعمل.

ـ «ما بالكِ؟ ـ سألتني كوستانسا ـ أصبحتِ شاحبةً، هل أنتِ بخير؟»

ـ «ماما» تأفَّفت أنجيلا، «هلّا تركتِنا وشأننا قليلًا؟»

- 7 -

قضينا فترة الظهيرة، نحن الثلاث بمفردنا، وتحدَّثت أنجيلا بالتَّفصيل عن تونينو جزءًا كبيرًا من الوقت. سخَّرت كلّ ما عندها لتقنعني أنَّها متعلّقةٌ جدًّا بذلك الفتى. تونينو قليل الكلام، كثير الفتور، لكنَّه لا يقول إلَّا أشياءَ مهمَّة. تونينو يُطلق يدها لتحكمه بالعصا لأنَّه يحبُّها، لكنَّه يعرف كيف يجابه مَن يريد النَّيْل منه. تونينو يأتي كلَّ يومٍ إلى المدرسة لاصطحابها، طويلُ القامة، أجعدُ الشعر، تميِّزه من بين ألف رجل لشدَّة وسامته، عريضُ المنكبيْن، وعضلاته المفتولة تتَّضح حتى إذا ارتدى الجبّة. تونينو حاصلٌ على شهادة معهد المساحة، ويعمل أحيانًا. لكنّ طموحاته عظيمةٌ، وسرِّيَّةٌ، يخفيها حتى على والدته وشقيقيْه، كان يدرس العمارة. تونينو صديقٌ مخلصٌ لروبرتو، خطيب جوليانا، مع أنَّهما مختلفان قلبًا وقالبًا: عرفته أنجيلا، لأنَّهم ذهبوا لتناول البيتزا ذات يوم، الأربعة معًا؛ ويا للإحباط! روبرتو شخصٌ عاديٌّ، ومملٌّ أيضًا، من غير المفهوم أنَّ فتاةً حسناء مثل جوليانا تهيم عشقًا بشابٍّ مثله، ومن غير المفهوم أيضًا أنَّ رجلًا مثل تونينو، المتفوّق على روبرتو كثيرًا من حيث الوسامة والذكاء، يُكِنُّ له تقديرًا كبيرًا!

أصغيتُ طوال الوقت، لكنَّ أنجيلا لم تقنعني، بل بدت لي أنَّها تستغلّ قصَّة خطيبها لتلمِّح أنَّها سعيدةٌ على الرَّغم من انفصال أبويْها. سألتُها:

ـ «ولماذا لم تحدِّثي أمَّكِ عنه إطلاقًا؟»

ـ «ما شأن أمِّي؟»

ـ «استفسرت منِّي».

ارتابت أنجيلا:

ـ «هل قلتِ لها مَن يكون، هل قلتِ لها أين تعرَّفتُ عليه؟»

ـ «لا».

ـ «يجب ألَّا تعرف أمِّي شيئًا».

ـ «وماريانو؟»

ـ «أسوأ كثيرًا».

ـ «هل تعلمين أنَّ والدي إذا رآه، أرغمكِ على تركه مباشرة؟»

ـ «والدكِ لا أحد، عليه أن يصمت، لا يحقّ له أن يقول لي ماذا عليَّ أن أفعل».

أبدت إيدا موافقتها بإيماءاتٍ صريحة، وأكَّدت:

ـ «والدنا هو ماريانو، ولقد أوضحنا الأمر. لكنَّني وشقيقتي قرَّرنا ألَّا نكون بناتٍ لأحد: حتى والدتنا لم نعد نعتبرها والدتنا».

أخفضت أنجيلا صوتها مثلما كنَّا نفعل بحكم العادة، عندما نتحدَّث عن الجنس بمفرداتٍ بذيئة:

ـ «إنَّها قحبة، قحبة أبيكِ».

قلت:

ـ «إنِّي بصدد قراءة كتابٍ، حيث الفتاة تبصق على صورة والدها، وإحدى صديقاتها تفعل على غرارها».

سألتْني أنجيلا:

ـ «هل تفكّرين في البصق على صورة أبيكِ يومًا؟»

ـ «وأنتِ؟» سألتها بدوري.

ـ «أنا لأَبصقنَّ على صورة والدتي، أجل».

ـ «أمَّا أنا فلا»، قالت إيدا.

فكَّرتُ برهةً، قلت:

ـ «أنا على صورة والدي، لأَتبوَّل»

حمَّست الفرضيَّةُ أنجيلا.

ـ «بإمكاننا أن نفعلها معًا».

ـ «إن فعلتماها ـ قالت إيدا ـ سأنظر إليكما وأكتبكما».

ـ «ماذا تقصدين بـ أكتبكما؟» سألتُ.

ـ «أكتب عنكما أنَّكما تتبوَّلان على صورة أندريا».

ـ «حكاية؟»

ـ «أجل».

أسعدني ذلك. أسعدني كيف نفت الشقيقتان نفسيْهما داخل حدود البيت ذاته. أسعدني كيف تبتران صلات الدم مثلما وددتُ أن أبترها أنا. وأعجبتني سفاهتهما أيضًا.

ـ «إن كنتِ تحبِّين كتابة حكايات من هذا النوع، بإمكاني تزويدكِ بأشياءَ حقيقيَّةٍ فعلتُها»، قلت.

ـ «ما هي»؟ سألت أنجيلا.

أخفضتُ صوتي:

ـ «أنا قحبة أكثر من أمّكما».

أبدتا اهتمامًا مُنقطعَ النظير بصراحتي، وأصرَّتا على أن أروي كلَّ شيء.

ـ «هل أنتِ مرتبطةٌ بفتى؟»، سألت إيدا.

ـ «لا ضرورة أبدًا للارتباط بفتًى كي تصبح المرأة قحبة. فالقحبة تمارس مع مَن يقع بين يديْها».

ـ «وأنتِ تقحّبين مع مَن يقع بين يديْكِ؟»، سألت أنجيلا.

قلت نعم. ورويتُ أنّني مع الشبّان أتحدَّث عن الجنس بأرذل الكلمات العامِّيَّة، وأضحك جدًّا، جدًّا. وكلَّما ضحكتُ بما يكفي، أخرج الشبَّان أيورهم وأرادوا أن أمسكها بيديَّ، وأضعها في فمي.

ـ «يا للقرف»!، قالت إيدا.

ـ «أجل ـ أقرَّيتُ ـ الأمر مُقرف بمُجمله».

ـ «بمُجمله، ماذا يعني؟»، سألت أنجيلا.

ـ «الذكور، كأنَّهم يعيشون في مراحيض القطار».

ـ «لكنَّ القُبَل جميلة»، قالت إيدا.

نفيتُ بهزَّةٍ عنيفةٍ من رأسي.

ـ «الذكور ينزعجون من إعطاء القبل، لا يلمسونكِ حتَّى، وسرعان ما يُخفضِون سحَّابات بنطلوناتهم. لا يهمّهم سوى أن تتلمَّسي القضيب بيديْكِ».

ـ «غير صحيح»، ردَّت أنجيلا منفعلةً «تونينو يقبّلني».

استأتُ من كونها تشكُّك فيما أقول.

ـ «تونينو يقبّلكِ، لكنَّه لا يعطيكِ شيئًا آخر».

ـ «ليس صحيحًا».

ـ «فلنستمع إذن! ما الذي تفعلينه مع تونينو؟»

غمغمت أنجيلا:

ـ «إنَّه متديِّنٌ جدًّا، ويحترمني».

ـ «أرأيتِ؟ ما الذي تفعلينه مع شابٍّ إذا كان يحترمكِ؟»

صمتت أنجيلا. هزَّت رأسها، وكأنَّها غصَّت بمرارة.

ـ «يهمُّني لأنَّه يحبُّني. أمَّا أنتِ فربَّما لا يحبُّكِ أحد. لقد رسَّبوكِ أيضًا».

ـ «أهذا صحيح؟»، سألت إيدا.

ـ «من أخبركما؟»

تردَّدت أنجيلا، وبدت متأسِّفةً من كونها تدنَّت إلى حدِّ إهانتي. غمغمت:

ـ «أنتِ أخبرتِ كورّادو، وكورّادو أخبر تونينو».

أرادت إيدا التهوين عليّ.

ـ «لكنَّنا لم نخبر أحدًا»، قالت، وحاولت أن تداعب وجنتي. فأقصيتُها وفححتُ:

ـ «وحدَهُنَّ الحقيرات اللواتي مثلكما يدرسن كالببَّغاء، وينجحن ويحترمهنَّ شبَّانُهنَّ. أنا لا أدرس، إنَّما أرسب، ثمَّ إنِّي قحبة».

- 8 -

وصل أبي بعد حلول الظلام. بدت كوستانسا حانقةً، قالت له: لماذا تأخَّرتَ هكذا، كنتَ تعرف أنَّ جوفانّا هنا. تناولنا العشاء، وتظاهر والدي بالسَّعادة. كنت أعرفه جيِّدًا، كان يمثِّل أنَّه مبتهجٌ في حين لم يكن كذلك! أملتُ أنَّه في الماضي، عندما كان يعيش مع أمِّي ومعي، لم يمثِّل مُطلقًا مثلما كان فعلُهُ واضحًا في ذلك المساء.

من جهتي، لم أفعل شيئًا لإخفاء أنَّني غاضبة، وأنَّ كوستانسا كانت تُزعجني باهتمامها المعسول، وأنَّ أنجيلا أهانتني ولم أعد أريد أيَّ صلةٍ بها، وأنِّي لا أتسامح مع مظاهر الودّ التي تُبذلها إيدا لتهدئة روْعي. كنت أشعر بالشرّ في داخلي يسعى بشكلٍ حثيثٍ للبروز، وكان ذلك جليًّا في عينيَّ وسائر وجهي، فكَّرتُ وأنا أرتاب من نفسي ذاتها. حتَّى وصل بي المطاف أنِّي همستُ في أذن إيدا: إنَّه عيد ميلادكِ، وماريانو ليس هنا، لا بدَّ من وجود سبب؛ ربَّما لأنَّكِ كثيرةُ التذمُّر، ربَّما لأنَّكِ شديدةُ اللزوجة. كفَّت إيدا عن محادثتي، وارتعشت شفتها السُّفلى، كما لو أنَّني لطمتُها بقوَّة.

ولم تمرّ الحادثة من دون لفت انتباه. لاحظ والدي أنَّني قلت كلامًا سيِّئًا لإيدا، فقطع دردشةً لطيفةً مع أنجيلا والتفت نحوي منتفضًا، ووبَّخني: أرجوكِ، جوفانّا، لا تكوني قليلة أدب، كفِّي عن ذلك. لم أقل شيئًا، إنَّما

تفلَّتتْ منِّي ما يشبه الابتسامة التي أزعجته مزيدًا، فأضاف بشدَّة: هل فهمتِ؟ أومأتُ بنعم حريصةً على عدم الضحك، وانتظرتُ قليلًا؛ قلت بوجهٍ يتضرَّج احمرارًا: سأذهب إلى الحمَّام للحظات.

أغلقتُ على نفسي بالمفتاح، وغسلتُ وجهي وأنا أهجس بوجوبِ محوِ احمرار الغضب الذي استباح وجهي. يعتقد أنَّه قادرٌ على تعذيبي، لكنِّي قادرةٌ مثله أيضًا. وقبل أن أعود إلى صالة الطعام، كحَّلتُ عينيَّ من جديد مثلما فعلت كوستانسا بعد أن ذرفت دموعًا، وأخرجتُ السّوار من جيبي، ولففتُ به معصمي، وعدتُ إلى المائدة. جحظتْ عينا أنجيلا من التعجُّب، قالت:

ـ «كيف يُعقَل أنَّ لديْكِ سوار أمِّي؟»

ـ «أعطتني إيَّاه بنفسها».

التفتتْ نحو كوستانسا:

ـ «لماذا أعطيتِه لها، كنتُ أريده لي».

ـ «كان يُعجبني أنا أيضًا»، غمغمت إيدا.

تدخَّلَ والدي عابسًا:

ـ «جوفانّا، أعيدي السّوار».

هزَّت كوستانسا رأسها. بدت لي قد خارت قواها فجأةً هي الأخرى:

ـ «إطلاقًا. السوار لجوفانّا، لقد أهديتُه لها».

ـ «لماذا؟»، سألتها إيدا.

ـ «لأنَّها فتاة طيِّبة ودرِّيسة».

نظرتُ إلى أنجيلا وإيدا. كانتا حزينتيْن. انخفضت رغبتي في الثأر، وأسفتُ لحزنهما. كان كلُّ شيءٍ حزينًا وكئيبًا. لا شيء إطلاقًا، إطلاقًا، كان بوسعه إسعادي مثلما كنتُ سعيدةً في صِغري، عندما كانتا صغيرتيْن هما أيضًا. أمَّا آنذاك، فكانتا مجروحتيْن، متألِّمتيْن، وإن أرادتا رفع معنويَّاتهما، ربَّما ستقولان إنَّهما تعرفان أحد أسراري، ستقولان إنَّني راسبة، ولا أتعلَّم، وأنِّي غبيَّةٌ بطبعي، لا أملك إلَّا أسوأ المزايا، لا أستحقّ السّوار. فقلت لكوستانسا، بلهجةٍ غاضبة:

- «لستُ طيِّبة، ولا درّيسة. لقد رسبتُ العام الماضي، وها أنا أعيد العام».

نظرت كوستانسا إلى والدي مرتبكةً، سعلَ سعلةً طفيفة، وقال على مضض، مقلِّلًا من شأن المسألة، كأنَّه يريد التمعُّن في إحدى مبالغاتي:

- «صحيح، لكنَّها في هذا العام أصبحت شاطرة، ومن المحتمل أن تجتاز عاميْن في عامٍ واحد. هيَّا، جوفانّا، أعيدي السّوار لأنجيلا وإيدا».

فقلت:

- «السّوار لجدَّتي، لا أستطيع إعطاءه للغريبات».

استخرج والدي حينها، من قاع حنجرته، صوتَه المُريع، المشحون بالجمود والاحتقار:

- «أنا الذي أعرف لمن هذا السّوار، انزعيه من يدكِ فورًا».

فنزعتُه من معصمي، وضربتُ به أحد أثاث المطبخ.

- 9 -

أوصلني أبي إلى المنزل بالسيَّارة. خرجتُ من الشقَّة في بوزيليبو منتصرةً بشكلٍ غير متوقَّع، لكنَّني كنتُ مرهقةً من الأسى. كنتُ أحمل في حقيبتي السّوارَ وقطعةً من الحلوى لوالدتي. غضبتْ كوستانسا من أبي، وذهبتْ بنفسها لأخذ الجوهرة من على الأرض. وبعد أن تحقَّقت من أنَّه لم يتضرَّر، قالت من دون أن تحيد عينيْها عن عينيْ مُساكِنها، تهجِّئ الكلمات مردِّدةً أنَّ السّوار كان لي بلا منازع، وأنَّها لا تريد الخوض في جدالاتٍ أخرى. وهكذا، في جوٍّ لم يكن من المُمكن فيه حتى اصطناع البهجة، نفخت إيدا على الشموع، وانتهت الحفلة، وفرضت عليَّ كوستانسا أن أحمل بعضًا من الحلوى لصديقتها السَّابقة ـ هذه من أجل نيلّا ـ وما كان من أنجيلا المُحبطة إلَّا أن قطعت جزءًا كبيرًا من القالب وغلَّفته بعناية. والدي آنذاك يقود السيَّارة نحو ڤوميرو متوتِّرًا، لم أره هكذا من قبل. اختلفتْ تقاسيمُ وجهه كثيرًا عن تلك التي اعتدتُ عليها، عيناه باتتا في منتهى الاحتقان، وبشرته مشدودةٌ على عظامها، ولاسيَّما أنَّه كان ينطق كلماتٍ متحيِّرةً وهو يبرِّم فمه، كما لو أنَّه لا يقدر على تهجئة الكلمات إلَّا ببذل جهدٍ جهيد.

استهلّ بعباراتٍ من هذا النوع: أنا أفهمكِ، أنتِ تعتقدين أنَّني دمَّرتُ حياة أمِّكِ، والآن تنوين الانتقام لها بتدمير حياتي وحياة كوستانسا وحياة

أنجيلا وإيدا. كانت نبرته تبدو مسالمة، لكنّي استشعرتُ فيها احتقانًا بثّ فيَّ الخوف. خشيتُ أن يضربني بين لحظةٍ إلى أخرى، أو أن نصطدم بجدارٍ أو بسيَّارةٍ أخرى. انتبه لمخاوفي، فغمغم قائلًا: هل أنتِ خائفةٌ منِّي؛ كذبتُ وقلت لا، وهتفتُ أنَّ هذا غير صحيح، لم أشأ تدمير حياته، فأنا أودُّه. لكنَّه أصرّ، وانهال عليَّ بآلاف الكلمات. أنتِ خائفة منِّي، قال، لم أعد أبدو لكِ الأبَ الذي كنتُ، وربَّما معكِ حقّ، ربَّما بين الحين والآخر أصير الشخصَ الذي لم أشأ يومًا أن أكون! اعذريني إن أخفتكِ، أمهليني بعض الوقت، سترين كيف أعود مثلما تعرفينني، إنَّني الآن أواجه فترةً صعبة، كلُّ شيءٍ يتدهور، وقد أحسستُ أنَّ الأمورَ ستؤول هذا المآل، لا ينبغي أن تبرِّري إن راودتكِ مشاعرُ عنيفة، هذا طبيعيّ، ولكنْ لا تنسي أنَّكِ ابنتي الوحيدة، وستبقين دومًا ابنتي الوحيدة، وأمُّكِ أيضًا، سأظلّ أودّها ما حييتُ، ربَّما لن تفهمي الآن لكنَّكِ ستفهمين، الوضع صعب، لقد كنتُ مخلصًا لأمّكِ لوقتٍ طويلٍ جدًّا، لكنِّي أحبّ كوستانسا من قبل أن تولدي أنتِ، ورغم هذا، لم يقع بيننا شيءٌ البتَّة، وكنت أعتبرها الشقيقة التي وددتُ دومًا أن تكون لديَّ، نقيضَ عمَّتكِ، النقيضَ تمامًا، ذكيَّةً، مثقَّفةً، حسّاسة، وقد كانت بالنِّسبة إليَّ شقيقةً مثلما كان ماريانو شقيقًا لي، شقيقًا درستُ معه، وتناقشتُ معه، وكان واحدنا ثقةً للآخر، وكنت أعلم كلَّ شيءٍ عن ماريانو، فلطالما خان كوستانسا. أنتِ الآن كبيرة، بوسعي أن أقول لكِ هذه الأشياء. كان لدى ماريانو نساءٌ أخريات وكان يحبّ أن يروي عليَّ كلَّ قصصه، وأنا كنت أفكِّر بالمسكينة كوستانسا، وأشفق عليها، ووددتُ أن أحميها من خطيبها نفسه، من زوجها نفسه، كنت أظنُّ أنَّ تدخُّلي منوطٌ بأنَّنا نُكِنُّ مشاعرَ أخويَّة، ولكنْ ذات مرَّة، من طريق الصدفة ها، الصدفة! قمنا برحلةٍ معًا، رحلةِ عمل، أمورٌ تخصّ المعلِّمين، وكانت هي تعوّل كثيرًا على تلك المناسبة، وأنا كذلك، ولكن بلا خبث. أقسم لكِ أنَّني لم أخن أمّكِ يومًا ـ بل كنت أحبّها منذ

أيَّام المدرسة وما زلت حتى الآن، أحبُّها وأحبُّكِ ـ حدث أنَّنا تعشَّينا، أنا وكوستانسا وأناسٌ آخرون، وتحادثنا كثيرًا، في المطعم أوَّلًا، ثمَّ في الطريق، ثمَّ طوال اللَّيلة في غرفتي، مستلقييْن على السرير، مثلما كنَّا نفعل حتى في وجود ماريانو وأمّكِ. ففي تلك الحقبة، كنَّا أربعة شبَّان، نتجالس متقاربين ونتناقش، مثلكِ أنتِ وإيدا وأنجيلا حين تتحدَّثن في شتَّى الأمور، ولكنْ في تلك اللَّحظة، كنت وحدي مع كوستانسا، واكتشفنا أنَّ حبَّنا لم يكن أخويًّا، إنَّما كان نوعًا آخر من الحبّ، وتعجَّبنا منه نحن أنفسنا، لا أحد يعلم كيف ولماذا تقع هذه الأشياء، وما أسبابها العميقة وأسبابها السطحيَّة، ولكنْ لا تتوهَّمي أنَّنا تابعنا على ذلك المنوال، لا، مجرَّد شعورٍ كثيفٍ ولا يمكن تجاهله. إنَّني متأسِّف يا جوفانَّا، اعذريني، اعذريني من أجل السِّوار أيضًا، فلطالما اعتبرته لكوستانسا، وكنت أراه وأقول لنفسي: هل تعلم كم سيعجبها، هل تعلم كم سيليق بها، وهذا هو السَّبب الذي دفعني للحصول عليه مهما كلَّف الثمن عندما تُوفِّيت والدتي، صفعتُ فيتّوريا لأنَّها أصرَّت أنَّه من حقِّها، وعندما ولدتِ أنتِ قلتُ لها: اهديه للطفلة، فأخذت بكلامي لمرَّةٍ واحدةٍ في حياتها، ولكنِّي، أجل، أهديته فورًا لكوستانسا، سوار أمِّي التي لم تحبُّني يومًا، أبدًا، وربَّما كان يؤلمها أنَّني أحبُّها، لا أدري، فأحيانًا نقوم بأفعالٍ تبدو لنا أفعالًا فإذا هي رموز، تعلمين ما الرموز؟ عليَّ أن أشرح لكِ هذا الأمر، الخير يصبح شرًّا من دون أن تفطني إلى ذلك، افهميني، لم أؤذيكِ أبدًا، كنتِ قد ولدتِ توًّا، بل كنت سأؤذي كوستانسا لو لم أهدها السوار، لأنِّي في مخيِّلتي، كنت قد أعطيته لها منذ زمنٍ بعيد.

وتابع على هذا المنوال طوال الطريق. وفي الواقع، كان كلامه مشتَّتًا أكثر ممَّا لخَّصتُه آنفًا. لم أفهم يومًا كيف يُعقَل أنَّ رجلًا منصرفًا إلى التَّفكير والدراسة، قادرًا على نطق جُمَلٍ في غاية البيان، يتفوَّه بأحاديث متقطِّعة الأوصال على ذلك النحو، عندما يكون مأخوذًا بعواطفه أحيانًا. حاولتُ أن

أقاطعه غير مرَّة. قلتُ: أفهمك يا بابا. قلت: هذا لا يخصُّني، إنَّها شؤونك وشؤون ماما، شؤونك وشؤون كوستانسا، لا أريد معرفة هذه الأمور. قلت: يؤسفني أنَّك تعاني، أنا أيضًا أعاني، وأمِّي تعاني كذلك.. ألا يبدو لك مضحكًا أنَّ كلّ هذه المعاناة تعني أنَّك تحبُّنا!

لم يكن في نيَّتي التهكُّم. كان جزءٌ منِّي يرغب حقًّا في مناقشته حول الشرّ، الذي في حين أنَّه يبدو لك شيئًا جيِّدًا، يبدأ بالانتشار رويدًا رويدًا في رأسك، ومعدتك، وسائر جسدك. من أين يأتي الشرّ يا أبتِ ـ أردتُ أن أسأله ـ كيف من المُمكن السَّيطرة عليه، ولماذا لا يدحر الخيرَ إنَّما يتعايش معه. في تلك اللَّحظة، بدا لي أنَّه رغم حديثه الذي خصّه بالحبّ، كان يعلم عن الشرّ أكثر من العمَّة فيتّوريا. وبما أنَّني كنت أشعر بالشرّ في قلبي أنا أيضًا، أحسستُ أنَّه يتقدَّم باستمرار، فوددتُ لو تحدَّثنا عنه. لكنَّ ذلك كان مستحيلًا، لأنَّه لم يستوعب إلَّا الجانب التهكُّميّ من كلماتي، وما فَتِئ يكوِّم الأعذار والتبريرات بعضها على بعض، بقلقٍ مثار، مهووسًا بجَلْد ذاته، ومهووسًا بالخلاص عبْر تعديد دوافعه العظمى، ومعاناته. قبَّلني على جانب فمي تحت البيت، ومضى بعيدًا. كان لفمه رائحةٌ حامضة قزَّزتني.

سألتني والدتي من دون فضول:

ـ «كيف كانت الحفلة؟»

ـ «جيِّدة. كوستانسا أرسلت لكِ قطعةً من قالب الحلوى».

ـ «كليها أنتِ».

ـ «لستُ راغبة».

ـ «ولا حتَّى في الغد على الفطور؟»

ـ «لا».

ـ «فارميها إذن».

- 10 -

مضى بعضُ الوقت وظهر كورّادو مجدَّدًا. كنتُ أوشك على دخول المدرسة، سمعتُ أحدًا يناديني، لكنّي حتّى قبل أن أسمع صوته، وقبل أن ألتفت لأراه في زحام التلاميذ، كنت متيقّنةً من أنّني سألتقيه في ذلك الصباح. أُسعِدتُ بمجيئه، بدا لي حدْسًا، لكنّي أقرّ بأنّني كنت أفكّر فيه منذ مدَّة، لاسيَّما خلال أوقات الدِّراسة المملَّة في المساء، عندما تخرج والدتي وأبقى وحيدةً في البيت، فأتمنّى لو يأتي فجأةً مثل المرّة السَّابقة. لم أعتقد يومًا أنّه حبّ، كان رأسي منشغلًا بأمورٍ أخرى. كنت قلقةً بالأحرى، فإن لم يأتِ كورّادو بعد، فهذا يعني احتماليَّة مجيء عمَّتي شخصيًّا للمطالبة بالسّوار، ولن يكون للرسالة التي كتبتُها أيُّ فائدة، لأنّني كنتُ سأواجهها مباشرةً، وهذا ما كان يُرعبني.

وهناك أسبابٌ أخرى. ثمَّة حاجةٌ عنيفةٌ إلى الخلاعة تنمو في وجداني يومًا بعد يوم، إلّا أنّها خلاعةٌ جريئة، هوسٌ بأن أشعر أنّني فاجرةٌ بشكلٍ بطوليّ؛ وبدا لي أنَّ كورّادو فطن إلى حاجتي تلك، وتهيَّأ لمساعدتي على نيْلها من دون إحداث بلبلةٍ كبيرة. لذا كنتُ في انتظاره، راغبةً في ظهوره، وها هو ذاك يظهر أخيرًا. طلب منّي، بأسلوبه المعتاد والمتراوح ما بين الجِدّ والهزل، ألّا أدخلَ المدرسة، فوافقتُ على الفور؛ لا بل سحبتُه بعيدًا عن مدخل المدرسة خشية أن يراه الأساتذة، وكنتُ أنا التي اقترحت عليه الذهاب إلى فلوريديانا، وجرجرتُه إلى هناك بكلّ سرور.

بدأ يمزح لإضحاكي، لكنَّني أوقفته، وأخرجتُ الرِّسالة.

ـ «هلّا أعطيتَها لفيتّوريا؟»

ـ «والسّوار؟»

ـ «السّوار لي، لن أعطيه لها».

ـ «حذارِ، فإنَّها ستغضب. لقد ألحَّت عليَّ، ليس لديْكِ فكرةٌ عن مدى تعلُّقها به».

ـ «وأنتَ ليس لديْك فكرةٌ عن مدى تعلُّقي به».

ـ «سدَّدتِ نظرةً شرِّيرة. كم هي جميلة، لقد أعجبتِني حقًّا».

ـ «ليست نظرتي الشرِّيرةَ وحدَها، إنَّما أنا كلِّي شرِّيرة، بطبعي».

ـ «كلُّكِ؟»

كنَّا قد ابتعدنا عن الأزقَّة، وبتْنا متواريَيْن جيِّدًا آنذاك، ما بين الأشجار والأسيجة التي تتضوَّع بروائح الأوراق الحيَّة. قبَّلني هذه المرَّة، لكنِّي لم أُعجب بلسانه، كان ثخينًا، وخشنًا، بدا كأنَّه يريد دحر لساني إلى عمق حلقي. قبَّلني وتلمَّس نهديَّ، ولكنْ بأسلوبٍ فجّ. ضغط عليهما بقوَّةٍ كبيرة؛ وفعلها من فوق الكنزة. ثمَّ حاول أن يدسّ يده في قبَّة حمَّالة الصدر، لكنَّه لم يكن مهتمًّا كثيرًا، وما لبث أن تعب. ترك صدري وواصل تقبيلي، رفع تنُّورتي، وحكَّ بعنفٍ بكفِّه على سرج سروالي، وفاخذني بضع ثوانٍ. غمغمتُ ضاحكةً: كفى. ما كان ينبغي أن أصرّ، لأنَّه بدا سعيدًا أنَّني خلَّصتُه من هذه المهمَّة. نظر حوله، أخفض سحَّابه، وأخذ يدي داخل بنطلونه. درستُ الوضع: عندما كان يلمسني هو، كان يوجعني، ويزعجني، فيخطر في بالي أن أعود إلى البيت وأنام. فقرَّرتُ أن أُقدِم على الفعل بنفسي، بدا لي ذلك طريقةً لمنعه من الفعل. أخرجتُ قضيبه برفق، وهمستُ في أذنه: هل لي أن أمصّه؟ كنت لا أعرف سوى هذه الكلمة، لا شيء آخر، ونطقتُها بعاميَّةٍ غير عفويَّة. كنتُ أتخيَّل أنَّه ينبغي المصّ

بقوَّة، مثلما نتعلَّق بنهم على حلمةٍ كبيرة، أو أنَّها تعني اللَّعق أيضًا. رجوتُ أن يوضِّح لي ماذا عليَّ أن أفعل، ومن جهةٍ أخرى، فضَّلتُ هذا، أيًّا كان، على التواصل بلسانه المتخشِّب. شعرتُ بالتشتُّت، لماذا أنا هنا، ولماذا أريد أن أفعل هذا الأمر! لم أكن أحسّ بأيِّ متعة، كما أنَّ الرائحة المُنبعثة من دمّلته تلك كانت ثقيلةً ومكثَّفة، بل مضغوطةً جدًّا، وكانت كريهةً فعلًا. وفي ذروة القلق، تمنَّيتُ أن يرانا أحدٌ ما من الدَّرب ـ أمٌّ تأخذ أولادها في نزهة ـ ويصرخ بالشتائم والوعيد. لم يحدث. وبما أنَّ كورّادو لم يتكلَّم، بل بدا لي مصعوقًا، قرَّرتُ أن أعطي عصفوره قبلةً خفيفة، لمسةً طفيفةً من الشفتيْن. ولحسن الحظّ، كان ذلك كافيًا. أعاد الشيءَ مباشرةً إلى سرواله، وأصدر تنهيدةً وجيزة. ثمَّ تمشَّينا في أرجاء فلوريديانا، لكنِّي مللتُ. افتقد كورّادو هاجسَ إضحاكي على الدوام، وبات يتحدَّث بنبرةٍ جدِّيَّة، مصطنعة. يبذل جهدًا في استعمال اللُّغة الإيطاليَّة، فيما كنت أفضِّل العامِّيَّة. سألني قبل أن نفترق:

ـ «هل تذكرين روزاريو، صديقي؟»

ـ «الشابّ ذو الأسنان البارزة».

ـ «أجل، إنَّه قبيحٌ بعض الشيء لكنَّه طريف».

ـ «ليس قبيحًا، بينَ بين».

ـ «أنا أوسمُ منه بكلّ الأحوال».

ـ «لست متأكِّدة».

ـ «هو لديْه سيَّارة. هل تأتين معنا للقيام بجولة؟»

ـ «بشرط».

ـ «ما هو؟»

ـ «أن تمتِّعاني بالفعل».

ـ «سنمتِّعكِ».

ـ «سنرى»، قلت.

- 11 -

اتَّصل بي كورّادو بعد عدَّة أيَّام ليحدِّثني عن عمَّتي. أمرته فيتّوريا بأن ينقل إليَّ حرفيًّا أنَّه إذا سوَّلت لي نفسي أداء دور المعلِّمة الصَّغيرة مرَّةً ثانية، مثلما فعلتُ في تلك الرِّسالة، فإنَّها ستأتي إلى بيتي وستنهال عليَّ لطمًا وصفعًا بوجود أمِّي الحقيرة. لذا ـ أوصاني كورَّادو ـ أعيدي إليها السِّوار، أرجوكِ. تريده الأحد القادم من دون أيِّ نقاش، تحتاج إليه، تريد أن تتباهى به في إحدى المناسبات الكنسيَّة، التي لست أدري ما هي!

لم يكتفِ بنقل الرِّسالة، قال لي أيضًا كيف علينا أن نتحضَّر للمناسبة. كان هو وصديقه سيأتيان لاصطحابي بالسيَّارة، وسيوصلانني إلى حيِّ باسكوني. ستُرجِعين السِّوار، ونحن ـ أنبِّهكِ ـ سنتوقَّف في السَّاحة الصَّغيرة: إيَّاكِ أن تقولي لفيتّوريا إنَّني جئت لإيصالكِ بسيَّارة صديقي. تذكَّري جيِّدًا. ستستشيط غضبًا. عليكِ أن تقولي إنَّكِ أتيتِ بالحافلة، وبعد ذلك، نذهب لنستمتعَ فعلًا. هل أسعدكِ هذا؟

في تلك الآونة، كنت مضطربةً بشكلٍ كبير، لا أشعر بخير، وأسعل كثيرًا. كنت أعتبر نفسي فظيعةً، وأردتُ أن أكون أفظع. فمنذ مدَّةٍ وأنا أكدح أمام المرآة، قبل الذهاب إلى المدرسة، أجرِّب ثيابًا وأسرِّح شعري مثل المجنونة. كنت أريد أن يسأم الناسُ من صحبتي، تمامًا مثلما كنتُ

أسأم من صحبتهم، وأحاول بشتَّى الوسائل أن أُبرِزَ لهم هذا الإحساس. كانوا يضايقونني جميعًا، الجيران، المارَّة، الرفاق، الأساتذة. أمِّي على وجه الخصوص تُضايقني، بتدخينها المتواصل، وارتشاف مشروب الجين قبل الخلود للنوم، وتذمُّرها المتلكِّئ من أيِّ شيءٍ، وتعابير وجهها المتراوحة ما بين الارتباك والنفور التي تتَّخذها كلَّما قلت لها إنِّي في حاجةٍ إلى دفترٍ أو كتاب. خصوصًا أنَّني لم أكن أحتملها عندما تُبدي إيمانها المتزايد في كلِّ ما يفعله والدي أو يقوله، كما لو أنَّه لم يخنها منذ خمسة عشر عامًا على الأقلّ مع امرأةٍ كانت صديقةً لها، وكانت زوجة أعزّ أصدقائه. باختصار، كانت تستفزُّني بتصرُّفاتها. وقد اعتدتُ مؤخَّرًا أن أنزع عن وجهي قناع الحياد، وأولول في وجهها بلهجةٍ نصف نابوليتانيَّة، عمدًا، أنَّ عليها الكفّ عمَّا هي فيه، عليها ألَّا تُبالي، اذهبي إلى السينما، اذهبي إلى الرقص، لم يعد زوجكِ، اعتبريه ميِّتًا، لقد ذهب للسَّكن في بيت كوستانسا، هل من المعقول أنَّكِ لا تنشغلين إلَّا به حتَّى الآن، وأنَّكِ لا تفكِّرين إلَّا به حتَّى الآن؟ كنت أريدها أن تفهم أنَّني أحتقره، وأنَّني لست مثلها، وأنَّني لن أصبح مثلها أبدًا. لذا، حين اتَّصل أبي ذات مرَّةٍ، وراحت تجيب بكلماتٍ طيِّعةٍ مثل: لا تشغل بالك، دع الأمر لي؛ انفجرتُ بأعلى صوتٍ أردّد تعابيرها الخانعة، وأضيف إليها شتائمَ وكلامًا بذيئًا بالعامِّيَّة، تعلُّمتها بشكلٍ خاطئ، ولفظتُها بطريقةٍ خاطئة. وسرعان ما أغلقت السمَّاعة في محاولةٍ لوقاية زوجها السَّابق من صوتي الأخرق. حدَّقت إليَّ بضع ثوان، ثمَّ انصرفتْ إلى مكتبها، لتبكي بطبيعة الحال. هذا يكفي إذن، وافقتُ فورًا على اقتراح كورّادو. من الأفضل أن أواجه عمَّتي، ثمَّ الذهاب لمصّ قضيبيْ ذيْنك الشابَّيْن، على أن أبقى محبوسةً هنا في سان جاكومو دي كابري، وسط هذه الحياة الخرائيَّة!

قلت لأمِّي إنِّي ذاهبةٌ في رحلةٍ إلى كازيرتا مع رفاق المدرسة. تجمَّلتُ، وارتديتُ أقصر تنُّورة لديَّ، واخترتُ كنزةً ضيِّقةً ومكشوفة الصدر

كثيرًا، ورميتُ السّوار في الحقيبة الصغيرة في حال وجدتُني في وضعٍ حرجٍ يجبرني على إرجاعه بالإكراه، وهُرعتُ إلى أسفل في التاسعة صباحًا على الموعد بالتمام، الساعة التي أقرَّيتُها مع كورّادو. ففوجئتُ بسيَّارةٍ تنتظرني، صفراء لا أدري ما طرازها ـ إذ لم يكن والدي مولعًا بالسيَّارات، فلم أتحصَّل على أيِّ خبرة فيها ـ لكنِّي بالنَّظر إليها، فهمتُ أنَّها فارهة، لدرجةِ أنَّني أسفتُ لكوني خسرتُ علاقتي الطيِّبة بأنجيلا وإيدا، كم كان جميلًا لو أنَّني تفاخرتُ بها على مرآهما! كان روزاريو على المقود. وكورّادو في المقعد الخلفيّ، وكلاهما ينعم بالشمس والنسائم، لأنَّ السيَّارة بلا سقف، مكشوفة.

ما إن رآني كورّادو خارجةً من بوَّابة البناية، أومأ بتحيَّةٍ يبالغ في حفاوتها، لكنِّي حين جرَّبتُ أن أجلس بجانب روزاريو، قال لي بنبرةٍ حاسمة:

ـ «لا يا حلوة، ستجلسين بجواري».

انزعجتُ. كنت أريد أن أتباهى على المقعد المجاور للسَّائق، الذي كان يرتدي سترةً زرقاء بأزرارٍ ذهبيَّة، وقميصًا سماويًّا، وربطة عنقٍ حمراء، مسرِّحًا شعره إلى الخلف كلِّيًّا، ما كان يضفي على مظهره سماتِ ذَكَرٍ فحلٍ وخطير، علاوةً على أنَّه بارز الأنياب. ألححتُ بابتسامةٍ مسالمة:

ـ «سأجلس هنا، شكرًا».

إلَّا أنَّ كورّادو أصدر صوتًا شرّيرًا غير متوقَّع، قال:

ـ «جانّي، هل أنتِ طرشاء، قلت لكِ أن تأتي إلى هنا فورًا».

لم أكن معتادةً على تلك النبرات، كانت تفزعني، لكنِّي شئتُ أن أردَّ بكلّ الأحوال:

ـ «سأؤنس روزاريو، فهو لا يعمل سائقًا عندك».

ـ «ما شأن السَّائق الآن؟ أنتِ تنتمين إليّ، وعليكِ أن تجلسي حيث أجلس أنا».

ـ «أنا لا أنتمي إلى أحد، كورّا، ثمَّ إنَّ السيَّارة لروزاريو، وسأجلس حيث يقول هو».

لم يقل روزاريو شيئًا، إنَّما التفت بكلّ بساطةٍ نحوي، بوجهه الصبيانيّ الضاحك دومًا. حدّق لحظةً طويلةً في صدري، ثمَّ وضع براجم يمناه على المقعد المجاور له. فجلستُ حالًا، وأغلقتُ الباب، وانطلق بحيث صوَّتتِ الإطاراتُ بحدَّةٍ مدروسة. آهٍ، لقد فعلتُها. الريح تُراقص شعري، والشمس في يوم الأحد الجميل ذاك تلامس وجهي، فاسترحتُ. وكم كان روزاريو بارعًا في القيادة، ينسلّ من هنا ومن هناك برشاقةٍ تجعله يبدو بطلَ سباقِ السيَّارات السَّريعة. لم يراودني الخوف.

ـ «هل السيَّارة لك؟»

ـ «أجل».

ـ «هل أنت ثريّ؟»

ـ «أجل».

ـ «هلّا ذهبنا لاحقًا إلى منتزه التذكار؟»

ـ «نذهب حيث تريدين».

تدخَّل كورّادو حالًا، ومدّ يده إلى كتفي وضغط عليها:

ـ «لكنَّكِ ستفعلين ما أقوله أنا».

نظر روزاريو في المرآة الأفقيَّة.

ـ «هدِّئ أعصابك يا كورّا، ستفعل جانّينا ما يحلو لها».

ـ «هدِّئ أعصابك أنت، فأنا الذي أتى بها».

- «وماذا بعد؟»، تدخَّلتُ مُبعِدةً يده عنّي.

- «اخرسي، هذا نقاشٌ بيني وبين روزاريو».

فأجبتُه أنّي أتحدَّث كيف ومتى أريد؛ وكرَّستُ نفسي لروزاريو طوال المشوار. فهمتُ أنَّه كان فخورًا بالسيَّارة، وقلت له إنَّه يسوق أفضل من والدي بكثير. دفعتُه ليتفاخر بنفسه، وجعلتُني مهتمَّةً بكلِّ علومه في شؤون المحرِّكات، ووصلتُ حتى لأطلبَ منه إن كان يودّ تعليمي السّياقةَ على طريقته الانسيابيَّة في المستقبل القريب. وأخيرًا، انتهزتُ أنَّه يضع يده دائمًا على مقبض مغيِّر السُّرعة، فوضعتُ يدي على يده قائلةً: سأساعدك في تغيير النقلات؛ وضحكتُ، كنت أضحك على نفسي بفعل نوبة الضحك، وهو يضحك مجاملةً. كان متأثِّرًا بملمس يدي على يده، انتبهتُ إليه. وقلت في نفسي: هل من المعقول أنَّ الذكور أغبياء إلى هذه الدَّرجة، هل يُعقَل أنَّ هذيْن الاثنيْن بمجرَّد أن ألمسهما وأتركهما يلمساني، تُعمى أبصارهما، فلا يريان ولا يشعران حتَّى القرف الذي كنت عليه أنا نفسي. كان كورّادو متألِّمًا لأنّي لم أجلس بجواره، وروزاريو في قمَّة السَّعادة لأنّي جلستُ بجانبه ووضعتُ يدي على يده. هل إنّي لو استخدمتُ بعض الفطنة استطعتُ أن أتحكَّم بهما ليفعلا ما أريد؟ هل تكفي الأفخاذ العارية، والصدر البارز؟ هل يكفي تلمُّسُ هذه الجوانب؟ هل استولت أمّي على أبي في صغرهما بهذه الطريقة ذاتها؟ وبالطريقة ذاتها، انتزعتْه كوستانسا منها؟ هل أقدمت فيتّوريا على الطريقة ذاتها مع إنزو، وانتزعته من مرغريتا؟ لمس كورّادو التعيس عنقي بأصابعه، ثمَّ داعب حافَّة القماش التي ترتفع من ورائها موجةُ النهد، فتركتُه يفعل. لكنّي في تلك الأثناء، ضغطتُ بقوَّةٍ على يد روزاريو بضعَ ثوانٍ. وفكَّرتُ باندهال: كلُّ هذا وأنا لستُ بجميلة؛ في حين كانت السيَّارة تطير صحبة الوقت، ما بين مداعباتٍ وضحكاتٍ وتلميحاتٍ بكلامٍ بذيء،

ما بين الرِّيح والسماء المحزَّزة بالأبيض، في حين تتبدَّى المستودعاتُ المهجورة، والأبنية الصَّغيرة المزرقَّة، وحيطان الطفَّة التي تتكلَّل قممها بالأسلاك الشائكة، في عمق حيّ باسكوني.

ما إن عرفتُ تلك المنطقة، أصابتني وخزةٌ في المعدة، وتبدَّد الشُّعور بالقدرة: كان عليَّ حينها أن أواجه عمَّتي. قال كورّادو، لمجرَّد أن يثبِّت لنفسه قبل أيِّ أحدٍ أنَّه هو الذي يحكمني:

ـ «سنتركُكِ هنا».

ـ «حسنًا».

ـ «سنتوقَّف في السَّاحة الصَّغيرة، لا تتركينا ننتظر كثيرًا. وتذكَّري أنَّكِ أتيتِ بالوسائل».

ـ «أيُّ وسائل؟»

ـ «وسائل النقل: الباص، الترام الجبليّ، المترو. ما يجب أن تمتنعي عن قوله مطلقًا هو أنَّنا نحن اللذيْن مَن أوصلكِ».

ـ «حسنًا».

ـ «أكرِّر: انتهي من الأمر بسرعة».

أومأتُ بنعم، ونزلتُ من السيَّارة.

ـ 12 ـ

قطعتُ جزءًا قصيرًا على قدميّ بقلبٍ خافق، ووصلتُ إلى بيت فيتّوريا. قرعتُ الجَرس، ففتحتْ لي. لم أفهم شيئًا في البداية. إذ كنت قد حضَّرتُ خطابًا موجزًا أتلوه برباطة جأش، متركّزًا كلّيًا على المشاعر التي نشأتْ حول هذا السّوار، والتي تجعله مُلكًا لي وحدي. لكنّي لم أنل الوقت لأفعل ذلك. فما إن فتحت الباب، حتى انهالت عليّ بمونولوجٍ طويل، عدائيٍّ، أليمٍ وعاطفيّ، شتّت ذهني وأخافني. وكلّما تحدَّثتْ اقتنعتُ أنَّ استرجاع الجوهرة كان بمثابة عذرٍ ليس إلّا. ففيتّوريا تَوَدُّني، واعتقدتْ أنّني أبادلها الودّ أيضًا، فكانت غايتها الأساسيَّة هي أن تؤنّبني وجهًا لوجه على كم خيّبتُ ظنَّها.

كنتُ آمل ـ قالت بصوتٍ مرتفع، بعامّيَّةٍ استصعبتُ فهمها رغم كلّ جهودي في تعلّمها ـ أنّكِ بتِّ منحازةً إلى جانبي، وأنّه سيكفيكِ معرفةُ أيّ الناس هما والداكِ لتدركي مَن أكون أنا، وأنّي ما عشتُ هذه الحياة الرَّديئة إلّا بسبب أخي! ولكنْ لا، انتظرتُ عبثًا أن تأتي إليّ في كلّ يوم أحد. كنت سأكتفي باتّصالٍ هاتفيٍّ واحد، ولكن هيهات، أنتِ لم تفهمي شيئًا، لا بل فكّرتِ أنَّ الذَّنبَ يقع عليّ إن اتَّضحت عائلتُكِ على أنّها عائلةٌ خرائيَّة؛ وفي النهاية، ماذا فعلتِ، انظري إلى هذا، كتبتِ إليّ هذه الرّسالة ـ هذه الرّسالة، إليّ أنا ـ لتثقليني همًّا بأنّني لم أدرس، لتثقليني همًّا بأنّكِ تعرفين الكتابة وأنا لا. آهٍ، إنّكِ فعلًا مثل

أبيكِ، لا بل أنتِ أسوأ منه، لا تحترمينني، لا تَرين أيَّ شخصٍ أنا، لا تشعرين بأيِّ عاطفة. لذا أرجعي إليَّ السّوار، فهو كان لوالدتي عليها الرَّحمة، وأنتِ لا تستحقّينه. لقد أخطأتُ التَّقدير، أنتِ لستِ من دمي، أنتِ غريبة.

في المحصّلة، بدا لي أنَّني فهمتُ ما يلي: لو اخترتُ الجانب الصَّحيح من ذلك النزاع العائليّ الذي لا ينتهي، لو عاملتُها باعتبارها الداعمةَ الوحيدةَ التي تبقَّت لي، ومعلّمتي الوحيدة في الحياة، لو اعتبرتُ الكنيسةَ، ومرغريتا، وأبناءها، ما يشبه ملاذي المتجدّد في كلّ يوم أحد، لكان إرجاع السّوار أمرًا هامشيًّا. بينما كانت تصيح، صارت عيناها شرستيْن ومتألّمتيْن في آنٍ واحد، كنتُ أرى في فمها لعابًا أبيضَ يلطِّخ شفتيْها بين حينٍ وحين. كانت فيتّوريا تريد ببساطةٍ أن أقرّ بمودَّتي لها، وامتناني لها، لأنَّها أثبتت لي كم كان أبي وضيعًا، وأنَّني لهذا السَّبب يجب أن أكون مخلصةً لها إلى الأبد، وأنَّني مقابل معروفها عليَّ، أن أصير مسندَ يدِها في شيخوختها، وأشياءَ أخرى من هذا القبيل. ومن جهتي، قرَّرتُ ارتجاليًّا أن أقول لها ما تريد أن تسمعه بالضَّبط. فوصل بي المطاف أنَّني اختلقتُ بعباراتٍ قصيرةٍ أنَّ أبويَّ منعا عليَّ أن أتّصل بها، ثمَّ أضفتُ إنَّ الرّسالة تقول الحقيقة: السّوار ذكرى غالية تشهد على كيف أنَّها ساعدتني، وأنقذتني، وأرشدتني إلى جادَّة الصواب. قلت هكذا، بصوتٍ متأثّر، وتعجَّبتُ من نفسي على قدرتي بالتَّحدُّث إليها باصطناعٍ مُتقن، وكيفيَّة اختياري الدَّقيق لمفرداتٍ مؤثّرة. تعجَّبتُ من نفسي خصوصًا أنَّني لم أكن مثلها، بل أسوأ منها.

هدأت فيتّوريا شيئًا فشيئًا، فأشعرني هدوؤها بالارتياح. وآنذاك، لم يبقَ سوى إيجاد الطريقة المثلى لتوديعها والعودة إلى ذيْنك الشابَّيْن اللَّذيْن في انتظاري، مؤمّلةً أنَّها نسيت أمر السّوار.

فإذا بها تستفيض في التطرُّق إليه، لكنَّها أصرَّت أن أذهب معها للإصغاء إلى روبرتو الذي سيلقي خطبةً في الكنيسة. يا لها من ورطة! كانت

متلهِّفةً لذلك كثيرًا. امتدحتْ صديق تونينو، لا بدَّ أنَّه أصبح الفتى المدلَّل عندها بعد أن خطب جوليانا. لا يمكنكِ أن تتخيَّلي أيُّ شابٍّ طيّبٍ هو ـ قالت ـ ذكيٌّ، متعقِّلٌ؛ بعد الخطبة، سنذهب جميعًا لتناول الطعام في بيت مرغريتا، فابقي معنا. فأجبتُ بلطفٍ أنَّني لا أستطيع حقًّا، عليَّ أن أعود إلى البيت، وفي هذه الأثناء، عانقتُها كما لو أنِّي أودُّها فعلًا، ومن يدري، ربَّما كنت أودُّها! لم أعد أفهم شيئًا من مشاعري. غمغمتُ:

ـ «أنا ذاهبة، أمِّي تنتظرني، لكنِّي سأعود إليكِ قريبًا».

استسلمتْ:

ـ «حسنًا، سأرافقكِ».

ـ «لا، لا، لا، لا داعي».

ـ «سأرافقكِ إلى موقف الحافلة».

ـ «لا داعي، أعرف أين الموقف، شكرًا».

لا مناصّ، أرادت أن ترافقني. لم يكن لديَّ أدنى فكرة عن موقع الموقف، أملتُ أن يكون في مكانٍ بعيدٍ عن المكان الذي ينتظرني فيه روزاريو وكورّادو. ثمَّ بدا لي أنَّنا ذاهبتان إلى هناك تحديدًا، وطوال المسير، لم أفعل شيئًا سوى الترديد بقلقٍ بالغ: حسنًا، شكرًا، الآن أذهب بمفردي. لكنَّ عمَّتي لم تتنازل، بل كلَّما حاولتُ التملُّص منها، اتَّخذ وجهُها تعابير مَن يشعر بأنَّ شيئًا ليس على ما يُرام. انعطفنا عند الزاوية في النهاية، وتحقَّقت مخاوفي: موقف الحافلة في السَّاحة الصَّغيرة حيث حطَّ كورّادو وروزاريو، ظاهرَين للعيان من داخل السيَّارة ذات السقف المنخفض.

وسرعان ما رأتها فيتّوريا، كانت السيَّارة بقعةَ صفيحٍ أصفر تتلألأ تحت الشمس.

ـ «هل أتيتِ مع كورّادو وذاك الحقير؟»

- «لا».

- «احلفي».

- «أقسم لكِ، لا».

أقصتني بلطمةٍ أصابت صدري، واتَّجهت نحو السيَّارة وهي تصيح بأقذع الشتائم العامِّيَّة. لكنَّ روزاريو انطلق فورًا، ففحَّت إطاراتُ سيَّارته، فركضت عمَّتي بضعة أمتارٍ خلفه وهي تزعق بصراخٍ شرس، ثمَّ خلعت فردة حذائها ورمتها باتِّجاه السيَّارة مكشوفة السقف. تبدَّدت السيَّارة مخلِّفةً وراءها عمَّتي الغاضبة، محنيَّة الظهر، على حافَّة الطريق.

- «أنتِ كاذبة»، قالت لي بعد أن استعادت فردتها، وعادت نحوي وما تزال لاهثة الأنفاس.

- «أُقسم إنِّي لا أكذب».

- «سأتَّصل الآن بأمِّكِ وسنرى».

- «أرجوكِ لا تتَّصلي بها. لم آتِ مع هذيْن، ولكنْ لا تتَّصلي بأمِّي».

رويتُ لها أنَّ والدتي لم تشأ أن أزورها مع أنِّي أتلهَّف لرؤيتها، فأخبرتُها أنَّني ذاهبةٌ برحلةٍ إلى كازيرتا مع رفاق المدرسة. كنتُ مُقنِعة: طاب لعمَّتي أنَّني خدعتُ والدتي، لا لشيءٍ إلَّا لألتقي بها.

- «طوال اليوم؟»

- «عليَّ أن أعود بعد الظهر».

فتَّشتْ في عينيَّ بنظرةٍ حائرة.

- «تعاليْ معي للاستماع إلى روبرتو إذن، وبعدها تنصرفين».

- «أخاطر بالعودة متأخِّرًا».

- «تخاطرين بأن أنهال عليكِ بالصفعات، إن اكتشفتُ أنَّكِ تتحايلين عليّ، وأنَّكِ تريدين الذهاب مع هذيْن».

فلحقتُ بها وأنا مكتئبة. صلَّيتُ: إلهي، أتوسَّل إليك، لا أودُّ الذهاب إلى الكنيسة، لتكن مشيئتك أنَّ كورّادو وروزاريو لم ينصرفا، لتكن مشيئتك أن يبقيا بانتظاري في مكانٍ ما، وخلِّصني من عمَّتي، ففي الكنيسة سأموت من الضجر. لم يكن في المشوار ما يلفت الانتباه: طرقاتٌ خاوية، حشائشُ وقمامة، جدرانٌ تغصّ بالكتابات، أبنيةٌ متردِّية. وكانت فيتّوريا تشبك كتفيَّ بذراعها طوال الوقت، وتجذبني إليها بقوَّةٍ أحيانًا. تحدَّثت عن جوليانا بالأخصّ ـ كورّادو كان مصدر قلقٍ لها؛ في حين أنَّها تُقدِّر الفتاة وتونينو غاليًا ـ كم كانت عاقلة. الحبُّ ـ قالت بنبرةٍ ملهمة عبارةً لا تنتمي إلى عالمها، بل شتَّتتني وأزعجتني ـ الحبُّ هو شعاعُ شمسٍ يُدفئ روحكِ. شعرتُ بالإحباط. ربَّما كان ينبغي لي أن أتمعَّن بطباع عمَّتي بالانتباه ذاته الذي دفعتني لاعتناقه للتجسُّس على والديَّ. لعلِّي أكتشف أنَّ ما وراء قسوتها التي فتنتني، ثمَّة امرأةً ساذجةً وهشَّة، تقع في الخديعة بسهولة، فجَّةَ المظهر، ورقيقةَ الجوهر. فإن كانت فيتّوريا هكذا حقًّا ـ فكَّرتُ مستاءةً ـ فهي قبيحةٌ إذن، ومصابةٌ بقبح التفاهة.

وفي أثناء ذلك، كنتُ كلَّما مررتُ بجانب عددٍ من السيَّارات أنظر خلسةً، مؤمِّلةً أن يظهر روزاريو وكورّادو ثانيةً، وأن يختطفاني، لكنِّي كنتُ أخشى أيضًا أن تعاود عمَّتي صياحها، وأن تغضب منِّي. وصلنا إلى الكنيسة، ففوجئتُ بأنَّها مكتظَّة. ذهبتُ مباشرةً إلى حوض المياه المقدَّسة، بلَّلتُ أصابعي، ورشمتُ الصليب قبل أن ترغمني فيتّوريا. ثمَّة رائحةُ أنفاسٍ وأزهار، وهمهمةٌ مهذَّبة، وإذا ما صاح طفلٌ أُسكِتَ على الفور بلهجةٍ مكبوتة. رأيتُ طيف الدون جاكومو، واقفًا، خلف طاولةٍ منصوبةٍ في نهاية الرِّواق المركزيّ، موليًا ظهره إلى المذبح. كان يقول بصوتٍ مضخَّمٍ عبارةً ختاميَّة. وبدا مبتهجًا من دخولنا، أومأ بتحيَّةٍ من دون أن يقطع حديثه. وددتُ الجلوس في الصفوف الخلفيَّة، التي كانت خاوية، لكنَّ عمَّتي أمسكتني من ذراعي، واقتادتني على امتداد الرِّواق الأيمن. جلسنا في الصفوف الأولى، بجانب مرغريتا التي حجزتْ لها مقعدًا، وحالما

رأتني، ازدهى وجهها باحمرار السرور. رتَّبتُ جلستي بينها وبين فيتّوريا، الأولى بدينةٌ وناعمة، والأخرى هزيلةٌ ومتصلِّبة. صمت الدُّون جاكومو، فارتفعت حدَّة الهمهمة، وأسعفني الوقت بالكاد للنَّظر حولي، فرأيتُ جوليانا، وفوجئتُ أنَّها جلست في أوَّل صفّ، وتونينو على يمينها، عريضَ المَنكبيْن، مُنتصبَ الجذع. ثمَّ قال الخوريّ: تعالَ يا روبرتو، ما الذي تفعله هناك؟ تعال واجلس بجانبي. فهبط صمتٌ لافت، كما لو أنَّ أنفاس الحاضرين جميعًا قد انقطعتْ فجأةً.

وربَّما لم تجرِ الأمور هكذا، ومن الوارد أنَّني أنا التي محوتُ كلَّ الأصوات من ذهني عندما قام شابٌّ طويل القامة، لكنَّه محنيُّ الكتفيْن، رفيعٌ كالظلّ. بدا لي أنَّ ظهره مربوطٌ بسلسلةٍ طويلةٍ من ذهبٍ لا يراها أحدٌ غيري، وأنَّه يمشي بانسيابيَّةٍ وخفَّةٍ كأنَّه معلَّقٌ بالقبَّة، كأنَّه يخطو الأرضَ بملمسٍ طفيفٍ من رؤوس أصابعه. حين بلغ الطاولةَ والتفت، تملَّكني انطباعٌ بأنَّ لديْه عيونًا في وجهه أكثر من الوجه نفسه: كانت عيناه سماويَّتيْن، سماويَّتيْن على وجهٍ أسمرَ بارزِ العظام وغيرِ متجانس، ومتوارٍ بين كتلةٍ كبيرةٍ من شَعرٍ ثائرٍ، ولحيةٍ ناعمةٍ حتَّى بدت زرقاء.

كان عمري حوالى أربعة عشر عامًا، ولم أنجذب حتى ذلك الحين يومًا إلى أيِّ شابّ، أسوأهم كورّادو بطبيعة الحال. لكنِّي ما إن رأيتُ روبرتو - حتى قبل أن يفتح فمه، وقبل أن يتأجَّج بأيِّ إحساس، وقبل أن ينطق أيَّ كلمة - شعرتُ بألمٍ فتَّاكٍ في صدري، وعرفتُ أنَّ كلّ شيءٍ في حياتي كان سيتغيَّر، وأنَّني أرغب فيه، وأنَّني سأحظى به من كلَّ بُدٍّ، وأنَّني رغم عدم إيماني بالربّ، كنت سأصلِّي كلَّ نهارٍ وكلَّ ليلةٍ ليتحقَّق ذلك، وأنَّ تلك الأمنية وحدَها، وذلك الرجاء وحدَه، وذلك الدعاء وحدَه، بإمكانه أن يمنعني من السُّقوط، آنذاك، حالًا، ميِّتةً على الأرض.

V

- 1 -

جلس الدُّون جاكومو إلى الطاولة البائسة في عمق الرِّواق، وما انفكَّ ينظر إلى روبرتو بتركيزٍ وإصغاء، حانيًا خدَّه على كفِّه. أمَّا روبرتو فتكلَّم واقفًا، بنبراتٍ متخبِّطةٍ لكنَّها مغوية، موليًا ظهره إلى المذبح والصليب الكبير الداكن وجسد المسيح أصفر اللَّون. لا أذكر أيَّ شيءٍ تقريبًا ممَّا قاله، ربَّما لأنَّه كان يعبِّر من داخل إطارٍ ثقافيٍّ كنت غريبةً عليه؛ وربَّما لأنَّني من فيض العاطفة، لم أصغِ جيِّدًا! فكثيرةٌ هي العبارات، العائدة له بلا شكّ، ما تزال عالقةً في ذهني حتى الآن، لكنِّي لا أستطيع ترتيبها زمنيًّا، فيختلط عندي ما قاله حينذاك مع أقواله اللَّاحقة. ومع ذلك، فإنَّ لبعضها احتمالًا كبيرًا أن يكون قد نطق بها في يوم الأحد إيَّاه. على سبيل المثال، أتيقَّن أحيانًا أنَّه، في الكنيسة، قد تَفكَّرَ بموعظة الأشجار الخيِّرة التي تنتج ثمارًا خيِّرة، والأشجار الشرِّيرة التي تنتج ثمارًا شرِّيرة، فينتهي بها المطاف لتصبح حطبًا يحترق. أو غالبًا ما كدتُ أجزم أنَّه أصرَّ على الحساب الصَّحيح لمواردنا عندما نتكفَّل بخوض مشروعٍ كبير، فمن الخطأ أن نباشر ـ فَرَضًا ـ بناءَ برجٍ، ما لم تتوافر لدينا الأموال اللَّازمة لتشييده حتى الحَجْرة الأخيرة. أو أعتقد أنَّه دعانا جميعًا إلى الشَّجاعة، وذكَّرنا أنَّ الطريقةَ الوحيدةَ لتجنُّب هدر حياتنا هي أن نُسرفها في سبيل إنقاذ الآخرين. أو أتصوَّر أنَّه تَفكَّرَ حول ضرورة أن نكون عادلين ورحيمين وأوفياء في الواقع، من دون أن نخفي الظلمَ وقسوةَ

القلب والجحود خلف مراعاة القناعات السَّائدة. لا أدري في المحصِّلة، لقد مرَّ الوقت ولم أقوَ على حسم أمري. كان خطابه بالنِّسبة إليَّ، من أوَّله إلى آخره، عبارةً عن تدفُّقٍ لأصواتٍ ساحرةٍ تَصْدر من فمه الجميل، من حنجرته. كنت أدقِّق النَّظر في تفاحة آدم النافرة بوضوح، كما لو أنَّ خلف ذلك النتوء، تهتزّ حقًّا أنفاسُ أوَّلِ كائنٍ بشريٍّ من جنسٍ ذَكَريٍّ جاء إلى العالم، لا أنفاسُ بشريٍّ من بين ما لا يُعدُّ ولا يُحصى من بشرٍ يكتظّ الكوكب بهم. ما أجمل عينيْه وما أروعهما، بلونهما الصافي، منقوشتيْن في وجهه الأسمر! ما أجمل أصابعه الطويلة، وشفتيْه اللَّامعتيْن! كلمةٌ واحدةٌ فقط ليس لديَّ حيالها أيُّ شكّ، لكثرة ما تفوَّه بها في تلك المناسبة، يقلِّبُها بخطابه كما لو كانت أقحوانةً في يديْه. أعني كلمة «الندم». أحسستُ أنَّه يستخدمها بشكلٍ خارج عن المألوف. قال إنَّه ينبغي تنقيتها من الاستعمالات الخاطئة التي حرَّفتْها، وتحدَّث عنها بوصفها إبرةً يتعيَّنُ عليها تمريرُ الخيط بين أجزاء وجودنا المبعثرة. منحها معنًى يدلُّ على رقابةٍ ذاتيَّةٍ قصوى، هي مثل السكِّين التي نَخِزُ بها الضميرَ لئلَّا يَغلبه النُّعاس.

ـ 2 ـ

وما إن انتهى روبرتو من خطبته، جرجرتني عمَّتي إلى جوليانا. فصُدِمتُ كم تغيَّرتْ، بدا لي جمالها صبيانيًا. لا تضع المكياج، فكَّرتُ، لا تتمتَّع بألوان امرأة؛ فانزعجتُ من تنُّورتي القصيرة، وجفنيَّ المُكحَّليْن، وأحمر الشفاه، والكنزة مكشوفة الصدر. إنَّني خارج السِّياق، قلتُ في نفسي، بينما كانت جوليانا تهمس: كم أنا سعيدةٌ بلقائكِ، هل أعجبتكِ الخطبة؟ فغمغمتُ بكلماتٍ موجزةٍ ومشتَّتةٍ بين مجاملةٍ موجَّهةٍ إليها، وحماسةٍ بفعل كلمات خطيبها. فلنعرِّفه عليها، تدخَّلت فيتّوريا، واقتادتنا جوليانا إلى روبرتو.

ـ «هذه ابنة أخي»، قالت عمَّتي بزهوّ، زاد من حيائي، «فتاةٌ في قمّة الذكاء».

ـ «لست ذكيَّة»، كدتُ أصيح، ومددتُ يدي نحوه؛ كنت راغبةً في أن يلمسني على الأقلّ.

فأخذ يدي بيديْه من دون أن يضغط عليها، وقال تشرَّفنا بنظرةٍ ودودة، فيما كانت عمَّتي تلومني: إنَّها متواضعةٌ أكثر ممَّا ينبغي، على عكس شقيقي الذي لطالما كان دعيًّا. سألني روبرتو عن المدرسة، ماذا كنتُ أدرس، وماذا أقرأ. وفي غضون ثوانٍ، تولَّدَ لديَّ انطباعٌ أنَّ أسئلته لم تكن اعتباطيَّةً، فاكتشفتُ أنَّني متجمّدة. تلعثمتُ بشيءٍ ما حول الملل من الدروس، وحول كتابٍ صعبٍ كنتُ أقرأه منذ أشهر، لا ينتهي أبدًا، يتحدَّث عن البحث عن الزمن

المفقود. قالت له جوليانا بهمسة: ينادونك؛ إلَّا أنَّه ما زال يحدِّق مباشرةً إلى عينيّ. كان متعجِّبًا من أنَّني أقرأ نصًّا في منتهى الروعة بقدر ما كان معقَّدًا، فالتفت إلى خطيبته: قلتِ لي إنَّها شاطرة، فإذا بي أجدها في غاية الشطارة. اعتزَّت عمَّتي، وردَّدت أنَّني بنت أخيها، في حين كان اثنان من زوَّار الكنيسة المتبسِّمين يشيرون إلى الخوري. كنتُ أريد العثور على بعض الكلمات التي من شأنها أن تضرب روبرتو بالعمق، لكنَّ رأسي كان خاليًا. لم أعثر على شيء. ومن جهةٍ أخرى، ابتلعه الاستحسان الذي أثاره بنفسه، فودَّعني بإيماءة أسف، وانتهى ضمن مجموعةٍ متراصَّةٍ حيث كان الدُّون جاكومو.

لم أجرؤ على اللَّحاق به حتَّى بنظرتي، بقيتُ بجانب جوليانا، التي بدت لي متألِّقة. فكَّرتُ ثانيةً بصورة والدها المؤطَّرة في مطبخ مرغريتا، ووهج المصباح الصَّغير الذي ينعكس على زجاجها فيؤجِّج بؤبؤَ عينيْه، واستغربتُ أنَّ امرأةً شابَّةً قد تحمل في وجهها ملامحَ ذلك الرجل، وتبقى حسناء على الرَّغم من هذا! شعرتُ أنَّني أحسدها، على جسمها اليانع المتسربل في فستانٍ رمليّ اللَّون، ووجهها النَّظيف يشعُّ بقوَّةٍ مَرِحَةٍ على ما يحيط به. فحين عرفتُها، كانت تلك الطاقة تتجسَّد بصوتها العالي وتلويحاتها المُفرطة؛ أمَّا آنذاك، فكانت جوليانا وقورًا، كأنَّ افتخارها بأنَّها تحبّ وأنَّها محبوبةٌ يلجم تصرُّفاتها بحبالٍ لامرئيَّة. قالت بإيطاليَّةٍ متكلِّفة: أعرف ما وقع لكِ، إنَّني متأسِّفةٌ جدًّا، وأفهمكِ جيِّدًا. حتَّى إنَّها أخذت يدي بين يديْها مثلما فعل خطيبها توًّا. لكنِّي لم أتضايق، حدَّثتها بصراحةٍ عن آلام أمِّي، مع أنَّ الجزء المتيقِّظ منِّي لم يُغفِل عن روبرتو عينًا، ورجوتُ أن يبحث عنِّي بعينيْه. لم يحدث، لا بل أدركتُ أنَّه يعامل الجميعَ بالفضول الودود ذاته الذي أبداه معي. كان يفعل ذلك بلا عُجالة، ويستبقي مُخاطِبيه، ويتصرَّف بحيث إنَّ مَن يتجمَّع حوله لمجرَّد أن يحادثه، وأن يستقي من لطف ابتسامته وجمال وجهه الذي يتغذَّى على عدم التجانس، يبدأ بالتحدُّث إلى الآخرين أيضًا.

إن اقتربتُ منه ـ فكَّرتُ ـ سيفسح لي المجال بالتَّأكيد، وسيُدخِلني في أحد النقاشات. إلَّا أنَّني بتلك الطريقة كنتُ سأضطرّ إلى التَّعبير عن نفسي ببيانٍ أكبر، وسرعان ما سينتبه أنَّه غير صحيح، لستُ شاطرة، لا أعرف شيئًا عن الأشياء المولع بها. وهكذا، استبدَّت بي الكآبة، كنت سأُهان إن ألححتُ على التَّحدُّث معه، وقد يقول في نفسه: كم هي جاهلةٌ هذه الفتاة. وفجأةً، بينما كانت جوليانا تستبقيني، أنبأتُها بأنَّه ينبغي لي الانصراف. فأصرَّت أن أتغدَّى في بيتها: سيبقى روبرتو أيضًا، قالت. لكنِّي بتُّ مذعورةً حينها، لا أرغب إلَّا بالهرب حرفيًّا. فتركتُ الكنيسة بخطوةٍ متسارعة.

وفي الخارج، عند الفسحة، أصابني الهواء المُنعش بالدوخة. نظرتُ حولي كما لو أنَّني خارجةٌ من سينما بعد فيلمٍ موغلٍ في إيحائيَّته. لم أكن أجهل طريقَ العودة إلى المنزل فحسب، بل لم أكن مهتمَّةً بالعودة أصلًا. وددتُ أن أبقى هناك إلى الأبد: أن أنام تحت القناطر، بلا أكلٍ أو شرب، وأتركُني أموت وأنا أفكِّر بروبرتو. لم تكن أيُّ رغبةٍ تهمُّني على الإطلاق في تلك اللَّحظة سوى تلك الرَّغبة.

ثمَّ سمعتُ أحدًا يُناديني، فيتّوريا، تبعتني. استعملتْ أكثر نبراتها دبقًا لتستبقيني، إلى أن استسلمتْ وشرحتْ لي ما الذي عليَّ فعله للعودة إلى سان جاكومو دي كابري: المترو يوصلكِ إلى ساحة أميديو، ومن هناك، تستقلِّين الترام الجبليّ، وحين تنزلين في ساحة فانفيتيلي، ستعرفين كيف تتحرَّكين. وإذ رأتني مشدوهةً ـ ما بكِ، ألم تفهمي؟ ـ عرضت عليَّ أن توصلني إلى البيت بسيَّارتها الـ «1500»، مع أنَّها مدعوَّةٌ إلى الغداء عند مرغريتا. رفضتُ عرضها باحترام، فهاجمتني بعامِّيَّةٍ تفيض منها العواطف، وهي تعبث بشعري، وتأخذني من ذراعي، وتقبِّل كلَّ خدٍّ قبلتيْن بشفتيْها الرَّطبتيْن، فازددتُ اقتناعًا أنَّها ليست دوَّامةً انتقاميَّة، إنَّما امرأةٌ مسكينةٌ وحيدةٌ لا ترغب إلَّا بالمودَّة، وأنَّها حينذاك كانت تودُّني بشكلٍ كبير، لأنِّي بيَّضتُ وجهها مع روبرتو. أبديتِ انطباعًا حسنًا، قالت، أنا أدرس هذا أنا أقرأ هذا، شاطرة شاطرة شاطرة. شعرتُ

أنّي مذنبةٌ بحقِّها بقدر ما كان والدي على الأقلّ، فأردتُ أن أعالج الوضع، فتّشتُ في جيبي حيث احتفظتُ بالسّوار، ومددتُه نحوها.

ـ «لم أكن أريد إرجاعه لكِ»، قلت «بدا لي أنّه مُلكي، لكنّه لكِ ولا ينبغي أن يحتفظ به أحدٌ سواكِ».

لم تكن تتوقّع خطوتي تلك، نظرتْ إلى السّوار بانزعاجٍ واضح، كما لو أنّه أفعى أو نذيرُ شؤم. قالت:

ـ «لا، أنا أهديتُه لكِ، يكفيني أنّكِ تودّينني».

ـ «خُذِيه».

أخذتْه في النهاية، على مضض، ولم تضعه بمعصمها. دسّته في حقيبتها، وظلّت تعانقني عند الموقف وتضحك، وتدمدم، إلى أن جاءت الحافلة. ركبتُ وكانت خطواتي حاسمةً كأنّني أغرق على غفلةٍ منّي في حكايةٍ أخرى من حكاياتي، وفي حياةٍ أخرى لي.

جلستُ بجوار النافذة، فإذا أنا أسمع بوق سيّارةٍ لجوجًا بعد عدّة دقائق. رأيتُ أنَّ سيّارة روزاريو الرياضيّة تقترب في المسار الموازي. وكان كورّادو يلوّح بساعديْه، ويصيح: انزلي، جانّي، تعالي. لقد انتظراني مختبئيْن في مكانٍ ما، بصبرٍ رحيب، وهما يتخيّلان طوال ذلك الوقت أنّني سأحقّق كلّ رغباتهما. نظرتُ إليهما باستحسان، بدا لي وجودهما بلا معنى، وأشفقتُ عليهما والريحُ تلطمهما. كان روزاريو يقود ويومئ إليّ بحركةٍ بطيئةٍ تعني أن أنزل، وكورّادو لا يتوقّف عن الصّياح: سننتظركِ عند الموقف التالي، سنستمتع؛ وكان في الحين نفسه، يسدّد إليّ نظراتٍ آمرة، راجيًا أن أنصاع إلى مطلبه. وبما أنّي كنتُ أبتسم بلا مبادرة ولا أردّ، رفع روزاريو أيضًا عينيْه ليفهم نيّتي. أومأتُ بِ لا إليه حصرًا، وقلت له من دون إصدار صوت: لم أعد أستطيع.

أسرعت السيّارة المكشوفة، وتجاوزت الحافلة.

-3-

فوجئتْ والدتي بأنَّ الرحلة دامت لوقتٍ قصير. كيف ذلك؟ سألتني على مضض، عدتِ باكرًا، هل وقع لكِ مكروه، هل تشاجرتِ مع أحد؟ كان باستطاعتي أن أسكت، وأن أنغلق على نفسي في غرفتي كالعادة، وأن أضع موسيقى بصوتٍ عالٍ، وأقرأ أقرأ وأقرأ عن الزَّمن المفقود، أو أيِّ شيءٍ آخر، لكنَّني لم أفعل. اعترفتُ لها بلا مقدِّماتٍ أنَّني لم أذهب إلى كازيرتا إنَّما إلى العمَّة فيتّوريا؛ وعندما رأيتُ وجهها يصفرّ إحباطًا، قمت بما لم أقم به منذ سنوات: جلستُ على ركبتيْها وشبكتُ عنقها بذراعيّ، وقبَّلتها قبلاتٍ طفيفةً على عينيْها. صدَّتني عنها. غمغمت أنِّي بتُّ كبيرةً ووزني صار ثقيلًا، ووبَّختني على الكذبة التي اختلقتُها، وعلى الملابس التي ارتديتُها، ومكياجي السوقيّ؛ وما زالت تشبك خاصرتيَّ بساعديْها الهزيليْن؛ ثمَّ سألتني عن فيتّوريا.

ـ «هل أقدمتْ على شيءٍ أرعبكِ؟»

ـ «لا».

ـ «أشعر أنَّكِ منزعجة».

ـ «أنا بخير».

ـ «لكنَّ يديْكِ باردتان، وأنتِ تتعرَّقين. أمتأكِّدةٌ من أنَّ شيئًا لم يقع؟»

ـ «متأكِّدةٌ جدًّا».

كانت مُندهشةً، قلقةً، سعيدة؛ أو لعلّي أنا التي كنت أمزج السَّعادة بالقلق والدَّهشة ظنًّا منّي أنَّها ردودُ فعلها هي. لم آتِ على ذكر روبرتو إطلاقًا، شعرتُ أنَّني لن أجد الكلمات المناسبة ما قد يؤدِّي إلى أن أكره نفسي. لكنّي شرحتُ لها أنَّ بعض الخطب التي استمعتُ إليها في الكنيسة قد أعجبتني.

ـ «كلَّ يوم أحد ـ رويتُ لها ـ يدعو الخوريُّ أحدَ أصدقائه المثابرين، ويضع طاولةً في عمق الرِّواق المركزيّ، وينفتح النقاش».

ـ «حول ماذا؟»

ـ «ليس بوسعي أن أردِّد لكِ الآن ما سمعتُه».

ـ «أترين أنَّكِ منزعجة؟»

لم أكنْ منزعجة، بل كنتُ فيما يشبه التوتُّر السَّعيد، ولم تنقطع عنّي هذه الحالة حتى عندما قالت لي بارتباكٍ إنَّها التقت ماريانو منذ عدَّة أيَّام بمحض الصدفة، وإذ عرفتْ أنَّني كنت في رحلةٍ مدرسيَّةٍ دعتْه لفنجان قهوة في تلك الظهيرة.

لم يستطع هذا النبأ أن يغيِّر مزاجي، سألتُها:

ـ «هل تنوين الارتباط بماريانو؟»

ـ «هراء».

ـ «هل من المعقول أنَّكم لا تتمكَّنون من قول الحقيقة أبدًا؟»

ـ «جوفانّا، أقسم لكِ، إنَّها الحقيقة: لا يوجد شيءٌ ولم يوجد شيءٌ على الإطلاق بيني وبين ماريانو. ولكنْ طالما أنَّ والدكِ عاد يلتقي به، فلِمَ لا ألتقي به أنا أيضًا؟»

آلمني هذا النَّبأ الأخير. روت لي أمِّي ـ من دون أن يبدو الحدثُ قد وقع مؤخَّرًا ـ أنَّ الصَّديقيْن السَّابقيْن تلاقيا ذات مرَّة، وأنَّ ماريانو عرَّج على رؤية ابنتيْه، وتحادث مع والدي باحترام، حبًّا بالطفلتيْن. فانفجرتُ:

ـ «إن كان والدي قد أعاد توطيد علاقته بصديقٍ قد تلقَّى منه خيانة، فلِمَ لا يتحسَّس ضميره ويُعيد علاقته بشقيقته؟»

ـ «لأنَّ ماريانو متحضِّرٌ وفيتوريا لا».

ـ «ترّهات. بل لأنَّ ماريانو يدرِّس بالجامعة، يُرضيه، ويُعطيه أهمِّيَّة، بينما فيتّوريا تُشعِره بما هو عليه حقًّا».

ـ «ألا تدركين كيف تتكلَّمين على أبيكِ؟»

ـ «بلى».

ـ «فكُفِّي عن ذلك إذن».

ـ «أقول ما أفكِّر فيه».

ذهبتُ إلى غرفتي، والتجأتُ إلى التَّفكير بروبرتو. فيتّوريا هي التي عرَّفتني عليه. كان جزءًا من عالم عمَّتي، لا عالم أبويّ. وكانت فيتّوريا تلتقيه مرارًا، وتقدِّره، وقد صادقت ـ وربَّما دعمت خطوبته بجوليانا. وهذا ما جعلها في عينيّ أكثر حساسيَّةً وذكاءً من الأشخاص الذين كان والداي يلتقيانهم منذ زمن، وعلى رأسهم ماريانو وكوستانسا. انغلقتُ في الحمَّام، هائجة الأعصاب، أزلتُ المكياج بعناية، ولبستُ بنطلون جينز وكنزةً بيضاء. ما الذي قد يقوله روبرتو إن حدَّثتُه عن وقائع بيتي، وتصرُّفات والديَّ، وتلك الطريقة الفاسدة في إحياء صداقةٍ قديمة. جفلتُ من الصَّعقة العنيفة للأنترفون. مضت بضعُ دقائق حتى بلغني صوت ماريانو، وصوت والدتي، فرجوتُ ألَّا تناديني بنبرةٍ آمرة. لم تفعل، جلستُ إلى الدِّراسة، ولكنْ لا مفرّ، سمعتُها تصيح عندئذٍ: جوفانّا، تعالي وسلِّمي على ماريانو. تأفَّفتُ، أغلقتُ الكتاب، وخرجتُ.

صُدِمتُ بالهُزال الذي أصاب جسد والد أنجيلا وإيدا، كأنَّه في سباقٍ مع هزال والدتي. أشفقتُ عليه حالما رأيته، لكنَّ الشَّفقة لم تدم طويلًا. أزعجتني نظرته الممسوسة والموجَّهة إلى صدري مباشرةً، تمامًا مثل كورّادو وروزاريو، مع أنَّ صدري في هذه المرَّة كان مستورًا جدًّا.

ـ «كم أصبحتِ كبيرةً»، هتف متأثِّرًا، وأراد أن يعانقني، ويقبِّل وجنتيَّ.

ـ «هل تريدين قطعةً من الشوكولاتة؟ جاء بها ماريانو».

رفضتُ، قلت إنَّه عليَّ أن أدرس.

ـ «أعرف أنَّكِ تجتهدين لتعويض العام الفائت»، قال.

أومأتُ بنعم، وغمغمتُ: سأذهب. وقبل أن أخرج، أحسستُ بنظرته تدبق عليَّ من جديد، فانتابني الحياء. وفكَّرتُ أنَّ روبرتو لم ينظر إلَّا في عينيّ!

- 4 -

أدركتُ فورًا ما حدث لي: أُغرمتُ من النَّظرة الأولى. كنت قد قرأتُ عن ذلك الحبّ بما فيه الكفاية، لكنّي لم أستعمل تلك الصيغة بيني وبين نفسي، ولست أدري لماذا! آثرتُ أن أعتبر روبرتو ـ وجهه، صوته، يداه اللّتان طوّقتا يدي ـ ما يشبه العزاء العجيب لأيّام التوتّر ولياليه. كنتُ أودُّ ملاقاته مرّةً ثانية بطبيعة الحال، لكنَّ الفورة الأولى ـ أي تلك اللَّحظة الخالدة التي توافقت فيها رغبتي في رؤيته بالحاجة الماسَّة إليه ـ أُزِيحتْ لمصلحة ما أُعرِّفُهُ بالهمود الواقعيّ. روبرتو رجل، وأنا فتاةٌ صغيرة. روبرتو يحبّ امرأةً أخرى، جميلةً وطيّبةً كثيرًا. روبرتو يصعبُ الوصولُ إليه، يعيش في ميلانو، لا أعرف شيئًا عن اهتماماته. صلة الوصل الوحيدة هي فيتّوريا، وفيتّوريا معقّدة، ناهيك بأنَّ أيّ محاولةٍ للقائها كانت ستؤلم أمّي. في المحصّلة، تركتُ الأيّام تمضي، حائرةً بما ينبغي فعله. ثمَّ فكّرتُ أنَّ لي الحقَّ بحياةٍ تخصُّني، لا أضطرُّ فيها إلى القلق المتواصل حيال آراء والديَّ، والدَّليل أنَّهما لا يكترثان بآرائي أبدًا. فلم أصمد، اتَّصلتُ بعمَّتي ذات ظهيرةٍ كنت خلالها وحيدةً في البيت. كنت نادمةً لأنّي لم أقبل الدَّعوة إلى الغداء، بدا لي أنّني أهدرتُ فرصةً مهمَّة، فأردتُ أن أستشفّ متى بإمكاني العودةَ إلى زيارتها إذا تأكَّدتُ من حتميَّة لقائي بروبرتو. كنتُ واثقةً أنَّها سترحّب بي، بعد إرجاع السِّوار،

لكنَّ فيتّوريا لم تترك لي المجال لإكمال جملةٍ واحدة. عرفتُ منها أنَّ أمّي، بعد كذبتي حول الرحلة بيوم، اتَّصلت بها لتُخبرها، بأسلوبها الواهن، أن تتركني وشأني، وألَّا تعود لملاقاتي. الأمر الذي أغضبها كثيرًا. شتمتْها، وصاحتْ بأنَّها ستنتظرها تحت البيت لتطعنها بسكّين، وزعقت: كيف تسمح لنفسها لتقول إنَّني أنا أفعل ما بوسعي لكي أسرقكِ منها، في حين أنَّكم أنتم مَن دمَّر لي حياتي، أنتم، أبوكِ وأمّكِ، وأنتِ أيضًا مُذْ ظننتِ أنَّكِ بمجرَّد إرجاع السّوار ستنحلّ كلُّ المشاكل. صاحت عليَّ: إن كنتِ في صفّ أبويْكِ، فلا ينبغي أن تتَّصلي بي بعدُ، فهمتِ؟ وانتقلتْ إلى سلسلةٍ لاهثةٍ من الشَّتم البذيء في حقّ شقيقها وزوجته، وبعدها أغلقت الخطّ.

حاولتُ أن أعاود الاتّصال لأخبرها بأنّي أنحاز إلى صفّها، وأنَّ مكالمة أمّي بها أغضبتني كثيرًا، لكنَّها لم تردّ. شعرتُ بالخيبة، كانت مودَّتها في تلك اللَّحظات ضروريَّةً بالنِّسبة إليَّ، خشيتُ أنَّني بدونها لن أحظى أبدًا بفرصة لقاء روبرتو. وفي تلك الأثناء، مرّ الوقت، ما بين أيَّامٍ من كآبةٍ مُحزنة، ثمّ تمعُّنٍ مستفيض. بدأتُ أفكّر به كأنَّه جانبٌ من جبلٍ بعيدٍ جدًّا، خلاصةٌ لازورديَّةٌ محمولةٌ بخطوطٍ مؤشَّرة. من الوارد ـ قلت لنفسي ـ أنَّ لا أحد في باسكوني رآه بالصَّفاء الذي رأيته به في الكنيسة آنذاك. لقد وُلد في تلك المنطقة، ونشأ فيها، هو صديق تونينو منذ الطفولة. الجميع يقدِّره كأنَّه قطعةٌ شديدة اللَّمعان في محيطٍ شاحب، ولا بدَّ أنَّ جوليانا لم تعشقه لما هو عليه بالفعل، إنَّما لمنشئهما المشترك وللهالة التي أُضفيت عليه، فعلى الرَّغم من انتمائه إلى المنطقة الصناعيَّة المليئة بالرَّوائح الكريهة، فلقد درس في ميلانو واستطاع أن يتميَّز. ومع هذا ـ أيقنتُ ـ فإنَّ السمات التي يحبُّها جميعُ سكَّان ذلك المكان هي ذاتها التي تمنعهم من رؤيته جليًّا وإدراك فرادته. لا يجدر أن يُعتَبر روبرتو مجرَّد شخصٍ يتمتَّع بكفاءاتٍ عالية، بل ينبغي حمايته. فعلى

سبيل المثال، لو كنتُ محلَّ جوليانا، لقاتلتُ بكلِّ قواي لكي أمنعه من المجيء إلى الغداء في بيتي، ومنعتُ فيتّوريا ومرغريتا وكورّادو أن يفسدوه، ويفسدوا الدَّوافع التي حملتْه ليختارني. كنت سأبعده خارج ذلك العالم، وأقول له: فلنهرب معًا، سآتي إليكِ في ميلانو. لكنَّ جوليانا، بالنِّسبة إليَّ، لا تدرك حسنَ الحظّ الذي حالفها. أمَّا فيما يخصُّني، فإن استطعتُ أن أصبح له مجرَّد صديقة، لن أجعله يهدر وقته مع والدتي، التي تتفوَّق على فيتّوريا ومرغريتا بمراحل من حيث المقبوليَّة. وعلى الأخصّ، كنتُ سأمنع عنه أيَّ لقاءٍ مُحتملٍ مع والدي. فالطاقة التي تشعّ من روبرتو تحتاج إلى رعايةٍ كي لا تتبدَّد، وأشعر أنَّني قادرةٌ على تأمينها له. آهٍ لو أصير صديقته! مجرَّد صديقة، لأثبت له أنَّني في مكانٍ ما منِّي، أجهله أنا نفسي، أختزن مزايا تَلزَمُهُ.

مكتبة
t.me/t_pdf

-5-

في تلك الفترة، بدأتُ أفكِّر أنَّني إن لم أكن جميلةً جسديًّا، فبإمكاني ربَّما أن أكون جميلةً روحيًّا. ولكنْ كيف؟ اكتشفتُ أنَّني حادَّة الطبع، تراودني كلماتٌ سيِّئة، وأقوم بأفعالٍ بشعة. فلئن كان لديَّ مزايا، كنت أحرقها بنفسي وعمدًا، لكيلا أشعر أنَّني طفلةٌ من أُسرةٍ مُحترمةٍ تبعث على الشفقة. تملَّكني انطباعٌ بأنَّني وجدتُ طريق الخلاص، لكنَّني لا أعرف كيف أقطعها، وربَّما لا أستحقُّها.

كنت في تلك الحال عندما التقيتُ ذات ظهيرة، وبمحض الصُّدفة، بالدون جاكومو، الخوريّ في حيّ باسكوني. كنت في ساحة فانفيتيلي. لم أَعُد أذكر لماذا! أتمشَّى لاهيةً بالتَّفكير في شؤوني، وكدتُ أصطدم به. جانّينا، هتف. حين تجسَّد أمامي هكذا امَّحت أحاسيسي بالسَّاحة والأبنية لبضع ثوانٍ، وشعرتُ أنَّني جُرجِرتُ إلى الكنيسة ثانيةً، جالسةً بجانب فيتّوريا، وروبرتو واقفٌ خلف الطاولة. وحينما عاد كلُّ شيءٍ إلى مكانه، أسعِدتُ بأنَّ الخوريَّ عرفني وتذكَّر اسمي. شعرتُ بفرحةٍ حتى عانقته كما لو كان رفيقًا أعرفه منذ الصفّ الأوَّل. لكنّي استحييتُ، وأخذتُ أتلعثم، وخاطبتُه بصيغة الاحترام، بينما أخفض الكلفة من جانبه. كان ذاهبًا ليستقلّ الترام الجبليّ من مونتيسانتو، فعرضتُ عليه أن أرافقه، وسرعان ما تحدَّثتُ، ببهجةٍ كبيرة، عن حماستي من التجربة التي تلقَّيتُها في الكنيسة.

ـ «متى يعود روبرتو لإلقاء محاضرةٍ أخرى؟»، سألتُ.

ـ «هل أعجبكِ؟»

ـ «أجل».

ـ «أرأيتِ ما الذي استطاع استخراجه من الإنجيل؟»

لم أكن أذكر شيئًا ـ فما أدراني بالإنجيل! لم يتبقَّ في ذهني إلَّا روبرتو. لكنِّي أومأتُ بِنَعم عمومًا، وغمغمتُ:

ـ «لا يوجد في المدرسة أستاذٌ واحدٌ قادرٌ على فتن الألباب، مثلما يفعل روبرتو. سأعود للاستماع إليه ثانيةً».

عَبَس الخوريّ، ولم أنتبه إلَّا حينها بأنَّ شيئًا في مظهره قد تغيَّر، مع أنَّه ظلَّ الشخص نفسه: اصفرَّ وجهه قليلًا، واحمرَّت عيناه.

ـ «روبرتو لن يعود»، قال؛ «ولن تقام بعدُ في الكنيسة مبادراتٌ من ذلك النوع».

أسفتُ كثيرًا.

ـ «لم تنل الإعجابَ؟»

ـ «لم تعجب مدرائي وبعض روَّاد الخوريَّة».

خاب أملي وغضبتُ، فقلت:

ـ «أليس مديرَك الربُّ؟»

ـ «أجل، لكنَّ المسؤولَ عن حلاوة الأيَّام والأوقات العصيبة هم ضبَّاطه».

ـ «توجَّهْ إليه مباشرةً إذن».

لوَّح الدُّون جاكومو بيده إشارةً إلى المسافة اللَّامتناهية، فانتبهتُ إلى وجود بقعٍ بنفسجيَّةٍ عريضةٍ على أصابعه وظاهر يده، وحتى على معصمه.

ـ «الربُّ في الخارج»، قال مبتسمًا.

ـ «والصَّلاة؟»

ـ «إنَّني مُرهق، بتُّ أصلِّي لتحصيل لقمة العيش والحال هذه. ولكنْ، ماذا عنكِ؟ هل صلَّيتِ رغم أنَّكِ لا تؤمنين؟»

ـ «أجل».

ـ «وهل أفادكِ ذلك؟»

ـ «لا، الصَّلاة سحرٌ يبطل مفعوله في النهاية».

صمت الدُّون جاكومو. أدركتُ أنَّني أخطأتُ، فخطر لي أن أعتذر.

ـ «أحيانًا، أقول كلَّ ما يجول في رأسي»، قلت «المعذرة».

ـ «عمَّ تعتذرين؟ لقد حسَّنتِ نهاري، لحسن الحظّ أنِّي التقيتُكِ».

نظر إلى يده اليُمنى كما لو أنَّها تخفي سرًّا ما.

ـ «هل أنتَ بخير؟» سألتْه.

ـ «خرجتُ توًّا من عند صديقي، الطبيب هنا في شارع كيرباكير، مجرَّد ترويح عن الذات».

ـ «ما المشكلة؟»

ـ «عندما يجبرونكِ على فعل أشياء لا تريدين القيام بها، وتطيعينهم، تسوء حال رأسكِ، فيسوء كلُّ شيء».

ـ «هل الطاعة مرضٌ جلديٌّ؟»

نظر إليَّ مرتبكًا لوهلة، ابتسم:

ـ «شاطرة، هي هكذا فعلًا، الطاعة مرضٌ جلديّ. وأنتِ خير علاج، لا تتغيَّري، قولي دائمًا ما يخطر في ذهنكِ. تكفيني دردشتان معكِ لكي أتحسَّن».

قلتُ فجأةً:

ـ «أريد أن أتحسَّن أنا أيضًا. ماذا عليَّ أن أفعل؟»

أجاب الخوري:

ـ «التخلُّص من التعالي، فهو يتربَّص بنا دائمًا».

ـ «وبعد؟»

ـ «وبعد، هناك الشيء الأصعب في سنِّكِ: تبجيل الأب والأمّ. ولكنْ عليكِ أن تجرِّبي، جانّي، هذا مهمّ».

ـ «لم أعد أفهم أبي وأمِّي».

ـ «ستفهمينهما عندما تكبرين».

كان الجميع يقول لي ستفهمين عندما تكبرين. أجبتُ:

ـ «لن أصبح كبيرة إذن».

تَودَّعنا عند موقف الترام الجبليّ، ولم أره بعد تلك المرَّة إطلاقًا. لم أجرؤ على طرح السُّؤال على روبرتو، لم أسأل إن كانت فيتّوريا قد حدَّثته عنِّي، وروت له وقائع بيتي. قلت فقط، وأنا أشعر بالخزي:

ـ «أشعر أنِّي قبيحةٌ، سيِّئةُ الطباع، ومع ذلك أرغبُ أن أكون محبوبة».

لكنِّي قُلتها متأخِّرًا، همسًا، بعد أن أولاني ظهره ومشى.

- 6 -

ساعدني ذلك اللِّقاء، إذ حاولتُ أن أعدِّل علاقاتي بأبويَّ. كنت أستبعد تبجيلهما، لكنِّي قد أبحث عن طريقٍ يقرِّبني منهما قليلًا.

تحسَّنتْ أوضاعي مع والدتي، على الرَّغم من صعوبة السَّيطرة على النبرات العدائيَّة. لم أحدِّثها قطّ عن المكالمة التي أجريتُها مع فيتّوريا، ولكنْ طاب لي بين الفينة والأخرى أن أزعق عليها بأوامر وتوبيخ واتِّهامات ومخاتلات. لم تكن تردّ في العادة، إنَّما تبقى ثابتةً كأنَّ لها قابليَّةً على أن تصبح طرشاء إزاء الأوامر. ثمَّ حسَّنْتُ سلوكي شيئًا فشيئًا. كنتُ أراقبها في الممرّ، بهندامها، مسرَّحةَ الشعر بعنايةٍ مثلما حين كانت تخرج أو تستقبل ضيوفًا، وكان قلبي يرقُّ عندما أرى ظهرها النَّحيل كمن قهره العذاب، محدودبةً لساعاتٍ على أعمالها. ذات مساء، تلصَّصتُ عليها، وقارنتُها بعمَّتي فجأةً. كانتا بالتَّأكيد عدوَّتيْن، ومن غير المُمكن المقارنة بينهما من حيث التربية والمستوى الاجتماعيّ. ولكنْ ألم تبقَ فيتّوريا متعلِّقةً بإنزو على الرَّغم من وفاته منذ زمن؟ ألم يبدُ لي ذلك الإخلاصُ دلالةً على العظمة؟ فوجئتُ بالتَّفكير أنَّ والدتي كانت تكشف عن روحٍ أكثر نبلًا، ورحتُ أتناول تلك الفكرة طيلة ساعات.

كان حبّ فيتّوريا مستجابًا، فعشيقها كان يبادلها الحبّ فعلًا. أمَّا والدتي فقد تعرَّضت لأشدّ أشكال الخيانة خِسَّةً، ومع هذا استطاعت أن

تحافظ على مشاعرها كما هي! لم تكن تستطيع ولا تريد أن تفكّر بنفسها من دون زوجها السَّابق، بل بدا لها أن ليس لحياتها معنى ما لم يتجشَّم والدي، عناء الإطلالة الهاتفيّة ليمنحها ذلك المعنى. أعجبتني ليونتُها بغتةً. كيف استطعتُ أن أهينها وأشتمها بسبب تلك التبعيَّة؟ هل لأنّي رأيتُ القوَّة ـ أجل، القوَّة ـ في طريقتها المُطلقة بالحبّ ضعفًا؟

ذات مرَّةٍ، قلت لها بنبرة التحقُّق الحياديّ:

ـ «طالما أنَّ ماريانو يعجبكِ، احظي به».

ـ «كم مرَّةٍ عليَّ أن أردِّد على مسامعكِ؟ ماريانو يثير اشمئزازي».

ـ «وبابا؟»

ـ «أبوكِ يبقى أباكِ».

ـ «لماذا لا تقولين بحقِّه كلامًا سوءًا أبدًا؟»

ـ «ثمَّة فرقٌ بين ما أقوله وما أفكِّر فيه».

ـ «هل تروِّحين عن نفسكِ عبْر التَّفكير؟»

ـ «قليلًا، لكنَّ التَّفكير يعود بي إلى تلك السنوات التي كنَّا فيها سعيدَيْن، وأنسى أن أكرهه».

بدا لي أنَّ تلك الجملة ـ أنسى أن أكرهه ـ تؤشِّر إلى شيءٍ حقيقيّ، وحيويّ، ولهذا السَّبب تحديدًا، عدتُ أفكِّر بوالدي أيضًا. صرت نادرًا ما أراه، ولم أذهب إلى البيت في بوزيليبو ثانيةً، وقد محوتُ أنجيلا وإيدا من حياتي. وعجزتُ عن فهم دوافع هجره لي ولأمِّي وانتقاله للسَّكن مع كوستانسا وابنتيْها، على الرَّغم من كلِّ الجهود التي بذلتُها من أجل ذلك. ففي الماضي، كنت أعتبره متفوِّقًا بمراحل على والدتي، أمَّا آنذاك، فكنتُ أراه خاليًا من عظمة الرُّوح، حتى بما يخصّ الأمور السَّيِّئة. وفي المرَّات

النادرة التي كان يعرّج فيها لتوصيلي إلى المدرسة، كنتُ أركّز جلَّ انتباهي إلى شكاواه، لا لشيءٍ سوى لأردّد في سرّي أنّه تذمُّرٌ زائف. كان يريد أن يقنعني أنَّه ليس سعيدًا، أو أنَّه أقلّ تعاسةً ممَّا كان عليه في شقَّتنا في شارع سان جاكومو دي كابري. لم أكن أصدّقه بطبيعة الحال، لكنَّني كنت أتمعَّن فيه وأفكّر: عليَّ أن أضع أحاسيسي الراهنة جانبًا، وأتذكَّره عندما كنت صغيرةً وأحبُّه؛ ذلك أنَّ أمّي ما تزال وفيَّةً له على الرَّغم من كلّ شيء، حتَّى إنَّها تنسى أن تكرهه، ما يعني أنَّ فرادته ربَّما لم تكن مجرَّد تأثيرٍ من تأثيرات الطفولة. بذلتُ جهدًا ملحوظًا لإعادة النَّظر في مزاياه. ولكنْ ليس بفضل المودَّة، إذ بتُّ لا أشعر بأيّ عاطفةٍ تجاهه: حاولتُ أن أُقنع نفسي بأنَّ أمّي أحبَّت رجلًا جديرًا بالاعتبار عمومًا، لذا اضطررتُ إلى أن أكون ودّيَّةً معه كلَّما التقيتُ به. كنتُ أحدّثه عن المدرسة، وترّهات المعلّمين، وأجامله أيضًا، لكيفيَّة شرحه لي فقرةً صعبةً لأحد الأدباء اللَّاتينيّين تارةً، ولكيفيَّة قصّ شعره تارةً أخرى.

ـ «لحسن الحظّ هذه المرَّة، لم يقصُّوا كثيرًا من شعرك. هل غيَّرتَ الحلَّاق؟»

ـ «لا، فهو على مرمى حجر من البيت، لا داعي لتغييره. ثمَّ ما الذي يهمُّني من شعري وقد شاب، الأهمُّ هو شعركِ الذي ما يزال رائعًا وفتيًّا».

تجاهلتُ امتداحه لجمال شعري، بل وجدتُ ذلك خارج السّياق. قلت:

ـ «ليس شائبًا، بعضُه رماديٌّ عند صدغيْك».

ـ «إنَّني أشيخ».

ـ «عندما كنتُ صغيرةً كنتَ عجوزًا، أمَّا الآن، فقد عدتَ شابًّا».

ـ «الألم لا يُعيد الشباب».

ـ «واضحٌ أنَّك لا تعاني من الآلام ما يكفي. علمتُ أنَّك استعدتَ تواصلك مع ماريانو».

ـ «من قال لكِ؟»

ـ «ماما».

ـ «غير صحيح، ولكنَّنا نتقابل بضع مرَّات، عندما يجيء لزيارة ابنتيْه».

ـ «وهل تتشاجران؟»

ـ «لا».

ـ «فما الذي لا يجري على ما يرام؟»

لا شيء، إنَّما أراد أن يوحي إليَّ أنَّه يشتاق لي، وأنَّه يتألَّم لعدم وجودي في حياته. الأمر الذي كان يمثِّله خير تمثيل، لدرجة أن أنسى ألَّا أصدِّقه. ما زال وسيمًا، لم يهزل جسمه مثلما حدث لوالدتي، ولم يكن يعاني من أيِّ طفحٍ جلديّ: ولكنْ كان من السَّهل أن أسقط في شبكة صوته الحنون، وأن أنزلق إلى الطفولة من جديد، وأن أثق به. ذات يوم، بينما كنَّا كالعادة نتناول معجَّنات البانزاروتة والباستاكريشوتة بعد انتهاء الدوام، قلت له بلا مقدِّمات إنَّني أرغب في قراءة الإنجيل.

ـ «ما السَّبب؟»

ـ «هل أرتكب خطأً في ذلك؟»

ـ «بل تحسنين صنعًا».

ـ «وماذا لو أصبحتُ مسيحيَّة؟»

ـ «لا أرى أيَّ ضررٍ في هذا».

ـ «وماذا لو أقمتُ المعموديَّة؟»

ـ «المهمّ ألَّا يكون ذلك مجرَّد نزوة. إن كنتِ تؤمنين، فكلُّ شيءٍ على ما يُرام».

لا اعتراض إذن، لكنّي سرعان ما ندمتُ لأنّي بحت له بنيَّتي تلك. لم أَعُد أحتمل أن أنظر إليه رجلًا موثوقًا، يستحقّ المودَّة آنذاك بعد أن عرفتُ روبرتو. ما شأنه في حياتي؟ لم أكن أريد إطلاقًا أن أعيد إليه شيئًا من الموثوقيَّة والمودَّة. وإن كنت سأقرأ الإنجيل يومًا، فسيكون ذلك للرجل الشابّ الذي تحدَّث في الكنيسة.

- 7 -

أجَّجت محاولةُ إعادة التقارب إلى والدي ـ المحاولة الفاشلة منذ بدايتها ـ أجَّجت فيَّ الرَّغبة برؤية روبرتو مرَّةً ثانية. لم أقاوم، قرَّرتُ أن أتَّصل مجدَّدًا بفيتّوريا. ردَّت بصوتٍ محبَط، مبحوحٍ بفعل السَّجائر. لم تتعدَّ عليَّ هذه المرَّة، ولم تشتمني؛ وبالمقابل، لم تكن ودودًا.

ـ «ما حاجتكِ؟»

ـ «أردتُ الاطمئنان على حالكِ؟»

ـ «أنا بخير».

ـ «أيُمكنني المجيء إليك يومَ الأحد؟»

ـ «لأيِّ شأن؟»

ـ «لأسلِّم عليكِ. ثمَّ إنَّني أُسعِدتُ بالتَّعرُّف على خطيب جوليانا؛ إذا عاد إلى تلك الأنحاء، أتيتُ لأسلِّم عليه بكلِّ سرور».

ـ «لم يَعُد هناك أيّ مبادرةٍ في الكنيسة، يريدون طرد الخوري».

لم تعطني الوقت لأخبرها أنَّني التقيتُ بالدُّون جاكومو، وعرفتُ كلَّ شيء. انتقلتْ إلى عامِّيَةٍ ضيِّقةٍ جدًّا، كانت غاضبةً على الجميع، زوَّار الكنيسة، الأساقفة، الكرادلة، البابا، والدون جاكومو أيضًا، بل وحتَّى على روبرتو.

ـ «لقد بالغ الخوري»، قالت «فعل مثلما تفعل الأدوية: في البدء تشفينا، ثمَّ تظهر الأعراض الجانبيَّة. وها نحن الآن، صحَّتنا أسوأ من ذي قبل».

ـ «وروبرتو؟»

ـ «ما أسهل حياته، روبرتو! يأتي، يبثُّ الفوضى، ويغادر. فلا نراه إلَّا بعد مضيّ شهور. إمَّا يبقى في ميلانو أو هنا، وهذا ليس بالأمر الذي يساعد جوليانا».

ـ «أجل، الحبّ»، قلت «الحبّ لا يؤذي».

ـ «وما أدراكِ أنتِ؟»

ـ «الحبّ خيرٌ يسمو على الانقطاعات الطويلة، ويصمد في وجه كلِّ شيء».

ـ «لا تعلمين شيئًا يا جانّي، تتحدَّثين بإيطاليَّةٍ فُصحى، لكنَّكِ لا تعلمين شيئًا. الحبُّ غَبشٌ مثل زجاج نوافذ المراحيض».

صدمتني تلك الصُّورة، وتولَّد لديّ انطباعٌ على الفور أنَّها تتناقض والأسلوبَ الذي انتهجته في سرد حكايتها مع إنزو. امتدحتُها، قلتُ إنَّني أودُّ التَّحدُّث إليها مزيدًا، سألتُها:

ـ «هل يمكنني الانضمام إليكم في حال أقمتم غداءً جماعيًّا: أنتِ، ومرغريتا، وجوليانا، وكورّادو، وتونينو، وروبرتو؟»

انزعجت، وأصبحت عدائيَّة.

ـ «خيرٌ لكِ أن تبقي في المنزل؛ فذاك المكان، بحسب والدتكِ، لا يُناسبكِ».

ـ «لكنِّي سعيدةٌ برؤيتكم. هل جوليانا هنا؟ سأتَّفق معها».

- «جوليانا في بيتها».

- «وتونينو؟»

- «هل تعتقدين أنَّ تونينو يأكل وينام ويتغوَّط هنا؟»

أنهت المكالمة بطريقةٍ فظَّةٍ، فجَّةٍ، سوقيَّةٍ، كالعادة. كنتُ أودُّ تلقِّي دعوةٍ، بموعدٍ محدَّدٍ، ضمانًا بأنَّني حتى بعد ستَّة أشهر، أو سنة، سألتقي روبرتو ثانيةً. وعلى الرَّغم من أنَّ ذلك لم يقع، فإنَّ إحساسًا بالتوتُّر انتابني بشكلٍ محبَّب. لم تقل فيتّوريا أيَّ كلمةٍ واضحةٍ حول العلاقة بين جوليانا وروبرتو، لكنِّي فهمتُ أنَّ هناك عائقًا ما. أعلم أنَّه لا يُمكن الوثوق بتقديرات عمَّتي، فمن الوارد أنَّ ما يُثير استياءها هو ذاته الذي يُثير إعجاب المخطوبَين. وهكذا شطح خيالي بتحمُّلٍ وعنادٍ لفعل الخير، أن أصبح وسيطةً بين عمَّتي وبينهما، شخصًا يُتقن الحديثَ بلغات كلِّ الأطراف. بحثتُ عن نسخةٍ من الأناجيل.

- 8 -

لم أجد في البيت أيَّ نسخةٍ، لكنِّي لم أتذكَّر أنَّ والدي تكفيه إشارةٌ إلى كتابٍ حتى يؤمِّنه لي على جناح السُّرعة. بعد بضعةِ أيَّامٍ من محادثتنا، ظهر عند المدرسة بطبعةٍ مفسَّرةٍ للأناجيل.

- «القراءة لا تكفي»، قال. «نصوصٌ كهذه يجب أن تُدرَس».

لمعت عيناه وهو يلفظ تلك الجملة. كان شرطه الوجوديّ الحقيقيّ لا ينكشف إلَّا عندما تتسنَّى له الفرصةُ للاهتمام بالكتب، والأفكار، والمسائل العظمى. في تلك اللَّحظة، بدا جليًّا أنَّه يكون تعيسًا عندما يخوى رأسه، فلا يستطيع بذلك أن يخفي ما فعله بحقِّي وحقّ والدتي. أمَّا إذا انكبَّ على فكرٍ عظيم مكتنزٍ بالكتب التي نقش عليها ملاحظاته الدَّقيقة، أصبح في غاية السَّعادة، ولا ينقصه شيء. كان قد نقل حياته إلى بيت كوستانسا، هناك حيث يعيش في رغد. مكتبه الجديد غرفةٌ رحبةٌ مضاءةٌ عبْر النوافذ المطلَّة على البحر. وقد استأنف اجتماعاته بكلِّ الذين أذكرهم منذ طفولتي، ما عدا ماريانو بطبيعة الحال. إلَّا أنَّ التظاهر بالعودة إلى النظام بات وطيدًا، وكان بالإمكان التنبؤ أنَّه سيعود هو أيضًا إلى خوض النقاشات في المستقبل القريب. لم يكن هناك ما يُفسد أيَّامه سوى لحظات الخواء تلك التي يجد نفسه فيها وجهًا لوجه مع غلطاته. لكنَّه يكتفي بالقليل ليعثر على منفذِ

هروب، فلا بدَّ أنَّ طلبي ذاك بمثابة فرصةٍ سانحةٍ، ولَّدت لديْه انطباعًا بأنَّ كلَّ شيءٍ يعود إلى مجراه، حتى أنا.

وبالفعل، أتبع تلك الطبعة المفسَّرة بمجلَّدٍ قديمٍ يحتوي على الأناجيل بالإغريقيَّة واللَّاتينيَّة ـ الترجمات جيِّدة، لكنَّ وجود النصّ الأصليّ أمرٌ أساسيّ ـ ثمَّ دفعني بدون رابطٍ منطقيٍّ لأطلب من أمِّي أن تساعده في حلِّ مشكلاتٍ مملَّةٍ جدًّا عن شهادات أو ما شابه. أخذتُ الكتب، ووعدتُه بأن أبلِّغها طلبه. وعندما فعلتُها، تأفَّفتْ والدتي، واستاءتْ، وقلَّلتْ من شأن ذلك، ثمَّ رضختْ. وعلى الرَّغم من أنَّها تقضي الأيَّام بالمدرسة أو بتصحيح الوظائف والمسوَّدات، وجدت الوقت للوقوف في طوابير طويلةٍ أمام شبابيك العديد من المؤسَّسات ومقارعة موظَّفين خمولين.

وفي تلك المناسبة، انتبهتُ كم تغيَّرتُ أنا نفسي. لم أعبأ كثيرًا بالخضوع الذي أظهرته والدتي، إذ سمعتُها من غرفتي كيف تنقل إليه عبْر الهاتف بأنَّها حلَّت المشكلة. لم أسخط عندما كان صوتها المحروق من فرط التَّدخين، والمشروبات عالية النِّسبة الكحوليَّة في المساء، يرقُّ وهي تدعوه للمجيء إلى البيت، ليأخذ الوثائق التي استخرجتْها له من السجلّ المدنيّ، والنُّسخ التي أعدتَّها له من المكتبة الوطنيَّة، والشهادات التي سحبتها له من الجامعة. ولم أبرِزْ امتعاضي حتى عندما ظهر والدي ذات مساءٍ بهيئةٍ تخلو من الألفة، وتجاذبا أطراف الحديث في الصالة. سمعتُ أمِّي تضحك مرَّةً أو اثنتيْن، ثمَّ توقَّفتْ، لا بدَّ أنَّها فطنت أنَّ تلك الضحكة تعود إلى زمنٍ فات وانقضى. بالمحصِّلة، لم أفكِّر أنَّها تجني على نفسها بغبائها؛ بتُّ أستوعب مشاعرها. غير أنَّ موقفي من تصرُّف والدي كان متذبذبًا، كنت أكره انتهازيَّته. ثارت أعصابي حين ناداني ليسلِّم عليّ، سألني سارحًا:

ـ «والآن؟ هل تدرسين الأناجيل؟»

ـ «أجل»، قلت «لكنَّ الحكاية لا تُعجبني».

رسم ابتسامةً طفيفةً وساخرة:

- «هذا لافتٌ للاهتمام: الحكاية لا تعجبكِ».

طَبَع قبلةً على جبيني، وقال عند الباب:

- «سنتناقش في الأمر لاحقًا».

لا نقاش معه أبدًا، أبدًا. ما الذي بوسعي أن أقول له؟ أنَّني بدأتُ بالقراءة ظنًّا منِّي أنَّني بصدد حكايةٍ قد تقودني إلى حبّ الله مثل الحبّ المُشبَّع الذي قاد روبرتو. كنت أشعر بهذه الضرورة، جسدي كان متوتِّرًا لدرجة أنَّ أعصابي أحيانًا تبدو لي أسلاكًا كهربائيَّةً يعبرها التوتُّر العالي. بيْد أنَّ تلك النصوص لا تسلك مسلك الحكاية، إذ تدور في أماكن واقعيَّة، وتتحدَّث عن أناسٍ يقومون بمهنٍ حقيقيَّة، وفيها أشخاصٌ كان لهم وجودٌ على أرض الواقع. ثمَّ إنَّها كانت توقظ الإحساس بالشراسة أكثر من أيِّ إحساسٍ آخر. فها إنِّي انتهيتُ من إنجيلٍ فتناولتُ آخرَ، وما انفكَّت الحكاية تبدو لي أشدَّ فظاعة. أجل، كانت حكايةً صادمة. كنت أقرأ وتُستثار أعصابي. فنحن جميعًا في خدمة إلهٍ يضعنا تحت المراقبة ليرى ماذا نختار، الشرَّ أم الخير. يا لها من عبثيَّة، كيف يُمكن القبول بعبوديَّةٍ كهذه؟! كنت أكره الفكرة التي تقول أنَّ هناك أبًا في السماوات ونحن أبناءه في الأسفل، في الطين وفي الدِّماء. وكنت أخشى الأبَ الذي هو الربُّ، والأسرة التي هي مخلوقاته، أخشى من كلِّ ذلك وأغضب. وكنت أكره ذلك الأب الذي خلق كائناتٍ ضعيفةً إلى هذه الدَّرجة، معرَّضين إلى الألم باستمرار، والفناء بسهولة. كنت أكره أنَّه جالسٌ يتفرَّج علينا نحن الدمى كيف نتدبَّر أمرنا مع الجوع والعطشِ والأمراضِ والأهوالِ والقسوةِ والعجرفة، بل وحتى المشاعرِ الطيِّبة التي تحوي فسادَ الطويَّة وتخفي شيمةَ الغدر. كنت أكره أن يكون ابنه مولودًا من أمٍّ عذراء ويعرِّضه لأبشعِ المصائر كأنَّه أتعسُ مخلوقاته. كنت أكره أنَّ ذلك الابن على الرَّغم من مقدرته على صنع

المعجزات، يستخدم مقدرتَه تلك في ألعابٍ ناقصةِ الحسم، لا ينجم عنها ما يحسّن الوضع البشريّ حقًّا. كنت أكره أنَّ ذلك الابن يميل إلى إساءةِ معاملةِ أمّه، لكنَّه لا يمتلك الشجاعة لمواجهة أبيه. كنت أكره أنَّ الربَّ الإله يترك ابنه للموت جرَّاء فظائع مروِّعة، ويترفَّعُ عن الردّ على طلبه المساعدة. أجل، أحبطتني الحكاية. وقيامته النهائيَّة؟ جسدٌ معذَّبٌ بطريقةٍ وحشيَّةٍ يعود إلى الحياة؟ كنت أرتعب من قصص البعث من الموت، فيجافيني النوم طوال اللَّيل. ما الجدوى من خوض تجربة الموت إن كنَّا سنعود إلى حياةٍ أبديَّة؟ وما معنى الحياة الأبديَّة وسط حشدٍ من الموتى المبعوثين من الموت؟ أكانت تلك مكافأةً لهم حقًّا أم حالةً لرعبٍ لا يُطاق؟ كلَّا، كلَّا، إنَّ الأب الذي يتربَّع على عرش السماوات كان تمامًا مثل الأب الحاقد في آيات متَّى ولوقا، ذاك الذي يُعطي صخورًا وأفاعيَ وعقاربَ لابنه الجائع الذي يطلب الخبز. فإن ناقشتُ أبي عن ذلك الأب، كنت أجازف في أن يزِلَّ لساني: هذا الأَب يا أبتِ أسوأ منك. هذا ما جعلني أبرِّر لكلّ المخلوقات، وحتى أسوإها. فأوضاعهم كانت قاسية، وكنتُ أنحاز إلى جانبهم حين يتمكَّنون من التَّعبير عن مشاعرهم العظيمة من داخل الوحول التي تمرَّغوا فيها. أنحاز إلى جانب والدتي على سبيل المثال، لا إلى زوجها السَّابق ـ فهو كان يستخدمها ثمَّ يشكرها بتكلُّفٍ، منتهزًا قدرتها على امتلاك عاطفةٍ سامية.

قالت لي أمِّي ذات مساء:

ـ «أبوكِ شابٌّ أكثر منكِ. أنتِ تكبرين وهو ما يزال طفلًا. وسيبقى طفلًا إلى الأبد، طفلًا استثنائيًّا ذكيًّا مخدَّرًا في ألعابه. إن غابت عنه المراقبة تأذَّى. ليتني فهمتُه منذ أن كنتُ فتاة، إلَّا أنَّه في تلك الآونة، كان يبدو لي رجلًا ناضجًا».

أخطأَتْ؛ ومع ذلك، حبُّها راسخ. نظرتُ إليها بودّ. أردتُ أن أحبَّ مثلها أنا أيضًا، هكذا.. ولكنْ ليس مع رجلٍ لا يستحقّ هذا الحبّ. سألتني:

ـ «ماذا تقرأين؟»

ـ «الأناجيل».

ـ «ولماذا؟»

ـ «ثمَّة شابٌّ يعجبني ويعرف الأناجيل جيِّدًا».

ـ «هل أنتِ مغرمةٌ به؟»

ـ «لا، هل جننتِ؟ إنَّه مخطوب. أردت أن أصبح له صديقةً ليس إلَّا».

ـ «لا تخبري أباكِ، قد يناقشكِ ويفسد عليكِ القراءة».

لا خطرَ عليَّ من هذه الناحية، لأنِّي قد أتممتُ القراءة حتى السَّطر الأخير، وإن استجوبني أبي، قرأتُ عليه عباراتٍ عامَّة. كنت آمل أن أتحدَّث بالموضوع حتى العمق مع روبرتو يومًا ما، وأن أُبدي ملاحظاتٍ دقيقة. في الكنيسة، أحسستُ أنَّني لا أستطيع العيش من دونه، لكنَّ الوقت كان يمضي، وأنا أواصل حياتي. كان إحساسي بحتميَّة وجوده يتغيَّر. صرت أشعر أنَّ حتميَّةَ وجوده آنذاك لا تتعلَّق بحضوره الجسديّ ـ فلطالما تخيَّلته بعيدًا، في ميلانو، سعيدًا، منشغلًا بألف شيءٍ وشيءٍ جميلٍ ومفيد، والجميع يقدِّر جدارته ـ إنَّما بترتيب حياتي حول غايةٍ ما: أن أصبح شخصًا قادرًا على نيل تقديره. بتُّ أشعر به مثل سلطةٍ لا حدود لها ـ هل كان سيوافق إن تصرَّفتُ هكذا أم سيعارض؟ ـ ولا جدال عليها. كففتُ في تلك الفترة عن عادة تلمُّس جسمي في كلِّ مساءٍ قبل النوم، كمكافأةٍ على المجهود الرَّهيب في عيش هذه الحياة. بدا لي أنَّ المخلوقاتِ التعيسةَ التي مصيرُها الموتُ لديْها نصيبٌ من الحظِّ وإنْ قليلًا: تهوين الألم، تجاهله للحظات، تشغيل الجهاز القابع ما بين الفخذيْن الذي يحمل إلى المتعة. لكنِّي أقنعتُ نفسي أنَّ روبرتو، لو عرف، كان سيندم لأنَّه رحَّب، وإن لدقائق معدودة، بشخصٍ اعتاد أن يبلغ نشوته بمفرده.

- 9 -

عدت إلى الدِّراسة في تلك الفترة، من دون أن أقرّر ذلك، لا بل كان مثل إعادة تأكيدِ عادةٍ قديمة، مع أنَّ المدرسة بدت لي أكثر من أيّ وقتٍ مضى مكانًا لثرثراتٍ فظَّة. وما لبثتُ أن حصلتُ على علاماتٍ معقولة، وأرغمتُ نفسي على أن أكون أكثر انفتاحًا على رفاقي، حتى إنِّي غدوتُ أخرج مساءَ السبت معهم على الرَّغم من اجتنابي توطيد علاقات صداقة. وبالطبع، لم أنجح في الحدّ من نبراتي الناقمة، وانتقاداتي العدائيَّة، وسكوتي العنيد. ومع هذا، بدا لي أنَّني أستطيع أن أتحسَّن. في بعض الأحيان، كنتُ أُمعن النَّظر في الأطباق والكؤوس والملاعق، أو في حَجرةٍ على قارعة الطريق، أو ورقةٍ يابسة، وأتعجَّب من تلك الأشكال، سواء أكانت مصنَّعةً أم طبيعيَّة! بدأتُ أدقِّق في شوارع ريوني ألتو التي أعرفها مُذْ كنتُ صغيرة، كما لو أنِّي أراها للمرَّة الأولى، المحلَّات والمارَّة والبنايات ذوات الطوابق الثمانية، والشُّرفات كالخطوط البيضاء المسنودة إلى جدرانٍ بنِّيَّةٍ أو خضراء أو زرقاء. كانت تسحرني الصخور البركانيَّة السَّوداء في شارع سان جاكومو دي كابري التي مشيتُ عليها ألف مرَّة، والحدائق، والأبنية القديمة الحائلة إلى الرَّماديّ أو الصدئة. الأمر نفسه يحدث لي مع الأشخاص: الأساتذة، الجيران، الباعة، الناس في شوارع ڤوميرو. كنت أندهش بأيٍّ من حركاتهم، بأيٍّ من نظراتهم، وتعابير وجوههم. في تلك اللَّحظات، كان يُخيَّلُ إليَّ أنَّ

لكلِّ شيءٍ عمقًا سرِّيًا ويجب عليَّ اكتشافه. لكنَّ الحالة لا تدوم طويلًا. فكان الانزعاجُ يطفو على السطح بين الفيْنة والفيْنة، رغم جميع محاولاتي بمقاومته، كأنَّه نزوعٌ إلى أحكامٍ لاذعة، تليه حاجةٌ إلى العراك. لا أريد أن أكون هكذا ـ أقول لنفسي لاسيَّما قُبَيلَ النوم ـ لكنِّي كنت كذلك. وكلَّما انتبهتُ إلى إخفاقي في تغيير ذلك السُّلوك ـ كنت حادَّةً، ومتنمِّرة ـ رأيتني أندفع لا إلى تصويب نفسي بل إلى أن أكون أسوأ بكلِّ سرورٍ ولؤم. كنت أفكِّر: إن لم أكن محبوبةً، لا بأس، لن أحرِّك همَّتي؛ لا أحد منهم يعرف ما الذي أحمله في صدري ليل نهار. وهكذا ألتجئ إلى التَّفكير بروبرتو.

لكنِّي كنت بكلِّ سرورٍ ألاحظ أنَّ رفيقاتي ورفاقي في المدرسة على الرَّغم من تخبُّطاتي، كانوا يبحثون عنِّي ويدعونني إلى الحفلات، وأشعر أنَّهم يقدِّرون حتى سوء معاملتي لهم. أعتقد أنِّي بفضل هذا الطقس الجدِّي، استطعتُ أن أقصي كورّادو وروزاريو عنِّي. ظهر كورّادو قبل صديقه، عند المدرسة، وقال لي:

ـ «فلنتنزَّه في فلوريديانا».

أردتُ أن أرفض، لكنِّي أردت أن أثيرَ فضولَ رفيقاتي اللواتي كُنَّ ينظرن إليَّ، فأومأتُ بنعم، وعندما طوَّق كتفيَّ بذراعه ابتعدتُ عنه. حاول في البدء أن يضحكني فضحكتُ مجاملةً، ولكنْ حين حاول أن يسحبني خارج الدروب، بين الأسيجة، قلت له لا، بالحسنى أوَّلًا، ثمَّ بنبرةٍ صارمة.

ـ «ألسنا مرتبطيْن؟»، سألني وكان صادقًا في اندهاشه.

ـ «لا».

ـ «كيف لا؟ والأشياء التي فعلناها؟»

ـ «أيُّ أشياء؟»

ارتبك.

ـ «تعلمين».

ـ «لم أعد أذكر».

ـ «كنتِ تقولين إنَّكِ تستمتعين».

ـ «كنت أكذب».

بدا لي خجولًا ما أثار استغرابي. ألحَّ ثانيةً، وحاول أن يقبّلني مرتبكًا. ثمّ استسلم، وخاب ظنُّه، وغمغم: لا أفهمكِ، إنَّكِ تؤسفينني. ذهبنا لنجلس على إحدى العتبات البيضاء، بمواجهة نابولي المُشرقة التي بدت تحت قبَّةٍ شفَّافة، فوقها سماء زرقاء، وتحتها أبخرةٌ كما لو أنَّ كلَّ حجارةِ المدينة تتنفّس.

ـ «أنتِ ترتكبين خطأً»، قال.

ـ «أيُّ خطأ».

ـ «تحسبين نفسكِ أفضل منّي، لم تفهمي مَن أكون».

ـ «مَن تكون؟»

ـ «انتظري وسترين».

ـ «سأنتظر».

ـ «مَن لا ينتظر هو روزاريو يا جانّي».

ـ «وما شأن روزاريو؟»

ـ «مغرمٌ بكِ».

ـ «غير صحيح».

ـ «بلى. لقد أرخيتِ له الحبل حتى بات واثقًا من أنَّكِ تُحبّينه، ولا يتوقَّف عن التَّحدُّث عن صدركِ».

ـ «إنَّه يخطئ، قل له إنَّني أحبّ أحدًا آخر».

ـ «مَن؟»

ـ «لا أستطيع أن أخبرك».

أصرَّ على معرفته. حاولتُ أن أغيِّر الموضوع، فعاد ليضع ذراعه على كتفي.

ـ «هل ذلك الآخر هو أنا؟»

ـ «كلَّا».

ـ «لا يُمكن أن تفعلي معي كلَّ تلك الأشياء الجميلة من دون أن تحبِّيني».

ـ «أؤكِّد لك إنَّه كذلك».

ـ «فأنتِ قحبة إذن».

ـ «إن شئتَ، نعم».

فكَّرتُ أن أسأله عن روبرتو، لكنِّي كنت أعرف أنَّه يكرهه، وأنَّه سيغلق الموضوع ببضع عباراتٍ مهينة، فلجمتُ سؤالي، وحاولتُ أن أصل إلى مرادي عبْر التطرُّق لجوليانا.

ـ «في غاية الجمال»، أبديتُ امتداحًا بشقيقته.

ـ «هراء، إنَّها تنحف حتَّى ستبدو ميِّتةً مدفونة، لم تريها حين تستيقظ في الصباح»!

ارتجل كلماتٍ سوقيَّة. قال إنَّ جوليانا في تلك الآونة، تدَّعي الإيمان، لتُبقي على خطيبها خرِّيج الجامعة، مع أنَّها لا تعرف عن الإيمان شيئًا. إن كان للمرء شقيقة، اختتم، تنعدم عنده الرَّغبة في الإناث، لأنَّه يعلم أنَّكنَّ جميعًا أسوأ منَّا نحن الذكور وفي كلِّ الأمور.

- «فارفع يديْك عنّي، ولا تحاول أن تقبّلني ثانيةً».

- «ما شأن هذا؟ أنا مغرم».

- «وإن كنتَ مغرمًا، ألا تراني؟»

- «أراكِ، لكنَّني أنسى أنَّكِ مثل شقيقتي».

- «حتى روبرتو يفعل الشيء ذاته: لا يرى جوليانا مثلما تراها أنت، إنَّما يراها مثلما تراني أنا».

هاجت أعصابه، كأنَّ الموضوع يُضايقه.

- «ماذا تريدين أن يرى روبرتو، إنَّه أعمى، لا يفقه شيئًا في الإناث».

- «ربَّما. لكنَّه حين يتكلَّم ينصت له الجميع».

- «وأنتِ أيضًا؟»

- «غير صحيح».

- «روبرتو لا يثير إعجابَ إلَّا الأغبياء».

- «أختك غبيَّة؟»

- «أجل».

- «وهل أنت الذكيّ الوحيد؟»

- «أنا، أنتِ وروزاريو. هو يريد أن يلتقي بكِ».

فكَّرتُ في الموضوع قليلًا، ثمَّ قلتُ:

- «لديَّ الكثير من الواجبات».

- «قد يغضب، إنَّه ابن المحامي سارجينتي».

- «رجلٌ مهمٌّ؟»

- «مهمٌّ وخطير».

ـ «ليس لديَّ وقتٌ يا كورّا، أنتما لا تدرسان. أنا في المدرسة».

ـ «هل تريدين مخالطة أولئك الذين يدرسون حصرًا؟»

ـ «لا. ولكنْ ثمَّة فرقٌ كبيرٌ بينك وبين ـ على سبيل المثال ـ روبرتو. تخيَّلْ أن يكون لديْه وقتٌ يضيِّعه، لا بدَّ أنَّه منهمكٌ في الكتب دومًا».

ـ «أيضًا؟ هل أنتِ مغرمةٌ به؟»

ـ «ماذا تقول!»

ـ «إن أدرك روزاريو أنَّكِ مغرمةٌ بروبرتو، فإمَّا أن يقتله أو يرسل مَن يقتله».

قلت إنَّني مضطرَّة للذهاب حالًا. ولم أَعُد أشير إلى روبرتو.

ـ 10 ـ

لم يكد يمرّ وقتٌ حتى ظهر روزاريو أيضًا عند المدرسة. رأيته على الفور، متّكئًا على سيّارته المكشوفة، طويلًا، نحيفًا، مبتسمًا رغمًا عنه، متباهيًا بثيابٍ تدلّ على ثراء، لكنّها تُعدُّ بين رفاقي بلا أناقة. لم يلمِّح إلى وجوده، كأنَّه يعتقد أنَّ سيّارته الصفراء على الأقلّ، لا هو، قادرة على لفت الانتباه إليه. وكان محقًّا، فالجميع لاحظوا السيّارة وأبدوا إعجابهم بها. ولاحظوني، بطبيعة الحال، كيف أنقادُ إليه بلا إرادةٍ كأنَّه يتحكَّم بي عن بُعد. جلس روزاريو خلف المقود بصلافةٍ وفتور، وأنا جلستُ بجانبه بصلافةٍ أكبر.

ـ «عليك أن توصلني إلى البيت حالًا»، قلت.

ـ «أنتِ السيّدة وأنا العبد»، أجاب.

شغَّل المحرِّك وانطلق بعصبيَّة، يزمِّر لتوسعة الطريق ما بين التلاميذ.

ـ «هل تذكر أين أسكن؟» سألته على الفور بقلق، لأنَّه كان يسلك الطريق الصاعد إلى سان مارتينو.

ـ «فوق سان جاكومو دي كابري».

ـ «لكنّنا لسنا ذاهبين إلى فوق سان جاكومو دي كابري».

ـ «سنذهب لاحقًا».

توقَّف في حارةٍ صغيرةٍ تحت سانت إيلمو، التفت نحوي ونظر إليَّ بوجهه دائم البشاشة.

ـ «جانّي ـ قال بصوتٍ ثقيل ـ لقد أعجبتِني منذ أن رأيتكِ أوَّل مرَّة. أردتُ أن أخبركِ بهذا وجهًا لوجه، في مكانٍ هادئ».

ـ «أنا قبيحة، ابحث لنفسك عن فتاةٍ جميلة».

ـ «لستِ قبيحة، أنتِ نوع».

ـ «نوعٌ يعني أنَّني قبيحة».

ـ «هراء، لديْكِ صدرٌ لا تمتلك مثله حتَّى التَّماثيل».

قرَّبَ جذعه ليقبّل فمي، فتراجعتُ، وقلبتُ وجهه بيدي.

ـ «لا يمكننا أن نتبادل القبل»، قلت «أسنانك بارزةٌ جدًّا وشفتاك رقيقتان كثيرًا».

ـ «فكيف استطاعت الأخريات أن يقبّلنني؟»

ـ «لا شكَّ أنَّهنَّ بلا أسنان، اذهب إليهنَّ ليقبّلنك».

ـ «لا تهينيني بالمزاح يا جانّي، هذا ظلم».

ـ «لستُ أنا بل أنت مَن يمزح. تضحك باستمرار، فتأتيني رغبةٌ في المزاح».

ـ «تعلمين أنَّ هذا مجرَّد مظهر، أمَّا أنا فجادٌّ كثيرًا من الداخل».

ـ «وأنا أيضًا. أنتَ قلت إنَّني قبيحة، فقلت لك إنَّ أسنانك بارزة. تعادلنا الآن، أوصلني إلى البيت قبل أن ينشغل بال أمِّي».

لكنَّه لم يتراجع، ظلَّ على مقربةٍ منِّي. ردَّد أنَّني نوعٌ، النوع الذي يعجبه؛ وتضايق بصوتٍ هامس، لأنَّني لم أفهم صدق نيَّته؛ ثمَّ رفع صوته فجأةً، وقال بنبرةٍ قلقة:

ـ «كورّادو كذّاب، يقول إنَّكِ فعلتِ معه أشياءَ معيَّنة، لكنِّي لا أصدِّقه».

حاولتُ فتح باب السيَّارة، وقلتُ غاضبةً:

ـ «عليَّ أن أذهب».

ـ «تمهَّلي: إن كنتِ قد فعلتِها معه، فلماذا لا تفعلينها معي؟»

نفد صبري:

ـ «لقد أضجرتني يا روزا، أنا لا أفعل شيئًا لأحد».

ـ «أنتِ مغرمةٌ بآخر».

ـ «لست مغرمةً بأحد».

ـ «كورَّادو يقول إنَّكِ منذ أن رأيتِ روبرتو ماتيزي فقدتِ صوابكِ».

ـ «لا أعرف حتى مَن يكون روبرتو ماتيزي هذا».

ـ «سأخبركِ أنا مَن يكون: إنَّه شابٌّ متكبِّرٌ ومغرور».

ـ «فهو ليس روبرتو الذي أعرفه إذن».

ـ «ثقي بي، إنَّه هو. وإن لم تصدِّقي، فسآتيكِ به إلى هنا وسنرى».

ـ «تأتيني به؟ أنت؟»

ـ «يكفي أن تأمري بذلك».

ـ «وهل سيأتي حقًّا؟»

ـ «لا، لن يأتي من تلقاء نفسه. سآتيكِ به بالقوَّة».

ـ «أنت مضحكٌ. روبرتو الذي أعرفه لا يرغمه أحدٌ على فعل شيءٍ بالقوَّة».

ـ «هذا متعلِّقٌ بحسب القوَّة. بالقوَّة المناسبة، ينفِّذ الجميعُ ما يُملى عليهم».

نظرتُ إليه مرتبكةً. كان ضاحكًا، لكنَّ عينيْه جادَّتان.

ـ «لا يهمُّني شيءٌ بأيِّ أحدٍ يدعى روبرتو، ولا بكورّادو ولا بك»، قلت.

كثَّف نظراتِه إلى صدري، كأنَّني أُخفي شيئًا في حمَّالة الصدر، ثمَّ غمغم:

ـ «أعطيني قبلةً لأوصلكِ إلى البيت».

كنتُ متأكّدةً في تلك اللَّحظة أنَّه سيؤذيني. ومع ذلك، فكَّرتُ بشكلٍ متناقضٍ أنَّه وإن كان قبيحًا يُعجبني أكثر من كورّادو. ولوهلةٍ، تراءى لي مثل شيطانٍ شديد الوهج، يُمسك رأسي بكلتا يديْه ويقبّلني رغمًا عنِّي، ثمَّ يخبطني بزجاج النافذة مرارًا إلى أن يقتلني.

ـ «لن أعطيكَ شيئًا ـ قلت ـ إمَّا أوصلتَني وإمَّا نزلتُ وانصرفتُ».

حدَّق في عينيَّ لوقتٍ طويل جدًّا، ثمَّ شغَّل المحرِّك.

ـ «أنتِ السَّيِّدة».

- 11 -

اكتشفتُ أنَّ الذكور في صفِّي أيضًا يتحدَّثون باهتمامٍ عن صدري الضَّخم. أخبرتني بذلك رفيقة المقعد، ميريلا، وأضافت أيضًا أنَّ صديقًا لها من الثاني التوجيهيّ - يُدعى سيلفيسترو على ما أذكر، وكان له هيبةٌ معيَّنةٌ إذ يأتي إلى المدرسة بالدرَّاجة الناريَّة التي تثير الحسد - قال في الباحة، بأعلى صوت: حتَّى مؤخَّرتها لا بأس بها، يكفي أن تضع الوسادة على وجهها لتحظى بألذّ نيكة!

لم أنم اللَّيل، بكيتُ من المهانة والغضب. وخطر في بالي أن أُخبر والدي - فكرةٌ من بقايا الطفولة المزعجة، ففي صِغَري كنتُ أتصوَّر أنَّه قادرٌ على مواجهة أيّ صعوبةٍ تعترضني ويحلّها - وسرعان ما فكَّرتُ بأمِّي التي كان صدرها صغيرًا؛ وكوستانسا صاحبة الصَّدر المُمتلئ والمستدير. وقلت لنفسي إنَّه لا شكّ أنَّ والدي يهوى صدورنا نحن الإناث أكثر من سيلفيسترو، وكورّادو، وروزاريو. فهو مثل بقيَّة الذكور، ولو لم أكن ابنته، فكان بالتَّأكيد سيتحدَّث عن فيتّوريا بحضوري بالاحتقار ذاته الذي تحدَّث به سيلفيسترو عنِّي؛ كان سيقول إنَّها قبيحةٌ لكنَّ صدرها كبيرٌ ومؤخَّرتها مصقولة، وقد يكون إنزو قد وضع وسادةً على وجهها لينكحها. مسكينةٌ فيتّوريا، أن يكون والدي شقيقًا لكِ: ما أهوجَ الذكور، وما أجلفَ كلَّ كلمةٍ يكرّسونها للحبّ! يتمتَّعون بإذلالنا وجرجرتنا إلى شوارع سماجتهم. كنت حانقةً، ووصلتْ بي الظنون حتى للتساؤل على ومضات - في لحظات الألم ما زلتُ حتى الآن أشعر بأنَّ عاصفةً إلكترونيَّة تجتاح رأسي - ما إذا كان روبرتو نفسه مثل سائر الرجال، يعبِّر بطريقتهم. لم يبدُ

لي ذلك مُمكنًا، لا بل مجرَّد طرح السُّؤال على نفسي أغضبني مزيدًا. ففكَّرتُ أنَّه يتوجَّه إلى جوليانا بلطيف الكلام، يرغب فيها بالتَّأكيد. طبيعيٌّ، لكنَّه يرغب فيها برقَّة. هدأتُ في النهاية على تخيُّل كم كانت علاقتهما مشبعةً بالذوق الرَّفيع، وأقسمتُ أنَّني سأجد وسيلةً لإبداء المودَّة لكليْهما، وأن أكون مدى الحياة الشخصَ الثقة الذي يصارحانِه بكلِّ شيء. كفى إذن بالصدر والمؤخَّرة والوسادة. مَن يكون سيلفيسترو هذا، ماذا يعرف عنِّي؟ هو ليس حتى بشقيقٍ لي نشأ بجواري منذ الطفولة ويعرف يوميَّات جسدي، لحسن الحظّ ليس لي أشقَّاء! كيف تُسوِّل له نفسه أن يتلفَّظ بهذا الكلام، على مسمع الجميع؟

هدأ بالي، لكنَّني استغرقتُ أيَّامًا لكي أتناسى خبر ميريلا. ذات صباحٍ، كنت في الصفّ، وكان رأسي خاليًا من أيِّ إزعاج. وبينما كنت أبري قلم رصاص، قُرع جرسُ الاستراحة. ذهبتُ إلى الممرّ، فوجدتُ نفسي في وجه سيلفيسترو. كان فتًى بدينًا، أطول منِّي بعشرة سنتمترات، ذا بشرةٍ منمَّشة وناصعة البياض. كان الطقس حارًّا، يرتدي قميصًا أصفر قصير الكمَّيْن. ومن دون نيَّة مُسبقة، أصبتُ ذراعه برأسِ قلمِ الرصاص، وغرستُه بكلِّ قواي. فصاح صيحةً طويلة كصياح النوارس، وركَّز عينيْه على ذراعه قائلًا: لقد عَلِق الرأسُ في الداخل. ترقرق الدمع في مُقلتيْه، فهتفتُ: لقد دفعوني عليك، عذرًا، لم أفعلها عمدًا. تفحَّصتُ القلم وغمغمتُ: لقد تحطَّم الرأس فعلًا. أرني ذراعك.

كنتُ متعجِّبة. ما الذي قد أرتكبه لو كنت أحمل سكِّينًا؛ هل كنت سأطعنه في ذراعه أو في ناحيةٍ أخرى؟ سحبني سيلفيسترو إلى المديرة، وقد ساندَه رفاقه، وما زلت أدافع عن نفسي أمامها أيضًا، وأقسمتُ أنِّي تلقَّيتُ دفعةً في مشاجرة الباحة. شعرتُ أنَّه من المُهين أن أفضح حكايةَ الصدر الكبير والوسادة، لم أحتمل أن يحسبوني فتاةً قبيحة، ولا تريد الاعتراف بذلك. وعندما بدا واضحًا أنَّ ميريلا لن تتدخَّل وتروي أسبابي، شعرتُ بالارتياح أيضًا. كان حادثًا محضًا، ردَّدتُ حتى الملل. هدَّأتِ المديرةُ سيلفيسترو شيئًا فشيئًا، واستدعت والديَّ.

ـ 12 ـ

استاءت والدتي لذلك. كانت تعرف أنَّني عدتُ إلى الدراسة، وتعوِّل كثيرًا على قراري بإجراء الامتحان لتعويض العام الفائت. فبدت لها تلك المسألة الغبيَّة خذلانًا متواصلًا، وربَّما أكَّدتْ لها أنَّني وإيَّاها مذ هَجَرَنا أبي ما عاد بوسعنا أن نعيش بكرامة. غمغمتْ أنَّنا يجب أن نصون ما نحن عليه، وأن نكون واعيتيْن من أنفسنا. وغضبتْ مثلما لم تغضب من قبل، ولكنْ ليس منِّي، لأنَّها باتت تحيل كلَّ صعوبةٍ تعترضني على فيتّوريا بشكلٍ هَوَسيّ. قالت إنَّني على هذه الشاكلة أُعين عمَّتي، التي لا تريد إلَّا أن أصبح شبيهةً لها بالسُّلوك والكلمات وكلِّ شيء. ضيَّقتْ عينيْها الغائرتيْن أساسًا، وبدت عظام وجهها توشك على تمزيق بشرتها. قالت ببطء: تريد أن تستغلّكِ لتثبت أنَّ أباكِ وأنا لسنا سوى مظاهر، وأنَّنا إن ارتقينا قليلًا فأنتِ ستتدهورين ليعود الجميع متعادلين. ذهبت إلى الهاتف، ونقلت الأمر بتفاصيله إلى زوجها السَّابق. ولئن فقدت هدوءها معي، رأيتُها تستعيده معه. تحدَّثت إليه بصوتٍ خفيضٍ جدًّا، كما لو أنَّ بينهما مواثيقَ لا بدَّ من استبعادي عنها، لأنَّني قد أخرقها بتصرُّفاتي الخاطئة. ففكَّرتُ بحزن: يا للأشياء كم هي مشتَّتة! أسعى لجمعها معًا وأُخفق. فيَّ شيءٌ لا يعمل. الجميع هكذا، ما عدا روبرتو وجوليانا. كانت والدتي في تلك الأثناء تتحدَّث بالهاتف: أرجوك، اذهب أنت. وردَّدت أكثر من مرَّة: حسنًا، معك حقّ، أعلم أنَّك مشغول، ولكنْ أرجوك أن تذهب إلى المدرسة. وعندما أنهت مكالمتها، قلتُ ناقمةً:

«لا أريد أن يذهب والدي إلى المديرة».

أجابتني:

«اخرسي، ستريدين ما نريده نحن».

كان معلومًا أنَّ المديرة ترحِّب بأولئك الذين يستمعون إلى خطبها القصيرة ويؤنِّبون أولادهم، في حين أنَّها قاسيةٌ جدًّا مع الآباء الذين يدافعون عن أبنائهم. وكان بوسعي أن أثق بوالدتي، فلطالما أحسنت التعامل مع المديرة. أمَّا والدي، فقد صرَّح في أكثر من مناسبة، وبنبرةٍ مرحةٍ أحيانًا، أنَّ أعصابه تثور من أيّ شيءٍ يتعلَّق بالعالم المدرسيّ ـ زملاؤه يعكِّرون مزاجه، ومن جهته، كان يحتقر الهرميَّات، وطقوس عضويَّة المعلِّمين ـ لذا استطاع في كلِّ ظرف أن ينأى بنفسه عن مدرستي، فلم تطأها قدماه بصفته والدًا، كان متأكِّدًا أنَّه قد يضرُّني. إلَّا أنَّه في تلك المرَّة جاء على الموعد، عند نهاية الدوام. رأيتُه في الممرّ وبلغته على مضض. همستُ له بقلق، وبلكنةٍ نابوليتانيَّةٍ عمدًا: بابا، لم أتقصَّد إيذاءه حقًّا، ولكنْ من الأفضل أن تلقي اللَّائمة عليَّ، وإلَّا ساء الوضع. فأوصاني بألَّا أشغل بالًا؛ وما إن دخل إلى المديرة حتى أظهر فائق احترامه. أصغى إليها باهتمامٍ مطلق، عندما حدَّثته بالتَّفصيل عن صعوبة إدارة مدرسةٍ إعداديَّة، فروى عليها بدوره قصَّةً عن جهل الموجِّه المكلَّف، وباغتها بمجاملةٍ حول أقراط أذنيْها اللَّائقة. أغمضت المديرةُ عينيْها متأثِّرةً، وضربت الهواء بخفَّةٍ من يدها كأنَّها تُبدِّده، وضحكت، وحجبت فمها باليد نفسها. ولم يَعُدْ والدي إلى موضوع فعلتي السَّيِّئة إلَّا عندما بدا أنَّهما لن يكفَّا عن الدردشة. قال، وقد قطع أنفاسي، إنَّني ضربتُ سيلفيسترو عمدًا بلا شكّ، وإنَّه يعرفني جيِّدًا، وإنَّه لا بدَّ من وجود سببٍ مقنعٍ لتصرُّفي ذاك، وإنَّه لا يعرف ما السَّبب ولا يريد معرفته أيضًا، لكنَّه تعلَّم منذ أمدٍ بعيدٍ أنَّه حين تندلع مشاجرةٌ بين الذكور والإناث، فالذكور هم دائمًا ظالمون والإناث محقَّات؛ وحتى لو لم تكن الأمور كذلك في تلك

المناسبة، فإنَّ الذكور يجب تأديبهم بكلِّ الأحوال ليتحمَّلوا مسؤوليَّاتهم، حتى لو لم يكن لديْهم مسؤوليَّاتٌ في الظاهر. هذا تلخيصٌ تقريبيٌّ بطبيعة الحال، فوالدي قد تحدَّث طويلًا وكانت جُمَله ساحرةً وباترةً في آنٍ معًا، من ذلك النوع الذي يبقيك بفمٍ مفتوحٍ لأناقة صياغتها، كما أنَّها توضِّح لك أنَّ قائلها لن يقبل اعتراضك، لأنَّها جُمَلٌ محكيَّةٌ بنبرة مقامٍ أعلى.

انتظرتُ بقلقٍ أن تردّ المديرةُ عليه. أجابت بصوتٍ مخلص، ونادته بالأستاذ؛ وكانت تحت تأثير إغوائه حتَّى خجلتُ من أنّي ولدتُ أنثى، وأنَّه محتومٌ عليَّ أن ألقى معاملةً كهذه من رجلٍ، مع أنّي درستُ وتقلَّدتُ منصبًا مرموقًا. ومع ذلك، عوضًا عن الصراخ من الغضب شعرتُ بالسَّعادة. لم تَعُد المديرة تريد لوالدي أن يرحل، وكان من الواضح أنَّها تطرح عليه أسئلةً وأسئلةً لمجرَّد أن تسمع نبرةَ صوته؛ ومن يدري! ربَّما ترجو منه مجاملاتٍ أخرى، أو بدايةَ صداقةٍ مع شخصٍ لبِقٍ ولطيف، يعتبرها تستحقّ الكلام الجميل.

وبينما كانت متردِّدةً في السَّماح لنا بالذهاب، كنت واثقةً من أنَّ والدي حالما نخرج إلى الباحة سيقلِّد نبرة صوتها ليضحكني، سيقلِّد تعبير وجهها حين تلقَّت مجاملاته. وهذا ما حدث بالفعل.

«هل رأيتِ كيف رفرفت رموشها؟ وحركة يدها، لترتِّب شعرها؟ وصوتها؟ أوه.. نعم. أوه، أوه، لا يا أستاذ، لا».

ضحكتُ، مثلما كنت صغيرةً تمامًا، وكان إعجابي القديم والطفوليّ بهذا الرجل يراودني مجدَّدًا. ضحكتُ بقوَّة، ولكنْ بحياء. لم أكن أعلم إن كان أجدر أن أتناسى الموضوع أم أتذكَّر الإعجاب الذي لا يستحقُّه، وأصرخ عليه: قلتَ لها إنَّ الرجال دائمًا ظالمون وعليهم تحمُّل مسؤوليَّاتهم، لكنَّك لم تتحمَّل مسؤوليَّاتِك يومًا مع أمّي، ولا حتى معي. أنت كاذبٌ يا أبتِ، كاذبٌ؛ وأخاف منك تمامًا بسبب قدرتك على إظهار ذلك اللُّطفِ متى أردتَ.

- 13 -

دامت سعادته الهائجة لصنيعه إلى أن ركبنا السيَّارة. وما انفكّ يتفوَّه بعباراتٍ تكشف غروره واحدةً تلو الأخرى، حتى عندما كان يرتِّب جلسته خلف المقود.

ـ «خذي ما حدث درسًا مُفيدًا: من المُمكن إعادة أيٍّ كان إلى حظيرة النظام. وتأكَّدي أنَّ تلك المرأة ستقف دومًا إلى جانبكِ طوال أعوام دراستكِ في هذه المدرسة».

عجزتُ من لجم لساني، فأجبتُ:

ـ «ليس إلى جانبي، بل إلى جانبك».

تحسَّسَ النقمةَ، وأبدى خجلًا من تمجيده لذاته. لم يشغِّل المحرِّك، مرَّر كلتا يديْه على وجهه، من جبينه إلى ذقنه، كما لو أنَّه يمحو ما كان عليه منذ دقائق.

ـ «هل كنتِ تفضِّلين أن تواجهي المشكلة برمَّتها بمفردكِ؟»

ـ «أجل».

ـ «ألم يعجبكِ تصرُّفي؟»

ـ «كنتَ بارعًا. لو أنَّك خطبْتَها لوافقتْ».

ـ «وماذا كان عليَّ أن أفعل، برأيكِ؟»

ـ «لا شيء، أن تنصرف إلى شؤونك. ولقد رحلتَ، لديْك زوجةٌ أخرى وبنات أخريات، نسيتنا أنا وماما».

ـ «أمُّكِ وأنا ما زلنا يودُّ بعضُنا بعضًا. وأنتِ ابنتي الوحيدة، الغالية جدًّا على قلبي».

ـ «كذبة».

ومَضَ الغضبُ في عينيْه، وبدا أنَّه مُهان. ها هو، فكَّرتُ، ممَّن ورثتُ القدرةَ على ضرب سيلفيسترو. لكنَّ هوجة الدِّماء لم تدم في رأسه إلَّا ثوانٍ، قال بهدوء:

ـ «سأوصلكِ إلى البيت».

ـ «بيتك أم بيتي؟»

ـ «أينما تريدين».

ـ «لا أريد شيئًا. نفعل دائمًا ما تريده أنت يا أبتِ، فأنت تعرف كيف تدخل في أدمغة الناس».

ـ «ماذا تقولين».

عادت الدِّماء تهوج ثانية. رأيتُها في حَدَقة عينيْه: كنت قادرةً، إن أردتُ، على إفقاده صوابِه. لكنَّه لن تصل به الحال ليضربني، فكَّرتُ، فهو ليس في حاجةٍ إلى ذلك. بوسعه أن يدمِّرني بالكلمات. يجيد هذا الأمر، فلقد تدرَّب عليه منذ شبابه. فبالكلمات دمَّر حبّ فيتّوريا وإنزو. ولا شكَّ أنَّه درَّبني أيضًا، أراد منِّي أن أكون مثله، إلى أن خيَّبتُ آماله. لكنَّه لن يعتدي عليَّ حتى بالكلمات، يعتقد أنَّه يودُّني ويخاف أن يؤذيني. غيَّرتُ الموضوع.

ـ «اعذرني» غمغمتُ. «لا أريدك أن تنشغل عليّ، لا أريدك أن تضيِّع وقتك بسببي، وأن تقوم بأشياءَ لا تودُّ القيام بها».

ـ «فتصرَّفي جيِّدًا إذن. كيف خطر في ذهنكِ أن تضربي ذلك الفتى؟ لا يجوز. ليست هذه طريقةً سليمة. كانت شقيقتي تفعل ذلك؛ وبالفعل، ها هي لم تتجاوز الخامس الابتدائيّ».

ـ «قرَّرتُ أن أعوِّض العام الذي رسبتُ فيه».

ـ «هذا نبأٌ سارّ».

ـ «وقرَّرتُ ألَّا ألتقي العمَّة فيتّوريا بعد».

ـ «إن كان هذا خيارَكِ، فأنا سعيد».

ـ «لكنّي سأظلُّ على تواصل مع أبناء مرغريتا».

نظر إليّ مُرتبكًا:

ـ «مَن هي مرغريتا؟»

ظننتُ برهةً أنَّه يصطنع جهله، ثمَّ غيَّرتُ ظنّي. فعلى الرَّغم من أنَّ شقيقته تعرف خياراتِه الأكثر سرِّيَّةً ـ لم يشأ أن يعرف عنها بعد القطيعةِ أيَّ شيء. كان يقارع فيتّوريا منذ عقود، لكنَّه لا يعرف شيئًا عن حياتها. لامبالاةٌ ناجمةٌ عن تكبُّره هي جزءٌ أصيلٌ في طريقته بإضمار الكراهية في حقِّها. شرحتُ له:

«مرغريتا هي صديقة العمَّة فيتّوريا».

أبدى استياءه.

«صحيح، لم أكن أذكر اسمها».

«لديْها ثلاثة أبناء: تونينو، جوليانا وكورّادو. جوليانا هي الأشطر بين الجميع، وأنا أحترمها. تكبرني بخمسة أعوام، وهي ذكيَّةٌ جدًّا. خطيبها يدرس في ميلانو، وقد تخرَّجَ هناك. ولقد عرفته، إنَّه شاطرٌ جدًّا».

ـ «ما اسمه؟»

ـ «روبرتو ماتيزي».

نظر إليَّ متردِّدًا.

ـ «روبرتو ماتيزي؟»

عندما يستخدم والدي تلك النَّبرة، فلا مجال للشكّ: خطر في باله أحدٌ يكنّ له تقديرًا خالصًا وبعضًا من الحسد الملموس. وبالفعل، ها هو يزداد فضوله. أرادَ أن يعرف في أيِّ مناسبةٍ عرفتُه؛ وسرعان ما اقتنع أنَّ روبرتو الذي أتكلَّم عليه يتوافق مع باحثٍ شابٍّ يؤلِّف مقالاتٍ مثيرةً للاهتمام في إحدى أهمّ مجلَّات الجامعة الكاثوليكيَّة. أحسستُ بوجهي يتضرَّج فخرًا، بالشعور بالندّيَّة. ففكَّرتُ: تقرأ، تدرس، تكتب، لكنَّه أفضل منك كثيرًا، وأنت تعلم ذلك، وها أنت الآن تُقِرُّ بالأمر بنفسك. سأل متعجِّبًا:

ـ «تعارفتما في باسكوني؟»

ـ «أجل، في الكنيسة، هو من مواليد حيّ باسكوني، لكنَّه انتقل إلى ميلانو. عرَّفتني عليه عمَّتي فيتوريا».

بدا حائرًا، كما لو أنَّ الجغرافيا اختلطت عنده في مدار جُمَلٍ قصيرة، فصار يجاهد لاستيعاب أين ميلانو وڤوميرو وباسكوني والبيت الذي وُلد فيه. لكنَّه استعاد نبرته المعهودةَ المتفهِّمةَ والمتراوحة بين الأبوَّة والأستاذيَّة:

ـ «جيِّد، يُسعدني ذلك. أيُّ شخص يثير فضولكِ، لكِ الحقّ وعليك الواجب أن تعمِّقي معرفتكِ فيه. هكذا ننضج. يؤسفني أنَّكِ قلَّصتِ علاقتكِ بأنجيلا وإيدا إلى أدنى مستوى. لديْكنَّ كثيرٌ من الأشياء المشتركة. عليكنَّ استعادة الألفة مثلما كنتنَّ في السَّابق. أتعلمين أنَّ لأنجيلا أصدقاءً من باسكوني؟»

كان في العادة يلفظ اسم ذلك المكان باستياءٍ ومرارةٍ واحتقار، ليس في حضوري فحسب، بل ربَّما في حضور أنجيلا أيضًا سعيًا منه لازدراء صداقاتِ ابنة عشيقته، لكنَّه بدا لي آنذاك يلفظه بأقلّ قدْرٍ من الغيظ. وربَّما بالغتُ، أخفقتُ في احتواء الاندفاع للحطّ من شأنه، مع أنَّ الأمر يُؤسفني حقًّا. حدَّقتُ إلى يده الرَّقيقة التي تدوِّر المفتاح لتشغيل المحرِّك، وحسمتُ أمري:

ـ «حسنًا، سآتي إلى بيتك بعض الوقت».

ـ «من دون إبداء امتعاض؟»

ـ «أجل».

ابتهج، وانطلق.

ـ «لكنَّه ليس بيتي، إنَّه بيتكِ أيضًا».

ـ «أعرف»، قلت.

وبينما كان يقود نحو بوزيليبو، سألته بعد صمتٍ طويل:

ـ «هل تتحدَّث غالبًا مع أنجيلا وإيدا، هل لديك بهما علاقةٌ طيِّبة؟»

ـ «لا بأس».

ـ «أفضل من علاقتهما بماريانو؟»

ـ «نعم، ربَّما».

ـ «هل تودُّهما أكثر ممَّا تودُّني؟»

ـ «ماذا تقولين؟ أودُّكِ أنتِ أكثر».

- 14 -

قضيتُ ظهيرةً جميلة. أرادت إيدا أن تقرأ عليَّ بعضًا من قصائدها التي أعجبتني كثيرًا. عانقتني بقوَّةٍ شديدةٍ عندما تحدَّثنا في القصائد بحماسة؛ وتذمَّرت من المدرسة: مملَّةٌ، جائرةٌ، تمثِّل أكبر عائقٍ أمام حريَّة إلهامها الأدبيّ وتجلِّياته؛ وعدتني أن تقرأ عليَّ روايةً طويلةً مستوحاةً منَّا نحن الثلاثة، ما إن يتسنَّى لها الوقت لتُنهيها. أمَّا أنجيلا فلم تفعل شيئًا غير لمسي وضمِّي، كأنَّها لم تَعُدْ مُعتادةً على وجودي وأرادت أن تتأكَّد أنَّني هناك حقًّا. وراحت على حين غرَّة تستذكر وقائعَ من طفولتنا بثقةٍ عالية، تارةً تضحك وتارةً يفيض الدَّمع في عينيْها. أنا لم أذكر شيئًا أو أكاد ممَّا استحضرتْه، لكنِّي لم أصارحها بذلك. أومأتُ بنعم دائمًا، وضحكتُ، وحين شعرتُ أنَّها سعيدةٌ للغاية، اعتراني شوقٌ حقيقيٌّ لزمنٍ كنت أعتبره قد ولَّى من غير رجعة وقد نفضتْ عنه الغبار بطريقةٍ سيِّئة، بسبب مخيِّلتها المُفرطة في حنانها.

ما أجود كلامكِ، قالت لي حالما انصرفت إيدا إلى الدِّراسة على مضض. اكتشفتُ أنَّ لديَّ الرَّغبة في أن أقول لها الشيء ذاته. فأنا اندفعتُ إلى منطقة فيتّوريا، ناهيك بكورّادو وروزاريو، وعبَّأتُ فمي عمدًا بالعامِّيَّة ولكْنتها؛ وها إنَّنا سرعان ما استعدنا لهجتنا، الآتية في معظمها من قراءاتٍ طفوليَّةٍ لم نَعُد نذكرها. لقد تركتِني وحيدةً ـ تذمَّرت ولكنْ بلا توبيخ ـ

اعترفتْ ضاحكةً أنَّها شعرتْ مرارًا بوجودها خارج السِّياق، وأنَّني أنا خطُّها الطبيعيّ. في المحصِّلة، كان من الجميل أن نتعارف من جديد، وقد بدت أنجيلا سعيدةً. سألتُها عن تونينو، فأجابت:

ـ «أحاول ألَّا أراه بعد».

ـ «ما السَّبب؟»

ـ «لا يعجبني».

ـ «إنَّه وسيم».

ـ «إن أردتِه أهديتُه لكِ».

ـ «لا، شكرًا».

ـ «أترين؟ لا يعجبكِ أنتِ أيضًا. ولم يعجبني إلَّا لأنِّي ظننتُ أنَّه كان يُعجبكِ».

ـ «غير صحيح».

ـ «بل صحيح. منذ البداية، كلَّما أعجبكِ شيءٌ سعيتُ إلى الإعجاب به مباشرةً».

أنفقتُ بعض الكلمات في مصلحة تونينو وشقيقيْه، وامتدحته لأنَّه كان فتًى طيِّبًا وطموحًا. لكنَّ أنجيلا ردَّت أنَّه جادٌّ دومًا، ومحزنٌ دومًا بعباراته الوجيزة التي تبدو كالرَّجم في الغيب. شابٌّ وُلِدَ عجوزًا، وصفتْه، شديد التَّعلُّق بالخوارنة. وفي المرَّات النادرة التي يتلاقيان فيها، لا يكفّ تونينو عن التشكِّي، لأنَّهم حيَّدوا الدون جاكومو عن الكنيسة بسبب النقاشات التي كان يُحييها، وأرسلوه إلى كولومبيا. هذا كان موضوعَ حديثِهما الوحيد في كلِّ مرَّة؛ لا يعرف شيئًا عن السِّينما، والتلفزيون، والكتب، والمطربين. تحدَّث أحيانًا قليلةً عن البيوت، قائلًا إنَّ الكائنات البشريَّة مثل الحلزونات التي أضاعت قوقعتها،

لكنَّها لا تستطيع أن تعيش طويلًا بلا سقفٍ فوق رؤوسها. شقيقته ليست مثله، شخصيَّة جوليانا أقوى، ولاسيَّما أنَّها جميلةٌ على الرَّغم من نحافتها آنذاك.

ـ «عمرها عشرون عامًا ـ قالت ـ لكنَّها تبدو صغيرة. تهتمّ لكلّ ما يخرج من فمي، كما لو أنِّي عظيمة. وأحيانًا تبدو أنَّها تتذلّل إليَّ. وهل تعلمين ما قالته عنكِ؟ قالت إنَّكِ استثنائيَّة».

ـ «أنا؟»

ـ «أجل».

ـ «ليس صحيحًا».

ـ «بل صحيح. حدَّثتني أنَّ خطيبها أيضًا وصفكِ بذلك».

وتَّرتني عباراتُها الأخيرة، لكنِّي لم أُظهِر توتُّري. هل عليَّ أن أصدِّق؟ جوليانا تعتبرني استثنائيَّة، وروبرتو أيضًا؟ أم أنَّها مجرَّد كلمةٍ لطيفةٍ تقولها لإسعادي وتوطيد صداقتنا؟ قلت لأنجيلا إنَّني أشعر بنفسي صخرةً تخبِّئ تحتها حياةً بدائيَّة، فهيهات أن أكون استثنائيَّة! فإن خرجتِ ذاتَ مرَّةٍ مع تونينو وجوليانا، وروبرتو إن وُجِد، يسرُّني الانضمام إليهم.

أبدت تشجُّعها واتَّصلت بي السَّبت اللَّاحق. جوليانا لم تكن، ولا خطيبها بطبيعة الحال، ولكنْ كان لها موعدٌ مع تونينو؛ وصارت تضجر من الخروج معه بمفردها، فطلبت مني أن أرافقها. فوافقتُ بكلّ سرور، وتمشَّينا على كورنيش البحر في مارجيلينا لغاية القصر الملكيّ، تونينو في الوسط، وأنا من جانب، وأنجيلا من جانب.

كم مرَّةً التقيتُ ذلك الشابّ؟ مرَّةً، اثنتيْن؟ كنتُ أذكره متحيِّرًا لكنَّه لطيف، وبالفعل كان فتىً طويل القامة، نافر الأعصاب ومفتول العضلات، شعره أسود داكن، وتقاسيم وجهه نظاميَّة، وكان حياؤه يدفعه إلى ابتلاع

الكلمات والحركات. ثمَّ ما لبثتُ أن فهمتُ سبب انزعاج أنجيلا. كان تونينو يبدو وكأنَّه يحسُبُ عواقب أيِّ كلمة، فتأتيك رغبةٌ بإكمال جُمَله أو محو ما لا يلزم منها، وأن تصيح عليه: فهمتُ، تقدَّمْ. كنتُ صبورةً معه. خلافًا لأنجيلا التي سرحتْ، ونظرتْ إلى البحر والأبنية؛ استجوبتُه مطوَّلًا ووجدتُ كلَّ أقواله لافتة للاهتمام. تحدَّث أوَّلًا عن دراساته السرِّيَّة، في العمارة، وحدَّثني بأسلوبٍ يُرهق الأعصاب، تفاصيل على تفاصيل، عن كيف أجرى امتحانًا صعبًا واجتازه بتألُّق. ثمَّ قال لي إنَّ فيتّوريا، بعد أن غادر الدون جاكومو الكنيسة، أصبحت لا تُطاق أكثر ممَّا مضى، وتصعَّب الحياة على الجميع. وفي النهاية، بتحفيزٍ حذرٍ منِّي، تحدَّث كثيرًا عن روبرتو بمودَّةٍ كبيرة وتقديرٍ لا حدود له، حتى إنَّ أنجيلا قالت: كان ينبغي لكَ أنت أن ترتبط به لا شقيقتك. إلَّا أنَّني أعجبتُ بهذا الوفاء الذي لا يشوبه حسدٌ أو عداء، قال تونينو أشياء رقّ قلبي لها. روبرتو مقبلٌ على مسيرةٍ جامعيَّةٍ متألِّقة. روبرتو نشر مؤخَّرًا مقالةً في مجلةٍ دوليَّةٍ مرموقة. روبرتو طيِّب، متواضعٌ، طاقته الإيجابيَّة تشجِّع حتى المحبَطين. روبرتو يبثُّ حوله أرقى العواطف. أصغيتُ ولم أقاطعه، ووددتُ أن أتركه يراكم المديح على المديح إلى الأبد. لكنّ أنجيلا ما فتئت توحي بأمارات الانزعاج، فانتهت السهرة بعباراتٍ وجيزة.

ـ «هل سيعيش مع شقيقتك في ميلانو؟»، سألته.

ـ «أجل».

ـ «بعد أن يتزوَّجا؟»

ـ «جوليانا تودُّ اللَّحاق به فورًا».

ـ «ما الذي يمنعها؟»

ـ «فيتّوريا، تعرفينها، ألَّبَت أمَّنا عليها. والآن لا ترغب الاثنتان إلَّا بأن يتمّ الزواج أوَّلًا».

ـ «إن جاء روبرتو إلى نابولي، يسعدني التَّحدُّث معه».

ـ «بالتَّأكيد».

ـ «معه ومع جوليانا».

ـ «أعطيني رقمكِ، لأتَّصل بكِ».

عندما افترقنا، قال لي بامتنان:

ـ «كانت أمسيةً رائعة، شكرًا. أرجو أن نلتقي قريبًا».

ـ «لديْنا الكثير من الواجبات المدرسيَّة»، قاطعتْه أنجيلا.

ـ «صحيح ـ قلتُ ـ ولكنَّنا سنجد الوقت».

ـ «ألا تأتين إلى باسكوني بعد؟»

ـ «تعرف كيف هي عمَّتي، تارةً حنون، وتارةً تودُّ قتلي»!

هزَّ رأسه متأسِّفًا.

«ليست شخصًا شرِّيرًا، لكنَّها إذا استمرَّت على هذا النحو ستبقى وحيدة. حتى جوليانا لم تَعُد تتحمَّلها».

أراد أن يتحدَّث عن ذلك الصليب ـ وصف فيتّوريا بالصَّليب حقًّا ـ الذي اضطرَّ هو وشقيقاه إلى تحمُّله منذ الطفولة، لكنَّ أنجيلا صرفته بأسلوبٍ فظّ. حاول أن يقبِّلها فأعرضت عنه. كفى ـ كادت صديقتي تصرخ عندما تركناه خلف ظهرنا ـ أرأيتِ كم هو مستفزّ! يقول الأشياء نفسها دومًا، بالكلمات ذاتها دومًا؛ لا يمزح أبدًا، لا يضحك أبدًا، إنَّه رخو.

تركتُها تفضفض، بل قلت إنَّها محقَّةٌ أكثر من مرَّة. مملٌّ أسوأ من لبخة، قلت، لكنِّي أضفت: مع أنَّه نادر الوجود، فالذكور في العادة قبيحون وعدائيُّون ومقرفون، أمَّا هو فليس سوى متحفِّظٍ نوعًا ما، مسكين.أين تجدين واحدًا مثله.

ضحكنا بلا انقطاع. ضحكنا على كلماتٍ مثل رخوٍ ولبخة، ولاسيَّما ذلك التَّعبير الذي سمعناه في طفولتنا، من ماريانو ربَّما: مملٌّ لدرجة أنَّه يرفع الحليب إلى الركبتيْن[1]. ضحكنا، لأنّ تونينو لا ينظر إلى أنجيلا أو أيِّ أحدٍ آخر في العينين، كما لو أنّ لديْه شيئًا غامضًا يخفيه. ضحكنا أخيرًا لأنّها أخبرتني أنّه حتى بمجرّد أن يعانقها، ينتفخ سرواله بحيث تضطرُّ هي إلى إبعاد بطنها فورًا لكثرة اشمئزازها؛ لم يكن يمتلك روح المبادرة، ولم يدسَّ يده في حمّالة صدرها إطلاقًا.

---

(1) التَّعبير مأخوذ من صورة الرَّاعي الذي يضع الوعاء بين ركبتيْه تحت البقرة ويجعل يحلبها متكلّفًا عناءً وصبرًا يسبّبان الملل حتى يصل منسوب الحليب في الوعاء إلى أعلى، أي عند ركبتيْه. والتَّعبير شائعٌ في إيطاليا. (المترجم)

- 15 -

رنَّ الهاتف في اليوم التالي، أجبتُ. كانت جوليانا. أحسستُ أنَّها ودودةٌ وجادَّةٌ معًا، كما لو أنَّها تصوِّب إلى هدفٍ مهمٍّ لا يفسح مجالًا لنبرة مزاحٍ أو كلامٍ بمواضيعَ تافهة. قالت إنَّها علمت من تونينو عن رغبتي في الاتِّصال بها، فاستبَقَتْني بكلِّ سرور. أرادت أن تراني، حتى روبرتو يودُّ ذلك. سيأتي إلى نابولي في الأسبوع القادم من أجل حضورِ مؤتمر، وكلاهما سيكونان سعيدَيْن في ملاقاتي.

ـ «ملاقاتي أنا؟»

ـ «أجل».

ـ «لا، أن ألتقي بكِ لا مشكلة، ولكنْ هو لا، أخجل».

ـ «لماذا؟ روبرتو شخصٌ موثوق».

وافقتُ، بطبيعة الحال، فمنذ دهرٍ لا أنتظر إلَّا مناسبةً كهذه. إلَّا أنِّي أردتُ أن أسيطر على توتُّري، وربَّما أردتُ أيضًا أن أحاول الوصول إلى ذلك اللِّقاء عبْر علاقةٍ جيِّدةٍ تجمعنا، فاقترحتُ عليها نزهةً. أسعدها الأمر، وقالت: اليومَ إن استطعتِ. كانت تعمل سكرتيرةً في عيادةٍ لطبّ الأسنان في شارع فوريا، والتقينا في ساعةٍ متأخِّرة من بعد الظهر، عند موقف المترو في

ساحة كافور، المنطقة التي أُحبُّها منذ زمنٍ لأنَّها تُذكِّرني بأجداد المتحف، والأقارب اللُّطفاء من أيَّام الطفولة.

أُحبِطْتُ بمجرَّد أن رأيتُ جوليانا من بعيد. كانت طويلةَ القامة، منسجمة الحركات، تتقدَّم نحوي وهي تشعّ ثقةً واعتزازًا. وكان الوقار الذي لاحظتُه عليها قبل مدَّةٍ في الكنيسة، كما لو أنَّه انتشر على ملابسها وحذائها وخطواتها، وبدا آنذاك وقد تواءم معها. رحَّبتْ بي بفصاحةٍ وابتهاجٍ لتجعلني أشعرُ بأفضلِ حال، وتمشَّينا بلا غاية. اجتزنا المتحف، ودلفنا إلى صعدة سانتا تيريزا، وفقدتُ القدرةَ على النُّطق مشدوهةً بكيف استطاع الهُزال الشديد والمكياج الخفيف أن يمنحاها نوعًا من الجمال الزاهد الذي يشيع رزانة.

هذا ما فعله روبرتو إذن، فكَّرتُ: لقد حوَّل فتاة الضواحي إلى امرأةٍ مثل النساء في القصائد. هتفتُ حينها:

ـ «كم تغيَّرتِ، صرتِ أجمل ممَّا رأيتُكِ عليه في الكنيسة».

ـ «شكرًا».

ـ «لا بدَّ أنَّه تأثيرُ الحبّ»، ارتجلتُ. كانت جملةً قد سمعتُها غالبًا من كوستانسا، وأمِّي.

ضحكتْ، أنكرت، وقالت:

ـ «إن كنتِ بالحبّ تقصدين روبرتو، فلا. لا شأن لروبرتو».

كانت هي التي شعرت من تلقاء نفسها بضرورة أن تعدِّل من مظهرها، وبذلت في ذلك مجهودًا كبيرًا ما يزال حثيثًا. حاولتْ في البداية أن تشرح لي بمصطلحاتٍ عامَّةٍ عن حاجتنا إلى نيْل إعجاب مَن يحترمنا، ومَن يحبُّنا، ثمَّ ما لبثت تعابيرُها المجرَّدةُ تتخبَّط من سيرةٍ إلى أخرى، فانتقلت لتُخبرني

كيف أنَّ روبرتو يحبُّ كلَّ شيءٍ منها، سواء أبقيتْ على حالها مثلما كانت في طفولتها، أم تغيَّرت! لم يكن يفرض عليها شيئًا، تسريحة الشعر هكذا، والفستان هكذا.. أبدًا.

ـ «أنتِ ـ قالت ـ أشعر أنَّكِ قلقة، تظنِّين أنَّه من أولئك المنكبِّين على الكتب دومًا، ويسعون إلى الهيمنة وإصدار القوانين. ليس هكذا، أنا أذكره مذ كان فتيًّا، فلطالما كان قليل الدراسة، لا بل لم يدرس بقدر ما درس المثابرون. كنتِ ترينه في الشارع دائمًا يلعب الكرة، إنَّه كأولئك الذين يتعلَّمون من دون تركيز، ولطالما قام بعشرة أشياءٍ في الوقت نفسه. يبدو مثل الحيوان الذي لا يميِّز بين الأمور الجيِّدة وتلك السَّيِّئة، يناسبه أيُّ شيء، لأنَّه ـ وقد رأيتُه بعينيَّ ـ يحوِّل كلَّ الأشياء بمجرَّد أن يلمسها بحيث يبقيكِ فاغرة الفم».

ـ «ربَّما يفعل كذلك مع الأشخاص أيضًا».

ضحكتْ، وكانت ضحكتها عُصابيَّة.

ـ «أحسنتِ، يفعل ذلك مع الأشخاص أيضًا. فلنقل إنَّني لقربي منه، شعرتُ وما زلت أشعر بضرورة التَّغيير. وبالطبع، كانت فيتّوريا من أوائل مَن انتبهوا أنِّي أتغيَّر، فهي لا تطيق أنَّنا نستقلّ بكلِّ شيءٍ ولكلّ شيءٍ عنها؛ لذا غضبت بشدَّة، قالت إنَّني أصبح بلهاء، وإنَّني أكاد أصير مثل عصا المكنسة لأنِّي لا آكل. لكنَّ أمِّي سعيدةٌ بما أفعل، وترغب أن أتغيَّر أكثر، وأن يتغيَّر تونينو، وأن يتغيَّر كورّادو. قالت لي ذات مساء، خلسةً عن فيتّوريا: «عندما تنتقلين إلى ميلانو، خذي معكِ شقيقيْكِ أيضًا، ارحلوا عن هذا المكان، لن ينفعكم البقاء هنا أبدًا». لكنَّ فيتّوريا لا يفوتها شيءٌ يا جانّي، إنَّها تسمع ما يُقال بالهمس وحتى ما لا ينطق به اللِّسان أيضًا. وهكذا، بدلًا من أن تتحامل على والدتي، واجهتْ روبرتو مباشرةً عندما جاء آخر مرَّة، وقالت له:

«لقد ولدتَ في هذه المنطقة، ونشأتَ في حواريها، وما انتقلتَ إلى ميلانو إلَّا لاحقًا، فعليكِ أن تعود إلى هنا». ظلّ يصغي إليها، كالعادة ـ طباعه تحثُّه على الاستماع حتى لأوراق الشجر عندما تنعدم الريح ـ ثمَّ أجاب بطريقةٍ لائقةٍ حول الحسابات التي لا يجب تركها مفتوحة، لكنَّه أضاف أنَّه عليه أن يغلق بعضها في ميلانو. إنَّه هكذا: يصغي إليكِ ثمَّ يمضي في طريقه، أو في الطرق التي تثير فضوله بالأحرى، بما فيها تلك التي اقترحتِها عليه».

ـ «يعني أنَّكما ستتزوَّجان وتسكنان في ميلانو؟»

ـ «أجل».

ـ «ما يعني أنَّ روبرتو سيتشاجر مع فيتّوريا؟»

ـ «لا، أنا التي ستقطع الصِّلة بفيتّوريا، وسيفعل ذلك تونينو وكورّادو أيضًا. ولكنْ روبرتو لا، روبرتو يفعل ما يجب فعله، ولا يقطع صلته بأحد».

كانت تقدِّره، وأكثر مزاياه إثارةً لإعجابها هي تصميمه الحميد. شعرتُ أنَّها تثق به ثقةً عمياء، وتعتبره مخلِّصَها، هو الذي سينقذها من مسقط رأسها، وتعليمها المنقطع، وهشاشة أمّها، وسطوة عمَّتي. سألتها إن كانت تذهب غالبًا إلى ميلانو عند روبرتو، فعبست وقالت إنَّ المسألة معقَّدة. فيتّوريا لا تسمح. ذهبتْ إليه ثلاث أو أربع مرَّات، ولم تكن لتستطيع فعلها لولا مرافقة تونينو، لكنَّها اكتفت بتلك الزيارات القصيرة لتهوى المدينة. لدى روبرتو أصدقاءٌ كثر، وبعضُهم مهمُّون جدًّا. وهو يحبّ تقديمها إلى الجميع، ويصحبها معه دومًا، مرَّةً إلى بيت هذا، ومرَّةً إلى موعدٍ مع ذاك. كان كلُّ شيءٍ جميلًا، لكنَّها شعرت بالقلق كثيرًا. فبعد تلك التجارب، أصيبت بتسرُّع خفقان القلب. وفي كلٍّ من تلك المناسبات، تتساءل لماذا اختارها روبرتو دونًا عن الأخريات، مع أنَّها غبيَّةٌ وعديمة الذوق في الملابس، في

حين أنَّ ميلانو تغصّ بالآنسات المتميّزات، ونابولي أيضًا.أنتِ مثلًا فتاةٌ بأعلى مستوى حقًّا. ناهيكِ عن أنجيلا، الجميلة والأنيقة، والتي تعبِّر ببلاغةٍ رفيعة. أمَّا أنا فمَن أنا؟ ماذا أكون، وما شأني به؟

طاب لي أنَّها تعترف بتفوُّقي. ومع ذلك، قلت لها إنَّها ترّهات. فأنجيلا وأنا نتكلَّم على شاكلة آبائنا الذين ربُّونا، وأمَّا الملابس فتَنتقيها أمَّهاتنا، أو ننتقيها وفقًا لما يناسب أذواقهنّ، لكنَّه يبدو أنَّه ذوقنا. أمَّا الأمر الواقع فعلًا فهو أنَّ روبرتو رغب بها، بها فقط، لأنَّه مغرمٌ بما هي عليه؛ لذا لن يستبدلها بنساءٍ أخرياتٍ أبدًا. أنتِ في قمَّة الجمال والعنفوان ـ هتفتُ ـ وباقي ما تبقَّى ستكتسبينه بالتَّعلُّم، وها أنتِ تكتسبينه. سأساعدكِ إن أردتِ، وأنجيلا أيضًا، سنساعدكِ نحن.

عدنا إلى الخلف، رافقتُها إلى مترو ساحة كافور.

«لا ينبغي لكِ أن تخجلي من روبرتو»، ردَّدتْ. «أوصيكِ، فهو بسيط جدًّا، سترين».

تعانقنا، وكنت سعيدةً بهذه الصداقة التي كانت تنمو. لكنِّي اكتشفتُ أنَّني كنت أنحاز إلى جانب فيتّوريا. كنت أريد أن يترك روبرتو ميلانو، وأن يستقرّ في نابولي. كنت أريد أن تنتصر عمَّتي وتفرض على المخطوبيْن أن يعيشا، ما أدراني، في حيّ باسكوني، بحيث يسعني تمتين حياتي بحياتهما لألتقي بهما متى أردتُ، كلَّ يومٍ أيضًا.

ـ 16 ـ

ارتكبتُ خطأً: أخبرتُ أنجيلا أنَّني التقيتُ بجوليانا، وأني سألتقي بروبرتو في وقتٍ قريب. لم يُعجبها الخبر. هي التي حدَّثتني بالسُّوء عن تونينو وبالخير عن جوليانا، غيَّرتْ رأيها بشكلٍ مفاجئ: قالت إنَّ تونينو كان شابًّا طيِّبًا، وإنَّ شقيقته خبيثةٌ وتعذِّبه. ولم أستغرق طويلًا من الوقت لأفهم أنَّها أحسَّت بالغيرة: لم تحتمل أنَّ جوليانا توجَّهت إليَّ من دون اللُّجوء إلى وساطتها.

«من الأفضل ألَّا نراها بعد»، قالت لي ذات مساءٍ خرجنا فيه نتنزَّه. «إنَّها كبيرةٌ وتعاملنا على أنَّنا صغيرات».

«غير صحيح».

«بل صحيحٌ جدًّا. في البدء، تظاهرتْ معي أنَّني أنا المعلِّمة وهي التلميذة. ودبقتني، وكانت تقول: جميلٌ أن تتزوَّجي تونينو لنصبح أقارب. لكنَّها شخصٌ زائف. تتحايل، تتصنَّع الصداقة، ثمَّ لا تفكِّر إلَّا في شؤونها. وها هي الآن ترابط معكِ، لم أعد أكفيها. لقد استهلكتني ورمتني بعيدًا».

«لا تبالغي. إنَّها فتاةٌ طيِّبة، تستطيع أن تكون صديقةً لكِ ولي أيضًا».

جاهدتُ لتهدئتها، ولم أنجح كلِّيًا. ولكثرة النقاشات، أدركتُ أنَّها ترغب في كثيرٍ من الأشياء دفعةً واحدة، وهذا ما يضعها في حالٍ من التعاسة

المستمرَّة. كانت تريد إنهاء علاقتها بتونينو، ولكنْ من دون أن يؤثِّر ذلك على علاقتها بجوليانا، التي كانت تَودُّها؛ وكانت تريد ألَّا تتعلَّق جوليانا بي باستبعادها؛ وكانت تريد ألَّا يضايق روبرتو، ولا حتَّى طيفُه، انسجامَ علاقتنا الثلاثيَّة المفترضة؛ وكانت تريدني أن أُبقيها بأفكاري هي لا جوليانا، على قمَّة تلك العلاقة المفترضة. وحينذاك، عندما يئست من موافقتي، اغتابت جوليانا قدْحًا وشتمًا، وبدأت تتحدَّث عنها على أنَّها ضحيَّة خطيبها.

ـ «كلُّ شيءٍ تفعله جوليانا، تفعله لأجله»، قالت.

ـ «أليس هذا رائعًا؟»

ـ «برأيكِ، هل من الرائع أن تكون عبدة؟»

ـ «برأيي أنَّ الحبَّ رائع».

ـ «حتى لو كان لا يحبُّها؟»

ـ «وما أدراكِ أنتِ أنَّه لا يحبُّها؟»

ـ «هي تقول ذلك، تقول إنَّه من غير المعقول أن يحبَّها».

ـ «كلّ العشّاق يخشون ألَّا يكونوا محبوبين».

ـ «إن كان أحدُهم يبقيكِ في اكتئابٍ دائمٍ مثل الذي تعيشه جوليانا، فأين المتعةُ في الحبّ؟»

ـ «وما أدراكِ أنَّها تعيش في اكتئاب؟»

ـ «لقد رأيتُهما معًا، ذات مرَّة، صحبةَ تونينو».

ـ «وبعد؟»

ـ «جوليانا لا تطيق فكرةَ أنَّها لم تَعُدْ تُعجبه».

ـ «ربَّما الأمر ذاته ينطبق عليه».

ـ «هو يقيم في ميلانو، فتصوَّري كم امرأةً لديْه».

أزعجتني تلك العبارةُ الأخيرةُ كثيرًا. لم أشأ حتى أن أتصوَّر فرضيَّة أن يكون لروبرتو نساءٌ أخريات. كنتُ أفضِّل صورته مخلصًا لجوليانا ووفيًّا حتى الموت. سألتُها:

ـ «هل تخشى جوليانا أن يخونها؟»

ـ «لم تقل لي ذلك يومًا، ولكن بالنِّسبة إليَّ نعم، تخشى».

ـ «أمَّا بالنِّسبة إليَّ، حين رأيته تلك المرَّة، لم يبدُ لي الرجلَ الذي يخون».

ـ «هل كان والدكِ يبدو لك رجلًا يخون؟ لكنَّه كذلك: كان يخون أمَّكِ مع أمّي».

أجبتُ بقسوة:

ـ «أبي وأمُّكِ زائفان».

ارتبكت ملامحُها.

ـ «ألا يروقكِ هذا النقاش؟»

ـ «لا. مقارناتٌ بلا معنى».

ـ «ربَّما. لكنِّي أريد أن أضع روبرتو هذا قيد الاختبار».

ـ «كيف؟»

لمعت عيناها، وواربت فمها، وقوَّست ظهرها لتبرز صدرها. هكذا، قالت. كانت تريد أن تتوجَّه إليه بهذا الشَّكل وبتلك الوضعيَّة المُثيرة. لا بل سترتدي كنزةً مكشوفةَ الصدر كثيرًا وتنُّورةً قصيرة، وسترتطم بكتفه، وستسند صدرها إلى ذراعه، وستضع يدها على فخذه، وستنطوي تحت ذراعه بالغلط. آهٍ.. ما أحقرَ الرِّجال، قالت بما يبيِّنُ اشمئزازها، يكفي أن تفعلي لهم هذه الأشياء ليصبحوا مجانين أيًّا كانت أعمارهم، سواءٌ أكنتِ جلدًا على عظم أم مُفلطحةً أم مقمّلةً أم كثيرة البثور.

أغضبني كشفُها هذا. كانت قد بدأتْ بنبراتٍ تخصّ طفولتَنا، وآنذاك باتت تتحدَّث فجأةً بوقاحةِ امرأةٍ ناضجة. قلت وأنا أسيطر على نبرتي المتوعِّدة بمشقَّة:

ـ «إيَّاكِ أن تغامري بفعل هذه الأشياء مع روبرتو».

ـ «لماذا؟» اندهشت. «سأفعلها من أجل جوليانا. فإن كان شابًّا طيِّبًا، فهذا خير، ولكنْ إن كان خلافًا لذلك فعلينا أن نُنقذها».

ـ «أنا، لو كنتُ في محلِّها، لا أودُّ أن ينقذني أحد».

نظرت إليَّ كمَن لم يفهم الكلام، وقالت:

ـ «كنتُ أمزح. هلَّا وعدتِني بشيء؟»

ـ «ما هو؟»

ـ «إن اتَّصلت بكِ جوليانا أخبريني فورًا، أريد أن أكون حاضرةً أنا أيضًا في اللِّقاء بروبرتو».

ـ «أجل. ولكنْ، إذا قالت إنَّنا بذلك نُحرج خطيبها، فلن يكون بوسعي فعلُ شيء».

صمتتْ، طأطأتْ رأسها، وبعد أن رفعته خلال جزءٍ من الثانية، كان في عينيْها طلبٌ أليمٌ بالتوضيح.

ـ «لقد انكسر كلُّ شيءٍ بيننا، ما عدتِ تَودِّينني».

ـ «على العكس، أَودُّكِ كثيرًا، وسأظلّ أَودُّكِ إلى أن أموت».

ـ «أعطيني قبلةً إذن».

قبَّلتُها على خدّها. بحثت عن فمي فأبعدتُه عنها.

ـ «لم نعد أطفالًا»، قلت.

فانصرفت حزينةً باتِّجاه مارجيلينا.

- 17 -

اتَّصلتْ جوليانا ذات مساءٍ لتحدِّد موعدًا في يوم الأحد القادم في ساحة أميديو، وسيكون روبرتو هناك أيضًا. شعرتُ أنَّ اللَّحظةَ الموعودةَ، والمشتهاة، حانت حقًّا، فتملَّكني الخوف من جديد، وبشكلٍ أعنف من ذي قبل. تلعثمتُ، تحدَّثنا عن وظائفَ كثيرةٍ كلَّفتني بها المدرسة، فقالت ضاحكةً: جانّي، اهدأي، لن يأكلكِ روبرتو. أريده أن يرى أن لديَّ صديقاتٍ يدرسن أنا أيضًا، ويتحدَّثن بطريقةٍ جيِّدة. أسدي إليَّ هذا المعروف.

تراجعتُ، واحترتُ، فأشرتُ إلى أنجيلا لعلِّي أجد ما يعرقل حدوث اللِّقاء. كنت قد قرَّرتُ، من دون أن أقول ذلك لنفسي، إنَّه في حال كان لدى جوليانا نيَّةٌ حقيقيَّةٌ في أن ألتقي خطيبها، فإنَّني لن أقول شيئًا لأنجيلا. كنت أريد الحدَّ من التوتُّرات والقصص المملَّة. لكنَّ الأفكار تُحرِّر قوَّةً كامنةً أحيانًا، وتُشهِر صورًا ضدّ إرادتك، وتدفعها إلى عينيْك بجزءٍ من الثانية. فكَّرتُ أنَّ جوليانا لن تحبِّذ مجيء أنجيلا بالتَّأكيد، الأمر الذي قد يدفعها لتقول: حسنًا، سنؤجِّل اللِّقاء إلى مناسبةٍ أخرى. لكنَّ ما حدث في رأسي كان أكثر من ذلك: تخيَّلتُ صديقتي ترفرف جفنيْها، وتكوِّر شفتيْها، وتتعرَّى وتقوِّس ظهرها؛ وفجأةً بدا لي أنَّ وجود أنجيلا بجانب روبرتو، لتفعل ما تريد بغية تفكيك ذلك الثنائيّ، قد يشابه هزَّةً بحريَّةً مجلجلة. قلت:

ـ «هناك مشكلة: أخبرتُ أنجيلا أنّنا التقينا، وأنّه من الوارد أن نلتقي بروبرتو».

ـ «يعني؟»

ـ «تريد المجيء هي أيضًا».

صمتت جوليانا للحظةٍ طويلة، ثمَّ قالت:

«جانّي، أنا أودّ أنجيلا، لكنَّها ليست شخصًا سهلًا، وتسعى دائمًا إلى إقحام نفسها».

ـ «أعرف».

ـ «ماذا إن أخفيتِ عنها أمر هذا الموعد؟»

ـ «مستحيل. فبطريقةٍ أو بأخرى سيرِدُها أنَّني التقيتُ بخطيبكِ وستخاصمني. من الأفضل أن ننسى الأمر».

لحظاتُ صمتٍ أخرى، ثمَّ وافقت:

ـ «حسنًا، دعيها تأتي هي أيضًا».

بدأ قلبي يخفق اعتبارًا من تلك اللَّحظة. وراح القلقُ يصوِّر لي أنَّني أبدو في عينيْ روبرتو جاهلةً وشحيحة الذَّكاء، الأمر الذي انتزع النوم منِّي، وكاد يقتادني إلى الاتصال بوالدي لأطرح عليه تساؤلات حول الحياة والموت والله والمسيحيَّة والشيوعيَّة، بحيث يسعني استخدام إجاباتِهِ المُفعمة بالفكر في محادثة مُحتملة. لكنِّي صمدتُ، لم أشأ أن ألطِّخ صورة خطيب جوليانا، الذي كنت أعتبره شبه رؤيا سماويَّة، بضحالة والدي الدُّنيويَّة. ثمَّ اجتاحني وسواس التَّفكير بمظهري. ماذا سأرتدي؟ هل كنت أستطيع أن أتحسَّن ولو قليلًا؟

خلافًا لأنجيلا، التي كانت منذ صغرها تعوِّل جدًّا على هندامها، كنتُ قد أقصيتُ هاجس التجميل جانبًا منذ بداية تلك الأزمة الطويلة. أنتِ قبيحة ـ خلصتُ ـ والقبيح يبدو مضحكًا إذا حاول أن يكون جميلًا.

وهكذا، اقتصرتْ وساوسي على موضوع النظافة. كنت أتحمَّم باستمرار. أمَّا الملبس، فكنت ألتحف السَّواد لأتوارى فيه، أو على العكس أبالغ بالمكياج، فأضع عليّ ألوانًا فاقعةً لأبدو خرقاءَ عمدًا. لكنّي، في تلك المناسبة، حاولتُ وكرَّرتُ المحاولة لأرى ما إذا كنتُ قادرةً على إيجاد حلٍّ وسطٍ يجعلني مقبولة. وبما أنّي لم أصل إلى نتيجة، اكتفيتُ في النهاية بالحِرْص على اختيار ألوانٍ لا تكون صارخة. وبعد أن قلت لأمّي بالصياح إنّي خارجةٌ مع أنجيلا، أغلقتُ الباب وهبطتُ على القدميْن إلى سان جاكومو دي كابري.

لن أشعر بأنّي على ما يرام بسبب التوتُّر، كنت أقول لنفسي بينما كان الترام الجبليّ يهبط ببطئه وضجيجه المعتاديْن نحو ساحة أميديو. سأتعثَّر، سيرتطم رأسي وأموت؛ أو سأستشيط غضبًا فأفقأ أعين المارَّة. كنت متأخِّرةً، أتسيَّلُ عرقًا، ولا أهتمّ سوى بتسريح شعري بأصابعي خشية أن يدبق على قحف رأسي مثلما كان يحدث لفيتّوريا أحيانًا. وعندما وصلتُ إلى الساحة، سرعان ما رأيتُ أنجيلا تومئ إليّ. كانت جالسةً إلى إحدى طاولات مقهى على الرَّصيف، ترتشف شيئًا ما. بلغتُها، وجلستُ أيضًا. الشمس كانت دافئة. ها هما المخطوبان، قالت لي بصوتٍ خفيض؛ وفهمتُ أنَّ الثنائيّ جاء من خلفي. لم أجرؤ على الالتفات، حتى إنّي بدلًا من القيام، كما فعلت أنجيلا، بقيتُ جالسة. أحسستُ بيد جوليانا تحطّ بخفَّةٍ على كتفي ـ مرحبا يا جانّي. نظرتُ بطَرف العين إلى أصابعها المقلَّمة، وكُمّ سترتها الرماديَّة، وسوارٍ بالكاد ينتأ من معصمها. وكانت أنجيلا تستهلّ عبارات المجاملة المبدئيَّة. عليّ أن أقول شيئًا ما أنا أيضًا، وأن أردّ التحيَّة. لكنَّ السّوار المُغطّى نصفُه بكُمّ السُّترة كان نفسه الذي أرجعتُه إلى عمَّتي، فانعقد لساني فجأةً حتّى ما عدتُ قادرةً على نطق كلمة «أهلًا». فيتّوريا، فيتّوريا، حار فكري، كانت بالفعل مثلما يصفها والداي. أخذت السّوار منّي، وأنا ابنة شقيقها، ورغم أنَّها بدت لا تستطيع الاستغناء عنه، أعطته إلى ابنتها بالمعموديَّة. كم كانت الجوهرةُ تلمع في معصم جوليانا، كم اكتسبتْ قيمةً!

- 18 -

أثبت لي ذلك اللِّقاء الثاني بروبرتو أنَّني أكاد لا أذكر شيئًا منه في اللِّقاء الأوَّل. نهضتُ أخيرًا، كان هو خلف جوليانا ببضع خطوات. بدا لي طويل القامة كثيرًا، يزيد عن متر وتسعين سنتمترًا، لكنَّه حين جلس جمَّعَ نفسَه كما لو أنَّه كوَّمَ أعضاءه كلَّها وضغطها على الكرسيّ لكيلا يشغل حيِّزًا كبيرًا. كان في ذهني رجلًا متوسِّط القامة، إلَّا أنَّه ظهر قويًّا وصغيرًا في آنٍ واحد، شخصًا يستطيع أن يتمدَّد أو ينكمش بحسب ما تقتضيه إرادته. من جهة الوسامة، كان وسيمًا، أكثر ممَّا كنت أذكُره كثيرًا: شعره حالك السَّواد، جبينه عريض، عيناه لامعتان، عظام وجنتيْه بارزة، أنفه مُتقن التَّصميم، وفمه، أوَّاهُ من فمه! بأسنانه المنتظمة وناصعة البياض، بدا كأنَّه بقعةُ ضوءٍ على بشرته السَّمراء. لكنَّ تصرُّفاته شتَّتتني. فخلال جزءٍ كبيرٍ من الوقت الذي قضيناه حول تلك الطاولة، لم يُظهِرْ أيًّا من مواهبه الدالَّة على خطابته التي أدَّاها في الكنيسة، والتي أصابتني في الصميم. التجأ إلى عباراتٍ قصيرة، ولغةِ جسدٍ ضئيلة البيان. سوى أنَّ عينيْه كانتا تستحضران نظراته أثناء الخطبة على المذبح، حريصًا على أيّ تفصيل، وكانتا تتميَّزان بتهكُّمٍ ضبابيّ. أمَّا ما تبقَّى فذكَّرني بأولئك الأساتذة الخجولين الذين يبثُّون طيبةً وتفهُّمًا، لا يشعرونك بالقلق ولا يكتفون بطرح أسئلتهم اللَّطيفة، الواضحة والدَّقيقة، إنَّما يصغون إلى إجاباتك من دون أن يقاطعوك أبدًا،

ومن دون أن يعلِّقوا عليها، ويقولون لك في النهاية مبتسمين: «بإمكانك الذهاب».

خلافًا لروبرتو، كانت جوليانا ثرثارةً بشكلٍ عصابيّ. قدَّمتنا إلى خطيبها وقد نسبت إلى كلٍّ منَّا كثيرًا من المزايا الجميلة، وبينما كانت تتكلَّم، بدت لي منيرةً مع أنَّها تجلس في منطقة الظلّ. فرضتُ على نفسي أن أتجاهل السّوار، على الرَّغم من أنّي لم أستطع تجنُّبَ النظر إليه بين الفينة والفينة وهو يسطع حول معصمها الرَّقيق، وكنتُ أفكِّر: لعلّ السّوار هو المصدر السحريّ لنورها. أمَّا كلماتها فلا. كانت خافتة. لماذا تتكلَّم كثيرًا؟ تساءلتُ. ما الذي يؤرِّقها؟ ليس جمالَها بالتَّأكيد. أمَّا أنجيلا فخالفت كلَّ توقُّعاتي، إذ كانت جميلة، نعم. لكنَّها لم تبالغ في هندامها: التنُّورة قصيرة، ولكنْ ليس أكثر ممَّا ينبغي؛ الكنزة أنيقةٌ لكنَّها ليست مكشوفة. وعلى الرَّغم من توزيعها ابتساماتٍ وظهورها جريئةً، لم تفعل شيئًا ممَّا قد نسمّيه إغراءً. أمَّا أنا، فكنت مثل كيس البطاطس ـ كنتُ أشعر، وأريد أن أكون كيس بطاطس ـ رماديَّةً، مضغوطةً، ونهدا صدري مدفونان تحت سترة، وكنت أتدبَّرُ أمري جيِّدًا. ما يعني أنَّه ليس مظهرنا الجسديّ ما يؤرِّقها؛ لا وجود لمنافسة بينها وبيننا. فأقنعتُ نفسي أنَّ احتماليَّة ظهورنا دون المستوى هو ما يقلقها. إذ كانت نيَّتها المُعلنة هي أن تقدِّمنا لخطيبها على أنَّنا من العائلات الرَّفيعة. كانت ترغب أن نعجبه، لأنَّنا مُنحدرتان من منطقة فوميرو، تلميذتان في المدرسة، بنتان طيِّبتان. لقد استدعتنا إلى هناك في المحصّلة لنشهد على أنَّها تعمل لمحو آثار حيّ باسكوني عنها، وأنَّها تحضِّر نفسها لعيش حياةٍ كريمةٍ في ميلانو إلى جانبه. وأعتقدُ أنَّ هذا الأمر ـ وليس السّوار ـ ما هيَّج أعصابي. لم يطب لي أن أكون معروضةً، ولم أشأ أن أشعر بنفسي حينها مثلما كنت أشعر عندما كان والداي يعرضاني على أصدقائهم لإبراز كم كنت شاطرةً في فعل هذا، وفي قول ذاك؛ وكلَّما أحسستُ أنّي مُجبرةٌ على استعراض أفضل ما عندي

تجهَّمتُ. بقيتُ صامتةً، خاوية الرأس، نظرتُ إلى ساعتي مرَّتيْن بمباهاة. وكانت النَّتيجة أنَّ روبرتو، بعد أن بادلني بعض المجاملات، ركَّز كليًّا على أنجيلا بنبرة الأستاذ الكلاسيكيَّة. سألها كيف حالها في المدرسة، وفي أيِّ مستوًى هي، وكيف دروسها، وما الذي تفعله في الأوقات الفارغة.. فما كان منها إلَّا أن تحدَّثت وتحدَّثت، وتحدَّثت بصوتها الرَّقيق الدَّالّ على تلميذةٍ جريئة، وابتسمت، وضحكت وهي تتفوَّه بأشياءَ هزليَّةٍ عن رفاقها وأساتذتها.

ولم تكتفِ جوليانا بالإصغاء إليها والابتسامةُ على شفتيْها، بل تدخَّلت في الحوار غالبًا. وكانت قد قرَّبت كرسيَّها من كرسيِّ خطيبها، وأسندت رأسها على كتفه أحيانًا وهي تضحك بقوَّة، كلَّما ضحك بهدوءٍ على طرافة أنجيلا. بدت لي أكثر صفاءً. أنجيلا تبلي بلاءً حسنًا، وروبرتو لم ينل منه المللُ. قال حينذاك:

«وأين تجدين الوقت للقراءة؟»

«لا أجده»، أجابت أنجيلا «في صغري كنت أقرأ. أمَّا الآن، فلم أعد أستطيع، فالمدرسة تأكلني حيَّة. شقيقتي هي التي تقرأ كثيرًا كثيرًا. وهي أيضًا، قارئةٌ حقيقيَّةٌ أيضًا».

أشارت إليَّ بحركةٍ وديعةٍ ونظرةٍ مليئة بالودّ.

ـ «جانّينا»، قال روبرتو.

فصحَّحتُ له بوجهٍ متجهِّم:

ـ «جوفانّا».

ـ «جوفانّا ـ قال روبرتو ـ أذكركِ جيِّدًا».

تلعثمتُ:

ـ «هذه سهلة، فأنا نسخةٌ عن عمَّتي فيتّوريا».

ـ «لا، ليس لهذا».

ـ «لماذا إذن؟»

ـ «لست أدري الآن، ولكنْ ما إن يخطر في بالي أقوله لكِ».

ـ «لا داعي».

بل كان هناك داعٍ. وكيف لا؟ لم أشأ أن يذكرني لأنَّني مقصِّرة، وقبيحة، وعابسة، ومحبوسةٌ في صمتٍ متبجّح. ركَّزتُ عينيَّ على عينيْه، وبما أنَّه كان ينظر إليَّ باستلطاف، وهذا ما طمأنني ـ لم يكن استلطافًا بليدًا، إنَّما طريفٌ بشكلٍ رقيق ـ أرغمتُ نفسي على عدم الإشاحة عنه.كنت أودُّ أن أرى إن كان الاستلطاف يترك مكانه للاستياء. فعلتُها بإصرار، لم أكن أعرف منذ لحظةٍ فائتةٍ أنّي قادرةٌ على إبدائه، إذ بدت لي غمضةٌ واحدةٌ بمثابة تنازلٍ كبير.

تابع بنبرة الأستاذ الطيّب. سألني لماذا تعطيني المدرسةُ وقتًا للقراءة، بينما لا تحظى أنجيلا بذلك: هل لأنَّ أساتذتي يفرضون واجباتٍ أقلّ؟ فأجبتُ واجمةً أنَّ أساتذتي كانوا بهائم مدرَّبين، يؤدُّون دروسهم بطريقةٍ ميكانيكيَّة، ويفرضون بطريقةٍ ميكانيكيَّةٍ أيضًا كمِّيَّةً كبيرة من الواجبات، بحيث لو أنَّنا نحن التلاميذ فرضناها عليهم لما استطاعوا إتمامها أبدًا. لكنِّي لا أعبأ بالواجبات، وأقرأ عندما يحلو لي، وإن أمتعني الكتاب قرأتُه ليلًا ونهارًا، فلا أهتمّ لشؤون المدرسة بشيء. ماذا تقرأين، سألني. وبما أنِّي أجبتُ بشكلٍ غامض ـ في بيتي لا وجود إلَّا للكتب، في الماضي كان والدي ينصحني بقراءاتٍ معيَّنة، أمَّا عندما هجرنا، بتُّ أختار بمفردي، وفي كلِّ مرَّةٍ أستلّ كتابًا، أبحاث، روايات، ما يطيب لي ـ أَصَرَّ لأقول له عنوانًا ما، آخر كتابٍ قرأته. فأجبته هكذا: الإنجيل، وكذبتُ لإبهاره، هي قراءة أجريتها منذ عدَّة أشهر، والآن أقرأ شيئًا آخر. إلَّا أنِّي رجوتُ كثيرًا أن تحين

تلك اللَّحظة، وكنتُ قد دوَّنتُ انطباعاتي كلّها في دفترٍ عمدًا، لأعرضها عليه في حال حدوث ذلك. وآنذاك، كان ذلك يحدث، فوجدتُني بغتةً وبلا أيِّ تمهُّلٍ أتحدَّث وأتحدَّث، وما زلتُ أحدِّق مباشرةً إلى وجهه بهدوءٍ مصطنع. غير أنِّي في الواقع كنت هائجةً من الداخل، هائجةً بلا أيِّ سبب، والأسوأ أنَّه كما لو كان سببُ غضبي عائدًا بالضبط إلى نصوص مرقس ومتَّى ولوقا ويوحنّا! فمحا الغضبُ كلَّ ما يحيط بي، السَّاحة، بائع الصحف، نفق المترو، الخضرة النضرة في المنتزه، أنجيلا وجوليانا، كلَّ شيءٍ ما عدا روبرتو. وعندما صمتُّ، أخفضتُ نظري أخيرًا. أصابني ألمٌ في الرأس، حاولتُ أن أسيطر على أنفاسي لكيلا ينتبه أنِّي كنتُ ألهث.

ساد صمتٌ طويل. وحينذاك، فطنتُ أنَّ أنجيلا تنظر إليَّ بعينيْن فخورتيْن ـ فأنا صديقتها منذ الطفولة، وهي فخورةٌ بي، كانت تقول ذلك بلا كلمات ـ الأمر الذي أمدَّني بالقوَّة. أمَّا جوليانا، فكانت قريبةً من خطيبها ترمقني بارتباك، كما لو أنَّ شيئًا فيَّ كان يتفكَّك، وأرادت أن تنبِّهني إليه بنظراتها. سألني روبرتو:

ـ «هذا يعني أنَّ حكاية الأناجيل حكايةٌ سيِّئةٌ برأيكِ؟»

ـ «أجل».

ـ «لماذا؟»

ـ «لأنَّها معطوبة. يسوع هو ابن الربّ، لكنَّه يقوم بمعجزاتٍ بلا فائدة، يغدرون به فينتهي به المطاف معلَّقًا على خشبة. أكثر من ذلك: يطلب من والده أن يوفِّر عليه عناء الصليب، لكنَّ والده لا يحرِّك إصبعًا ولا يوفِّر عليه أيَّ عذاب. فلماذا لم يأتِ الربّ شخصيًّا لتلقِّي كلّ تلك الآلام؟ لماذا فرَّغ العملَ الشرِّير، الذي خلقه بنفسه، على ابنه؟ ماذا يعني الامتثال لإرادة الأب: أن نشرب كأس العذاب حتَّى آخر قطرة؟»

هزَّ روبرتو رأسه بخفَّة، وتلاشت ملامح التهكُّم.

قال، وهنا سألخِّص لأنِّي أذكر القليل ممَّا قاله، أو لا أذكره جيِّدًا، لأنِّي كنت متوتِّرة:

ـ «الربّ ليس سهلًا».

ـ «يُحسِن فعلًا إن أصبح كذلك، إن أراد أن أفهم منه شيئًا ما».

ـ «الربّ السهل ليس ربًّا. إنّه مختلفٌ عنّا. لا يمكننا التواصل مع الربّ، إنَّه أبعد من مستوانا بحيث لا يسعنا مساءلته، إنَّما مناجاته ليس إلَّا. فإذا تجلَّى، تجلَّى بصمت، عبْر إشاراتٍ صغيرةٍ وثمينةٍ وصامتة، تأتي عن طريق أسماء اعتياديَّةٍ بالمطلق. الامتثال لإرادته يكمن في طأطأة الرأس له، وإلزام النَّفس بالإيمان به».

ـ «لديَّ كثيرٌ من الالتزامات أصلًا».

تبدَّى التهكُّم في عينيْه مجدَّدًا. شعرتُ بالفرح لأنَّ فظاظتي تثير اهتمامه.

ـ «الالتزام نحو الربّ يستحقّ العناء. هل تحبِّين الشعر؟»

ـ «أجل».

ـ «هل تقرئينه؟»

ـ «أحيانًا».

ـ «الشعر مكوَّنٌ من كلمات، تمامًا مثل هذه الدردشة التي نقوم بها الآن. إن أخذ الشاعرُ كلماتِنا التافهة وحرَّرها من الدردشة، تجلَّت من داخل تفاهتها طاقةٌ غير متوقَّعة. الربّ يتجلَّى بالطريقة ذاتها».

ـ «الشاعر ليس إلهًا، إنَّما واحدٌ مثلنا بكلّ بساطة، ولا يزيد عنَّا إلَّا بكونه يُتقن نظم القصائد».

ـ «إلَّا أنَّ فعله هذا يفتح عينيْكِ، يدهشكِ».

ـ «إذا كان الشاعر بارعًا، أجل».

ـ «ويفاجئكِ، ويصدمكِ».

ـ «بعض الأحيان».

ـ «الربّ هو هذا: صدمةٌ في غرفةٍ مظلمةٍ، لم أعد أجد فيها الأرض والجدران والسقف. لا مجال للتَّمعُّن، لا مجال للنقاش. إنَّها مسألة إيمان. إن آمنتِ كان بها، وإلَّا فلا».

ـ «ولماذا عليَّ أن أؤمن بصدمة؟»

ـ «بسبب الرُّوح الإيمانيَّة».

ـ «لا أعرف ما هي».

ـ «تصوَّري تحقيقًا كتلك التحقيقات التي تُجرى في الروايات البوليسيَّة، سوى أنَّ السرَّ يبقى غامضًا. والرُّوح الإيمانيَّة كذلك: اندفاعٌ نحو الأمام، نحو الأمام أكثر فأكثر، لكشف ما سيبقى خفيًّا».

ـ «لا أفهمك».

ـ «الغموض لا يُفهَم».

ـ «الغموض الذي لا يُكشَف يخيفني. لقد وجدتُ نفسي في النساء الثلاث اللَّواتي يذهبن إلى اللَّحد، فلا يجدن جسد يسوع، فيهربن».

ـ «لعلَّكِ تهربين من الحياة إذا كانت بليدة».

ـ «بل أهرب من الحياة عندما تكون معاناة».

ـ «هل تقولين إنَّكِ لستِ راضية عن الأشياء ومجرياتها؟»

ـ «بل أقول إنَّه لا ينبغي تعليقُ أحدٍ على صليب، خصوصًا إذا كانت هذه إرادة والده. لكنَّ الأمر ليس كذلك».

ـ «إن كانت الأشياء لا تُعجبكِ، يجدر بكِ تغييرها».

ـ «هل أغيِّر الخلق أيضًا؟»

ـ «بالتَّأكيد، من أجل هذا خُلِقنا».

ـ «والربّ؟»

ـ «والربّ أيضًا، إذا اقتضى الأمر».

ـ «انتبه، فأنت تكفر».

تملَّكني انطباعٌ للحظةٍ أنَّ روبرتو تنبَّه إلى بذلي جهودًا كبيرةً لأعانده، حتَّى لمعت عيناه متأثِّرًا. فقال:

ـ «إذا كان الكفر يسمح لي بمجرَّد خطوةٍ صغيرةٍ إلى الأمام، فسأكفر».

ـ «حقًّا؟»

ـ «أجل. فأنا أحبّ الربّ، ولأفعلنَّ كلّ الأشياء، بما فيها تلك التي يستاء منها، من أجل التقرُّب إليه. لذا أنصحكِ بألَّا تتعجَّلي برمي كلّ شيءٍ في الهواء: تمهَّلي قليلًا، فحكاية الأناجيل تقول أشياءً أكثر ممَّا وجدتِ فيها حتى الآن».

ـ «ثمَّة كتبٌ أخرى كثيرة. وما كنت لأقرأ الأناجيل إلَّا لأنَّك تحدَّثتَ عنها تلك المرَّة في الكنيسة، فأثرتَ فضولي».

ـ «أعيدي قراءتها. إنَّها تتحدَّث عن الآلام والصليب، أيْ عن المعاناة، التي تشتِّت ذهنكِ أكثر من أيّ شيءٍ آخر».

ـ «يشتِّتني الصَّمت».

ـ «حتى أنتِ بقيتِ صامتةً طوال نصف ساعة. وها أنتِ الآن، انظري، لقد تحدَّثتِ».

هتفت أنجيلا مبتهجة:

ـ «ربَّما هي الربّ».

لم يضحك روبرتو، واستطعتُ من جانبي لجم ضحكةٍ عصابيَّة. قال:

ـ «الآن عرفتُ لماذا تذكَّرتُكِ».

ـ «ما الذي فعلتُه؟»

ـ «أنتِ تضعين قوَّةً كبيرةً في الكلمات».

ـ «أنتَ تضع فيها قوَّةً أكبر بكثير».

ـ «لا أفعل ذلك عمدًا».

ـ «أنا، بلى. إنَّني مُتعجرفة، لستُ طيِّبة القلب، وغالبًا ما أكون ظالمة».

بادر هو إلى الضحك هذه المرَّة، وامتنعنا عن ذلك نحن الثلاث. ذكَّرتْه جوليانا بصوتٍ منخفضٍ أنَّ لديْها موعدًا، ولا يمكنهما أن يتأخَّرا. قالتها بنبرةٍ متأسِّفةٍ كمن يُحزنه أن يغادر صحبةً رائقة؛ ثمَّ نهضتْ، وعانقتْ أنجيلا، وأدلت إليَّ بإيماءةٍ لطيفة. حتى روبرتو ودَّعنا، واقشعرّ بدني عندما انحنى عليَّ وقبَّل وجنتيَّ. وما إن ابتعد الخطيبان نحو شارع كريسبي، شدَّتني أنجيلا من ذراعي.

ـ «لقد أصبتِه»، هتفت متحمِّسةً.

ـ «قال لي إنِّي أقرأ بطريقةٍ خاطئة».

ـ «غير صحيح. لقد أصغى إليكِ، وليس هذا فحسب، بل راح يناقشكِ».

ـ «تصوَّري، إنَّه يناقش أيًّا كان. أمَّا أنتِ بالأحرى، فلم تفتحي معه سوى الدردشة. ألم تكوني راغبةً في الالتصاق به؟»

ـ «قلتِ إنَّه لا ينبغي لي فعل ذلك. ثمَّ إنِّي لم أستطع. ففي المرَّة التي قابلته فيها مع تونينو بدا لي مغفَّلًا، أمَّا الآن فقد بدا فاتنًا».

ـ «إنَّه مثل الجميع».

حافظتُ على تلك النبرة المستخفَّة، على الرَّغم من أنَّ أنجيلا ما انفكَّت تدوِّي في أذنيَّ عبارات من قبيل: قارني كيف عاملني بكيف عاملكِ، لقد بدوتما أستاذيْن. وأخذت تقلِّد أصواتنا، وسخِرت من بعض مواضيع الحوار. فكشَّرتُ، وأطلقتُ ضحكاتٍ، لكنَّني في الباطن، كنت فرحانة حقًّا. أنجيلا محقَّة، روبرتو تحدَّث معي. ولكنْ ليس بما يكفي. كنت أريد أن أتحدَّث إليه مزيدًا، آنذاك، وبعد الظهر، واليوم اللَّاحق، وإلى الأبد. إلَّا أنَّ هذا لم يكن ليحدث. وها إنَّ الفرحة غادرتني، وعاودتني شراسةٌ أرهقتني.

ـ 19 ـ

تدهورت حالي سريعًا. بدا لي أنَّ اللّقاء بروبرتو ما كان ذا جدوى إلَّا ليثبت لي أنَّ الشخص الوحيد الذي أعوّل عليه ـ الشخص الوحيد الذي أشعرني ببخارٍ مهتاجٍ يضطرم في داخلي خلال محادثةٍ قصيرة ـ كان لديْه عالمه البعيد عنّي كلّيًا، ولم يكن ليمنحني من وقته سوى بضع دقائق.

في العودة، وجدتُ الشقَّة في سان جاكومو دي كابري خاويةً، لا صوت إلَّا لضوضاء المدينة. كانت والدتي خارجةً مع اثنتيْن من صديقاتها المملَّات. شعرتُ أنّي وحيدة، وأنّي ـ وهو الأهمّ ـ بلا أيِّ تطلُّعٍ نحو الخلاص. ذهبتُ لأستلقي على السرير لأهدِّئ أعصابي، وأفقتُ جفلةً على فكرة أنَّ السّوار كان في معصم جوليانا. كنتُ متوتّرة، ربَّما رأيتُ حلمًا كريهًا. اتَّصلتُ بفيتّوريا. وسرعان ما أجابتني ولكنْ بنبرةٍ بدت صاعدةً من خضمّ عراك، تصيح بختام جملةٍ تلفظها بنبرةٍ أعلى قبل أن يرنّ الهاتف.

ـ «أنا جوفانّا»، قلتُ هامسةً بالكاد.

لم تخفض فيتوريا صوتها.

ـ «شاطرة. ماذا تريدين؟»

ـ «أردتُ أن أسألكِ عن سواري».

قاطعتني.

ـ «سواركِ أنتِ؟ آه، لقد بلغنا هذا الحدَّ إذن، تتَّصلين بي لتقولي إنَّه سواركِ أنتِ؟ جانّي، أنا أعاملكِ بطيبةٍ أكثر من اللُّزوم، ولكنِ الآن كفى. عليكِ أن تبقي في مكانكِ، فهمتِ؟ السِّوار سيكون لمن يَودّني، لا أعرف إن كان كلامي واضحًا».

لا، لم يكن واضحًا، أو أنَّني لم أفهم على الأقلّ. كدتُ أوشك على إقفال الخطّ، كنتُ مذعورةً، لم أعد أذكر حتى سبب اتِّصالي بها، لا شكَّ أنَّني أخطأتُ التوقيت. لكنِّي سمعتُ جوليانا تصرخ:

ـ «أهي جانّينا؟ أعطيني إيَّاها. والزمي صمتكِ فيتّو، اسكتي، لا تتفوَّهي بأيِّ كلمة».

ووصل صوت مرغريتا تباعًا، من الواضح أنَّ الأمّ وابنتها كانتا في بيت عمَّتي. قالت مرغريتا جملةً من قبيل:

ـ «فيتّو، انسي الأمر، أرجوكِ، فالطفلة لا ذنب لها».

لكنَّ فيتّوريا زعقت:

ـ «هل سمعتِ يا جانّي، هنا يسمُّونكِ طفلة. ولكن هل أنتِ طفلة؟ حقًّا؟ فلماذا إذن تقحمين نفسكِ بين جوليانا وخطيبها؟ ردِّي، بدلًا من أن تصدّعي الأير بالسِّوار. هل أنتِ أسوأ من أخي؟ قولي، فأنا أسمعكِ: هل أنتِ متبجِّحةً أكثر من أبيكِ؟»

دوَّت صرخةٌ جديدة من جوليانا، صاحت:

ـ «هذا يكفي، أنتِ مجنونة. اقطعي لسانكِ إن كنتِ لا تدركين ما تقولين».

انقطع الاتّصال عند ذلك الحدّ. بقيتُ جامدةً والسمّاعة في يدي، غير مصدِّقة. ما الذي كان يجري؟ ولماذا هاجمتني عمّتي بتلك الطريقة؟ ربّما أخطأتُ حين قلت «سواري»، ربّما لم يكن لائقًا. إلّا أنّها الصياغة الأصحّ، فهي أهدته لي. لكنّي لم أتّصل لتُعيده إليّ، إنّما وددتُ أن تشرح لي لماذا لم تحتفظ به لنفسها. لماذا كانت تحبّ ذلك السّوار كثيرًا، ثمّ تفعل المستحيل للتخلُّص منه؟!

أغلقتُ الخطّ، وعدت للاستلقاء على السَّرير. لا بدَّ أنّي رأيتُ حلمًا كريهًا، له شأنٌ بصورة إنزو على القبر، كانت الكآبة تنهشني. ثمّ سمعتُ تكالب الأصوات على الهاتف، وعادت أصداؤها في رأسي، وفهمتُ حينذاك أنَّ فيتّوريا كانت غاضبةً منّي بسبب لقاء الصباح. من الجليّ أنَّ جوليانا كانت قد حدَّثتها عن مجرياته توًّا، ولكنْ ما الذي رأته فيتّوريا في ذلك اللّقاء يثير غضبها؟ كنت أودُّ حينها أن أكون حاضرةً لأسمع ما قالته جوليانا كلمةً كلمة. ربّما، لو أنّي استمعتُ أنا أيضًا إلى ملخَّصها، لأدركتُ ما الذي حدث فعلًا في ساحة أميديو.

رنَّ الهاتف ففزعتُ، وخشيتُ أن أردّ. ثمّ فكّرتُ أنَّ أمّي قد تكون هي المُتّصلة، فعدتُ إلى الممرّ، ورفعتُ السمّاعة بحذر. غمغمتْ جوليانا: ألو. اعتذرتْ عمّا فعلتْه فيتّوريا، وشهقتْ بأنفها، ربّما كانت تبكي. سألتها:

ـ «هل أخطأتُ في شيءٍ هذا الصباح؟»

ـ «قطعًا يا جانّي، لقد أسعدتِ روبرتو كثيرًا».

ـ «حقًّا؟»

- «أُقسم لكِ».

- «يسعدني هذا، أخبريه أنَّ الحديث معه أفادني جدًّا».

- «لا داعٍ لأخبره أنا، ستُخبرينه بنفسكِ. يودُّ مقابلتكِ ثانيةً ظهر الغد، إن استطعتِ. سنذهب لشرب القهوة نحن الثلاثة».

اشتدَّت فخاخُ صداع الرأس. غمغمتُ:

- «حسنًا. هل ما تزال فيتّوريا غاضبة؟»

- «لا، لا تقلقي».

- «هلّا مرَّرتِها لي؟»

- «يُفضَّلُ تجنُّب ذلك، إنَّها متوتِّرةٌ بعض الشيء».

- «لماذا غاضبة منِّي؟»

- «لأنَّها مجنونة، ولطالما كانت مجنونةً، ودمَّرت حياتنا جميعًا».

VI

-1-

إنَّ زمن مراهقتي بطيءٌ، مكوَّنٌ من عوائق كبيرةٍ ورماديَّةٍ ومنحنياتٍ مباغتة، تتراوح ألوانها ما بين الأخضر والأحمر والبنفسجيّ. العوائق ليس لها ساعات، أيَّامٌ، أشهر، سنوات؛ والفصول حائرةٌ، ساخنةٌ وباردةٌ، ماطرةٌ ومشمسةٌ في آن. حتَّى المنحنيات ليس لها طقسٌ مؤكَّد، واللَّون فيها أهمّ من أيِّ تأريخ. ومن جهةٍ أخرى، لا قيمة لمدَّة الصبغة نفسها، التي تتَّخذها عواطف معيَّنة؛ ومَن يكتبْ يعرفْ عمَّا أتحدَّث. فما إن تبحث عن الكلمات يتحوَّل البطء إلى دوَّامة، وتختلط الألوان مثلما يحدث لألوانِ فواكهَ متنوِّعةٍ في الخلَّاط. تصبح عبارة «انقضى الوقت» عبارةً فارغة، وليس هذا فحسب، بل إنَّ صيغًا مثل «ذات ظهيرة»، «ذات صباح»، «ذات مساء» أيضًا تغدو دلالاتٍ ليّنة. كلُّ ما يسعني قوله هو أنَّني استطعتُ تعويض العام الذي رسبتُ فيه، ومن دون بذل جهودٍ كبرى. كنت أتمتَّع بذاكرةٍ قويَّة ـ أدركتُ ذلك ـ وأتعلَّم من الكتب أكثر ممَّا أتعلَّمه من المدرسة. كان يكفيني أن أقرأ، وإن بشرود، فأتذكَّر كلَّ شيء.

حسَّنَ ذلك النجاح الصَّغير علاقتي بأبويَّ، وعادا يفتخران بي، لاسيَّما والدي. إلَّا أنَّني لم أجنِ من ذلك أيَّ سرور، كان ظِلَّاهُما يبدوان لي مرارةً مزعجةً لا تنقضي، وجزءًا غير لائقٍ منِّي يجب إزالته. قرَّرتُ أن

أناديهما باسميْهما، في البدء، لإقصائهما عنّي بطريقةٍ هزليَّةٍ لا أكثر، ثمَّ تحوَّل ذلك إلى رفضٍ مدروسٍ للرباط الأبويّ. نيلّا، التي اشتدَّ نحولها وتذمُّرها، باتت أرملة أبي، مع أنَّه ما يزال حيًّا وبصحَّةٍ ممتازة، ويرفل في النعيم. استمرَّت في الاحتفاظ بعنايةٍ بأشيائه التي منعته من أخذها معه منعًا باتًّا. ظلَّت مرحِّبةً على الدوام للزيارات التي يقوم بها شبحُه، واتِّصالاته بها من عالم موت حياتهما الزوجيَّة. وكدتُ أجزم أنَّها لا تلتقي بماريانو إلَّا لتَطَّلعَ على القضايا الكبرى التي ينكبُّ عليها زوجها السَّابق. وفيما تبقَّى، كانت تنخرط بانضباط، وتقوِّي عزيمتها، في طابورٍ طويلٍ من الشؤون المنزليَّة التي كنتُ أمثِّل واحدًا منها. لكنَّها لم تَعُد تركِّز عليَّ بالتكالب ذاته الذي تُبْديه حيال تصحيح كمِّيَّاتٍ كبيرةٍ من الوظائف المدرسيَّة، وتحريرِ قصصِ الحبّ المُبتذلة. وهذا ما أشعرني بالارتياح: أنتِ كبيرة، كانت غالبًا ما تقول، تدبَّري أمركِ.

بتُّ سعيدةً بالقدرة على الذَّهاب والمجيء بلا قيودٍ كثيرةٍ أخيرًا. وكلَّما نقص اهتمامها واهتمام والدي بي شعرتُ أنَّني أفضل حالًا. خصوصًا أندريا، آهٍ لو يخرس! صرتُ لا أحتمل الإرشادات العارفة باستخدام الحياة التي يشعر أبي بواجبه إعدادها لي عندما نلتقي في بوزيليبو، حينما كنت أذهب لملاقاة أنجيلا وإيدا، أو خارج المدرسة لنذهب لتناول البانزاروتة والباستاكريشوتة معًا. وكانت فرضيَّة أن تولد صداقةٌ بيني وبين روبرتو تتحقَّق بأعجوبة، حتَّى أحسستُ أنَّه يقودني، ويوجِّهني مثلما لم يستطع والدي فعلها إطلاقًا، إذ أمسى مثقلًا بنفسه وآثامه. ذات مساءٍ بعيد، في الشقَّة الشاحبة في سان جاكومو دي كابري، كان أندريا قد تحدَّث بطريقةٍ عابثة، وصدَّع ثقتي بنفسي. فجاء روبرتو وأعادها إليَّ بأسلوبٍ محترمٍ وودود. كنت، والحال هذه، فخورةً بعلاقتي بروبرتو حتَّى إنَّني أشرتُ إليه أحيانًا في الحديث مع أبي لمجرَّد أن أراه يتحوَّل إلى شخصٍ جادٍّ وحريص. كان يستفسر عنه، أراد

أن يعرف أيَّ شخصٍ هو، وعمَّا نتحدَّث، وعمَّا إذا كنت قد حدَّثتُه عنه، وعن عمله. من الصَّعب الجزم أنَّه كان يكنُّ تقديرًا لروبرتو، فقد انعدمت ثقتي كليًّا بكلمات أندريا منذ زمن. أذكر أنَّه ذات مرَّةٍ، وصفه متيقِّنًا بأنَّه شابٌّ محظوظٌ، عرف كيف يلوذ بجلده قبل الأوان، من مدينةٍ خرائيَّةٍ مثل نابولي، ويبني لنفسه مسيرةً جامعيَّةً مرموقةً في ميلانو. وقال لي في مرَّةٍ أخرى: تُحسنين صنعًا في مخالطة مَن هم أفضل منكِ، فهذه هي الوسيلةُ الوحيدةُ للترقِّي وعدم الانحدار. وأخيرًا، في مناسبتيْن اثنتيْن، وصل به الفضول ليسألني عن إمكانيَّة أن أعرِّفه عليه. كان يشعر بضرورة الخروج من حلقة المتنازعين والفاشلين الحثالة التي أغلق فيها على نفسه مُذْ كان شابًّا. بدا لي رجلًا ضعيفًا وهشًّا.

- 2 -

وجرت الأمور على تلك الشاكلة. أصبحنا روبرتو وأنا صديقيْن. ولكنْ لن أبالغ، فهو لم يكن يتردَّد كثيرًا إلى نابولي، وكانت المناسبات التي تلاقينا فيها نادرة. إلَّا أنَّ عُرفًا صغيرًا بيننا بدأ يتشكَّل، مرحلةً بعد مرحلة، يقتضي أنَّنا على الرَّغم من وجود جوليانا، وكلَّما سنحت الفرصة، نجد وسيلةً للتحادث وإن لبضع دقائق، وذلك من دون أن نتوصَّل إلى مخالطةٍ حقيقيَّة.

في البداية، عليَّ أن أقول، كنتُ في قلقٍ شديد. فكلَّما التقينا خطَرَ في بالي أنَّني بالغتُ، وما كان ينبغي أن أعانده ـ فهو يكبرني بعشرة أعوامٍ تقريبًا؛ أنا أرتاد المدرسة وهو يدرِّس في الجامعة ـ رأيتُ تصرُّفي دلالةً على التبجُّح الذي لا شكَّ أنَّه أظهرني مضحكة. وكنت أدوِّر في رأسي ألف مرَّةٍ ما قاله وما أجبتُ عليه، وسرعان ما يختطفني الخزيُ على كلِّ كلمةٍ نطقتُها. كنت أشعر بخفَّةٍ حمقاءَ ميَّعتُ بها قضايا معقَّدة، فينمو في صدري إحساسٌ بالخلل، شبيهٌ بما اعتراني في صِغَري حين كنت أرتكب رعونةً هوجاءَ تُغضِب والديَّ بالتَّأكيد. كنت أشكُّ، والحال هذه، بقدرتي على نيْل الاستحسان. وكانت نبرته المتهكِّمة تطفح في ذاكرتي لتغدو استهزاءً فاضحًا. كنتُ أذكرُ النبرةَ المستخفَّة التي اتَّخذتُها، ومقتطفاتٍ من الدردشة التي عزمتُ فيها على إصابته، فينتابني شعورٌ بالبرد والغَثَيان، فأتمنَّى أن أطرد ذاتي من ذاتي كما لو أنَّني أتقيَّأ.

بَيْد أنَّ الأمور لم تكن كذلك في الواقع. كانت كلٌّ من تلك اللقاءات تجعلني في حالٍ أفضل، وكانت كلمات روبرتو تفجّر حاجتي إلى القراءات، واستزادة المعلومات مباشرةً. صارت الأيَّام سِباقًا لكي أصل إلى اللّقاء التالي وأنا أكثر استعدادًا، بقضايا معقَّدةٍ على رأس لساني. بدأتُ أفتّش في الكتب التي تركها والدي في البيت، لأستخلص منها ما يسمح لي بمزيدٍ من الفهم. ولكنْ، مزيدًا من فهم ماذا، ومَن؟ الأناجيل، الآب، الابن، الروح القدس، السموُّ والصَّمت، عقدة الإيمان وغياب الإيمان، جذريَّة المسيح، أهوال انعدام المساواة، العنف المتزايد في حقّ الضعفاء، عالم النظام الرأسماليّ الذي لا حدود لتوحُّشه، ظهور الروبوت، الضرورة الملحَّة للشيوعيَّة؟ كم كان اطّلاعه واسعًا! روبرتو يتفلَّت في كلِّ حين. كان يمتلك السماء والأرض معًا، يعرف كلَّ شيء، يمزج الأمثلةَ الصَّغيرةَ بالحكايات والاقتباسات والنظريَّات، وأنا أحاول اللَّحاق به جاهدةً، أتخبَّط بين اليقين من أنّي اصطنعتُ مظهر الصبيَّة التي تتكلَّم وتدَّعي المعرفة، وما بين الرجاء بالحصول على مناسبةٍ جديدةٍ لأبدو بشكلٍ أفضل.

-3-

التجأتُ في تلك الفترة إلى جوليانا وأنجيلا على حدٍّ سواءٍ لأهدِّئ روْعي. بدت لي الأولى أقرب وأكثر تشجيعًا لي لأسبابٍ بديهيَّة. فتفكيري في روبرتو أمدَّني بالدَّافع لقضاء الوقت معها. وأثناء غياباته الطويلة، كنَّا نتسكَّع في أحياء ڤوميرو ونتحدَّث عنه. كنت أراقبها بنظري: تشعّ بهاءً مبهرًا، وتضع سوارَ عمَّتي في معصمها دومًا، وكان الرجال يحدِّجونها بأعينهم ويلتفتون لاستراق نظرةٍ أخيرةٍ، كما لو أنَّهم يعجزون عن غضّ نظرهم عن هيئتها. وكأنْ لا وجود لي، بجانبها! ومع ذلك، كنت أكتفي بنبرةٍ حادَّة، وكلمةٍ متكلِّفةٍ لامتصاص طاقتها، فأشعر أنَّها خائرة القوى. قالت لي ذات مرَّة:

ـ «كم من الكتب تقرأين».

ـ «أهوى المطالعة أكثر من حلّ الوظائف».

ـ «أنا أتعب بسرعة».

ـ «مسألة تعويد».

اعترفتُ أنَّ ولعي بالقراءة لم يكن شيئًا من ابتكاري، إنَّما ورثته عن والدي: هو الذي أقنعني منذ طفولتي بأهمِّيَّة الكتب والقيمة الهائلة للنشاطات الثقافيَّة.

«ما إن تدخل هذه الفكرة في رأسكِ» ـ قلتُ ـ «حتَّى لا تستطيعين التَّحرُّر منها أبدًا».

ـ «لحسن الحظّ. المثقَّفون أناسٌ طيِّبون».

ـ «والدي ليس طيِّبًا».

ـ «لكنَّ روبرتو بلى، وأنتِ أيضًا».

ـ «أنا لستُ مثقَّفة».

ـ «بل أنتِ كذلك. تدرسين، تجيدين النقاش حول أيّ موضوع، وأراكِ تلقائيَّةً مع الجميع، بمن فيهم فيتّوريا. أمَّا أنا، لا أقدر، وسرعان ما ينفد صبري».

كنتُ سعيدةً ـ أقرّ بذلك ـ بتلك المصارحات بالتَّقدير. ونظرًا إلى كونها تتصوَّر المثقَّفين على ذلك النحو، حاولتُ أن أكون على مستوى توقُّعاتها، ولأنَّها أيضًا تتأسَّف إذا اقتصرتُ على التَّحدُّث بالأمور الاعتياديَّة، كأنَّني أقدّم أفضل صورةٍ عنّي في حضور خطيبها، وأكتفي معها بالترّهات. كانت تدفعني فعلًا إلى نقاشاتٍ معقَّدة، وتطلب منّي أن أتحدَّث عن الكتب التي أعجبتني والتي كانت تعجبني. تقول: حدّثيني عنها. وتبدي فضولها المحموم ذاته تجاه الأفلام والموسيقى. حتى أنجيلا وإيدا، لغاية تلك اللَّحظة، لم تسمحا لي بالحديث كثيرًا عمَّا أحبّ بقدر ما فعلت هي، ولم أشعر إطلاقًا أنَّه واجبٌ إنَّما ملهاةٌ لقضاء الوقت. ثمَّ إنَّ المدرسة لم تنتبه يومًا إلى فوضى اهتماماتي المحتشدة التي تؤمّنها لي القراءة، ولا واحدة من رفيقاتي رغبت أن أروي لها ـ على سبيل المثال ـ عن حبكة «توم جونس». وهكذا، كنَّا في أحسن حالٍ معًا، في تلك الآونة. وغالبًا ما تلاقينا، كنت أنتظرها عند مخرج السكَّة الجبليَّة في مونتيسانتو، وكانت تصعد إلى حيّ

ڤوميرو كأنَّها في زيارةٍ لبلدٍ أجنبيٍّ تقضي فيه إجازتها السَّعيدة. وكنَّا نمشي من ساحة فانيفيتيلي إلى ساحة الفنَّانين ذهابًا وإيابًا، لا نبالي بالمارَّة وزحمة السَّير والمحلَّات، لأنَّني أسلِّم نفسي لمتعة إغوائها بالأسماء والعناوين والحكايات؛ وكانت تبدو أنَّها لا ترى شيئًا آخر سوى ما كنت أراه أنا بالقراءة أو في السينما، أو خلال استماع الموسيقى.

في غياب روبرتو، وفي صحبة خطيبته، كنت ألهو بأداء دوْر صاحب العلم الواسع؛ وكانت جوليانا تصغي إليَّ كما لو أنَّها لا تريد إلَّا الاعتراف بتفوُّقي عليها، على الرَّغم من فرق العمر، وعلى الرَّغم من جمالها. لكنِّي شعرتُ أحيانًا أنَّ شيئًا ما لا يروقها، ثمَّة تعاسةٌ تتجرَّد عنها بمشقَّة. الأمر الذي يجعلني أتوتَّر، فيعود إلى ذهني صوتُ فيتّوريا المشاجِرُ على الهاتف: «لماذا تقحمين نفسكِ بين جوليانا وخطيبها؟ هل أنتِ أسوأ من أخي؟ قولي، فأنا أسمعكِ: هل أنتِ متبجِّحةٌ أكثر من أبيكِ؟» لم أكن أريد إلَّا أن أصبح صديقةً ودودة، وكنت أخشى أنَّ جوليانا تتأثَّر بأفاعيل فيتّوريا، فتقتنعَ بعكس ذلك وتخاصمَني.

- 4 -

مكتبة
t.me/t_pdf

كنّا غالبًا ما نلتقي حتى في رفقة أنجيلا التي تستاء إذا استبعدناها. إلّا أنَّ الاثنتيْن لم تكونا على وفاق، ما يكشف خللَ جوليانا أكثر فأكثر. فأنجيلا، المهذارة، لا تجد حَرَجًا في السخرية منّي ومنها أيضًا، وفي اغتياب تونينو بكلام مستفِزّ، وفي استخدام المزاح لتعطيل أيّ محاولةٍ لبناء نقاشٍ جادّ. من جهتي، لم أكن أؤاخذها؛ أمّا جوليانا فتتجهّم وتدافع عن شقيقها، وتردّ عاجلًا أم آجلًا على هرائها بفوراتِ عاميّتها الشرسة.

باختصار، امتعاضها الذي كان خفيًّا معي كان يتّضح مع أنجيلا، ما يجعل احتماليّة القطيعة النهائيّة وشيكًا دومًا. وفي المرّات التي كنّا نلتقي بها على انفراد، كانت أنجيلا تدّعي معرفةً عميقةً حول جوليانا وروبرتو، مع أنّها بعد لقائنا في ساحة أميديو، كانت قد رفضت كلّيًّا إقحام أنفها في تلك القصّة. وكان ابتعادها هذا يشعرني بالارتياح تارةً، ويثير حَنَقي تارةً أخرى. سألتُها ذات مرّةٍ إذ أتت إلى بيتي:

ـ «هل روبرتو غليظ القلب بالنّسبة إليكِ؟»

ـ «لا».

ـ «فما الذي لا يجري على ما يُرام؟»

ـ «لا شيء. ولكنْ إن كنتِ وإيَّاه تتحادثان، فلا مجال لأحدٍ آخر».

ـ «هناك جوليانا».

ـ «مسكينةٌ جوليانا».

ـ «ماذا تقصدين؟»

ـ «تعلمين كم تضجر بينكما أنتما الأستاذيْن!»

ـ «لا تضجر إطلاقًا».

ـ «بل تضجر، لكنَّها تتظاهر بعكس ذلك لكي تحافظ على منزلتها».

ـ «أيُّ منزلة؟»

ـ «منزلة الخطيبة. هل تظنِّين أنَّ واحدةً مثل جوليانا، سكرتيرةً في عيادة أسنان، تسمعكما تتناقشان عن المنطق والإيمان، ولا تشعر بالضجر حقًّا؟»

انتفضتُ:

ـ «وبرأيكِ، لا تستمتع إلَّا في الحديث عن الأطواق والأساور والسَّراويل وحمَّالات الصدر؟»

استاءت جوليانا:

ـ «أنا لا أتحدَّث في هذه الأمور فقط».

ـ «في الماضي لا، ولكن منذ مدَّةٍ قصيرةٍ أجل».

ـ «غير صحيح».

اعتذرتُ منها، فردَّت: حسنًا، ولكنَّكِ كنتِ غادرة. وأكملت بلؤمٍ متصاعدٍ بطبيعة الحال:

ـ «لحسن الحظِّ أنَّها تذهب لزيارته في ميلانو بين حينٍ وآخر».

ـ «ماذا تقصدين؟»

ـ «إنَّهما ينامان على سريرٍ واحد أخيرًا، ويفعلان ما ينبغي فعله».

ـ «جوليانا تذهب إليه صحبة تونينو دائمًا».

ـ «وهل تونينو يعمل حارسًا ليلًا ونهارًا برأيكِ؟»

تأفَّفتُ:

ـ «وبرأيكِ، هل يجب عليهما النوم معًا إن كانا متحابَّيْن؟»

ـ «أجل».

ـ «اسألي تونينو إن كانا ينامان معًا، وسنرى».

ـ «فعلتُها مسبقًا، لكنَّ تونينو لا يقول شيئًا حول هذه الأمور».

ـ «هذا يعني أنَّه ليس لديْه شيءٌ يقوله».

ـ «بل يعني أنَّه هو أيضًا يفكِّر أنَّ الحبَّ في غنًى عن الجنس».

ـ «ومَن يفكِّر غيره بذلك؟»

أجابتني بابتسامةٍ طفيفةٍ ارتسمت بالحزن فجأة:

ـ «أنتِ».

-5-

بالنِّسبة إلى أنجيلا، لم أعد أروي أيَّ شيءٍ ممتعٍ حول ذلك الموضوع. حسنًا، لقد كففتُ عن الخوض في الحكايات المشينة. هذا صحيح، لكنِّي ما كففتُ إلَّا لأنَّه بدا لي من الصبيانيّ أن أبالغ في حجم تجاربي الضحلة، فضلًا عن انعدام الموادّ الملموسة لديَّ بهذا الخصوص. فمنذ أن توطَّدت علاقتي بروبرتو وجوليانا، وضعتُ مسافةً بيني وبين رفيقي في المدرسة، سيلفيسترو، الذي دبقني بعد حادثة قلم الرصاص، وعرض عليَّ غير مرَّةٍ خطوبةً سرِّيَّة. إضافةً إلى أنِّي كنت قاسيةً أشدّ القسوة مع كورّادو، الذي ما انفكّ يراودني باقتراحاته؛ كما كنت حذرةً وحازمةً مع روزاريو الذي كان يحضر بمواعيد ثابتةٍ أمام باب المدرسة، ويعرض عليَّ أن أرافقه إلى علِّيَّةٍ له في شارع مانتزوني. بات أولئك الطامحون الثلاثة يبدون لي منتمين إلى إنسانيَّةٍ منحطَّةٍ؛ ولسوء حظِّي أنَّني كنت لوقتٍ معيَّنٍ جزءًا منها. أمَّا أنجيلا، وكأنَّها غدت شخصًا آخر، تخون تونينو؛ ولا توفِّر عليَّ أو على إيدا أيَّ تفصيلٍ من علاقاتها العَرَضيَّة مع بعض رفاق مدرستها، بل وحتَّى مع أستاذٍ تجاوز الخمسين من عمره، حتَّى إنَّها هي نفسها كانت تكشِّر مشمئزَّةً حينما تتحدَّث عنه.

وكان اشمئزازها يصدمني، لكونه عفويًّا. كنت أعرف هذا النوع من الاشمئزاز جيِّدًا، وودتُ أن أقول: يُقرأ على وجهكِ، فلنتحدَّثْ عن هذه

النُّقطة. لكنَّنا لم نتحدَّث بشأنها إطلاقًا، كان يبدو أنَّ من واجب الجنس أن يؤجِّج حماسنا رغمًا عنَّا. أنا نفسي لم أشأ أن أقرّ، مع أنجيلا ومع إيدا أيضًا، أنَّني أفضِّل أن أستشرف على أن أشمَّ رائحة بول كورّادو الكريهة. وفي المقابل، لم يطب لي أن تفسِّر أنجيلا حماستي الشحيحة تلك بوصفها دليلًا على إخلاصي تجاه روبرتو. ثمَّ إنَّ الحقيقة مُرَّة، فلنكنْ واضحين. للاشمئزاز غموضٌ يصعب التَّعبير عنه بالكلمات. لعلَّ ما يثير اشمئزازي في كورّادو لا يثير اشمئزازي في روبرتو. وهكذا، كنت أقتصر على تحديد التناقضات، وأقول:

ـ «ولماذا ما تزالين مرتبطةً بتونينو إذا كنتِ تفعلين هذه الأشياء مع آخرين؟»

ـ «لأنَّ تونينو شابٌّ طيِّب، والآخرون خنازير».

ـ «وأنتِ تمارسينها مع الخنازير؟»

ـ «أجل».

ـ «لماذا؟»

ـ «لأنِّي أحبُّ كيفيَّة نظراتهم إليَّ».

ـ «فلتجعلي تونينو ينظر إليكِ بالطريقة ذاتها».

ـ «إنَّه لا ينظر هكذا».

ـ «ربَّما تونينو ليس رجلًا»، قالت إيدا ذات مرَّة.

ـ «بل إنَّه رجلٌ كثيرًا».

ـ «فماذا إذن؟»

ـ «ليس خنزيرًا، هذا كلُّ ما في الأمر».

ـ «لا أصدِّق، قالت إيدا، لا يوجد رجالٌ ليسوا بخنازير».

ـ «بل إنَّهم موجودون»، قلت وأنا أفكِّر بروبرتو.

ـ «موجودون»، قالت أنجيلا مشيرةً بتعابير تخييليَّةٍ إلى انتصاب تونينو حالما يلمسها.

شعرتُ حينذاك، على ما أعتقد، بينما كانت تتحدَّث لاهيةً، شعرتُ بانعدام النقاش الجادّ حول هذا الموضوع، لا معهما بل مع روبرتو وجوليانا. هل كان روبرتو ليتملَّص؟ كلَّا، كنت واثقةً من أنَّه كان سيجيب وسيجد وسيلةً لطرح مفاهيم في غاية الاتِّساق في هذه الحالة أيضًا. إنَّما المشكلة في خطورة أن أبدو وقحةً في نظر جوليانا. لماذا أتناول هذا الموضوع بحضور خطيبها؟ فنحن في نهاية المطاف لم نلتق إلَّا ستّ مرَّات، باستثناء اللِّقاء في ساحة أميديو، ولم تدم معظم تلك اللِّقاءات إلَّا لوقتٍ قصير. من الناحية الموضوعيَّة إذن، لا وجود للموثوقيَّة التامَّة. فمع أنَّه ينحو دومًا إلى الإتيان بأمثلةٍ حسّيَّةٍ عندما يناقش القضايا العظمى، لم أكن شجاعةً لدرجة أن أسأله: ما سبب أنَّنا، إذا تمعنَّا قليلًا، نجد الجنس في كلِّ شيء، حتَّى في تلك الأمور الراقية؛ لماذا لا تكفي صفةٌ واحدةٌ لتعريف الجنس، لماذا نحتاج إلى صفاتٍ كثيرة ـ مُربكٍ، باهتٍ، مأساويٍّ، مُبهجٍ، مُمتعٍ، مُقرِّزٍ ـ تأتي كلُّها دفعةً واحدةً لا صفةً بعد صفة؛ هل من الممكن أن يكون الحبُّ الكبيرُ منقوصًا من الجنس، هل من المعقول أنَّ التطبيقاتِ الجنسيَّةَ بين الذكر والأنثى تُفسِدُ الحاجةَ إلى الحبّ وتبادلِ الحبّ؟ كنت أتصوَّر هذه الأسئلةَ وغيرها، ذات الصبغة المحايدة، والمتعالية نوعًا ما، خصوصًا لأمنع جوليانا وروبرتو على حدٍّ سواء أن يظنَّا بأنِّي أرغب في التجسُّس على حياتهما الخاصَّة. لكنِّي كنتُ أعلم أنَّني لن أطرح أسئلةً كهذه يومًا. وبالمقابل، ألححتُ على إيدا:

ـ «لماذا تظنِّين أنَّه لا وجود لرجالٍ ليسوا بخنازير؟»

ـ «لا أظنّ، بل أنا متأكِّدة».

ـ «حتى ماريانو خنزيرٌ إذن؟»

ـ «طبعًا، إنَّه يضاجع أمّكِ».

انتفضتُ، وقلت بنبرةٍ جامدة:

ـ «يلتقيان في بعض الأحيان، ولكنْ ضمن الصداقة».

ـ «أنا أيضًا أعتقد أنَّهما مجرَّد صديقيْن»، تدخَّلت أنجيلا.

هزَّت إيدا رأسها بقوَّة، وردَّدت جازمةً: ليسا مجرَّد صديقيْن. وهتفت:

ـ «لن أقبّلَ ذكرًا، مهما كان، إنَّهم مقرفون».

ـ «حتى لو كان طيِّبًا ووسيمًا مثل تونينو؟»، سألتها أنجيلا.

ـ «كلَّا. لن أقبّلَ إلَّا الإناث. هل تريدان أن تسمعا قصَّةً كتبتُها؟»

ـ «لا»، قالت أنجيلا.

حدَّقتُ صامتةً إلى حذاء إيدا، الذي كان أخضر اللَّون. وتذكَّرتُ أنَّ أباها نظر إلى صدري المكشوف ذات مرَّة.

ـ 6 ـ

غالبًا ما عاد بنا النقاش لتناول العلاقة بين روبرتو وجوليانا. كانت أنجيلا تنتزع معلوماتها من تونينو لمجرَّد التمتُّع بنقلها إليَّ. اتَّصلت بي ذات يومٍ إذ عرفت بوقوع مشاجرةٍ متكرِّرة، بين فيتّوريا ومرغريتا هذه المرَّة. تشادَّتا لأنَّ مرغريتا لم توافق فيتّوريا رأيها بأنَّ على روبرتو الزواج بجوليانا فورًا، والعودة للسَّكن في نابولي. زعقت عمَّتي كعادتها، واعترضت مرغريتا متمالكةً أعصابها كعادتها؛ والتزمت جوليانا الصَّمْت كأنَّ الأمر لا يعنيها. ثمَّ ها هي جوليانا على حين غرَّة تنفجر بالصُّراخ، وراحت تحطِّم الأطباق والزبادي والكؤوس، ولم تقوَ فيتّوريا إيَّاها، وهي الشديدة البأس، أن توقفها. كانت تصيح: سأنصرف فورًا، سأذهب للسكن عنده، لم أعد أطيقكم. وتعيَّنَ على تونينو وكورّادو أن يتدخَّلا حينئذٍ.

تشتَّت ذهني بسبب تلك القصَّة، فقلت:

ـ «الذنب يقع على فيتّوريا لأنَّها لا تنشغل بشؤونها الخاصَّة أبدًا».

ـ «ذنب الجميع، يبدو أنَّ جوليانا شديدة الغيرة. تونينو يقول إنَّ ثقته بروبرتو عمياء، شخصٌ قويمٌ ووفيّ. لكنَّها في كلِّ مرَّةٍ يرافقها تونينو إلى ميلانو تفتعل مشاكل، لأنَّها لا تحتمل ـ ما أدراني ـ أنَّ هذه الطالبة تتقرَّب إليه كثيرًا، وأنَّ تلك الزميلة تتغنَّج له كثيرًا، إلخ، إلخ».

ـ «لا أصدِّق».

ـ «تخطئين. جوليانا تبدو هادئة، لكنَّ تونينو قال لي إنَّها مصابةٌ بانهيارٍ عصبيّ».

ـ «يعني؟»

ـ «عندما تتوعَّك، لا تتناول الطعام، وتنفجر في البكاء والزعيق».

ـ «وكيف حالها الآن؟»

ـ «بخير. هذا المساء ستأتي إلى السينما معي وتونينو، هلَّا أتيتِ أنتِ أيضًا؟»

ـ «إن أتيتُ سأبقى مع جوليانا، لا تتركيني رفقة تونينو».

ضحكت أنجيلا:

ـ «ما دعوتكِ إلَّا لتخلِّصيني من تونينو، لم أعد أطيقه».

ذهبتُ، لكنَّه لم يكن خيرَ نهار، سواءٌ بعد الظهر أم في المساء: شهدنا لحظاتٍ عصيبةً حقًّا. التقينا نحن الأربعة في ساحة بليبيشيتو، قبالة غامبرينوس، وانطلقنا عبْر شارع طليطلة نحو سينما مودرنيسيمو. لم أستطع تبادل كلمةٍ واحدةٍ مع جوليانا، ولم ألحظ سوى نظراتها المشحونة بالاحتقان، وبياضِ عينيْها وقد تعرَّقَ بالدم، والسِّوارِ في معصمها. وسرعان ما شبكتها أنجيلا، فبقيتُ بضع خطواتٍ في الخلف مع تونينو. سألته:

ـ «كلُّ شيءٍ على ما يرام؟»

ـ «لا بأس».

ـ «أعرف أنَّك غالبًا ما تصحب أختك إلى روبرتو».

ـ «لا، ليس غالبًا».

ـ «تعرف أنَّنا تلاقينا أكثر من مرَّة».

ـ «أجل، أخبرتني جوليانا».

ـ «إنَّهما ثنائيٌّ جميل».

ـ «صحيح».

ـ «يبدو لي أنَّني فهمتُ أنَّهما سينتقلان إلى نابولي عندما يتزوَّجان».

ـ «لا يبدو ذلك».

لم أتمكَّن من استنطاقه، كان شابًّا لطيفًا ويرغب في محادثتي، ولكنْ ليس في هذا الموضوع. لذا، تركته يحدِّثني عندئذٍ عن صديقه الذي في البندقيَّة، كان يخطِّط للذهاب إليه، ويدرس إمكانيَّة انتقاله إلى هناك.

ـ «وماذا عن أنجيلا؟»

ـ «أنجيلا ليست بخير معي».

ـ «غير صحيح».

ـ «هو كذلك».

وصلنا إلى السينما. لا أذكر الآن أيّ فيلم كانوا يعرضون، ربَّما سأتذكَّره لاحقًا. أراد تونينو أن يدفع ثمن التذاكر للجميع، واشترى السكاكر أيضًا، والمثلَّجات. دخلنا ونحن نقضم ما في أيدينا، وكانت الأضواء في الصالة ما تزال موقدة. جلسنا، تونينو أوَّلًا، ثمَّ أنجيلا، فجوليانا، فأنا. في البداية، لم نعر اهتمامًا بالغًا للفتية الثلاثة الجالسين خلفنا تمامًا، كانوا تلاميذَ يشبهون رفاق مدرستي أو مدرسة أنجيلا، لا تتجاوز أعمارهم السادسة عشرة حدًّا أقصى. سوى أنَّنا سمعناهم يتوشوشون ويتضاحكون، لكنَّنا نحن البنات كنَّا قد استثنينا تونينو، وأقمنا دردشةً ما بيننا من دون أن يشغل بالنا شيء.

فكان تجاهلنا لهم بذاته ما دفعهم للانفعال. لم أنتبه إليهم بشكلٍ واضحٍ إلَّا عندما قال أحدهم، وربَّما أوقحهم، بصوته العالي: تعالَيْنَ واجلسنَ

بجانبنا هنا لنريكم الفيلم بأنفسنا. انفجرت أنجيلا ضاحكةً، ربَّما من فرط عصبيَّتها، والتفتت، فضحك الفتيةُ بدورهم، وتفوَّه الوقح بكلماتٍ أخرى لاستكمال الدَّعوة. التفتُّ أنا أيضًا وغيَّرتُ فكرتي، لم يكونوا مثل رفاقنا في المدرسة، بل ذكَّروني بكورَّادو وروزاريو، إلَّا أنَّ هيئاتهم محسَّنةٌ بفعل المدرسة. التفتُّ إلى جوليانا، التي كانت أكبرَنا، وتوقَّعتُ أن تدلو بابتسامةٍ طفيفةٍ تنمّ عن أسفها. إلَّا أنّي رأيتُها بملامحَ جادَّةٍ، حازمةٍ، تراقب بأنظارها تونينو الذي بدا أصمَّ، يحدِّق إلى الشاشةِ البيضاء بهدوء أعصاب.

بدأت الدعاية. داعب الوقح شعر جوليانا هامسًا: ما أجمله؛ وراح رفيقه يخضّ مقعد أنجيلا، فشدَّت هي تونينو من ذراعه، وقالت: هؤلاء يزعجونني، ضع حدًّا لهم. غمغمت جوليانا: انسي الأمر؛ لكنِّي لست متأكِّدةً ما إذا كانت تتوجَّه بذلك إليها أم إلى شقيقها. المؤكَّد أنَّ أنجيلا تجاهلتها، وقالت لتونينو ممتعضةً: لن أخرج معك ثانيةً. هذا يكفي، لقد سئمتُ. فما لبث الفتى الوقح أن هتف: شاطرة، أخبرناكِ بذلك مسبقًا، تعالي إلينا، فهنا يوجد مكان. أحدٌ ما في الصالة صفَرَ: ششش، طالبًا التزام الصمت. فقال تونينو متمهِّلًا، بصوتٍ متباطئ: فلننتقل إلى الصفّ الأماميّ، فنحن لسنا على ما يرام هنا. نهض وفعلت شقيقتُه مثله باستعدادٍ جعلني أنهض مثلهما أنا أيضًا. ظلت أنجيلا جالسة بضعَ ثوانٍ، ثمَّ انتفضت، وقالت لتونينو: أنت مهزلة.

رتَّبنا جلستنا في صفٍّ متقدِّمٍ على النَّسق ذاته، وشرعت أنجيلا تتحدَّث في أذن تونينو، وكانت غاضبةً. فهمتُ أنَّها تتحيَّن الفرصة للخلاص منه. انتهى الوقت الأبديّ المكرَّس للدعاية، وأنيرت الأضواء ثانيةً. كان الفتية الثلاثة يلهون، وكنت أسمع قهقهاتهم، فالتفتُّ. رأيتهم واقفين، وبدأوا يتجاوزون الصفوف واحدًا تلو الآخر محدثين ضجيجًا، وفي غمضة عينٍ وجدناهم جالسين خلفنا مباشرةً من جديد. قال الناطق باسمهم: لقد

جعلتُنَّ هذا الحقير يقودكنّ، فشعرنا بالإهانة. لن نحتمل سلوكًا كهذا مرَّةً أخرى، نريد مشاهدة الفيلم معكنّ.

ومنذ تلك اللَّحظة، جرت الأمور في غضونِ ثوانٍ. أُطفئت الأضواء. بدأ الفيلم بفرقعةٍ كبيرة. والتهمت الموسيقى صوتَ الفتى، واستحلنا جميعًا إلى ومضاتِ نور. قالت أنجيلا لتونينو بصوتٍ عالٍ: أَسمعتَ أنَّه وصفك بالحقير؟ قهقه الفتية، صفَّرَ المشاهدون ششش.هبَّ تونينو على قدميْه بانتفاضةٍ غير متوقَّعة. جوليانا قالت: لا يا توني، لا. لكنَّه لطم أنجيلا بعنفٍ حتى ارتطم رأسُها بعظام وجنتي، فشعرتُ بألم. صَمَت الفتيةُ مصدومين. تبرَّمَ تونينو مثل بابٍ متخلخلٍ تصفقه الريحُ، وخرج من فمه كلامٌ بذيءٌ، يخدش الحياء، بإيقاعٍ متسارع. انفجرت أنجيلا باكيةً، وشدَّت جوليانا على يدي، وهي تقول: علينا أن ننصرف، فلنأخذه بعيدًا. يعني أن نأخذ شقيقها بعيدًا، هذا ما تقصده، كما لو أنَّ المعرَّض للخطر هو تونينو، لا أنجيلا أو نحن الاثنتيْن. استفاق الناطق باسم الشلَّة من ذهوله، وقال: أوه، يا للخوف! لقد جعلتنا نرتجف، أيُّها المضحك، لا تتقاوى إلَّا على الإناث، تعال إلى هنا؛ فبدت جوليانا وكأنَّها تسعى إلى سحق صوته، صاحت: توني، إنَّهم مجرَّد فتيةٍ صغار. لكنَّ الثواني كانت تركض بسرعة. أمسك تونينو بالفتى من رأسه بيد ـ ربَّما من أذنه، لست واثقة ـ ثمَّ أحكم قبضته عليه وشدَّه إليه، كأنَّما أراد انتزاع رأسه من رقبته. لكنَّه لكمه تحت ذقنه بقبضته الأخرى، فطار الفتى إلى الخلف، وعاد للجلوس في مكانه بفمٍ ينزف دمًا. أراد رفيقاه مساعدته، لكنَّهما عندما لاحظا أنَّ تونينو يسعى لامتطاء صفّ المقاعد، بحثا عن المخرج للهروب كيفما استطاعا. تشبَّثت جوليانا بشقيقها لتمنعه من اللَّحاق بهما، وكانت موسيقى بداية الفيلم عاليةً جدًّا، والمشاهدون يصيحون، وأنجيلا تبكي، والفتى الجريح يتوجَّع. دفع تونينو شقيقته، وعاد يتشاكل مع الذي سقط يئنّ باكيًا وساخطًا على المقعد. ضربه لطمًا ولكمًا،

وشتمه في تلك الأثناء بعامِّيَّةٍ غير مفهومةٍ بالنِّسبة إليَّ لشدَّة سرعتها واكتنازها بالغضب. مفردةٌ تنفجر في داخل مفردةٍ أخرى. بات الجميع في السينما يصيح، ويطالبون بإنارة الأضواء، واستدعاء الشرطة، فأمسكتُ وجوليانا ـ وانضمَّت إلينا أنجيلا أيضًا ـ بذراعيْ تونينو ونحن نصرخ: فلننصرف، هذا يكفي، فلننصرف. استطعنا في النهاية أن نأخذه بعيدًا، ودلفنا نحو المخرج. هيَّا يا توني هيَّا اهرب: صاحت جوليانا وهي تنعر ظهره، فردَّدَ هو مرَّتيْن بالعامِّيَّة: من غير المعقول أنَّ المرء، في هذه المدينة، لا يستطيع أن يكون محترمًا وأن يشاهد فيلمًا بسكينةٍ وسلام! كان يتوجَّه إليَّ تحديدًا، ليرى إن كنت أقبل كلامه. وافقتُ رأيه لأهدِّئ من روعه، فركض بعيدًا نحو ساحة دانتي، وسيمًا على الرَّغم من عينيْه الجاحظتيْن وشفتيْه الزرقاويْن.

- 7 -

رحلنا نحن أيضًا بخطواتٍ مُسرعة، من باب الرُّوح القدس، ولم نبطئ خطانا إلَّا عندما شعرنا بالأمان بفضل الزحام في بينياسيكا. وحينها، أحسستُ بكلِّ الفزع الذي تولَّاني. حتى أنجيلا كانت مذعورةً، وجوليانا أيضًا، إذ بدت كأنَّها شاركت في الشجار بقوَّة، كان شعرها مبعثرًا، وسترتها ذات الياقة شبه متمزِّقة. فتَّشتُ عن السِّوار ما إذا كان بعدُ في معصمها، كان في محلِّه، لكنَّه فقدَ لمعانه.

«عليَّ أن أتَّجه إلى المنزل فورًا»، قالت جوليانا متوجِّهةً إليَّ.

ـ «اذهبي، واتَّصلي بي، وخبِّريني عن حال تونينو».

ـ «هل أصابكِ الهلع؟»

ـ «أجل».

ـ «يؤسفني ذلك. فتونينو عادةً ما يتمالك أعصابه، لكنَّه يفقد بصره أحيانًا».

تدخَّلت أنجيلا بعينيْن يفيض الدَّمع فيهما:

ـ «أصابني الهلع أنا أيضًا».

اصفرَّ وجه جوليانا من الغضب، وكادت تصيح:

ـ «اخرسي أنتِ، ما عليكِ إلَّا أن تخرسي وكفى».

لم أرها ساخطةً هكذا من قبل. قبّلتني من خدّي وغادرت.

وصلنا أنا وأنجيلا إلى موقف السكّة الجبليّة. كنتُ مضطربة، فقد انطبعت تلك الجملةُ في ذهني: «يفقد بصره أحيانًا». وطوال الرحلة، أصغيتُ شاردةً إلى شكاوى صديقتي. كانت مُحبطة؛ أنا غبّيّة، كانت تقول. ثمّ تتلمّس خدَّها المحمرّ والمنتفخ، وكان عنقها يؤلمها، وتصيح: كيف يسمح لنفسه، لقد صفعني، أنا، أنا التي لم يعنّفني أبي وأمي على الإطلاق، لم أعد أريد رؤيته ثانيةً أبدًا، أبدًا. وكانت تبكي، ثمّ تستأنف من وجعٍ آخر: جوليانا لم تودّعها، اكتفت بتوديعي أنا وحدي. من الظلم إلقاء اللّائمة كلّها عليّ، تغمغم. فما أدراني أنا بأنّ تونينو وحش! عندما تركتها تحت بيتها، اعترفت: حسنًا، لقد أخطأتُ، لكنّ تونينو وجوليانا كليْهما بلا تربية، لم أكن أتوقّع شيئًا كهذا البتّة، بصفعته تلك كاد يقتلني، وكاد يقتل أولئك الفتية أيضًا، لقد أخطأتُ حينما أحببتُ حيوانًا مثله. فغمغمتُ: تخطئين، تونينو وجوليانا مؤدّبان جدًّا، ولكنْ في بعض الأحيان، قد يحدث أن يفقد المرء بصره فعلًا.

سلكتُ درب الصُّعود عائدةً إلى البيت بخطًى متثاقلة. لم يشأ ذلك التّعبير مفارقة ذهني أبدًا: «يفقد المرء بصره». كلُّ شيءٍ يبدو في أتمّ صورة: صباح الخير، إلى اللّقاء، تفضّلوا، أيُّ شرابٍ أقدّمه لكم، هلّا أخفضتَ الصوت قليلًا، شكرًا، عفوًا.. ولكنْ، ثمّة ستارةٌ سوداء قد تسقط بين لحظةٍ وأخرى. إنّه العمى المُفاجئ، تفقد السيطرة على المسافات فتصطدم بالحائط. هل يحدث لبعض الأشخاص حصرًا أم للجميع: بعد تعدّي الحدود، يفقد المُعتدى عليه بصره؟ وهل نحن حقيقيُّون أكثر عندما نرى كلَّ شيءٍ بجلاء، أم عندما تتفاقم مشاعرنا الأقوى والأمتن ـ كالحبّ والكراهية ـ فتُعمى أبصارنا؟ ألم يَعُد إنزو يرى مرغريتا بعد أن أعمت فيتّوريا بصره؟ ألم يَعُد والدي يرى أمّي بعد أن أعمت كوستانسا بصره؟ ألم أفقد

بصري أنا أيضًا بعد أن أعماني سيلفيسترو بالإهانة؟ وهل روبرتو معرَّضٌ لفقدان بصره أيضًا؟ أم أنَّه ينجح دائمًا، مهما كان الظرف، وأيًّا كان ضغطُ الدّفعة العاطفيَّة، في تمالك نفسه صفيًّا رضيًّا؟

كانت الشقَّة في ظلام، وصمتٍ عميق. لا بدَّ أنَّ أمِّي قرَّرت أن تخرج مساء السبت. رنَّ الهاتف، فأجبتُ فورًا، واثقة من أنَّها جوليانا. كان تونينو؛ قال ببطء، وهدوءٍ أعجبني، لأنَّه بدا لي آنذاك إحدى ابتكاراته الصلبة:

- «أردتُ أن أعتذر منكِ وأودِّعكِ».

- «إلى أين ستذهب؟»

- «إلى البندقيَّة».

- «متى ستغادر؟»

- «هذه اللَّيلة».

- «لماذا اتَّخذتَ القرار متسرِّعًا؟»

- «لأنِّي إن لم أفعل فكأنَّني أدمِّر حياتي».

- «وما قول جوليانا؟»

- «لا شيء، لا تعلم. لا أحدٌ يعلم».

- «بمن فيهم روبرتو؟»

- «لا، فلو علم ذاك ما الذي فعلتُه هذا المساء لخاصمني».

- «ستُخبره جوليانا».

- «أمَّا أنا فلا».

- «هلَّا أرسلتَ لي عنوانك؟»

- «حالما أحصل على عنوانٍ أكتب إليكِ».

ـ «لماذا تجري هذه المكالمة لي أنا بالذات؟»

ـ «لأنَّكِ شخصٌ يفهم».

أغلقتُ الخط، وشعرتُ بالحزن. ذهبتُ إلى المطبخ، شربتُ بعض الماء، وعدتُ إلى الممرّ. لكنَّ ذلك اليوم لم ينتهِ بعد. انفتح باب غرفة النوم التي كانت في الماضي تؤوي أبويّ، وظهرت والدتي. لم تكن في زيّها المعتاد، إنَّما كانت ترتدي ثيابًا تليق بالمناسبات العظيمة. قالت بكلّ طبيعيَّة:

ـ «أما كنتِ ذاهبةً إلى السينما؟»

ـ «لم نذهب».

ـ «الآن، سنذهب نحن. كيف الطقس في الخارج، هل ينبغي ارتداء سترة؟»

ومن الغرفة نفسها، مرتديًا ثيابًا أنيقة هو أيضًا، أطلَّ ماريانو.

- 8 -

كانت تلك هي آخر مرحلةٍ في الأزمة الطويلة التي شهدها بيتنا، وهي لحظةٌ مهمَّةٌ أيضًا من الاقتراب المضنيّ إلى عالم البالغين. وفي الوهلة التي قرّرتُ فيها أن أبدو محترمة، وأن أردّ على أمّي بأنَّ السَّهرة كانت باهتة، وأن أوافق على قبلة ماريانو على خدِّيَّ، ومعها التلصُّصُ المعتاد على صدري، أدركتُ أنّه من المستحيل إيقاف المجريات. وحينما أغلق الاثنان البابَ خلفهما، ذهبتُ إلى الحمَّام وبقيتُ وقتًا طويلًا تحت الدوش، كما لو أنّي أطهِّر ذاتي منهما. وبينما كنت أنشِّف شعري أمام المرآة، راودني الضحك. لقد خُدِعتُ في كلِّ شيء، حتَّى شعري ليس جميلًا، كان ملتصقًا بقحف رأسي وعجزتُ عن منحه ألقًا ورونقًا. أمّا وجهي، فلم يكن فيه أيّ انسجام، مثل وجه فيتّوريا تمامًا. لكنَّ الغلطة كانت هي أن أصنع من ذلك مأساةً. كان يكفي أن أنظر ولو لوهلةٍ خاطفةٍ في من لديْه ميزةُ الوجه الجميل والناعم، لأكتشف أنَّه يُخفي في باطنه جحيمًا لا يختلف عن الجحيم الذي يعبِّر عنه أصحاب الوجوه القبيحة والغليظة. فإنّ ألق الوجه، الذي يزيده اللُّطفُ جمالًا، يُضمِرُ ويُنذِرُ بآلامٍ تفوق ما يقاسيه الوجهُ الكدر.

أنجيلا، على سبيل المثال، بعد حادثة السينما ورحيل تونينو عن حياتها، أصابها الحزنُ وأصبحت شرِّيرة. أجرت معي اتِّصالاتٍ مطوَّلةً

تتَّهمني فيها بأنِّي لم أناصرها، وأنِّي قبلتُ أن يصفعها أحدُ الذكور، وأنِّي رأيتُ تصرُّف جوليانا صائبًا. حاولتُ أن أنكر، ولكنْ عبثًا. قالت لي إنَّها روت تلك الحادثة لكوستانسا، ولوالدي أيضًا؛ فرأت كوستانسا أنَّها محقَّة، لكنَّ أندريا فعل أكثر من ذلك: فما إن فهم مَن يكون تونينو هذا، وابن مَن هو، وأين ولد وترعرع، حتَّى استشاط غضبًا، منها ومنِّي أيضًا. نقلت إليَّ بأنَّ أبي قال حرفيًّا: جوفانّا تعلم علم اليقين أيّ أناسٍ هم هؤلاء، كان عليها أن تساندكِ. لكنَّكِ لم تسانديني، صاحت؛ فتخيَّلتُ أنَّ وجهها العذب المتجانس المغويّ، في البيت في بوزيليبو، مضافًا إلى السمَّاعة البيضاء على أذنها، غدا في تلك اللَّحظة أقبح من وجهي. قلت لها: أرجوكِ، دعيني وشأني من الآن فصاعدًا؛ بوحي بأشيائكِ على مسامع أندريا وكوستانسا، فهما يفهمانكِ أكثر منِّي. وأغلقتُ.

وبعدها مباشرةً، وطَّدتُ علاقتي بجوليانا. وغالبًا ما سعت أنجيلا إلى مصالحة، كانت تقول لي: فلنخرج معًا. وكنت أجيبها دائمًا، حتى لو لم يكن ذلك صحيحًا: لديَّ التزام، سألتقي جوليانا؛ ولمَّحتُ لها أو قلت لها بوضوح: لا يمكنكِ المجيء معي، فهي لا تطيقكِ.

خفَّضتُ علاقتي بأمِّي إلى حدودها الدنيا أيضًا، وانتقلتُ إلى التلفُّظ بعباراتٍ باهتة، مثل: لست موجودةً اليوم، سأذهب إلى باسكوني؛ وإذا سألتني لماذا، أردّ: هكذا يطيب لي. لا شكَّ أنِّي تصرَّفتُ على ذلك الشَّكل لأشعر بالتَّحرُّر من كلِّ العوائقِ القديمة، ولأبيِّنَ أنَّني لم أعد أكترث بأحكام الأهل والأصدقاء، وقيمهم، ومساعيهم في جعلي متجانسةً مع ما يتخيَّلون أنَّهم كذلك.

- 9 -

ما من شكٍّ أنّني متّنتُ صلتي بجوليانا لأجني صداقة روبرتو، لا أنفي ذلك. لكنّي أحسستُ أنَّ جوليانا أيضًا في حاجةٍ حقيقيّةٍ إليَّ؛ آنذاك وقد هاجر تونينو بدون إيضاحاتٍ ليتركها وحيدةً تناهض فيتّوريا وسطوتها. ذاتَ مساء، اتّصلت بي وقد بلغ بها التوتّرُ أقصاه لتُخبرني أنَّ أمّها ـ مدفوعةً من عمّتي بطبيعة الحال ـ كانت تريد منها أن تقول لروبرتو: إمّا أن تتزوّجني فورًا ونسكن في نابولي وإمّا نفسخ الخطوبة.

«لكنّي لا أستطيع ـ قالت محبطةً ـ إنَّه يبذل جهودًا كبيرة، ويعمل حاليًا على مشروعٍ مهمٍّ في مسيرته. سيكون من الجنون أن أقول له: تزوّجني الآن. وفي كلّ الأحوال، أنا أريد مغادرة هذه المدينة، إلى الأبد».

كانت مرهقةً من كلِّ شيء. نصحتُها أن توضّح لمرغريتا وفيتّوريا مشاكلَ روبرتو، ففعلت بنصيحتي بعد تردُّدٍ كبيرٍ، لكنَّ المرأتيْن لم تقتنعا وراحتا تصدّعان رأسها بضغوطاتٍ لا تنتهي. إنّهما جاهلتان ـ قالت خائبةً ـ تريدان إقناعي أنَّ روبرتو إذا وضع مشاكله المعنيّة بالجامعة في المقام الأوّل والزواج في المقام الثاني، فهذا يعني أنّه لا يحبُّني كثيرًا، ولا يفعل شيئًا سوى إضاعة وقتي.

إلّا أنَّ هذه الضغوط أثمرت: سرعان ما أدركتُ أنَّ جوليانا أيضًا تشكّ بروبرتو في بعض الأحيان. ما زالت تردّ بانفعال، وتشاحن فيتّوريا التي تدسّ

في رأس أمّها أفكارًا بشعة، لكنَّ الإلحاح المفرط يفتح للأفكار البشعة طريقًا إليها أيضًا، ويزيد قلبَها تعاسةً.

ـ «أترين أين أعيش؟»، قالت لي في ظهيرة أحد الأيَّام الذي ذهبتُ فيه إليها، وتمشَّينا في الحارات الكئيبة حول بيتها. «أمَّا روبرتو فيعيش في ميلانو، وهو مشغولٌ على الدوام، يلتقي بكثيرٍ من الأشخاص الأذكياء، وأحيانًا يكون منهمكًا في عمله لدرجة أنَّني لا أستطيع تحصيله حتى على الهاتف».

ـ «هذه حياته».

ـ «حياته يجب أن تكون أنا».

ـ «لا أدري».

توتَّرت أعصابها.

ـ «لا؟ فما الحياةُ إذن: دراسة، نقاشاتٍ مع الزميلات والطالبات؟ لعلّ فيتّوريا مُحقَّةٌ: إمَّا أن يتزوَّجني وإمَّا كفى».

ازدادت الأمور تعقيدًا حينما أبلغها روبرتو أنَّه ملزمٌ بالذهاب عشرة أيَّامٍ إلى لندن من أجل العمل. غضبت جوليانا أكثر من المعتاد، واتَّضح شيئًا فشيئًا أنَّ المشكلة لم تكن سفره إلى الخارج ـ علمتُ أنَّ هذا قد حدث غير مرَّةٍ في السَّابق، حتَّى لو كانت الرحلة يوميْن أو ثلاثة ـ إنَّما لكونه لا يسافر بمفرده. توجَّستُ أنا أيضًا عندئذٍ:

ـ «مع من يسافر؟»

ـ «مع ميكيلا وأستاذيْن آخرين».

ـ «ومَن تكون ميكيلا؟»

ـ «واحدةٌ تدبق به دائمًا».

ـ «اذهبي أنتِ أيضًا».

ـ «إلى أين يا جانّي؟ إلى أين؟ لا تفكّري كيف ربُوكِ أنتِ، بل فكّري كيف نشأتُ أنا، فكّري بفيتّوريا، فكّري بأمّي، فكّري بهذا المكان الخرائيّ. بالنّسبة إليكِ الأمور كلُّها سهلة، أمّا أنا فلا».

بدت لي غير مُنصفة: كنت أجهد نفسي في تفهُّم مشاكلها، في حين أنّها بلا أدنى فكرةٍ عن مشاكلي. لكنّي تظاهرتُ بعدم استيائي، وتركتها تفضفض، وحاولتُ تهدئتها بشتّى السُّبل؛ إذ كانت الجودة النادرة لخطوبتها تقع في مركز مجادلاتي كالعادة. ليس روبرتو بالشخص العاديّ، إنّما رجلٌ ذو قوّةٍ روحيَّةٍ عظيمة، ومثقَّفٌ، ومخلص. ولئن كان لدى ميكيلا تلك غاياتٌ، فإنّه لن ينصاع لها. إنّه يحبُّكِ، قلت، وسيتصرَّف بطبعه النزيه.

انفجرت ضاحكةً، وغدت حادَّة. جاء تحوُّلها فجائيًّا لدرجة أنّه ذكّرني بتونينو وحادثة السينما. سدَّدت عيناها القلقتان إلى عينيَّ، وتوقّفت بغتةً عن الكلام بإيطاليّتها المشوبة بالعامّيّة، وانتقلت إلى عامّيّتها الصرف.

ـ «كيف تعرفين أنّه يحبُّني؟»

ـ «لستُ الوحيدة. الجميع يعرف ذلك، بل حتى ميكيلا نفسها».

ـ «الذكور! طيّبين كانوا أم ملاعين، بمجرَّد أن تلمسيهم لا يسعون إلّا إلى النيك».

ـ «هذا قالته لكِ فيتّوريا، لكنّه هراء».

ـ «فيتّوريا تقول أشياءَ بشعة، لكنّها لا تتفوّه بالهراء».

ـ «في كلّ الأحوال، عليكِ أن تثقي بروبرتو، وإلّا تألّمتِ».

ـ «إنّني أتألّم كثيرًا في الأساس يا جانّي».

انتبهتُ حينذاك أنّ جوليانا لا تعزو إلى ميكيلا هوس مضاجعة روبرتو فحسب، إنّما التّخطيط لانتزاعه منها والزواج به أيضًا. فخطر في ذهني أنّه،

وهو المنشغل في دراساته، لربَّما لا يفكِّر مطلقًا بأنَّها تلهج بهذه الهواجس. وفكَّرتُ أنَّه يكفي أن أقول له: جوليانا تخشى أن تخسرك، إنَّها متوتِّرةٌ جدًّا، فطمئنها. ولعلّ ذلك في كلِّ الأحوال هو الدافع الذي أُمدِدْتُ به لأطلب منها رقم هاتف خطيبها.

ـ «إن أردتِ ـ ارتجلتُ ـ أتحدَّث إليه، وأحاول أن أفهم كيف تجري الأمور مع ميكيلا هذه».

ـ «هلَّا فعلتِها؟»

ـ «بالتَّأكيد».

ـ «ولكن لا ينبغي أن يفترض أنَّكِ تتَّصلين من أجلي».

ـ «تصوَّري».

ـ «وعليكِ أن تنقلي إليَّ كلَّ ما تقولينه أنتِ وكلَّ ما يقوله هو».

ـ «بالتَّأكيد».

ـ 10 ـ

سجَّلتُ الرَّقم في أحد دفاتر الملاحظات، وحدَّدتُه داخل مستطيلٍ بقلم الرسم الأحمر. وذات ظهيرةٍ، اغتنمتُ عدم وجود أمِّي في البيت، واتَّصلتُ بعاطفةٍ جيَّاشة. بدا لي روبرتو متفاجئًا باتِّصالي، إلى حدِّ التخوُّف. لا بدَّ أنَّه ظنَّ وقوع مكروهٍ لجوليانا، وكان ذلك سؤاله الأوَّل. طمأنته أنَّها بخير، وتلفَّظتُ ببعض العبارات المضطربة، ثمَّ أقصيتُ بغتةً كلَّ المقدِّمات التي درستُها لإضفاء الوقار على المكالمة، وقلتُ بلهجةٍ أقربَ إلى التهديد:

ـ «إن كنتَ قد وعدتَ جوليانا بالزواج ولم تتزوَّجها، فأنت عديم المسؤوليَّة».

صمتَ برهةً، ثمَّ سمعته يضحك.

ـ «أصون وعودي دومًا. هل دفعتكِ عمَّتكِ للاتِّصال بي؟»

ـ «لا، فأنا أفعل ما يطيب لي».

وانطلقنا من هذا الاعتبار نحو محادثةٍ أربكتني كثيرًا، بسبب عدم إبدائه أيَّ مانعٍ للتَّحدُّث معي عن مسائل شخصيَّة. قال إنَّه يحبُّ جوليانا، وإنَّ الأمر الوحيد الذي سيحول بينه وبين زواجه بها هو أن ترفضه جوليانا. أكَّدتُ له أنَّها لا ترغب إلَّا فيه، لكنِّي أضفتُ إنَّها حائرةٌ، وتخشى أن يضيع منها، وتخشى أن يُغرَم بأخرى. فأجاب أنَّه يعلم ذلك، وأنَّه يفعل ما بوسعه

لطمأنتها. أصدِّقك، قلت، لكنَّك ستسافر إلى الخارج الآن، وقد تلتقي بفتاةٍ أخرى، فماذا تفعل إن اكتشفتَ أنَّ جوليانا لا تفهم شيئًا عنك وعن عملك، بينما تفهمك الأخرى جيِّدًا؟ أسمعني إجابةً طويلة. بدأ من نابولي، وحيّ باسكوني، ومن طفولته في تلك المنطقة. تحدَّث عنها بوصفها أماكنَ عجائبيَّة، أو مختلفة جدًّا عمَّا كنت أراها بعينيَّ. قال إنَّه قد اقترض دَيْنًا من هناك، ويجب عليه إيفاؤه. حاول أن يشرح لي أنَّ حبَّه لجوليانا، المولود في تلك الحواري، كان بمثابة مذكِّرة، الذكرى الرَّاسخة لذلك الدَّيْن. وعندما سألتُه ما الذي يقصده بالدَّيْن، فسَّر لي أنَّه يوجِبُ نفسه بترميمٍ مثاليٍّ للمكان الذي وُلد فيه، وأنَّ حياةً واحدةً لا تكفي لإرجاع التوازن إلى كفَّتَي الميزان. قلت حينها: هل تريد أن تتزوَّجها كما لو أنَّك تتزوَّج الباسكوني؟ شعرتُ أنَّه ارتبك، قال إنَّه ممتنٌّ لي، لأنَّني أدفعه إلى التمعُّن بالأمر، وهجَّأ بمشقَّةٍ معيَّنة: أريد أن أتزوَّجها لأنَّها تُجسِّدُ الدَّيْن الذي عليَّ سداده. اتَّخذ نبرةً خفيضةً حتى النهاية، مع أنَّه تفوَّه بعباراتٍ ساميةٍ أحيانًا، مثل «لا يُمكن للمرء أن ينجو بمفرده». انتابني إحساسٌ بأنِّي أحادث أحد رفاق صفِّي، إذ كان يختار الصياغات الابتدائيَّة، وهذا ما جعلني أشعر بالارتياح تارةً، وبالمرارة تارةً أخرى. ففي بعض اللَّحظات، توجَّستُ من كونه يحاكيني بأسلوبٍ يناسب ما أنا عليه، فتاةً صغيرةً، ولوهلةٍ فكَّرتُ أنَّه ربَّما مع ميكيلا إيَّاها يستخدم أسلوبًا أشدّ ثراءً وتعقيدًا. ولكن، في المحصِّلة، ما الذي كنت أطالب به؟ شكرتُه على المحادثة، وشكرني لأنِّي سمحتُ له بالحديث عن جوليانا، ولأنِّي أُبدي مودَّةً لكليْهما. فقلتُ بلا تفكير:

ـ «تونينو هاجر، وهي تعاني كثيرًا، باتت وحيدة».

ـ «أعلم، وسأحاول أن أعالج الموضوع. تشرَّفتُ بالحديث إليكِ».

ـ «وأنا أيضًا».

- 11 -

نقلتُ كلَّ كلمةٍ إلى جوليانا، فاستعادت بعضًا من العنفوان الذي كانت في أمسِّ الحاجة إليه. لم ألحظ تدهورًا في حالتها عندما سافر روبرتو إلى لندن. قالت لي إنَّه اتَّصل بها، وكتب لها رسالةً جميلة، ولم تُشِرْ إلى ميكيلا البتَّة. ابتهجت أساريرها حين أبلغها عن إصدار مقالةٍ جديدةٍ له توًّا في مجلَّةٍ مهمَّة. وبدت لي فخورةً به، وسعيدةً كأنَّها هي التي كتبت المقالة. لكنَّها تحسَّرت ضاحكةً من كونها لا تستطيع المباهاة بذلك إلَّا معي: فيتّوريا، أمّها، كورّادو، ما كانوا ليثمّنوا ذلك؛ وتونينو، الوحيد الذي قد يفهمها، كان بعيدًا، يعمل نادلًا، ومن يدري إن كان يتابع دراسته!

- «هلَّا قرأتِها عليَّ؟» سألتُ.

- «المجلَّة ليست عندي».

- «لكنَّكِ قرأتِها؟»

أدركتْ أنَّني متأكِّدةٌ تمامًا من أنَّه يُقرئها كلَّ ما يكتبه، وكنتُ كذلك: والدي يُقرئ أمِّي كتاباتِه، وفرض عليَّ أنا أيضًا أن أقرأ بعض الصفحات التي تخصُّه أحيانًا. عبستْ، وقرأتُ في عينيْها أنَّها تريد أن تجيبني بنعم: قرأتْ مقالاتِه جميعًا، وأدلتْ حتَّى بإيماءةِ إثباتٍ تلقائيَّة. لكنَّها أخفضت نظرها، ثمَّ رفعته غاضبةً، وقالت:

ـ «لا، لم أقرأ جميع مقالاته، ولا أريد».

ـ «لماذا»

ـ «أخشى ألّا أفهمها».

ـ «ربَّما ينبغي لكِ أن تقرأيها عمومًا، فهذا سيسعده بالتَّأكيد».

ـ «لو كان يسعده لأقرأني إيَّاها. لكنَّه لم يفعلها، وبالتالي من المؤكَّد أنَّني لن أستطيع فهمها».

كنَّا نتمشَّى في شارع طليطلة، على ما أذكر، وكان الطقس حارًّا. وكانت المدارس تغلق أبوابها، ونتائج الامتحانات وشيكة. الفتيات والفتية يحتشدون في الطرقات، كم جميلٌ ألَّا يكون هناك واجبات، للتمتُّع بالهواء الطلق! كانت جوليانا تنظر إليهم، كما لو أنَّها لا تفهم سبب كلِّ تلك الحيويَّة. مرَّرت أصابعها على جبينها، فشعرتُ أنَّها عرضةٌ للكآبة، فقلتُ على عُجالة:

«هذا لأنَّكما تعيشان مفترقيْن، ولكن ما إن تتزوَّجا سترين كيف يُقرئكِ كلَّ مقالاته».

«إنَّه يُقرئ ميكيلا كلَّ ما يكتبه».

آلمني الخبرُ أنا أيضًا، لكنَّ الوقت لم يُسعفني لأردَّ عليه. ففي تلك اللَّحظة تحديدًا، نادانا صوتٌ ذَكَرِيّ. سمعتُ اسم جوليانا أوَّلًا، ثمَّ اسمي بعده مباشرةً. التفتنا في آنٍ واحد، ورأينا روزاريو من الجانب الآخر للطريق، واقفًا عند عتبة أحد المقاهي. أومأت جوليانا بحركةٍ تنمّ عن انزعاجها، ولوَّحت بيدها في الهواء. أرادت أن تكمل طريقها كما لو لم تسمع شيئًا، لكنَّني كنت قد أدليتُ بتحيَّةٍ، فقطع الشارع ليبلغنا.

ـ «هل تعرفين ابن المحامي سارجينتي؟»، قالت جوليانا.

ـ «عرَّفني عليه كورّادو».

ـ «كورّادو غبيّ».

كان روزاريو يقطع الشارع ويضحك بطبيعة الحال، بدا أنَّه سعيدٌ للقائه بنا.

ـ «إنَّها علامةٌ من القدر ـ قال ـ أن ألتقي بكما بعيدًا عن حيّ باسكوني. تعالا لأقدِّم لكما شيئًا».

أجابت جوليانا بحزم:

ـ «نحن مستعجلتان».

تظاهر بملامح قَلَقٍ مبالغٍ فيه.

ـ «ماذا هناك، ألستِ على ما يرام اليوم، هل أعصابكِ مرهَقة؟»

ـ «بل أنا بخير جدًّا».

ـ «خطيبكِ غيور؟ هل قال لكِ ألَّا تتحدَّثي معي؟»

ـ «خطيبي لا يعلم حتَّى أنَّك موجود».

ـ «لكنَّكِ تعلمين، أليس كذلك؟ تعلمين وتفكِّرين بي دائمًا، لكنَّكِ لا تخبرين خطيبكِ. ولكنْ عليكِ أن تخبريه بالأمر، عليكِ أن تقولي له كلَّ شيء. فبين المخطوبيْن لا ينبغي وجود أسرار، وإلَّا تعطَّلت العلاقة وتألَّم الجانبان. أنا أرى أنَّكِ تتألَّمين، أنظر إليكِ وأفكِّر: أنتِ تتلفين، يا للأسف! كنتِ في السَّابق ممتلئةً وناعمة، وها أنتِ تصبحين مثل مكنسة الذرة».

ـ «أمَّا أنت، فما أوسمك!»

ـ «أفضل من خطيبكِ. تعالي، هل ترغبين بحلوى سفولياتيلا؟»

أجبتُ:

ـ «تأخَّر الوقت، علينا أن نذهب».

ـ «سأوصلكما بسيَّارتي. في البدء، نوصل جوليانا إلى الباسكوني، ثمَّ نصعد إلى ريوني ألتو».

جرجرنا إلى المقهى، وما إن وصلنا إلى المصطبة حتى تجاهل جوليانا كلِّيًا، إذ انطوت على نفسها في زاويةٍ بجوار الباب تحدِّق إلى الطريق والمارَّة. وبينما كنت أتناول السفولياتيلا، حدَّثني باستمرار جالسًا بجانبي حتى اضطررتُ إلى التنحِّي عنه مرارًا. وكان يهمس في أذني مجاملاتٍ مغوية، ويمتدح على العلن عينيَّ وشعري.. وما أدراني. بلغتْ به الوقاحة أن يسألني موشوشًا إن كنت ما أزال عذراء، فضحكتُ بعصبيَّةٍ، وقلت نعم.

«أنا سأنصرف»، قالت جوليانا مستاءةً وخرجت من المقهى.

ذكر روزاريو بيته الذي في شارع مانزوني، ورقم الشقَّة، والطابق. وقال إنَّها تطلّ على البحر. وغمغم في النهاية:

ـ «أنا في انتظاركِ دومًا، هلَّا أردتِ المجيء؟»

ـ «الآن؟» سألته باستمتاعٍ مصطنع.

ـ «متى أردتِ».

«الآن لا»، قلت جادَّة، وشكرتُه على الحلوى وبلغتُ جوليانا في الطريق. فهتفتْ غاضبةً:

ـ «لا تمنحي هذا الوغد ثقتكِ».

ـ «لم أمنحها له، هو الذي أخذها».

ـ «إن رأتكما عمَّتكِ سويَّةً، ستقتلكِ وتقتله معًا».

ـ «أعرف».

ـ «هل حدَّثكِ عن شارع مانزوني؟»

ـ «أجل، كيف عرفتِ؟»

هزَّت جوليانا رأسها بقوَّة، كما لو أنَّها أرادت أن تمحو بإيماءة النفي كلَّ الصور التي خطرت في ذهنها.

ـ «لقد كنت هناك».

ـ «مع روزاريو؟»

ـ «مع مَن إذن؟»

ـ «الآن؟»

ـ «ماذا تقولين؟ كنت أصغر منكِ».

ـ «لماذا؟»

ـ «لأنَّني حينذاك كنت أغبى ممَّا أنا عليه اليوم».

وددتُ أن تروي لي، لكنَّها قالت إنَّه ما من شيءٍ لترويه. روزاريو لا أحد، لكنَّه بفضل والده يعتقد أنَّه كلَّ شيء ـ نابولي القبيحة يا جانّي، إيطاليا الأقبح التي لا يغيِّرها أحد، بمن فيهم روبرتو بكلماته الجميلة التي يقولها ويكتبها! ـ كان روزاريو غبيًّا لدرجة أنَّه، ما دام كانا معًا بضع مرّات، يرى لنفسه الحقّ بتذكيرها بالأمر في كلِّ مناسبة. ترطَّبت مقلتاها بالدموع:

ـ «عليَّ أن أغادر الباسكوني يا جانّي، عليَّ أن أغادر نابولي. فيتّوريا تريد أن تبقيني هنا، فهي تحبّ أن تبقى في حربٍ متواصلة. وروبرتو في

العمق يوافقها الرأي، قال لكِ إنَّ عليه دَيْنًا يوفيه. ولكنْ أيُّ دَيْن؟ أنا أريد أن أتزوَّج وأسكن في بيتٍ جميلٍ لي في ميلانو، بطمأنينةٍ وسلام».

نظرتُ إليها بارتباك.

ـ «حتَّى لو كانت العودة إلى هنا مهمَّةً بالنِّسبة إليه؟»

هزَّت رأسها بشدَّة، وراحت تبكي، توقَّفنا في ساحة دانتي. قلت:

ـ «لماذا تفعلين هكذا؟»

مسحت عينيْها برؤوس أصابعها وغمغمت:

ـ «هلَّا رافقتِني إلى روبرتو؟»

أجبتُ فورًا:

ـ «أجل».

- 12 -

استدعتني مرغريتا صباح يوم الأحد، لكنّي لم أذهب إلى بيتها مباشرةً، عرّجتُ أوّلًا على فيتّوريا. كنت على ثقةٍ أنَّها وراء الطلب منّي مرافقة جوليانا إلى روبرتو، وأدركتُ أنَّني إن لم أبدِ طاعةً ومودَّةً فقد تُلغى مهمَّتي. نادرًا ما التقيتُ بها طوال تلك المدَّة عندما كنت أذهب لزيارة جوليانا ـ وكانت ازدواجيَّةً كعادتها. اقتنعتُ مع مرور الوقت أنَّها لا ترى نفسها فيَّ إلَّا إذا غمرتْها أمواجُ الحنان، في حين أنَّها إذا حدَّدت فيَّ صفةً من والدي، تتوجَّس من أنّي قد أؤذيها وأؤذي مَن تحبُّ مثلما أذاها شقيقُها في الزمان الماضي. من جهةٍ أخرى، لم أكن مغفَّلة: كنت أعتبرها استثنائيَّةً عندما أتخيَّل أنَّني أصبح بالغةً محارِبة، وأعتبرها مقرفةً عندما أرى فيها ملامح والدي. في ذلك الصباح، خطر في بالي على حين غرَّةٍ أمرٌ مقيتٌ وممتعٌ في آنٍ واحد: لا أنا ولا فيتّوريا ولا أبي كان في وسعنا اقتلاع جذورنا المشتركة حقًّا، فنضطرُّ هكذا إلى محبَّة أنفسنا أو الحقد على أنفسنا، بحسب ما يقتضيه الظرف.

اتَّضح أنَّه نهارٌ محظوظ. أبدت فيتّوريا سعادتها العارمة برؤيتي. تركتُها تعانقني وتقبّلني بأسلوبها الدبق والمكثَّف المعهود. أَودُّكِ كثيرًا، قالت؛ وخرجنا باستعجالٍ لنذهب إلى مرغريتا. وفي الطريق، باحت لي بما كنتُ أعرفه مسبقًا، وتظاهرتُ بأنّي أجهله، أيْ المرَّات النادرة التي سُمِحَ فيها

لجوليانا بملاقاة روبرتو في ميلانو، ولطالما رافقها تونينو. لكنَّ الشابّ آنذاك قد مضى في شأنه إلى البندقيَّة وهجر عائلته - ترقرقت عينا فيتّوريا بالدموع من مزيج الأسى والامتعاض - وبما أنَّه لا يُمكن الاعتماد على كورّادو مطلقًا، خطرتُ في بالها.

- «سأفعلها بكلِّ سرور»، قلت.

- «ولكن عليكِ أن تحسني فعلها».

قرَّرتُ أن أبارزها قليلًا، فهي تحبّ ذلك عندما يصفو مزاجها. سألتها:

- «ماذا تقصدين؟»

- «جانّي، مرغريتا خجولة، أمَّا أنا فلا، لذا أقول لكِ بكلِّ وضوح: عليكِ أن تتأكَّدي من أنَّ جوليانا ستكون دومًا إلى جانبكِ، ليل نهار. هل فهمتِ ما أعنيه؟»

- «أجل».

- «شاطرة. فالرجال - تذكَّري ذلك جيِّدًا - يريدون شيئًا واحدًا فقط. لكنَّ جوليانا قبل الزواج ينبغي ألَّا تمنح هذا الشيء أبدًا، وإلَّا فإنَّه لن يتزوَّجها بعد».

- «أنا أرى أنَّ روبرتو ليس من ذلك الصنف من الرجال».

- «كلَّ الرجال من ذلك الصنف».

- «لست واثقة».

- «حين أقول كلَّهم، يعني كلّهم، يا جانّي».

- «حتى إنزو؟»

- «وإنزو أكثر من غيره».

- «فلماذا أعطيته ذلك الشيء؟»

نظرت إليَّ فيتّوريا بذهولٍ واستحسان، وانفجرت ضاحكة. شبكت كتفيَّ بعناقٍ قويّ، وأعطتني قبلةً على خدِّي.

ـ «أنتِ مثلي يا جانّي، لا بل أدهى منّي، ولذلك تعجبينني. لقد أعطيتُه ذلك الشيء، لأنَّه كان متزوِّجًا ولديه ثلاثة أبناء، وإن لم أعطه، فكان عليَّ أن أرفضه. لكنَّني لم أكن أستطيع، لأنِّي كنت أحبُّه أكثر ممَّا ينبغي».

تظاهرتُ بالاكتفاء بتلك الإجابة، مع أنِّي وددتُ أن أُظهر لها كيف تناقض نفسها، وأنَّ الشيء الذي يهواه الذكور لا يُعطى على قاعدة التقييمات الانتهازيَّة، وأنَّ جوليانا كبيرة، وبوسعها فعل ما يحلو لها، وأنَّها ومرغريتا في النهاية لا يحقّ لهما أن تراقبا فتاة عمرُها عشرون عامًا. لكنِّي سكتُّ، لأنَّ رغبتي الوحيدة آنذاك هي الذهاب إلى ميلانو وملاقاة روبرتو، لكي أرى بأمّ العين أين وكيف يعيش. ثمَّ إنِّي كنتُ أدرك خطورة شدّ الحبل كثيرًا مع فيتّوريا، فإن كنتُ قد أضحكتُها حينها، تكفي شطحةٌ بسيطةٌ لتتجرَّأ على طردي بعيدًا. فاخترتُ درب التَّسليم، ووصلنا إلى بيت مرغريتا.

وهناك، أكَّدتُ لوالدة جوليانا أنِّي سأراقب الخطيبيْن بشكلٍ دؤوب، في حين أنَّ فيتّوريا، بينما كنت أتحدَّث بإيطاليَّةٍ رفيعةٍ لأضفي على نفسي هالةً من الوجاهة، كانت غالبًا ما توشوش ابنتها المتبنَّاة: هل فهمتِ، عليكِ أنتِ وجانّينا أن تبقيا معًا في كلِّ لحظة، لاسيَّما أثناء النوم؛ أومأت جوليانا بنعمٍ شاردة، لكنَّ الوحيد الذي أزعجني بنظراته الهازئة كان كورّادو. عرض عليَّ أكثر من مرَّةٍ أن يرافقني إلى موقف الحافلة. وعندما أَبرمت كلَّ الاتفاقيَّات مع فيتّوريا ـ ينبغي أن نعود مساء يوم الأحد من كلِّ بُدٍّ، سيدفع روبرتو ثمن التذاكر ـ انصرفتُ وجاء كورّادو معي. وفي الطريق، وعند الموقف، في انتظار مجيء الحافلة، لم يفعل شيئًا سوى السُّخرية منّي، والتفوُّه بعباراتٍ مستفِزَّةٍ

متخفِّيَّةٍ بثوبِ المزاح. خصوصًا حين طلب منّي بكلّ وضوح أن أمارس معه الأشياء التي فعلتُها في الماضي.

ـ «مصّة»، طلب منّي بالعامّيَّة «مصّة لا أكثر، هنا في الجوار ثمَّة مبنًى قديم مهجور».

ـ «كلّا، فأنت تثير اشمئزازي».

ـ «إن عرفتُ أنَّكِ مصصتِ لروزاريو، أخبرتُ فيتّوريا».

ـ «لا يهمُّني»، أجبتُ بعامِّيَّةٍ أضحكته كثيرًا من سوء لفظها.

حتى أنا ضحكتُ حين سمعتُ كلامي. لم أشأ أن أتعارك مع كورّادو، ولا مع غيره، كنت سعيدةً جدًّا بأنّي سأسافر. وبينما كنت أعود إلى البيت، عصرتُ دماغي لإيجاد أكذوبةٍ أرويها لأمّي لتبرير سفري إلى ميلانو. لكنّي سرعان ما أيقنتُ أنَّني لم أعُدْ مضطرَّةً لاختلاق الأكاذيب. وهكذا، أبلغتُها على العشاء، بنبرةِ مَن يرى الأمر غير قابلٍ للنقاش، أنَّ جوليانا، ابنة فيتّوريا المتبنَّاة، ستسافر إلى ميلانو لزيارة خطيبها، وأنَّني أُوكِلتُ مرافقتها.

ـ «نهاية الأسبوع هذا؟»

ـ «أجل».

ـ «لكنَّ يوم السبت عيد ميلادكِ، وقد حضَّرتُ حفلةً، سيأتي أبوكِ، وستأتي كلٌّ من أنجيلا وإيدا».

أحسستُ بخواءٍ يتفشّى في صدري لوهلة. كم كنتُ أحبّ عيد ميلادي منذ صغري! ومع ذلك، كان أمره قد خرج من ذهني هذه المرَّة. تملَّكني انطباعٌ أنَّني أخطئ في حقّ نفسي، قبل أن أخطئ في حقّ والدتي. لم أكن قادرةً على إعلاء شأني، كنتُ أتحوَّل إلى طيْفٍ هشٍّ في الخلفيَّة،

ظلًّ جانبيٍّ لجوليانا، المرافِقةُ القبيحةُ للأميرة التي تذهب لدى الأمير. أيُّ دوْرٍ كان يستحقّ أن أتخلّى من أجله عن تقليدٍ عائليٍّ قديمٍ ومحبَّب، وشموعٍ صغيرةٍ يُنفَخُ عليها، وهدايا مفاجئة؟ أجل، أقرَّيتُ، واقترحتُ على نيلّا:

ـ «فلنحتفل عند عودتي».

ـ «إنَّكِ تحزنينني».

ـ «ماما، لا تصنعي مأساةً من لا شيء».

ـ «حتى والدكِ سيتألَّم».

ـ «سترين أنَّه سيكون سعيدًا: خطيب جوليانا شابٌّ شاطرٌ جدًّا، وبابا يقيم له اعتبارًا».

كشَّرتْ بأسف، كما لو أنَّها مسؤولةٌ عن وجدانيَّتي المضمحلَّة.

ـ «هل ستنجحين؟»

ـ «أمّاه، هذا أمرٌ يخصُّني، لا تتضايقي».

غمغمتْ: «لم نَعُدْ نعوّل عليكِ».

أجبتُها أنَّه غير صحيح. وقلت في نفسي أثناء ذلك: لكنَّ روبرتو يعوّل عليَّ أكثر.

- 13 -

مساء يوم الجمعة، كان لأقلّ المشاريع معنًى في مراهقتي بداية.

كانت الرحلة اللَّيليَّة إلى ميلانو مملَّةً للغاية. حاولتُ أن أحادث جوليانا، لكنَّها ـ ولاسيَّما مذ قلت لها إنِّي سأتمّ عامي السادس عشر في اليوم اللَّاحق ـ أبرزت ارتباكًا منذ أن وصلت إلى المحطَّة بحقيبةٍ حمراءَ ضخمة، وحقيبةِ يدٍ منتفخةٍ جدًّا، وانتبهت أنِّي أتيتُ بحقيبةٍ صغيرةٍ فقط، لا تحتوي إلَّا على الأشياء الضروريَّة. قالت: يؤسفني أنَّني جرجرتُكِ معي، وأفسدتُ عليكِ الحفلة. ثمَّ لم نتبادل أيَّ شيءٍ بعد هذا الحوار القصير، ولم نتمكَّن من إيجاد النَّبرة الصَّحيحة، ولا ذاك الارتياح الذي يُطلق العنان للألفة الحميمة. صرَّحتُ أنِّي جائعة، في لحظةٍ ما، وأردتُ استكشاف القطار لعلّي أجد ما يؤكَل. فأخرجت جوليانا من الحقيبة على مضض أشياءَ لذيذةً جهَّزتها أمُّها، ولم تأخذ منها سوى قطعةٍ صغيرةٍ من أومليت الباستا، فيما التهمتُ أنا كلَّ شيء. كانت المقصورة مكتظَّةً، وقد استلقينا على المراقد بامتعاض. بدت جوليانا بليدةً من شدَّة الغمّ، وأحسستُ بها تتقلَّب وتتقلَّب، ولم تقصد إلى المرحاض إطلاقًا.

لكنّها انغلقت على نفسها فيه لوقتٍ طويلٍ قبل ساعةٍ من موعد الوصول على الأقلّ، وعادت مسرَّحة الشعر ومجمَّلةً بمكياجٍ خفيف، وقد

بدَّلت حتى ملابسها. وقفنا في الممرّ، كان الصباح في الخارج يُنذِر بيومٍ شاحب. سألتني ما إذا كانت مغاليةً في أمرٍ ما، أو ما إذا تبدو خارج السياق. فطمأنتُها. راحت حينها تسترخي قليلًا، وحدَّثتني بصراحةٍ ودِّيَّة.

«أحسدكِ»، قالت.

ـ «علامَ؟»

ـ «لا ترتِّبين نفسكِ، وتشعرين أنَّكِ بخير مثلما أنتِ».

«غير صحيح».

ـ «بل صحيح. في داخلكِ شيءٌ هو ملككِ وحدَكِ وتكتفين به».

ـ «ليس لديَّ شيءٌ، إنَّما أنتِ لديكِ كلُّ شيء».

هزَّت رأسها وغمغمت:

«روبرتو يقول دائمًا إنَّكِ ذكيَّةٌ كثيرًا، وإنَّ لديْكِ حساسيَّةً عظيمة».

اشتعل وجهي: «يخطئ».

ـ «بل إنَّه مصيبٌ للغاية. عندما منعتني فيتّوريا من السفر، كان هو مَن اقترح عليَّ أن أطلب منكِ مرافقتي».

ـ «ظننتُ أنَّ عمَّتي هي التي قرَّرت ذلك!»

ابتسمتْ. بالتَّأكيد هي التي قرَّرت، لا يستطيعون فعلَ شيءٍ لا يحظى على قبول فيتّوريا. لكنَّ الفكرة جاءت من روبرتو، فتحدَّثتْ بها جوليانا مع أمِّها من دون أن تذكر خطيبها، ومرغريتا استشارت فيتّوريا. غمرتني العاطفة ـ هو الذي أرادني في ميلانو إذن ـ ورحتُ أردُّ على جوليانا، التي طاب لها الحديث آنذاك، بكلماتٍ مختصرة، لم أستطع تمالك نفسي. سأراه ثانيةً بعد قليل، وسأكون معه طوال النهار، في بيته، على الغداء، على العشاء، والنوم. هدأ روعي شيئًا فشيئًا، قلت:

ـ «هل تعرفين كيف الوصول إلى بيت روبرتو؟»

ـ «أجل، لكنَّه سيأتي ليأخذنا».

ضبطتْ جوليانا وجهها مرَّةً أخرى، ثمَّ أخرجت من حقيبة يدها كيسًا جلديًّا، هزَّته، فانزلق على كفِّها سوار عمَّتي.

ـ «هل أضعه؟» سألتني.

ـ «لمَ لا؟»

ـ «إنَّني قلقةٌ دائمًا. فيتّوريا تغضب إن لم تره في معصمي. لكنَّها صارت تخاف أن أضيّعه، تلحُّ عليَّ فأرتعب».

ـ «احرصي عليه. هل يعجبكِ؟»

ـ «لا».

ـ «لماذا؟»

اتَّخذت لحظة صمتٍ وحيرةٍ طويلة.

ـ «ألا تعرفين؟»

ـ «لا».

ـ «تونينو لم يخبركِ؟»

ـ «لا».

ـ «هذا السّوار، أهداه أبي لوالدة فيتّوريا بعد أن سرقه من جدَّتي، جدَّتي من أمّي، وكانت حينذاك مريضةً إلى حدٍّ بعيد».

ـ «سرقه؟ والدكِ، إنزو؟»

ـ «أجل، استلبه خلسةً».

ـ «وهل فيتوريا تعلم ذلك؟»

ـ «بالطبع».

ـ «وأمُّكِ؟»

ـ «هي التي أخبرتني».

خطرت في بالي صورة إنزو التي في المطبخ، التي يظهر فيها بزيِّ الضابط. كان يرعى المرأتيْن حتَّى وهو ميِّت، مسلَّحًا بالمسدّس. كان يحويهما معًا في مِلَّةِ صورته، الزوجة والعشيقة. أيُّ سطوةٍ يمتلكها الذكور، حتَّى أشدُّهم شقاءً، سطوةٍ حتَّى على امرأتيْن شجاعتيْن وعنيفتيْن مثل عمَّتي. قلت، ولم أستطع إخفاء سخريتي:

ـ «أبوكِ سرق السوار من حماته وهي تُحتَضر ليُهديه لأمّ عشيقته التي كانت في صحَّةٍ جيِّدة».

ـ «أحسنتِ، هو كذلك بالضَّبط. لم يكن في البيت نقودٌ يومًا، ووالدي كان رجلًا يحبّ أن يولِّد انطباعًا حسنًا عند أولئك الذين لا يعرفهم بعد، لكنَّه لا يتردَّد في إيذاء أولئك الذين كسب مودَّتهم! وقد عانت والدتي كثيرًا بسببه».

قلت من دون أن أتفكَّر:

ـ «وفيتّوريا كذلك».

لكنِّي سرعان ما أحسستُ بعدها بكلِّ الحقيقة، وكلّ ثقل تينك الكلمتيْن، وبدا لي أنِّي فهمتُ لماذا جنحت فيتّوريا إلى ذلك السُّلوك الغامض فيما يتعلَّق بالسّوار. كانت تريد السّوار شكليًّا، لكنَّها في الجوهر تسعى إلى التخلُّص منه. كان السّوار لوالدتها شكليًّا، لكنَّه في الجوهر لم يكن كذلك. كان السّوار هديَّةً يُهديها لحماته الجديدة في مناسبةٍ ما شكليًّا، لكنَّ إنزو في الجوهر قد سرقه من حماته القديمة وهي في الرمق الأخير. في المحصِّلة، كانت تلك الجوهرة إثباتًا على أنَّ والدي لم يكن مخطئًا تمامًا

في حقٍّ عشيق أخته. وكان، من وجهة نظرٍ أشمل، يشهد على أنَّ القصيدة الملحميَّة الفريدة التي ألقتها عمَّتي على مسامعي كانت كلَّ شيء، عدا أنَّها قصيدةٌ ملحميَّة.

مكتبة
t.me/t_pdf

قالت جوليانا باحتقار:

ـ «فيتّوريا لا تتألَّم يا جانّي، فيتّوريا تؤلِم. بالنِّسبة إليَّ، هذا السّوار دلالةٌ مستمرَّةٌ على الآلام والأزمنة البشعة. إنَّه يقلقني، ويحمل الشؤم».

ـ «ليس للأشياء ذنبٌ، أنا يعجبني».

اتَّخذت جوليانا تعبيرًا عن الخيبة والتهكُّم:

ـ «كنتُ لأراهنَ على ذلك، روبرتو يعجبه السّوارُ أيضًا».

ساعدتُها على ربطه حول معصمها، وكان القطار يدخل إلى المحطَّة.

- 14 -

رأيتُ روبرتو قبل أن تراه جوليانا، كان واقفًا على الرَّصيف بين الحشد. رفعتُ يدي لكي يرانا في موكب المسافرين، وسرعان ما رفع يده كذلك. عجَّلت جوليانا الخطى وهي تجرجر حقيبتها، واتَّجه روبرتو نحوها. تعانقا كما لو أراد أحدهما أن يمحقَ الآخر لتنصهرَ أشلاءُ جسديْهما معًا، لكنَّهما لم يتبادلا إلَّا لثمةً سريعةً على الثغر. ثمَّ أخذ يدي بيديْه، وشكرني على مرافقتي جوليانا: لولاكِ، قال، مَن كان ليدري متى سنلتقي أنا وهي. وهكذا، أخذ عن خطيبته الحقيبة الكبيرة وتلك الممتلئة، وتبعتُهما ببضع خطواتٍ خلفهما أحملُ حقيبتي البائسة.

إنَّه شخصٌ عاديّ، قلت في نفسي، أو ربَّما من بين مزاياه الكثيرة قدرته على أن يكون عاديًّا. ففي المقهى في ساحة أميديو، والمرَّات الأخرى التي التقيتُه فيها، شعرتُ أنَّني أتعامل مع بروفسورٍ رفيع المكانة متخصِّصٍ بأمورٍ لا أفقهها، لكنَّها بالتَّأكيد علومٌ معقَّدة. أمَّا آنذاك، فكنتُ أرى جانبه الملتصق بجانب جوليانا، وانحناءه المتواصل لتقبيلها، فكان مثل أيِّ خطيبٍ ذي خمسة وعشرين عامًا، بالإمكان مصادفة الكثيرين مثله في الشارع، والسينما، والتلفاز.

قبل أن نهبط سلَّمًا واسعًا مصفرّ اللَّون، أراد أن يحمل حقيبتي أيضًا، لكنِّي رفضتُ بحزم، فتابع انشغاله الودود بجوليانا. لم أكن أعرف شيئًا عن

ميلانو، ركبنا المترو ما لا يقلّ عن عشرين دقيقة، ومشينا على الأقدام ربع ساعةٍ أخرى للوصول إلى البيت. تسلّقنا سلالمَ حجريّةً قديمةً دكناء اللّون، حتّى الطابق الخامس. أحسستُ أنّي صموتٌ وافتخرتُ بذلك، وحيدةً بحقيبتي، بينما كانت جوليانا تتحرّر من أثقالها، كثيرةَ الكلام، وسعيدةً بكلّ حركةٍ تقوم بها.

أخيرًا، وصلنا إلى رواقٍ فيه ثلاثة أبواب. فتح روبرتو الباب الأوّل، وأدخلنا إلى شقّةٍ سرعان ما أعجبتني، على الرّغم من تسرُّب رائحةِ غازٍ خفيفة. خلافًا للشقّة في سان جاكومو دي كابري، البهيّة والمسحورة بترتيب والدتي، تملّكني انطباعٌ هناك أنّني بصدد نظافةٍ فوضويّة. عبرنا ممرًّا مصفوفًا بأكداس الكتب المسنودة على البلاط، ودخلنا إلى غرفةٍ رحبةٍ فيها أثاثٌ عتيقٌ ونادر، ومكتبٌ يغصّ بالأضابير، وطاولةٌ، وأريكةٌ حمراء باهتة، ورفوفٌ على الجدران بالمجلّدات ممتلئة، وتلفازٌ مسنودٌ فوق مكعّبٍ بلاستيكيّ.

قدّمَ روبرتو اعتذاره، متوجّهًا إليّ على وجه الخصوص، وقال إنّ البيت يبدو من هندسته قليل الرحابة، على الرّغم من أنّ الناطورة ترتّبه كلّ يوم. حاولتُ ارتجال جُملةٍ مضحكة، أردتُ الحفاظ على النّبرة الوقحة التي كنتُ واثقةً من أنّها تُعجبه. لكنّ جوليانا لم تتركني أتحدّث، قالت: لا داعي للناطورة، سأتولّى الأمر بنفسي، سترى كيف يصبح البيت رحبًا. ثمّ رمت ذراعيْها على عنقه، وشبكته بالشّدّة نفسها التي أبدتها في لقاء المحطّة، وقبّلت فمه بقبلةٍ طويلةٍ هذه المرّة. أشحتُ نظري فورًا كمن يبحث عن مكانٍ يضع فيه الحقيبة، وجاءت جوليانا بعد دقيقةٍ لتملي عليَّ إرشاداتٍ دقيقةً بلهجةِ ربّةِ البيت.

كانت تعرف كلَّ شيءٍ عن الشقّة، أخذتني إلى مطبخٍ باهت الألوان التي ازدادت شحوبًا بفعل الضوء الكهربائيّ منخفض التوتّر، وراحت تتفقّد

هذا الغرض وذاك، وتنتقد الناطورة على إهمالها الذي سارعتْ لمعالجته. ولم تكفّ عن التوجُّه إلى روبرتو، كانت تتحدَّث وتتحدَّث وتستجوبه عن أشخاصٍ تسمِّيهم بالاسم لا بالكنية ـ جيجي، ساندرو، نينا ـ وكلُّ واحدٍ من هؤلاء يفضي إلى مشكلةٍ متعلِّقةٍ بحياته الجامعيَّة التي بدت أنَّها مطلَّعة عليها كثيرًا. قال روبرتو مرَّةً أو اثنتيْن: ربَّما ملَّت جوفانّا؛ فهتفتُ لا. وتابعت جوليانا التَّحدُّث إليه بسلاسة.

كانت جوليانا مختلفةً عمَّا بدا لي أنَّني أعرفها حتى تلك اللَّحظة. كانت تتكلَّم بحزم، وبشكلٍ قاطعٍ أحيانًا، وممَّا كانت تقوله ـ أو تلمِّح إليه ـ يبدو جليًّا أنَّه لا يُطلعها على أدقّ تفاصيلِ حياته، ومشكلاتِه في العمل والدراسة فحسب، بل يفوِّضها على متابعته ودعمه وقيادته، كما لو أنَّها تتمتَّع حقًّا بالكفاءة والحكمة الضروريَّتيْن لممارسة ذلك. كان روبرتو في المحصِّلة يمنحها الثقة، وكانت جوليانا ـ بحسب ما فهمتُ ـ تستمدّ القوَّة بشكلٍ مُفاجئٍ وجريءٍ من تلك الثقة لتؤدِّي ذلك الدَّوْر. ثمَّ حدث مرَّتيْن أنَّه عارضها على شيءٍ ما بكلِّ لطفٍ ومودَّة، وقال لها: لا، ليس كذلك البتَّة. فسكتت جوليانا حينذاك واحمرّ وجهها، واتَّخذت نبرةً عدائيَّة، فغيّرت رأيها بسرعةٍ محاوِلةً بذلك أن تريه أنَّها تفكِّر بما يفكِّر تمامًا. استعدتُ معرفتي بها في لحظاتٍ كتلك، وشعرتُ بمعاناتها في تلك العوائق؛ وفكَّرتُ أنّ روبرتو إذا أراد فجأةً أن يلمِّح لها بأنَّها تفوه بالترّهات واحدةً تلو أخرى، وأنَّ صوتها مثل مسمارٍ يخدش صفيحةً معدنيَّة، لسقطت جوليانا ميِّتةً على الأرض.

وبطبيعة الحال، لست الوحيدة التي انتبهت إلى هشاشة التمثيليَّة. فكان روبرتو كلَّما حدث شرخٌ صغير، جذبها إليه وحدَّثها بعذوبةٍ وقبَّلها، وكنت أشغل نفسي من جديدٍ في شيءٍ يمحو أثرها موقَّتًا. وكان ارتباكي

هو الذي جعله يهتف في لحظةٍ معيَّنة: أراهن أنَّكما جائعتان، فلنذهب إلى المقهى الذي في الأسفل، إنَّه يقدِّم معجَّناتٍ لذيذة. بعد عشر دقائق، كنت ألتهم الحلويات وأحتسي القهوة، وبدأتُ أشعر بفضولٍ يشدُّني لتلك المدينة التي لا أعرفها. أخبرتُ روبرتو بالأمر، فقرَّر أن يصحبنا في جولةٍ إلى وسط البلد. كان يعرف كلَّ شيء عن ميلانو، وقد كرَّس نفسه ليرينا صروحها الأساسيَّة، ويتلو علينا تاريخها ببعضٍ من الحذلقة. طفنا بين كنيسةٍ وباحةٍ وساحةٍ ومتحف، بلا توقُّف، كما لو كانت فرصتَنا الأخيرةَ لرؤية المدينة قبل تدميرها. كانت جوليانا، على الرَّغم من أنَّها غالبًا ما قالت إنَّها مُتعبةٌ وإنَّها في القطار لم يغمض لها جفن، بدت مهتمَّةً كثيرًا، ولا أعتقد أنَّها كانت تتصنَّع اهتمامها. بل كانت تلهج بهَوَسٍ حقيقيٍّ تجاه التعلُّم مبنيٍّ على إحساسها بوجوب ذلك، كأنَّ دورها خطيبةً لبروفسورٍ شابٍّ يفرض عليها امتلاك نظرةٍ ثاقبةٍ على الدوام، وأُذنٍ مصغيَّةٍ دائمًا. أمَّا أنا، فأحسستُ أنَّني مقسَّمة. اكتشفتُ في ذلك اليوم متعة تحويل المكان المجهول إلى مكانٍ معروفٍ بكلِّ تفاصيله، وذلك بجمع اسم هذا الشارع وتاريخه باسم تلك الساحة وتاريخها، واسم ذلك المبنى وتاريخه. إلَّا أنَّني أحجمتُ بانزعاجٍ في الوقت ذاته. تذكَّرتُ تلك النزهات التَّعليميَّة في أرجاء نابولي، التي كان يرشدني فيها والدي، والتي كان يُبرِز فيها تباهيه المتكرِّر بكفاءاته فيما يقتصر دوري على ابنةٍ صغيرةٍ مفتونة. هل روبرتو نسخةٌ عن أبي في شبابه، تساءلتُ، أهي مصيدةٌ إذن؟ نظرتُ إليه، بينما كنَّا نتناول الشطائر ونشرب البيرة، وكان يتظارف ويخطِّط لتطوافٍ جديد. نظرتُ إليه بينما انطوى في زاويةٍ صحبةَ جوليانا، في الهواء الطلق، تحت شجرةٍ كبيرة، يتناقشان في شؤونهما. هي متوتِّرةٌ وهو هادئ، هي تذرف بعض الدُّموع وهو محمرّ الأذنين. نظرتُ إليه بينما كان يجيء نحوي مبتهجًا، رافعًا ذراعيْه الطويلتيْن، إذ عرف عن عيد ميلادي توًّا. استبعدتُ أن يكون مثل والدي، ثمَّة فرقٌ شاسع. أمَّا أنا، فكنت

أشعر أنّني أؤدّي دور الابنة المستمعة، ولم أكن أهوى ذلك الشعور، أردتُ أن أكون امرأةً، امرأةً محبوبة.

واصلنا تجوالنا. كنتُ أصغي إلى روبرتو، وأتساءل لماذا أنا هنا، وكنتُ أتبعهما وأفكّر ما الذي أفعله في رفقتهما. وأحيانًا، كنتُ أتوقّف عمدًا عند تفاصيل رسمة أفريسك لم يعطِها حقَّها بالشرح. كنت أفعل ذلك لتشويش المسير، وكانت جوليانا تلتفت وتهمس لي: جانّي، ماذا تفعلين، تعالي وإلّا ضعتِ. آهٍ، ليتني أضيع حقًّا ـ ناجيتُ في سرّي ـ ليتني أترك نفسي في مكانٍ ما مثل مظلّةٍ منسيّة، بحيث لا أعرف عنّي أيَّ شيءٍ بعد. ولكنْ ما إن يناديني روبرتو، أو ينتظرني، أو يردّد على مسمعي ما قاله لجوليانا، أو يثمّن ملاحظاتي بعباراتٍ مثل: أجل هذا صحيح، لم أفكّر بذلك مسبقًا؛ حتّى أشعر بخير في اللّحظة ذاتها، وأتحمّس. ما أجمل السّفر! ما أجمل التّعرُّف على شخصٍ يعرف كلَّ شيء، كما أنّه استثنائيٌّ من حيث ذكاؤه ووسامته وطيبته، يفسّر لك قيمةَ ما لم تكن لتستطيع تقييمه بمفردك أبدًا!

- 15 -

تعقَّدت الأمورُ عندما عدنا إلى البيت في أواخر الظهيرة. وجد روبرتو في المجيب الآليّ رسالةً يذكّره فيها صوتٌ نسائيٌّ مبتهجٌ أنَّ لديْه التزامًا في مساء اليوم. كانت جوليانا منهكةً، سمعت ذلك الصوت، فرأيتُها قد انزعجت كثيرًا. أمَّا روبرتو فتأسَّف لأنَّه نسي أمر الموعد: عشاءٌ مُقيَّضٌ منذ مدَّةٍ مع ما سمَّاه مجموعة العمل، المكوَّنة من أشخاصٍ تعرفهم جوليانا مسبقًا. وسرعان ما تذكَّرتهم فعلًا، فأزالت عن وجهها الخيبةَ، وأظهرت حماسةً كبيرة. لكنّني بتُّ أعرفها قليلًا، وأستطيع التمييز بين ما يسعدها وما يقلقها. سيُفسِد ذلك العشاء يومها.

«أنا سأقوم بجولة»، قلت.

«لماذا؟ ـ قال روبرتو ـ عليكِ أن تأتي معنا، إنَّهم لطفاء، وسينالون إعجابكِ».

قاومتُ، لم أكن أودُّ الذهاب حقًّا. كنت أعرف أنَّني إمَّا سألتزم الصَّمْت والوجوم، وإمَّا سأغدو عدائيَّة. تدخَّلت جوليانا على نحوٍ غير متوقَّعٍ لتساندني.

«معها حقّ ـ قالت ـ لا تعرف منهم أحدًا، ستضجر».

لكنَّه نظر إليَّ بإلحاح، كما لو كنتُ صفحةً مكتوبةً لا يريد معناها الظهور. قال:

«تبدين لي أنَّكِ تظنِّين دومًا أنَّكِ ستضجرين، ثمَّ لا تضجرين أبدًا».

أذهلتني نبرةُ تلك الجملة. لم يلفظها بأسلوبٍ دارج، إنَّما بلهجةٍ سمعتها منه مرَّةً واحدة، في الكنيسة: كانت طبقة صوته مبهرةً ودافئةً ومشبعةً باليقين، كما لو أنَّه يعرف عنِّي أكثر ممَّا أعرفه عن نفسي. تزعزع عندئذٍ التوازنُ الذي دام بمحاسنه ومساوئه حتى تلك اللَّحظة. إنَّني أضجر حقًّا ـ فكَّرتُ ساخطةً ـ أنت لا تعلم كم أضجر، لا تعلم كم ضجرتُ وكم أضجر الآن! لقد أخطأتُ في المجيء حتى هنا من أجلك، لم أضف إلى الفوضى سوى فوضى، على الرَّغم من لطفك وحفاوتك. وفي تلك الأثناء، بينما كان ذلك السَّخط ينقِّب في باطني تمامًا، تغيَّر كلُّ شيء. قرَّرتُ أنَّه لم يخطئ. في إحدى زوايا دماغي، تكوَّنت فكرةٌ مفادها أنَّ لروبرتو قدرةً على الإيضاح، ورغبتُ ابتداءً من تلك اللَّحظة أن يكون هو ـ هو لا أحد غيره ـ مَن يبيِّنَ لي حقيقة كينونتي، ويجنِّبني بهتانها. همست جوليانا:

«لقد أسدتْ لنا معروفًا كبيرًا، ينبغي ألَّا نجبرها على فعل أشياء لا تريدها».

لكنَّني قاطعتها.

«لا، لا، حسنًا، سآتي» قلت، ولكنْ على مضض، من دون أن أفعل شيئًا لإخفاء حقيقة أنَّني أرافقهما لمجرَّد تلافي التَّعقيدات.

كشَّرت جوليانا حينها بما ينمّ عن ارتباكها، وهُرعت لتغسل شعرها. وبينما كانت تنشِّفه مستاءةً من شكله، وبينما كانت تتجمَّل، وتجرِّب الفستان الأحمر أو التنُّورة البُنِّيَّة بالقميص الأخضر، وبينما كانت حائرةً بين وضع الأقراط والطوق فقط أم إضافة السِّوار أيضًا، وتسألني بحثًا عن طمأنةٍ، قالت مرارًا: لا ترغمي نفسكِ، ابقي هنا فأنتِ تستطيعين، أمَّا أنا فعليَّ الذهاب

رغمًا عنّي، لكنّي كنتُ سأبقى معكِ بكلّ سرور، فكلُّهم أشخاصٌ جامعيُّون يتكلَّمون ويتكلَّمون، وليس لديْكِ أدنى فكرة عن مدى خُيلائهم. كانت بذلك تلخِّص ما كان يخيفها في تلك اللَّحظة، وكانت تظنّ أنَّه يخيفني أنا أيضًا. لكنّي كنتُ معتادةً منذ الصّغر على ثرثرة المثقَّفين المتعالية، ماريانو ووالدي وأصدقاؤهما لا يفعلون سوى ذلك. آنذاك، كنت أكرههم بالتَّأكيد، لكنْ ما كان يرهبني ليس الثرثرة بحدٍّ ذاتها. لذا قلت لها: لا تقلقي، سآتي حبًّا بكِ، سأؤانسكِ.

وانتهى بنا المطاف في مطعمٍ صغير، حيث استقبل صاحبُه ذو الشعر الرّماديّ وطويل القامة والنحيف، روبرتو بلطفٍ واحترام. كلّ شيءٍ جاهز، قال مشيرًا بنبرةٍ متواطئةٍ إلى صالةٍ صغيرةٍ تتراءى فيها طاولةٌ طويلةٌ وقد جلس حولها حضورٌ كبيرٌ صاخب. كم هناك ناس، فكَّرتُ، وأحسستُ بالامتعاض من مظهري البائس، لم يكن لديَّ أيُّ جاذبيَّةٍ تسهِّل عليَّ علاقتي بالغرباء؛ إضافةً إلى أنَّ الفتيات، في انطباعي الأوّل، كُنَّ في منتهى الشباب، كلُّهنُ لطيفات، كلُّهنَّ بمظهرٍ مثقَّف، من النوع الأنثويّ الذي يذكِّر بأنجيلا، كُنَّ يعرفن كيف يتألَّقن بسلوكٍ رقيق، وأصواتٍ رخيمة. وكان الذكور أقليَّةً، اثنيْن أو ثلاثة، مجايلين لروبرتو أو يكبرونه بقليل. نظراتهم تركَّزت على جوليانا، الجميلة الحسناء، المهذَّبة، وحتى عندما قدَّمني روبرتو، لم يدم اهتمامهم إلَّا لحظات، كنتُ رديئة المظهر إلى حدٍّ كبير.

جلسنا، وبتُّ بعيدةً عن روبرتو وعن جوليانا اللذيْن عثرا على مكانٍ، بحيث يكون أحدهما بجانب الآخر. وما لبثتُ أن أحسستُ بأن لا أحد من أولئك الشبّان كان هناك بغرض المجالسة. فخلف السُّلوك الرَّفيع ثمَّة احتقانٌ، وعداواتٌ، ولو كان باستطاعتهم لقضوا الأمسية بطريقةٍ أخرى بالتَّأكيد. ولكنْ ما إن تبادل روبرتو أولى جُمَلِهِ معهم، حتى نشأ بين الجلساء

جوٌّ شبيهٌ بذاك الذي رأيتُ تشكُّلَه بين زوَّار الكنيسة في حيّ باسكوني. بدأ جسد روبرتو ـ صوته وحركاته ونظرته ـ تتفاعل مثل الصَّمغ، وفي رؤيته بين أولئك الأشخاص الذين يحبُّونه بقدر ما أحبُّه، ويتحابُّون ما بينهم لمجرَّد أنَّهم يحبُّونه، أحسستُ فجأةً أنّي جزءٌ من نتاج الانسجام الذي لا بدَّ منه. يا لَصوته! يا لَعينيْه! روبرتو، آنذاك، بين كثيرٍ من الناس، بدا لي أكثر بكثيرٍ ممَّا كان عليه مع جوليانا، ومعي، وخلال الجولة في ميلانو. أصبح مثلما حين توجَّه إليَّ بتلك الجُملة: («تبدين لي أنَّكِ تظنّين دومًا أنَّكِ ستضجرين ثمَّ لا تضجرين أبدًا»)، وتعيَّنَ عليَّ الإقرار بأنَّها لم تكن امتيازًا لي، إنّما كان موهوبًا بقدرته على الظهور أمام الآخرين بأكثر ممَّا كانوا قادرين على رؤيته.

أكل الجميع، وضحكوا، وتناقشوا، وتخالفوا. كانوا مهتمِّين بمواضيع كبرى، لم أفهم منها سوى القليل. اليومَ لا يسعني إلَّا أن أقول إنَّهم تحدَّثوا طوال السَّهرة عن الظلم، والجوع، والبؤس، وماذا نفعل إزاء ضراوة الشخص الظالم الذي يستولي على ما للآخرين جميعًا، ما التصرُّف الذي ينبغي اتِّخاذه. بوسعي أن أضع تلخيصًا تقريبيًّا للنقاش الذي وثب بجدِّيَّةٍ مرحةٍ من طرف الطاولة إلى طرفها الآخر. هل نلتجئ إلى القانون؟ ماذا لو كان القانون يحابي الظلم؟ ماذا لو كان القانون هو الظلم بعيْنه، وماذا لو كان عنف الدولة يرعى الظلم؟ كانت الأعين تلمع من التوتُّر، والكلمات المثقَّفة ترنُّ بشَغَفٍ صريح. تجادلوا كثيرًا، بأسلوب العارفين، بينما كانوا يأكلون ويشربون، فوجئتُ أنَّ الفتيات شغوفاتٌ أكثر من الشبَّان. كنتُ أعرف الأصوات المتشاجرة الصادرة من مكتب والدي، والنقاشات المضحكة مع أنجيلا، والشغف المصطنع الذي كنت أستخدمه في المدرسة أحيانًا أمام الأساتذة عندما يتناولون أحاسيسَ لا يشعرون بها هم أنفسهم. أمَّا أولئك الفتيات، اللواتي من الوارد أنَّهنَّ يدرِّسن أو درَّسنَ في الجامعة، كُنَّ حقيقيَّات وباسلات وطيِّبات. أشرنَ إلى جماعاتٍ أو منظَّماتٍ لم أسمع بها من قبل،

وكانت بعضهنَّ قد عُدن توًّا من بلادٍ بعيدة، وروين أهوالًا خبرنها بتجربةٍ مباشرة. امرأةٌ شابَّةٌ سمراء تدعى ميكيلا تميَّزت سريعًا بكلماتها المشتعلة، كانت تجلس قبالة روبرتو تحديدًا؛ وكانت بطبيعة الحال ميكيلا ذاتها التي تلهج بذكرها جوليانا. أماطت اللِّثام عن حدثٍ مروِّعٍ لدرجة أنَّها اضطرَّت إلى التوقُّف عند حدٍّ ما كي لا تبكي. ظلَّت جوليانا حتى تلك اللَّحظة صامتة، كانت تأكل على مضض، وكان وجهها معتمًا من أرق اللَّيلة وتعب النهار السياحيّ. وما إن شرعتْ ميكيلا بخطبتها الطويلة، تركت الشوكة في الطَّبَق وحدَّقتْ إليها طوال الوقت.

بدأت الفتاة ـ وجهها خشن، ونظرتها مشعَّة من خلف نظَّارتها الكبيرة ذات الإطار الرَّقيق، شفتاها محدَّدتان وحمراوان كثيرًا ـ بدأت بالحديث إلى جلساء الطاولة، ثمَّ توجَّهت بكلامها آنذاك إلى روبرتو وحدَه. لم تكن حالةً شاذَّة، فالجميع يجنح إلى فعلها، كانوا ضمنيًّا يعترفون له بدوره جامعًا لخطابات الأفراد التي تغدو فيما بعد، بخلاصة صوته، يقينًا لدى الجميع. ولكنْ إذا كان الآخرون يتذكَّرون الحضور من حينٍ لآخر، فإنَّ ميكيلا لا تبدو مهتمَّةً إلَّا لانتباهه، ورأيتُ أنَّ جوليانا كلَّما تحدَّثت تلك الفتاةُ أصبحت أرقّ. كأنَّ وجهها ينحف ليصير عبارةً عن بَشَرةٍ شفَّافةٍ تدلّ سلفًا على ما ستغدو عليه عندما يأتي المرضُ والشيخوخةُ لإفسادها. تُرى ما الذي يؤرِّقها في تلك اللَّحظة؟ الغيرة ربَّما. أو ربَّما لا، ميكيلا لم تقم بما يؤلِّب الغيرة، ولم تفعل أيًّا من تلك الحركات التي عدَّدتها لي أنجيلا في وقتها عندما أرادت أن تفسّر لي استراتيجيَّة الإغراء. من المحتمل أنَّ جوليانا كانت تُتلَف من كَثْرةِ الألم المترتِّب على مزايا صوت ميكيلا ونجاعة عباراتها، وقابليَّتها على عرض المسائل التي تطرح في خلالها أمثلةً تعميميَّة. عندما بدا أنَّ الحياة فارقت وجه جوليانا كليًّا، انبعث من حنجرتها صوتٌ أجشّ، عدائيٌّ، تشوبه اللَّكنة العامِّيَّة:

«لو أنَّكِ طعنتِه بسكِّين، لحللتِ كلَّ المشكلة».

عرفتُ فورًا أنَّ كلماتها كانت خارج سياق ذلك الوسط، وأنا واثقةٌ من أنَّ جوليانا نفسها على درايةٍ بذلك. لكنِّي أجزم أنَّها تلفَّظت بها لأنَّها الكلمات الوحيدة التي خطرت لها في مسعىً لقطع الخيط الطويل لكلمات ميكيلا. ساد الصمت، أدركت جوليانا أنَّها تفوَّهت بكلماتٍ خاطئة، وغدت عيناها زجاجيَّتيْن كما لو أنَّه يُغمى عليها. حاولت أن تأخذ مسافةً من نفسها بضحكةٍ عُصابيَّة، والتفتت إلى روبرتو لتقول له بإيطاليَّةٍ أشدّ ضبطًا:

«أو أنَّهم على الأقلّ هكذا كانوا سيتصرَّفون في مسقط رأسنا أنا وأنت، صحيح؟»

جذبها روبرتو إليه وشبك كتفيْها، وقبَّل جبينها، وشرع بإحدى خطبه التي طمست الأثر السوقيّ لكلمات خطيبته شيئًا فشيئًا. كانوا سيتصرَّفون كذلك لا في مسقط رأسنا فحسب، قال، إنَّما في كلِّ مكان، لأنَّ العنف أسهل الحلول. لكنَّه بالطبع، لم يكن يشجِّع أسهل الحلول، ولا أحد ممَّن كانوا إلى الطاولة ليشجِّع ذلك. بل وحتى جوليانا، سارعت إلى القول، بلهجةٍ تغلبها العامِّيَّةُ ثانيةً، إنَّها كانت ضدّ الردّ على العنف بالعنف، وسرعان ما تخبَّطت ـ أشفقتُ عليها كثيرًا ـ ولاذت بالصَّمت، إذ كان الجميع آذانًا تصغي إلى روبرتو. الظلم ـ قال ـ ينبغي أن يُرَدَّ عليه ردًّا حاسمًا وصارمًا: أنت تفعل هذا بجارك وأنا أقول لك لا يجوز، فإنْ أمعنتَ في الظلم أمعنتُ في اعتراضي، وإن أصبتني بقوَّتك انتفضتُ، وإن لم أستطع سينتفض آخرون، وآخرون. كان يحدِّق إلى الطاولة وهو يتحدَّث، ثمَّ رفع نظره فجأةً، لينظر إليهم واحدًا واحدًا في وجوههم بعينيْه الفاتنتيْن.

وفي النهاية، اقتنع الجميع أنَّه الردّ الأنسب، جوليانا نفسها، وأنا. لكنَّ ميكيلا ـ أدركتُ أنَّها تُفاجئ الجميع ـ هبَّت بنبرةٍ قلقة، وهتفت أنَّه لا

يجوز الردّ على القوّة الغاشمة بالاستكانة. صمتُ، لم يكن للملل احتمالٌ على تلك الطاولة وإن طفيفًا. نظرتُ إلى جوليانا، كانت ترمقُ ميكيلا بحَنَق، خشيتُ أن تتدخَّل ضدَّها ثانيةً، مع أنَّ الكلماتِ القليلةَ التي نطقت بها منافِسَتُها المفترضة كانت أقرب إلى نظريَّة الطعن بالسِّكّين. لكنَّ روبرتو أجاب: العادلون لا يمكن لهم أن يكونوا إلَّا ضعفاء، لديهم شجاعةٌ بلا قوَّة. خطرت في بالي بغتةً بعضُ السطور التي قرأتها مؤخَّرًا، فمزجتُها بغيرها، وغمغمتُ رغمًا عنّي أو أكاد: لديْهم ضعف الأبله الذي يكفّ عن إعطاء اللَّحم والسَّمن للربِّ الشبعان إلى أبعد الحدود، ويعطيهما لجاره، والأرملة، واليتيم، والغريب. خرج من فمي هذا فقط، بنبرةٍ هادئة، وبلمسةٍ هزليَّةٍ أيضًا. وبما أنَّ روبرتو التقط كلماتي بسرعةٍ ووافق عليها، واستخدم رمز البلاهة وطوَّره، نالت كلماتي إعجاب الجميع، ما عدا ميكيلا، ربَّما. رمتني بنظرةٍ فضوليَّة، وضحكت جوليانا آنذاك بلا سبب، ضحكةً مجلجلة.

«ما الذي يضحككِ؟»، سألتها ميكيلا بفتور.

«ألا يحقّ لي أن أضحك؟»

«بلى، فلنضحك»، تدخَّل روبرتو مستخدمًا صيغة جمع الفاعل مع أنَّه لم يضحك، «فاليوم عيد، جوفانّا تتمّ عامها السادس عشر».

أطفئت الأضواء حينها، وظهر نادلٌ يحمل قالب حلوى كبيرًا وستة عشر شمعة مشتعلةً تومض على بياض القشطة.

ـ 16 ـ

كان عيدَ ميلادٍ رائعًا، شعرتُ أنَّني محاطةٌ باللُّطف والمودَّة. لكنَّ جوليانا أعلنت عند حدٍّ ما أنَّها منهكةٌ للغاية، فعدنا إلى البيت. صُدمتُ أنَّها حين وصلنا الشقَّة استغنت عن نبرتها الآمرة التي اتَّخذتها في الصباح، انعزلت لتنظر إلى الظلام خلف نافذة الصالة، وتركت روبرتو يفعل ما عليه. كان حريصًا جدًّا. أعطانا مناشف نظيفة، وتحدَّث بسُخريةٍ عن الأريكة المزعجة وصعوبة فتحها. وحدها الناطورة تفتحها بسلاسة، قال ووجد صعوبةً هو نفسه فيها، حاول وحاول إلى أن انبسط في وسط الغرفة سريرٌ زوجيٌّ جاهز بأغطيته الناصعة. تلمَّستُها، وقلت: الجوّ بارد، هل عندك غطاء؟ فأومأ بنعم، واختفى في غرفته.

قلت لجوليانا:

«على أيِّ جانبٍ تنامين؟»

انقطعت جوليانا عن الظلام خلف النافذة، وقالت:

«سأنام مع روبرتو، فهكذا تأخذين راحتكِ».

كنت واثقةً من أنَّ الأمور ستجري كذلك، لكنِّي شدَّدتُ عمومًا:

ـ «فيتّوريا حلَّفتني أن ننام معًا».

ـ «كانت تحلِّف تونينو أيضًا، لكنَّه لم يصن قسَمَه قطّ. فهل تنوين صونه أنتِ؟»

ـ «لا».

ـ «أَودُّكِ» قالت، وقبَّلتني على خدِّي بفتور، وعاد روبرتو بغطاءٍ ومخدَّة. اختفت جوليانا حينها في غرفة النوم، فأراني أين أجد القهوة والبسكويت والأكواب، في حال استيقظتُ قبلهما ورغبتُ بتناول الفطور. كانت رائحةُ غازٍ عنيفةٍ تنبعث من السخَّانة، قلت له:

ـ «الغاز يتسرَّب، هل سنموت؟»

ـ «لا، لا أعتقد، التركيبات رديئة».

ـ «يؤسفني أن أموت في السادسة عشرة من عمري».

ـ «أنا أسكن هنا منذ سبعة أعوام، ولم أمت».

ـ «ومَن يضمن لي؟»

ابتسم وقال:

«لا أحد. يُسعدني أنَّكِ هنا، ليلةً سعيدة».

كانت تلك الكلمات الوحيدة التي تبادلناها وجهًا لوجه. بلغ جوليانا في غرفة النوم، وأغلق الباب.

فتحتُ حقيبتي بحثًا عن ثياب النوم، سمعتُ أنَّ جوليانا تبكي، وهو يهمس بشيءٍ ما، فهمستْ هي أيضًا. ذهبتُ إلى الحمَّام مؤمِّلةً أن يناما فورًا. نزعتُ ثيابي، ونظَّفتُ أسناني. فُتِحَ باب، أُغلِقَ باب، خطوات. طرقت جوليانا، وسألت: هل أستطيع الدخول. أدخلتُها، كانت تحمل على ذراعها قميصَ نومٍ أزرق بزركشةٍ بيضاء، سألتني إن كان يعجبني، فأثنيتُ عليه. فرَّغتِ المياه في الكنيف وبدأت تنزع ثيابها. فخرجتُ على عُجالة (ما أغباني، لماذا وضعتُ

نفسي في هذا الموقف)، طقطقت الأريكةُ عندما اندسستُ تحت الأغطية. وقطعت جوليانا الصالة عائدةً بقميص النوم الذي يليق بجسمها متناسقَ القوام. كانت عاريةً من أسفل، ونهداها صغيران لكنَّهما مشدودان ومفعمان بالحُسن. ليلةً سعيدة، قالت فأجبتُ بمثلها. أطفأتُ الضوء، ووضعتُ رأسي على الوسادة، وضغطتُها على أذنيَّ. ما الذي أعرفه عن الجنس؟ كلُّ شيءٍ ولا شيء: ما قرأتُه في الكتب، ومتعة العادة السرِّيَّة، فم أنجيلا وجسدها، وعضو كورّادو. للمرَّة الأولى انتابني شعورٌ بالمذلَّة بسبب عذريَّتي. ما لا أودُّ وقوعه هو أن أتخيَّل متعة جوليانا، وأن أشعر أنِّي في مكانها. أنا لست هي. أجدني هنا لا في تلك الغرفة، لا أرغب أن يقبِّلني روبرتو، وأن يمسَّني، وأن يولجني مثلما روت لي فيتّوريا ما فعله بها إنزو، فأنا صديقة كليْهما. ومع ذلك، كنتُ أتصبَّب عرقًا تحت الغطاء، ترطَّبَ شعري، ضاقت أنفاسي، فأبعدتُ الوسادة عنِّي. ياه.. كم اللَّحم ليِّنٌ ودبق، حاولتُ أن أشعر بهيكلي العظميّ فقط، وصنَّفتُ أنواع همهمة البيت واحدًا واحدًا: خشبٌ يقرقع، ثلَّاجةٌ تهتزّ، طقطقةٌ خفيفة من السخَّانة أغلب الظنّ، عثٌّ في المكتب. لم يتناهَ إلى مسمعي أيُّ صوتٍ من غرفة النوم، لا جعجعةٌ رخوةٌ ولا نَفَس. ربَّما اعترف أحدهما للآخر بالتعب وغطَّا في النوم. ربَّما قرَّرا بالإيماء أن يستغنيا عن السرير منعًا لإحداث ضجَّة. ربَّما كانا واقفيْن. ربَّما لا يشهقان أو يئنَّان تكتُّمًا! تخيَّلتُ جماع جسديْهما في وضعيَّاتٍ رأيتُها مرسومةً حصرًا، لكنِّي ما إن أدركتُ الصُّوَر حتَّى أقصيتُها عن ذهني. ربَّما لا يرغب أحدهما في الآخر حقًّا، وقد أضاعا النهار كلَّه بثرثرةٍ وجولاتٍ سياحيَّة. كان كذلك، لا وجود للوله. كنتُ أشكُّ في إمكانيَّة ممارسة الحبّ بصمتٍ مطبقٍ كهذا: أنا كنت سأضحك، كنتُ سأتفوّه بكلماتٍ مكثَّفة. انفتح بابُ الغرفة بحَذَر، رأيتُ طيف جوليانا الداكن يقطع الصالة على رؤوس الأصابع، وسمعتُ أنَّها تنغلق على نفسها في الحمَّام مرَّةً أخرى. وها هي تفرِّغ المياه. بكيتُ قليلًا، وغفوتُ.

- 17 -

أيقظني صوت سيَّارة إسعاف. السَّاعة الرابعة صباحًا، بذلتُ جهدًا لأتذكَّر أين أنا! وحينما تذكَّرتُ، فكَّرتُ فورًا: سأظلّ تعيسةً طوال حياتي. بقيتُ في السَّرير مستيقظةً حتى طلع النهار، أنظِّم التعاسة التي تنتظرني بطريقةٍ متعنّتة. كان عليَّ أن ألازم روبرتو باحترام، عليَّ أن أجعل الآخرين يودُّونني. عليَّ أن أتعلَّم وبشكلٍ مستعجَلٍ تلك الأشياء المولع بها. عليَّ أن أحصل على عملٍ لا يكون بعيدًا عن عمله كثيرًا، أن أعلِّم في الجامعة أنا أيضًا، ربّما في ميلانو إن انتصرت جوليانا، في نابولي إن انتصرت عمَّتي. عليَّ أن أفعل ما بوسعي لكي تدوم علاقتهما إلى الأبد، أن أسدَّ ثغراتها بنفسي، وأن أساعد كليْهما على تنشئة أبنائهما. قرَّرتُ إذن وبشكلٍ حاسمٍ أن أعيش في هامشهما، وأن أرضى بالفتات. ثمَّ غفوتُ مرَّةً أخرى لاإراديًّا.

جفلتُ عند التاسعة، كان البيت ما يزال في صمت. ذهبتُ إلى الحمَّام، امتنعتُ عن النظر إلى المرآة، غسلتُ وجهي، واختبأتُ في القميص الذي ارتديْته في اليوم السَّابق. وبما أنِّي سمعتُ أصواتًا مكبوتةً تأتي من الغرفة، استكشفتُ المطبخ، وحضَّرتُ فطورًا لثلاثة أشخاص، وأعددتُ الموكا/آلة القهوة. لكنَّ الأصوات الآتية من الغرفة لم تتطوَّر، والباب لم ينفتح، ولم يطلّ أيٌّ منهما. سوى أنِّي سمعتُ جوليانا، في لحظةٍ ما، تكبت

ضحكةً أو ربَّما أنَّة! الأمر الذي سبَّب لي ألمًا لدرجة أنَّني قرَّرتُ طرْق الباب ـ وقد لا يكون قرارًا بقدر ما كان نتيجةً لنفاد صبر ـ وبلا تردُّد.

صمتٌ مطبق. طرقتُ ثانيةً بشكلٍ حثيث.

«نعم؟»، قال روبرتو.

سألتُ بصوتٍ مبتهج:

«هل أحمل إليكما القهوة؟ إنَّها جاهزة».

«سنأتي»، قال روبرتو، لكنّ جوليانا هتفت في الآن ذاته:

«كم هذا جميل! أجل، شكرًا».

سمعتُهما يضحكان على تزامن كلامهما المتنافر، فقلتُ بلهجة أبهج:

«خمس دقائق».

فتَّشتُ عن طبقٍ وصففتُ فيه الأكواب والصحون والملاعق والخبز والبسكويت والزبدة ومربَّى الفراولة التي أزلتُ عنها بعض آثار العفن المبيَّضة، والموكا الساخنة. فعلتُها بسعادةٍ مفاجئة، كما لو أنَّ الإمكانيَّة الوحيدة لبقائي على قيد الحياة كانت تتشكَّل في تلك اللَّحظة. وما خشيتُ من شيء، إلَّا من مَيَلان الطَّبَق المهتزّ، بينما كنتُ أخفض مقبض الباب بيدي الأخرى. خشيتُ أن تسقط الموكا وكلّ شيءٍ على الأرض، لكنَّه لم يحدث. ومع ذلك، تبدَّدت سعادتي، فقد انتقلت عدوى خلخلة التوازن من الطبق إليَّ. تقدَّمتُ كما لو أنَّني أنا التي قد أسقط أرضًا لا ما أحمله بيديّ.

لم تكن الغرفة غارقةً في ظلام مثلما كنت أتوقَّع. ثمَّة ضوءٌ، كانت لفافة السديلة مرفوعة، والنافذة مواربة. وكان الاثنان على السَّرير، تحت الغطاء الخفيف الأبيض. لكنَّ روبرتو كان قد أسند رأسه إلى مسند السَّرير، ووجهه يتَّشح بملامح ارتباك ـ مثل أيِّ ذَكَرٍ آخر، عريض المنكبيْن، مشدود الصدر

- بينما كانت جوليانا عارية الكتفيْن، تسند خدَّها على صدره ذي الزَّغب الأسود، ويدها تلامس وجهه بمداعبةٍ كأنَّها قُطِعت توًّا. كانت فرحانة. حين رأيتهما بتلك الوضعيَّة، امَّحت كلُّ مشاريعي. لم يكن التقرُّب إليهما يهوِّن عليَّ حالة التعاسة، إنَّما كان يضعني في جمهور سعادتهما. وهو ما تسعى إليه جوليانا حثيثًا، هذا ما بدا لي حينها. كان بإمكانهما ارتداء ثيابهما خلال الدقائق القصيرة التي استغرقتُها لتحضير الفطور، لكنَّها فرضت عليه ألَّا يلبس، وقد تسلَّلت عاريةً وفتحت النافذة لتهوية الغرفة، وعادت إلى السَّرير لتظهر بوضعيَّة المرأة الشابَّة التي تستفيق من ليلة حبّ، ملتصقةً به تحت الأغطية، وساقها فوق ساقيْه. كلَّا، كلَّا، لم تكن فكرتي في أن أصير ما يشبه العمَّة المستعدَّة دائمًا للنجدة ومدّ يد العون، لم تكن أسوأ السُّموم. لا بدَّ أنَّ المشهد كان بالنِّسبة إلى جوليانا كالتالي: أن تظهر كما في الأفلام، وهي طريقةٌ لإعطاء شكلٍ للنعيم الذي هي فيه، طريقةٌ ليست بالخبيثة أغلبَ الظنّ، هي استثمارٌ لاقتحامي الغرفةَ بغية أن أراها، فمن خلال الرؤية يتثبَّت ما لا يدوم، وأن أصبح الشاهدة على تلك الوضعيَّة، الأمر الذي بدا لي ظلمًا لا يُطاق. ومع ذلك بقيتُ هناك، جالسةً على طرف السرير باحتشام، من جانب جوليانا، أتقدَّم بالشُّكر مرَّةً أخرى على حفل عيد الميلاد في اللَّيلة الماضية، وأرتشف القهوة معهما بعد أن انفكَّ عناقُهما، وكانت تغطِّي نفسها بالشرشف بشكلٍ مستفَزّ، بينما كان قد ارتدى قميصًا مرَّرْتُه إليه بنفسي بناءً على طلب جوليانا.

«ما ألطفكِ يا جانّي، لن أنسى هذه الأصبوحة أبدًا»، هتفت وأرادت أن تعانقني، وكادت تُسقِط الطبق المسنود إلى وسادة. أمَّا روبرتو، وبعد أن شرب من القهوة، ونظر إليَّ كما لو كنتُ لوحةً استُدعِيَ ليعطي رأيه فيها، قال بحياديَّة:

«أنتِ جميلةٌ جدًّا».

- 18 -

خلال العودة، فعلت جوليانا ما لم تفعله في رحلة الذهاب. بينما كان القطار يسافر ببطءٍ مرهِق، استبقتني في الممرّ، بين المقصورة والنافذة المظلمة، تتحدَّث بلا هوادة.

كان روبرتو قد رافقنا إلى المحطَّة، وكان الوداع بينهما أليمًا. تبادلا القبل مرارًا وتعانقا وتشابكا. لم أستطع ألَّا أنظر إليهما، كانا ثنائيًا يسرّ الناظر إليه، وكان يحبُّها بلا شكّ، وكانت لا تقوى على الحياة بدون هذا الحبّ. لكنَّ تلك الجملة ـ أنتِ جميلةٌ جدًّا ـ لم تفارق رأسي، وجاءت بمثابة غصَّةٍ في الفؤاد. أدليتُ بإجابةٍ جلفةٍ، ناشزة، تمزّق الحروف الصوتيَّة من هول التَّأثُّر: لا تسخر منّي. وسرعان ما أضافت جوليانا جادَّةً: هذا صحيح يا جانّي، أنتِ في منتهى الجمال. فغمغمتُ: أنا أشبه فيتّوريا؛ لكنَّ كليْهما هتف مستاءً ـ هو ضاحكًا وهي تلوّح بيدها في الهواء: فيتّوريا، أيَّ هراءٍ تقولين، هل جُننتِ؟ فانفجرتُ باكيةً بطريقةٍ غبيَّة. بكاءً قصيرًا، دام بضع ثوانٍ، مثل نوبة سعالٍ تُكبَح فورًا. لكنَّ بكائي أربكهما. روبرتو خصوصًا، قال: ما بكِ، اهدأي، بمَ أخطأنا؟ فاستعدتُ حيويَّتي سريعًا، وشعرتُ بالحياء، إلَّا أنَّ مجاملته ظلَّت عالقةً هناك، بتولًا في رأسي، وما زالت في رأسي ونحن في المحطَّة، عند الرصيف، بينما كنتُ أنظِّم الحقائب في المقصورة وكانا يتحادثان من خلال النافذة حتى اللَّحظة الأخيرة.

انطلق القطار، وبقينا في الممرّ. قلت لأمنح نفسي أهمّيَّةً، ولأمحو صوت روبرتو من ذهني ـ أنتِ جميلةٌ جدًّا ـ ولكي أهوّنَ على جوليانا: كم يحبُّكِ! لا بدَّ أنَّه من الرَّائع أن تشعرين بحبٍّ كهذا. فراحت تفضفض وقد استبدَّ بها الإحباط بغتةً، تارةً بالإيطاليَّة وتارةً بالعامِّيَّة، ولم تتوقَّف بعد. سافرنا جنبًا إلى جنب ـ تلامست خاصرتانا، وغالبًا ما أخذت ذراعي أو يدي بيديْها ـ لكنَّنا في الواقع كنَّا منفصلتيْن: فأنا ما فتئتُ أسمع روبرتو يقول لي تلك الكلمات الثلاث ـ وكنتُ أستمتع بصداها، إذ بدت لي تعويذةً سحريَّةً وسرِّيَّةً لقيامتي من جديد ـ فيما كانت هي بأمسِّ الحاجة إلى أن تبوح حتى النهاية بأسباب آلامها. فرَّجت عمَّا في صدرها طويلًا، وتلوَّت من الغضب والكآبة، وكنت لها آذانًا مصغية، وحثثتُها على المتابعة. لكنَّها بينما كانت تتألَّم، كانت تجحظ عينيْها، وتتلمَّس شعرها مهووسةً لتلفَّه بخصلةٍ حول سبَّابتها ووسطاها، ثمَّ تُفلت أصابعها بعنفٍ كما لو أنَّها ثعابين، في حين كنتُ سعيدةً، وأوشك دومًا على مقاطعتها لأسألها بلا مقدِّمات: برأيكِ هل كان روبرتو جادًّا حينما قال إنِّي جميلةٌ جدًّا؟

أسهبت جوليانا في مونولوجها الطويل. أجل ـ قالت اختصارًا ـ إنَّه يَودُّني، لكنَّني أَودُّه أكثر ممَّا يَودُّني، لأنَّه غيَّرَ حياتي، انتزعني فجأةً من المكان الذي كان محتومًا عليَّ البقاءُ فيه، ووضعني إلى جانبه.والآن لم يَعُدْ بوسعي إلَّا البقاء إلى جانبه، أتفهمين؟ إن غيَّرَ فكرته وأبعدني عنه، لا أعرف كيف أعود إلى ذاتي، ولا أعرف حتَّى مَن أكون؛ في حين أنَّه يعلم منذ البداية مَن يكون، وكان يعلم ذلك منذ صِغره، أذكره جيِّدًا. لا يمكنكِ أن تتخيَّلي ماذا كان يحدث إذا فتح فمه، رأيتِ ابن المحامي سارجينتي، روزاريو همجيّ، لا يمكن لأحدٍ المساسُ به، لكنَّ روبرتو كان يفتنه مثلما يفعل السَّحرة بالأفاعي ويهدِّئ روعه! إن لم تري هذه الأشياء فأنتِ لا تعرفين مَن هو روبرتو. لقد شهدتُ على كثيرٍ منها، ليس مع واحدٍ غبيٍّ مثل روزاريو فحسب، تذكَّري ما

حدث مساء أمس، كان جميعهم أساتذةً مساء أمس، هم صفوة المتفوّقين، لكنَّكِ انتبهتِ كيف كانوا هناك من أجله، ووضعوا ذكاءهم وتهذيبهم كلّه لإسعاده ليس إلَّا. فمن دون حضوره يتقاتلون، عليكِ أن تسمعيهم ما إن يشيح روبرتو عينيْه عنهم، ستسمعين أحقادًا وحسدًا واغتيابًا وكلامًا مشينًا؛ فلهذا السَّبب يا جانّي لا تكافؤ بيني وبينه، فإن مُتُّ أنا الآن، في هذا القطار، آهِ.. لا شكّ أنَّ روبرتو سيتأسَّف، وسيتألَّم، لكنَّه سيبقى على ما هو عليه، أمَّا أنا، لا أقول إن مات ـ أعجز حتَّى عن تصوُّر ذلك ـ فلنقل إن تركني ـ رأيتِ كيف تنظر إليه كلَّ الفتيات، ورأيتِ ما أجملهنَّ وأذكاهنَّ ومدى اطّلاعهنَّ ـ إن تركني لتحصل عليه إحداهنَّ ـ ميكيلا، على سبيل المثال، ما كانت هناك إلَّا لتتكلَّم معه، لا تعير اهتمامًا ببقيَّة الحضور، وهي شخصيَّةٌ مهمَّة، ومَن يدري ماذا ستصير مستقبلًا! ولهذا الغرض تحديدًا تريده، لأنَّها معه قد تصبح ما أدراني؟ رئيسة جمهوريَّة دفعةً واحدة ـ فإن حلَّت ميكيلا مكاني الذي أشغله الآن، قتلتُ نفسي يا جانّي، بل عليَّ أن أقتل نفسي عمدًا، لأنّني إذا عشتُ سأعيش من دون أن أكون شيئًا.

كان هذا إجماليَّ ما قالته طيلة ساعات، بهَوَسٍ حادٍّ، تجحظ عينيْها، وتبرّم فمها. وأصغيتُ طوال الوقت إلى ذلك الهمس المتواصل الذي لا ينتهي، في الممرّ المقفر في ذلك القطار. عليَّ أن أقرّ بازدياد إشفاقي عليها إضافةً إلى بعضٍ من الإعجاب. كنت أعتبرها بالغة، وأنا صغيرة. لم أكن قادرةً قطعًا على البوح بمثل هذا الوضوح المرير، ففي اللَّحظات الحَرِجة، كنتُ أعرف كيف أختبئ حتى عن نفسي ذاتها. أمَّا هي، فكان بصرها يتفتَّح، ولا تسدّ أذنيْها، وكانت تحلّل الموقف بدقَّة. ورغم هذا، لم أفعل الكثير لمؤاساتها، اكتفيتُ بين فترةٍ وأخرى بترديد فكرةٍ أردتُ أن أطبّقها على نفسي حتمًا. روبرتو ـ قلتُ ـ يعيش في ميلانو منذ أمدٍ بعيد، وقد عرف كثيرًا من الفتيات مثل ميكيلا، معكِ حقّ. من الواضح فعلًا أنَّهنَّ مفتوناتٌ به،

لكنَّه يريد أن يعيش معكِ، لأنَّكِ مختلفةٌ كلِّيًا عن الأخريات. لذا لا ينبغي لكِ أن تتغيَّري، عليكِ أن تبقي كما أنتِ، فلن يحبُّكِ إلى الأبد إلَّا إذا بقيتِ على هذا الشَّكل.

هذا كلُّ شيء، حديثٌ مقتضبٌ تلوثُه بمرارةٍ مصطنعة؛ ثمَّ إنِّي كنتُ قد انزلقتُ أنا أيضًا في مونولوجٍ صموتٍ تطوَّرَ بالتوازي مع مونولوجها. لست جميلةً حقًّا ـ كنت أقول في سرِّي ـ ولن أكون كذلك يومًا. إنَّما استشعر روبرتو أنِّي أرى نفسي قبيحةً وهائمة، وأراد أن يواسيني بأكذوبةٍ مُشفقة؛ من الوارد أنَّ هذا هو الدافع لقول تلك الجملة. ولكنْ ماذا لو أنَّه رأى حقًّا فيَّ جمالًا كان خافيًا عنِّي ولا أستطيع رؤيته، ماذا لو كنت قد أعجبتُه حقًّا؟ لا شكَّ أنَّه قال لي إنَّني جميلةٌ جدًّا في حضور جوليانا، ما يعني أنَّ نيَّته حسنة. وقد صدَّقت جوليانا على ما قال، حتى هي لم تَر في جُملته خبثًا. ولكنْ ماذا لو أنَّ الخبث كان متواريًا خلف الكلمات، بحيث إنَّه لم يتفطَّن إليه هو نفسه؟ وماذا لو أنَّه طفا على السَّطح في هذه اللَّحظة، وفكَّر روبرتو بقوله ثانيةً، وتساءل: لماذا تحدَّثتُ على ذلك النحو، أيُّ نيَّةٍ كانت لديَّ؟ أجل، أيُّ نيَّةٍ كانت لديْه؟ لا بدَّ أن أجد حلًّا لهذا، فهو أمرٌ مهمّ. لديَّ رقمه، سأتَّصل به وأقول: هل تراني جميلةً حقًّا؟ حذارِ إلى ما تقول، فلقد تغيَّرَ وجهي بسبب والدي وصرتُ قبيحة؛ لا تَلْهُ معي وتغيِّر وجهي أنت أيضًا فأصير جميلةً. فأنا مُتعبةٌ من الانصياع لكلمات الآخرين. أحتاج إلى معرفة ماذا أنا حقًّا، وأيَّ شخصٍ سأصبح. ساعدني. ها هو، إذن، خطابٌ كهذا قد ينال إعجابَه. ولكنْ ما الغاية من إلقاء كلامٍ كهذا عليه؟ ما الذي أريده منه حقًّا، في هذه الساعة تحديدًا، بينما تغرقني خطيبته بأمواج آلامها؟ هل أرغب في أن يؤكِّد لي أنَّني جميلةٌ، أجمل من الأخريات جميعهنَّ، بمن فيهنَّ خطيبته؟ هل أرغب في ذلك؟ أم أكثر، أكثر من ذلك كثيرًا؟

امتنَّت لي جوليانا على إصغائي الصبور. أخذت يدي عندئذٍ وتأثَّرت، فمدحتني ـ آهٍ ما أشطركِ، لقد أصبتِ ميكيلا بضربةٍ مباشرةٍ على وجهها بنصف جُملة. شكرًا يا جانّي، عليكِ أن تساعديني، أن تساعديني دومًا، وإن أنجبتُ طفلةً سمَّيْتُها على اسمكِ، لكي تصبح ذكيَّةً مثلكِ ـ وأرادت أن أقسم لها بأنّي سأعاونها بشتَّى الطرائق. أقسمتُ. لكنَّ ذلك لم يكفِها، فرضت عليَّ ميثاقًا حقيقيًّا: لغاية اللَّحظة التي تتزوَّج بها وتنتقل إلى ميلانو، على الأقلّ، يجب أن أحرص ألَّا تفقد صوابها، وألَّا تقتنع بأشياءَ تنافي المعقول.

وافقتُ، فبدت أكثر اطمئنانًا، وقرَّرنا أن نستلقي قليلًا على المراقد. وسرعان ما غفوتُ. لكنّي على بُعد أميالٍ قليلةٍ عن نابولي، وقد طلع النهار، شعرتُ أنّي أهتزّ، صحوتُ من غفوتي ورأيتها تُظهِر عليَّ معصمها بعينيْن هلعتيْن:

«يا إلهي، يا جانّي، السّوار ليس معي».

- 19 -

نهضتُ عن المرقد:

- «كيف حدث هذا؟»

- «لا أدري، لا أعرف أين وضعته».

فتَّشتْ في حقيبة اليد، والحقيبة الكبيرة، فلم تعثر عليه. حاولتُ أن أهدِّئها:

- «لقد نسيتِه في بيت روبرتو بالتَّأكيد».

- «لا، لقد كان معي هنا، في جيب الحقيبة».

- «واثقة؟»

- «لست واثقةً من شيء».

- «هل كان معكِ في المطعم؟»

- «أذكر أنَّني أردتُ وضعه، لكنِّي لم أضعه ربَّما».

- «يبدو لي أنَّه كان في معصمكِ».

وهكذا دواليك.. إلى أن دخل القطار المحطَّة. انتقلت إليَّ عدوى عُصابها. وبدأتُ أخشى أنا أيضًا أن يكون القفل قد تحطَّم وضاع منها السِّوار، أو أنَّهم سرقوه في المترو، أو أنَّ أحد ركَّاب المقصورة استلبه منها ونحن نائمتان. كانت كلٌّ منَّا تعرف غضب فيتّوريا، وكنَّا متيقِّنتيْن من أنَّها ستسبِّب لنا المصاعب إذا عدنا من دون السِّوار. وحين نزلنا من القطار، هرعت جوليانا

إلى أقرب هاتف، واتَّصلت بروبرتو. رنَّ هاتفه فيما كانت تسرِّح شعرها بأصابعها، وتغمغم بصوتٍ مبحوح: لا يردّ؛ ثمَّ ترمقني وتردِّد: لا يردّ. بعد ثوانٍ، قالت بالعامِّيَّة، محطِّمَةً الجدار الفاصل بين الكلام اللَّائق والكلام المُسيء، وقد لاذت بوسواس التَّدمير الذاتيّ: لا بدَّ أنَّه ينيك ميكيلا ولا يريد أن يردّ. إلَّا أنَّ روبرتو ردَّ أخيرًا، وسرعان ما استعملت نبرةً ودِّيَّةً، تكتم اضطرابها، لكنَّها ما انفكَّت تلاعب شعرها بشكلٍ لولبيّ. أخبرته عن السِّوار، صمتت قليلًا، غمغمت بلهجة طيِّعة: حسنًا، سأتَّصل بك خلال خمس دقائق. أغلقتْ وقالت غاضبةً: عليه أن ينهي نيكته. هذا يكفي، هتفتُ مستاءةً. اهدئي. أومأتْ بنعم واعتراها الخجل، اعتذرت منِّي، قالت إنَّ روبرتو لا يعلم شيئًا عن السِّوار، سيبحث عنه في البيت الآن. بقيتُ واقفةً بجانب الحقائب، فيما كانت تروح وتغدو، وتزداد عصبيَّةً، وعدائيَّةً بحقِّ الرجال الذين ينظرون إليها أو يقولون لها أوقح الكلمات.

«هل انقضت الدقائق الخمس؟»، كادت تصيح عليّ.

«انقضت عشر دقائق».

«ألم يكن بإمكانكِ أن تخبريني؟»

هرعت لإدخال النقود في الهاتف. ردَّ روبرتو فورًا، وأصغت إليه، وهتفتْ: لحسن الحظّ، تناهى صوته إلى مسمعي، لكنِّي لم أفهم ما قال. وبينما كان يتكلَّم، همستْ لي جوليانا مطمئنَّة: لقد عثر عليه، كنتُ قد تركته في المطبخ. أولت إليَّ ظهرها لتقول له كلامًا غراميًّا، وسمعتُ ما قالته في كلِّ الأحوال. أغلقت السمَّاعة وبدت سعيدة، لكنَّ السَّعادة دامت قصيرًا، غمغمت: وكيف لي أن أتأكَّد ممَّا إذا كانت ميكيلا قد انسلَّت بجانبه في الفراش حالما غادرتُ؟ توقَّفت بجانب السلالم المؤدِّية إلى المترو، هناك حيث كان علينا أن نفترق، فكلٌّ منَّا ستسلك اتِّجاهًا معاكسًا، لكنَّها قالت:

ـ «انتظري قليلًا، لا أريد العودة إلى البيت، لا أريد الخضوع لاستجواب فيتّوريا».

ـ «لا تجيبي على أسئلتها».

ـ «ستعذّبني لأنّي في كلّ الأحوال نسيتُ ذلك السّوار القميء».

ـ «أنتِ قلقةٌ أكثر من اللّازم، لا يمكنكِ أن تعيشي هكذا».

ـ «أنا في قلقٍ دائم حيال أيِّ شيء. هل تريدين أن تعرفي ما الذي خطر في بالي الآن. الآن بينما أتحدَّث معكِ؟»

ـ «قولي».

ـ «إذا ذهبت ميكيلا إلى بيت روبرتو؟ إذا رأت السّوار؟ إذا أخذتْه لها؟»

ـ «علاوةً على أنَّ روبرتو لن يكون ليسمح لها بذلك، أتعلمين كم سوارًا يتسنَّى لميكيلا اقتناؤه؟ ما همُّها بسوارِكِ، إنَّه لا يعجبكِ حتَّى».

رمقتني وهي تبرم خصلةً من شعرها بأصابعها، وغمغمت:

ـ «لكنَّه يعجب روبرتو، وأيُّ شيءٍ يعجب روبرتو سينال إعجابها حتمًا».

أرادت أن تحرِّر خصلة شعرها بتلك الحركة الميكانيكيَّة التي تقوم بها منذ ساعات، ولكنْ لا حاجة إلى ذلك، فقد بقي الشعر حول أصابعها. نظرتْ إليه مرتابةً، وغمغمتْ:

ـ «ما الذي يحدث؟»

ـ «أنتِ متوتِّرةٌ لدرجة أنَّكِ انتزعتِ شعركِ».

كانت تنظر إلى الخصلة، وتضرَّجَ وجهها كلِّيًا.

«لم أنتزعه، لقد تساقط بمفرده».

أمسكت بخصلةٍ أخرى، وقالت:

- «انظري».

- «لا تشدّي».

شدَّت، فإذا خصلةٌ أخرى من شعرها الطويل تبقى بين أصابعها، وسرعان ما تلاشى الاحمرار من على وجهها، فأبدلتْه بمنتهى الشحوب.

- «هل أنا أموت، يا جانّي، هل أنا أموت؟»

- «لن تموتي إذا تساقطت منكِ بضع شعرات».

هدَّأتُ روعها بمشقَّة، لكنَّها بدت مرهقةً من كلّ الكآبة التي لازمتها منذ الطفولة حتى ذلك اليوم: أبوها، أمَّها، فيتّوريا، صياح البالغين غير المفهوم من حولها، وآنذاك روبرتو وتوجُّسها من أنَّها لا تستحقُّه وقد تخسره. أرادت أن تريني قحف رأسها، قالت: أبعدي الشعر وانظري ماذا هناك. فعلتُ، ثمَّة بقعةٌ صغيرةٌ من فروة رأسها البيضاء، فراغٌ لا معنى له في وسط رأسها. رافقتها إلى الأسفل، إلى رصيف المترو الذي ستستقلّه.

- «لا تقولي شيئًا لفيتّوريا عن السّوار»، أوصيتُها «اروي لها عن جولتنا السياحيَّة في ميلانو فقط».

- «وماذا لو سألتني؟»

- «خذي وقتكِ».

- «وماذا لو أرادت أن تراه فورًا؟»

- «قولي لها إنَّكِ أعرتِني إيَّاه. واسترخي».

تمكَّنتُ من إقناعها بركوب القطار المتَّجه إلى جانتوركو.

- 20 -

ما أزال حتى الآن أستغرب كيف يخطِّط دماغنا الاستراتيجيَّات وينفِّذها من دون أن يكشف أمرها. ويبدو لي وصف تلك التدابير بالمُبهمة غير دقيق، لا بل ربَّما يكون دَجَلًا. كنت أعلم جيِّدًا أنَّني أريد العودة إلى ميلانو مباشرة بأيِّ ثمن، أعلم ذلك في وجداني، لكنِّي لم أحدِّث فيه نفسي. ولم أعترف لنفسي بغاية تلك الرِّحلة الجديدة والمضنية، بل تظاهرتُ بأنَّها ضروريَّة وطارئة، نبيلة الدوافع، حتَّى إنِّي سأنطلق بعد ساعةٍ من وصولي: التَّخفيف من قلق جوليانا باسترجاع السِّوار؛ إبلاغ خطيبها بما كانت لا تبوح به له، أي أنَّه عليه أن يتزوَّجها فورًا وقبل فوات الأوان، وأن يخرجها من الباسكوني، من دون أن يعبأ لديون أخلاقيَّة واجتماعيَّة وترّهات أخرى؛ عليَّ أن أصون صديقتي البالغة، بأن أحرِّف غضب عمَّتي نحوي، أنا التي ما تزال صغيرة.

وهكذا، اشتريتُ تذكرةً جديدة، واتَّصلتُ بأمِّي لأخبرها، من دون السَّماح لها بردٍّ مؤنِّب، بأنِّي سأبقى يومًا إضافيًّا في ميلانو. كان القطار يوشك على الانطلاق حين فطنتُ أنِّي لم أبلغ روبرتو. اتَّصلتُ به كما لو أنَّ ما نسمِّيه بتعبيرنا المريح قَدَرًا كان يُصنَع. ردَّ حالًا. وبصراحةٍ لا أعرف عمَّا تحدَّثنا، ولكنْ يطيب لي أن أرويه على هذا النحو:

ـ «جوليانا تحتاج إلى السِّوار بشكل طارئ، سأنطلق لاسترجاعه توًّا».

ـ «يؤسفني ذلك، ستتعبين».

ـ «لا يهمّ، أعود بكلّ سرور».

ـ «متى موعد الوصول؟»

ـ «في 22.08».

ـ «سآتي لاصطحابكِ».

ـ «سأكون بانتظارك».

لكنَّه حوارٌ مصطنع، يسعى بشكلٍ متخبّطٍ إلى رسم ما يشبه الاتِّفاق الضمنيّ بيني وبين روبرتو: قلتَ لي إنَّني جميلةٌ جدًّا، وها أنا ذا، ما إن نزلتُ من قطار، سأركب آخرَ على الرَّغم من تعبي الشديد، وأعود إليك بحُجَّة هذا السِّوار السِّحريّ، سحريٌّ ـ وأنت تعلم أفضل منِّي ـ لا لشيءٍ سوى لأنَّه يتيح لنا فرصة النوم معًا هذه اللَّيلة، على السَّرير نفسه الذي رأيتُك صباح البارحة نائمًا فيه مع جوليانا. لكنِّي لا أظنّ أنَّ حوارًا حقيقيًّا حصل ما بيني وبينه، مجرَّد تبليغٍ من طرفي يخلو من التزويق، على النَّمط الذي كنت أعتمده في تلك الآونة.

«جوليانا تحتاج إلى السِّوار بشكل طارئ. سأستقلّ قطارًا، وسأصل إلى ميلانو في المساء».

ربَّما أجابني بشيء ما، وربَّما لا.

- 21 -

كنتُ مُتعبةً لدرجة أنّي نمت لساعاتٍ، على الرَّغم من اكتظاظ المقصورة وثرثرة المسافرين ومُضخِّم الصوت ودويّ الصَّفير الطويل وصرير الحديد على السكّة. بدأت المشاكل عندما استيقظت. تلمَّستُ رأسي مباشرةً متيقِّنةً أنّني صلعاء، لا بدَّ أنّي رأيتُ حلمًا كريهًا. لكنْ ما رأيتُه في الحلم قد تبدَّد على الفور، ولم يترك لي سوى انطباعٍ بأنَّ شَعري كان يتساقط خصلةً في إثر خصلة أكثر ممّا حدث لجوليانا، لكنَّه لم يكن شَعري الحقيقيّ الذي كان والدي يتغزَّل فيه عندما كنت صغيرة.

بقيتُ مغمضة العينيْن، شبه غافية. كان يبدو لي أنَّ الإفراط من التقارب الجسديّ من جوليانا يضرّ بي. باتت خيبتها خيبتي أيضًا، وكأنَّها نقلت إليَّ عدواها، وكان جهازي الحيويّ يتهالك مثلما وقع لجهازها. ذُعِرتُ، بذلتُ قصارى جهدي للخلاص من النوم نهائيًّا، إلَّا أنَّ الانزعاج من قبوع جوليانا وعذاباتها في ذهني ما زال حاضرًا، بينما كنت أسافر باتِّجاه خطيبها.

تضايقتُ، بتُّ لا أطيق رفاق السَّفر، خرجتُ إلى الممرّ. حاولتُ أن أهوِّن على نفسي باقتباساتٍ عن قدرة الحبّ الذي لا يمكن الفرار منه، حتى لو أراد المرء ذلك. اقتباساتٌ من مقاطع شعريَّة وعبارات

روائيَّة، كنت قد قرأتها في الكتب التي أعجبتني، ودوَّنتها في دفاتري. لكنَّ أثر جوليانا لم ينقشع عنِّي، لاسيَّما حركة يدها التي تحمل خصلات شعرها، ذلك الجزء الجميل منها يتردَّى بعذوبةٍ أو يكاد. قلت لنفسي من دون رابطٍ مباشر: لئن لم يصبح وجهي شبيهًا بوجه فيتّوريا بعد، فإنَّ ذلك الوجه سيفرض نفسه على عظامي حتمًا بعد قليل، ولن يزول أبدًا.

كانت لحظةً بشعة، لعلَّها الأبشع في تلك السَّنوات البشعة. كنتُ واقفة على قدميّ، في ممرٍّ مطابقٍ لذاك الذي أمضيتُ فيه جزءًا كبيرًا من اللَّيلة السَّابقة، أصغي إلى جوليانا التي تمسك بيدي لتتأكَّد من أنِّي أتابعها، وتمسكني من ذراعي، وتحكّ جسدي بجسدها باستمرار. كانت الشمس تغيب، والريف الأزرق تمزِّقه فرقعة القطار الجاري، وكانت ليلةٌ أخرى توشك على الهبوط. وفجأةً، استطعتُ أن أقول لنفسي بوضوح أنْ ليس لي غاياتٌ نبيلة. لم أكن أقوم بتلك الرحلة الجديدة لاسترجاع السّوار، لم أكن أنوي مساعدة جوليانا. كنت ذاهبةً لخيانتها، كنت ذاهبةً للاستيلاء على الرجل الذي تحبّه. كنت أدهى من ميكيلا، أقصد أن أطردها من المكان الذي أفرده روبرتو لها بجانبه، وأن أمحو وجودها. كنتُ أشعر أنَّني مخوَّلةٌ بفعل ذلك، لأنَّ شابًا بدا لي استثنائيًا، أكثر استثنائيَّةً من والدي الذي زلّ لسانه بأنِّي أشبه فيتّوريا، قال لي خلاف ذلك، قال إنَّني جميلةٌ جدًّا. أمَّا الآن ـ بينما يقترب القطار من مشارف ميلانو ـ عليَّ أن أدرك ملء نفسي بأنِّي افتخارًا بذلك التكريم تحديدًا، كنت ماضيةً لفعل ما يجول في ذهني، ولن يعترض سبيلي أيُّ شيء، ولن يكون وجهي إلَّا نسخةً عن وجه فيتّوريا. إن خنت ثقة جوليانا، أصبحتُ تمامًا مثل عمَّتي عندما دمَّرت حياة مرغريتا، ومثل

شقيقها أيضًا، لِمَ لا! أبي، عندما دمَّر حياة أمِّي. شعرتُ بالذنب. كنت عذراء، وأردتُ في تلك اللَّيلة نفسها أن أفضّ عذريَّتي مع الشخص الوحيد الذي أفرد لي جمالًا جديدًا، بفضل سلطته الواسعة المُستمدَّة من ذكوريَّته. بدا لي ذاك أحد حقوقي، سأدخل مرحلةَ البلوغ بهذه الطريقة. لكنِّي بينما كنتُ أنزل من القطار، انتابني الذعر، لم أشأ أن أصبح كبيرةً بتلك الطريقة. فالجمال الذي رآه فيَّ روبرتو يشبه كثيرًا جمالَ مَن يتعمَّد إيذاء الناس!

ـ 22 ـ

كنت قد فهمتُ خلال الاتِّصال أنَّه سيكون بانتظاري عند الرَّصيف، مثلما فعل مع جوليانا، لكنِّي لم أجده هناك. انتظرتُ قليلًا، اتَّصلتُ. أبدى أسفه، كان مقتنعًا من أنَّني سآتي إلى بيته، إذ كان يعمل على بحثٍ يتوجَّب تسليمه في اليوم التالي. أُحبِطتُ، لكنِّي لم أقل شيئًا. اتَّبعتُ إرشاداتِه، وأخذتُ المترو ووصلتُ إلى بيته. استقبلني بحفاوة. أملتُ أن يقبِّلني على فمي، فقبَّلَ وجنتيّ. كان قد حضَّر مائدة العشاء، من صنيع الناطورة الخدوم، وتعشَّينا. لم يشر إلى السّوار، لم يشر إلى جوليانا، ولم أفعل أنا أيضًا. حدَّثني كما لو أنَّه يحتاج إليَّ لتوضيح أفكاره حول الموضوعة التي يعمل عليها، وكما لو كنت ركبتُ القطار خصِّيصًا للاستماع إليه. كان البحث يتمحور حول فكرة الندم. وصفه غير مرَّةٍ بالتمرُّن على وخز الضمير بدبّوسٍ وخيطٍ مثلما حين نصنع من القماش رداءً. أصغيتُ إليه. استخدم صوته الذي فتنني. ووقعتُ في الإغواء مرَّةً أخرى ـ أنا في بيته، بين كتبه، وذاك مكتبه، نأكل معًا، ويتحدَّث معي عن عمله ـ شعرتُ بنفسي أنَّني المرأة التي يحتاج إليها، المرأة التي أطمح أن أكون تمامًا.

أعطاني السّوار بعد العشاء، لكنَّه عامله كما لو كان معجون أسنان، أو منشفة، ولم يشر بعدُ إلى جوليانا، بدا كأنَّه محاها من حياته.

حاولتُ اتّباع استراتيجيَّته تلك، لكنِّي أخفقتُ، فما زلت ألهج بابنة فيتّوريا المتبنّاة. كنت أعلم أكثر منه عن أوضاعها الجسديَّة والعصبيَّة الراهنة، بعيدةً عن تلك المدينة الجميلة، بعيدةً عن تلك الشقَّة، في أسفل أسفل ضواحي نابولي المهمَّشة، في البيت الرماديّ حيث الصُّورة الكبيرة لإنزو بزيّ الضابط. ورغم هذا، كنَّا معًا في تلك الغرفة منذ ساعاتٍ قليلة، وكنت قد رأيتها في الحمَّام وهي تنشِّف شعرها وتطمس مظاهر قلقها أمام المرآة، وهي جالسة بجانبه في المطعم، وهي تنجذب إليه في السَّرير. هل يعقل أنَّها تبدو الآن ميّتة! أنا هناك وهي لم تَعُد موجودة؟ ـ تساءلتُ ـ هل من السُّهولة أن نموت في حياة الأشخاص الذين لا يمكن لنا العيش من دونهم؟ وعلى منوال تلك الخواطر، بينما كان يتحدَّث عمَّا لستُ أدري بأسلوبه السَّاحر المُمتع ـ لم أعد أسمعه، كنتُ أتلقَّف بعض المفردات بمشقَّة: النعاس، الأريكة/ السرير، الغموض الطاحن، السَّهر حتى الفجر، كان صوت روبرتو يبدو على ومضاتٍ أنّه أحدُ أجملِ أصواتِ والدي ـ قلت وقد خارت قواي:

«إنَّني جدٌّ متعبة وخائفة».

فأجاب:

«يمكنكِ أن تنامي معي».

لم تستطع كلماتي وكلماته أن تلتحم فيما بينها، بدت عبارتيْن متتاليتيْن، لكنَّهما ليستا كذلك. ففي كلماتي صدًى لجنون تلك الرِّحلة المنهكة، وإحباط جوليانا، والخشية من اقتراف خطأٍ فادحٍ لا يُغتفر. وفي كلماته مهبطٌ لتحويمٍ ضمنيّ حول صعوبة فتح الأريكة/السَّرير. وحين أدركتُ ذلك، أجبتُ:

«لا، سأتدبَّر نفسي هكذا».

وإثباتًا لكلامي استلقيتُ على الأريكة منكمشةً على نفسي.

ـ «أواثقة؟»

ـ «أجل».

قال: «لماذا عدتِ؟»

ـ «لم أعد أدري».

مرَّت بضع ثوانٍ، كان واقفًا على قدميْه، ينظر إليَّ من أعلى باستلطاف، وأنا على الأريكة، أحدِّق إليه من أسفل، مضطربةً. لم ينحنِ نحوي، لم يداعبني، لم يقل سوى ليلةٍ سعيدة، وانسحب إلى غرفته.

رتَّبتُ نومتي على الأريكة من دون أن أنزع ثيابي، لم أشأ أن أنزع عني درع الثياب. ثمَّ سرعان ما رغبتُ انتظار أن ينام لكي أنهض، وأذهب إليه وأتغلغل في السرير بملابسي، لمجرَّد أن أكون بجانبه. قبل أن أتعرَّف على روبرتو، لم أشعر يومًا بحاجةٍ أن يولجني أحد. ربَّما انتابني الفضول كحدٍّ أقصى، وما لبثتُ أن تجنَّبتُ ذلك خشية الألم الذي قد يراودني في منطقة حسَّاسة من الجسد، أخشاها حين أتلمَّسها وأفركها بنفسي. بعد أن رأيته في الكنيسة، اجتاحتني رغبةٌ عنيفةٌ بقدر ما هي متخبِّطة، اهتياجٌ يشبه التوتُّر المرح الذي ينتشر في أنحاء الجسم كافَّةً، حالما يدهم العضو التناسليّ كأنَّه ينفخه. وحتى بعد اللِّقاء في ساحة أميديو واللِّقاءات العَرَضيَّة والقصيرة التي تلته، لم أتخيَّل إطلاقًا أنَّه قد يولجني؛ لا بل بالتَّفكير مليًّا، كنت أرى الحدث سوقيًّا في المرَّات النادرة التي شطح فيها خيالي نحو ذلك الاتِّجاه. في ميلانو فقط، عندما رأيته في الصباح التالي في السَّرير مع جوليانا، لا بدَّ أنَّني أدركتُ أنَّه مثل بقيَّة الذكور، له عضوٌ متدلٍّ أو منتصب، يولجه في جوليانا كالمكبس،

وقد يكون مستعدًّا لإيلاجه فيَّ أيضًا. لكنَّ هذا اليقين لم يكن حاسمًا بالمطلق. من المؤكَّد أنَّني قمت بالرحلة الثانية بناءً على أنَّ الإيلاج كان حتميّ الحدوث، وأنَّ المشهد الملحميّ، الذي نحتته عمَّتي بكامل تفاصيله منذ زمن، كان سيشملني أيضًا. ورغم هذا، كانت الحاجة التي دفعتني تتطلَّب أمورًا أخرى، وكنت أستوعب ذلك آنذاك والنومُ يغلبني. كنت أودُّ التمتُّع بتقديره لي في السَّرير، بجانبه، وأنا ملتصقة به. أردتُ أن أناقشه عن الندم، عن الربّ الشبعان في حين أنَّ كثيرًا من مخلوقاته تموت جوعًا وعطشًا. أردتُ أن أشعر بأنِّي أكثر من حيوانٍ أليف أو جميلة، بحيث إنَّ ذَكَرًا ضليعًا بالأفكار العظمى بإمكانه أن يلهو بي قليلًا. غفوتُ وأنا أفكِّر بأنَّ هذا، هذا الشيء تحديدًا، لم يكن ليحدث. من السُّهولة أن أحظى به في باطني. كان بوسعه أن يولجني حينذاك، أثناء النوم، دون أيِّما استغراب. كان على يقينٍ أنَّني عدتُ من أجل ذلك النوع من الخيانة، لا من أجل خياناتٍ أشدّ فتكًا.

VII

-1-

مكتبة
t.me/t_pdf

لم أجد أمّي عندما عدت إلى البيت. لم تأخذني الظنون. استلقيتُ على السَّرير وغفوتُ سريعًا. بدا لي البيت في الصباح خاويًا وصامتًا، ذهبتُ إلى الحمَّام، عدتُ إلى السرير، وغفوتُ ثانيةً. لكنَّني صحوتُ جفلةً في لحظةٍ معيَّنة، كانت نيلّا جالسةً على حافَّة السرير، وتهزّني.

ـ «هل أنتِ بخير؟»

ـ «أجل».

ـ «كفاكِ نومًا».

ـ «كم السَّاعة؟»

ـ «الواحدة والدَّقيقة العشرون».

ـ «أنا أتضوَّر جوعًا».

سألتني عن ميلانو على مضض، فحدَّثتها عن الأماكن التي زرتها على مضضٍ مماثلٍ ويزيد: الكاتدرائيَّة، مسرح لاسكالا، غاليريا، ناڤيلي. ثمَّ قالت لي إنَّ لديْها خبرًا سارًّا: اتَّصلت المديرة بوالدي، وأخبرته أنَّني نجحتُ بعلامات ممتازة، تسعة من عشرة باللُّغة الإغريقيَّة دفعةً واحدة.

ـ «المديرة اتَّصلت بأبي؟»

ـ «أجل».

ـ «المديرة غبيَّة».

ابتسمت أمّي، وقالت: «ارتدي ثيابكِ، ماريانو هنا».

ذهبتُ إلى المطبخ حافية القدميْن ومُهملة الشعر بلباس المنامة. كان ماريانو جالسًا إلى الطاولة. انتفض واقفًا، وأراد أن يهنّئني على النجاح بالقُبَل والعناق. تحقَّقَ أنَّني بتُّ كبيرة، أكبر من آخر مرَّةٍ رآني فيها، وقال: كم أصبحتِ جميلةً يا جوفانّا! سنذهب في إحدى هذه الأمسيات للعشاء وحدَنا أنا وأنتِ ونتجاذب أطراف الحديث المُمتع. ثمَّ توجَّه إلى أمّي بنبرة أسفٍ مُصطنع، وهتف: من غير المعقول أنَّ هذه الآنسة تتردَّد إلى روبرتو ماتيزي، أحد أبرز شبَّاننا الواعدين، وتتحدَّث إليه وجهًا لوجه بما لستُ أدري من شؤونٍ في غاية الأهمِّيَّة، بينما أنا الذي أعرفها مذ كانت صغيرة لا أستطيع أن أناقشها بأيِّ فكرة! أومأت أمّي بنعم، وأشرق وجهها بملامح الفخر، لكنَّها من الواضح أنَّها لا تعرف شيئًا عن روبرتو. لذا استنتجتُ أنَّ والدي هو الذي حدَّث ماريانو عن روبرتو باعتباره أحد أفضل أصدقائي.

ـ «أعرفه بالكاد»، قلت.

ـ «هل هو لطيف؟»

ـ «جدًّا».

ـ «هل صحيحٌ أنَّه من نابولي؟»

ـ «أجل، لكنَّه ليس من منطقة ڤوميرو، بل من أسفل».

ـ «يبقى نابوليتانيًّا».

ـ «صحيح».

ـ «ما اهتماماته الحاليَّة؟»

ـ «الندم».

نظر إليَّ مرتبكًا: «الندم»!

بدا محبطًا، ومع ذلك ما زال فضوليًّا. كأنَّ جزءًا سحيقًا من دماغه يفكِّر أنَّ الندم ربَّما موضوعٌ يتطلَّب دراسةً مستعجلة.

«الندم» أكَّدتُ له.

توجَّه ماريانو إلى أمِّي ضاحكًا:

«هل فهمتِ يا نيلا؟ ابنتكِ تقول إنَّها تعرف روبرتو ماتيزي بالكاد، ثمَّ نكتشف أنَّه حدَّثها عن الندم».

أكلتُ كثيرًا، وكنتُ أتلمَّس شعري من حين لآخر لأتحقَّق ممَّا إذا كان ما يزال مغروسًا في فروة رأسي، كنت أداعبه بأصابعي، وأشدّه قليلًا. نهضتُ عند نهاية الطعام، وقلت إنِّي ذاهبة للاستحمام. وماريانو الذي كان حتى تلك اللَّحظة قد أوغل جُملةً في إثر أخرى، مقتنعًا بأنَّه يمتعني وأمِّي على حدٍّ سواء، اتَّخذ هيئةً مضطربة، وقال:

ـ «هل تعلمين بشأن إيدا؟»

أومأتُ بِ لا. تدخَّلت والدتي:

«لقد رسبت».

«إن كان لديْك وقت ـ قال ماريانو ـ كوني قريبةً منها. أنجيلا نجحت وقد انطلقت منذ صباح أمس إلى اليونان مع صديقٍ لها. إيدا في حاجة إلى مؤانسة ومؤاساة. لا تفعل شيئًا سوى القراءة والكتابة. وما رسبت إلَّا بسبب هذا: تقرأ، تكتب، لكنَّها لا تدرس».

لم أحتمل ذيْنك الوجهيْن اللذيْن يعتصران ألمًا، قلت:

«مؤاساة من أجل ماذا؟ كفّا عن صنع مأساةٍ ممّا حدث، وستريان أنَّ إيدا لن تحتاج مؤاساةً من أيِّ نوع».

انغلقتُ على نفسي في الحمّام، وعندما خرجتُ كان البيت غارقًا في صمتٍ مطبق. قرَّبتُ أذني من باب غرفة أمِّي، فلم أسمع أيَّ نَفَس. فتحتُه قليلًا، لا شيء. من الواضح أنَّ نيلّا وماريانو اعتبراني عديمة ذوق، فامتعضا وانصرفا من دون حتى أن يصيحا عليّ: سلامًا جوفانًا. اتَّصلتُ بإيدا عندئذٍ، فأجاب والدي.

- «شاطرة» هتف سعيدًا ما إن سمع صوتي.

- «أنت هو الشاطر: المديرة مُخبرة تعمل تحت إمرتك».

ضحك مسرورًا.

- «إنَّها امرأة طيّبة».

- «طبعًا».

- «علمتُ أنَّكِ كنتِ في ميلانو، ضيفةً عند ماتيزي».

- «من أخبرك؟»

استغرق بضع ثوانٍ لكي يردّ.

- «فيتّوريا».

هتفتُ غير مصدَّقة: «هل أنتما على تواصل؟»

«بل أكثر من ذلك: البارحة جاءت إلى هنا. صديقة كوستانا بحاجة إلى رعاية دائمة ليل نهار، ففكَّرنا بها».

غمغمتُ: «تصالحتما».

«لا، فالصلح مع فيتّوريا مستحيل. لكنَّ السَّنوات تمضي، ونصبح عَجَزة. ثمَّ إنَّكِ ربطتِ بين الضفَّتيْن مثل جسر، شيئًا فشيئًا، وبعناية، أحسنتِ. أنتِ بارعة، مثلي».

ـ «هل سأغوي مدراء المدارس أنا أيضًا؟»

ـ «ستفعلين هذا وأكثر. كيف الحال مع ماتيزي؟»

ـ «دع ماريانو يروِ لك، فلقد حدّثتُه بالأمر مسبقًا».

ـ «أعطتني فيتّوريا عنوانه، أريد أن أكتب له رسالةً. فهذا الزمان عصيب، وينبغي للأشخاص ذوي القيمة أن يبقوا على تواصل. هل لديكِ رقم هاتفه؟»

ـ «لا. هلَّا أعطيتني إيدا؟»

ـ «ألا تودِّعينني حتّى؟»

ـ «سلامًا أندريا».

صمت لحظةً طويلة: «سلامًا».

سمعتُه ينادي إيدا بنبرة الصوت ذاتها التي كان يناديني بها أعوامًا خلت، عندما كنتُ أتلقَّى اتِّصالًا هاتفيًّا. أقبلت إيدا سريعًا، وقالت بصوتٍ محطَّم، تهمس أو تكاد:

ـ «أعطني مناسبةً لكي أخرج من هذا البيت».

ـ «نلتقي خلال ساعة في فلوريديانا».

- 2 -

ذهبتُ إلى المتنزه لانتظار إيدا. وصلتْ تتصبَّب عرقًا، وشعرها الأسود مربوطٌ كذيل الحصان، وباتت أطول قامةً ممّا كانت عليه قبل أشهر، وباتت هزيلةً جدًّا وضعيفةً مثل ساق نبتة. كانت تحمل حقيبةً سوداء ممتلئة، وترتدي تنُّورةً قصيرةً سوداء، وقميصًا داخليًّا مخطَّطًا، وكان وجهها شديد الشحوب كأنَّه أضاع الطفولة؛ فمها منتفخ، وعظام وجنتيها كبيرةٌ ومدوَّرة. بحثنا عن مقعدٍ في الظلّ. قالت لي إنَّها سعيدةٌ برسوبها. كانت تريد أن تترك المدرسة، وتنكفئ على الكتابة حصرًا. ذكَّرتُها أنَّني كنت قد رسبتُ أنا أيضًا، لكنَّ ذلك لم يسرّني، بل عانيتُ كثيرًا. فأجابت بنظرةٍ ملؤها تحدٍّ:

«أنتِ نال منكِ الخزيُ، أمَّا أنا فلا».

قلت:

«شعرتُ بالخزي، لأنَّ رسوبي أَشعَرَ والديَّ بالخزي».

«لا أبالي بالخزي الذي يلحق بوالديَّ، لديْهما أشياءٌ أخرى تستوجب خِزيهما».

«إنَّهم مذعورون دومًا. يخشون أنَّنا لن نكون لائقين بهم».

«لا أريد أن أكون لائقةً بأحد، أريد أن أكون غيرَ لائقة، أريد أن أحظى بنهاية مؤلمة».

روت لي أنَّها في سعيها لتصبح غير لائقة، فعلت ما بوسعها لتكسب النفور، وقد التقت بأحدهم كان قد عمل في حديقة البيت في بوزيليبو لفترةٍ معيَّنة، وكان متزوِّجًا ولديْه ثلاثة أبناء.

«وكيف كان الوضع؟» سألتُ.

ـ «في منتهى البشاعة. كان لديْه لعابٌ يبدو مثل مياه الصَّرف، ويتفوَّه بالكلام البذيء باستمرار».

ـ «ولكنَّك لا بدَّ أنَّكِ أزحتِ عن عاتقكِ هاجسًا على الأقلّ».

ـ «هذا صحيح».

ـ «ولكنْ اهدئي الآن، وحاولي أن تكوني بخير».

ـ «كيف؟»

اقترحتُ عليها أن نذهب معًا لدى تونينو، إلى البندقيّة. ردَّت أنَّها تفضِّل وجهةً أخرى: روما. ألححتُ على البندقيَّة، وفهمتُ أنَّ مشكلتها لا تكمن في المدينة، إنَّما في تونينو. وبالفعل، اتَّضح أنَّ أنجيلا حدَّثتها عن الصفعة، والغضب الذي ابتلى الفتى حتَّى خرج عن طوره. لقد آذى شقيقتي، قالت. صحيح. أقرَّيتُ، ولكنِّي معجبةٌ بالجهد الذي يبذله ليتصرَّف بشكلٍ سليم.

ـ «لقد أخفق في هذا مع شقيقتي».

ـ «لكنَّه اشتغل على الأمر أكثر منها بكثير».

ـ «هل تريدين أن يفضّ تونينو بكارتكِ؟»

ـ «لا».

ـ «هل لي أن أفكّر ثمَّ أخبركِ قراري؟»

ـ «أجل».

ـ «أودّ الذهاب إلى مكانٍ حيث أكون بخيرٍ، وأكتب».

ـ «هل تفكّرين بكتابة قصَّة البستانيّ؟»

ـ «كتبتُها مسبقًا، لكنّي لن أقرأها عليكِ، لأنَّكِ ما تزالين عذراء وقد تفقدين الرَّغبة».

ـ «فاقرأي عليَّ شيئًا آخر».

ـ «أجادَّةٌ أنتِ؟»

ـ «أجل».

ـ «ثمَّة قصَّةٌ وددتُ أن أقرأها عليكِ منذ زمن».

فتَّشتْ في حقيبتها، وأخرجتْ دفاتر وأوراقًا مبعثرة. اختارت دفترًا ذا غلاف أحمر، وعثرت عمَّا تبحث عنه. صفحاتٌ قليلة: حكاية رغبة قديمة لم تتحقَّق. شقيقتان لديْهما صديقة تأتي غالبًا للنَّوْم عندهما. الصديقة على صلة وثيقة بالشقيقة الكبرى وعلاقتها عاديَّة بالصُّغرى. الكبرى تنتظر أن تنام شقيقتها الصغرى لتنتقل إلى سرير الضيفة وتنام معها. والصغرى تحاول أن تقاوم النُّعاس، ويغضبها أنَّ الاثنتيْن تستبعدانها، لكنَّها ترضخ في النهاية. ذات مرَّةٍ، تتظاهر بأنَّها نائمةٌ لتبقى في صمتٍ وعزلةٍ، تستمتع إلى همساتهما وقُبلاتهما المتبادلة. ومنذ ذلك الحين، لم تكفّ عن تلك الطريقة للتلصُّص عليهما، وتنتظر أن تغطَّ في النوم أخيرًا لكي تبكي قليلًا، إذ يبدو لها أنْ لا أحد يَودُّها.

قرأتْ إيدا بلا شغف، وبسرعة، لكنَّها هجَّأت الكلمات بدقَّة. ولم ترفع نظرها عن الدفتر، لم تنظر إليَّ في وجهي. انفجرت في النهاية باكيةً تمامًا مثل الطفلة المعذَّبة في الحكاية!

بحثتُ عن منديل ومسحتُ دموعها. قبَّلتُها على فمها، على الرَّغم من مرور أُمَّيَن تتمشّيان متقاربتيْن على بُعد أمتار منَّا، وتدفع كلٌّ منهما عربة الطفل، وتدردشان.

-3-

في الصباح التالي، من دون حتَّى أن أحاول الاتِّصال، ذهبتُ مباشرةً إلى بيت مرغريتا حاملةً معي السّوار. تجنَّبتُ بيت فيتّوريا ببراعة، لأنّي أردت ملاقاة جوليانا على انفراد، هذا أوَّلًا؛ وثانيًا بدا لي أنَّني فقدتُ أيَّ فضولٍ تجاهها بعد المصالحة الفجائيَّة والموقَّتة بلا شكّ بينها وبين والدي. لكنّ احترازي كان بلا طائل، إذ فتحت البابَ عمَّتي بالضبط، كما لو أنَّ بيت مرغريتا بيتها. جوليانا ليست هناك، صحبتها مرغريتا إلى الطبيب، فيما كانت عمَّتي ترتِّب المطبخ من جديد.

ـ «تعالي، تعالي ـ قالت ـ ما أجملكِ، رافقيني».

ـ «كيف حال جوليانا؟»

ـ «أصابها تقصُّفٌ في الشعر».

ـ «أعرف».

ـ «أعرف أنَّكِ تعرفين، وأعرف أيضًا كم عاونتِها، وكم كنتِ حريصةً على كلِّ شيء. شاطرة، شاطرة، شاطرة. كلٌّ من جوليانا وروبرتو يَودُّكِ كثيرًا. وأنا أَودُّكِ أيضًا. وإن كان والدكِ قد أنشأكِ على هذا الشَّكل، فهذا يعني أنَّه ليس بالرجل الخرائيّ الذي يبدو عليه».

«أخبرني أبي أنَّكِ حصلتِ على عملٍ جديد».

كانت واقفةً بجانب المغسلة، وخلفها صورةُ إنزو والضوءُ الصغير المشتعل. للمرَّة الأولى مذ عرفتُها، رأيتُ في عينيها جريانَ ارتباكٍ طفيف.

ـ «جيِّدٌ جدًّا. أجل».

ـ «ستنتقلين إلى بوزيليبو».

ـ «إيه نعم».

ـ «يسعدني هذا».

ـ «أمَّا أنا فيؤسفني بعض الشيء. عليَّ أن أفترق عن مرغريتا، وكورّادو، وجوليانا، وقد فقدتُ تونينو من قبل. أحيانًا، أفكِّر أنَّ أباكِ تقصَّدَ أن يجد لي هذا العمل. يريد أن يجعلني أعاني».

انفجرتُ ضاحكةً، وما لبثتُ أن كتمتُ الضحكة.

ـ «ربَّما»، قلت.

ـ «ألا تصدِّقين؟»

ـ «أصدِّق: يمكنكِ توقُّع أيِّ شيء من جانب والدي».

رمتني بنظرةٍ لئيمة.

ـ «لا تتكلَّمي هكذا عن أبيكِ وإلَّا لطمتُكِ».

ـ «المعذرة».

ـ «أنا الوحيدة التي يجدر بها أن تتكلَّم عليه بالسُّوء، أنتِ لا، لأنَّكِ ابنته».

ـ «حسنًا».

- «تعالي هنا، أعطيني قبلة. أودُّكِ كثيرًا، مع أنَّكِ تغضبينني أحيانًا».

قبَّلتُ خدَّها، وفتَّشتُ في حقيبتي.

«أتيتُ لأعيد السّوار لجوليانا، لقد وقع في حقيبتي عن طريق الصدفة».

أمسكت بيدي.

«عن طريق الصدفة، وكيف لا. خذيه لكِ، أعرف أنَّكِ تحبِّينه».

- «بات لجوليانا».

- «لا يعجب جوليانا، لكنَّه يعجبكِ».

- «وما الذي دفعكِ لتعطيه لها إذا كان لا يعجبها؟»

نظرتْ إليَّ غير واثقة، بدت أنَّها تلاقي صعوبةً في فهم معنى السُّؤال.

- «أنتِ غيور؟»

- «لا».

- «أعطيتُه لها، لأنِّي كنت أراها عصبيَّة. لكنَّ السّوار هو لكِ منذ أن ولدتِ».

- «لكنَّه لم يكن سوارًا لطفلةٍ رضيعة. لماذا لم تحتفظي به؟ كان بإمكانكِ أن تضعيه يوم الأحد حين تذهبين إلى الصلاة».

ارتسم اللَّوْم على عينيْها وصاحت:

«الآنَ، تعلِّمينني أنتِ ماذا أفعل بسوار أمِّي؟ خذيه لكِ واسكتي. فجوليانا، إن شئنا قول الحقيقة، ليست في حاجةٍ إليه. إنَّها ممتلئةٌ بالنور لدرجة أنَّ السّوار، أو أيَّ جوهرةٍ أخرى يبدو زائدًا. الآن، لديْها مشكلة الشَّعر هذه، لكنَّها ليست شيئًا خطيرًا، سيعطيها الطبيب علاجًا لاستعادة

نضارته، وستنقضي. أمَّا أنتِ، فلا تعرفين كيف تحسِّنين مظهركِ، تعالي هنا».

توتَّرتْ كما لو كان المطبخ مجالًا ضيِّقًا لا هواء فيه. جرجرتني إلى غرفة نوم مرغريتا، فتحت دفَّتَي الخزانة، فظهرتُ في مرآةٍ طويلة. أمرتني فيتّوريا: انظري إلى نفسكِ، انظري؛ لكنّي رأيتُها هي خلف ظهري. قالت: أنتِ لا تلبسين يا ابنتي، بل تختبئين في ملابسكِ. رفعتْ تنُّورتي إلى خصري، وهتفت: انظري إلى فخذيْكِ، يا ربَّاه، التفّي، هكذا صار لديكِ مؤخَّرة بحقّ. أرغمتني على الدَوَران حول نفسي، وربَّتت بقوّة على سروالي، ثمَّ أدارتني نحو المرآة من جديد. يا أمَّنا العذراء، ما أبدع حنِّيَّتكِ ـ صاحت وهي تلامس خاصرتي ـ عليكِ أن تتعرَّفي على نفسكِ، عليكِ أن تُعلي من شأنكِ، عليكِ أن تُبرزي أشياءكِ الجميلة. لاسيَّما الصدر. أوه.. ما هذا الصدر؟ ليس لديْكِ فكرةُ ما الذي بوسع الفتاة أن تفعله بصدرٍ كهذا. لكنَّكِ تعاقبينه، تخجلين من نهديْكِ، وتقفلين عليهما. انظري كيف عليكِ أن تفعلي. وعندئذٍ، بينما كنت أُخفِض التنُّورة، دسّت يدها في فتحة القميص، وأوغلتْ في إحدى قبَّتي حمَّالة الصدر، ثمَّ في الأخرى، وعدَّلتها بحيث صار صدري موجةً منتفخة، عاليةً فوق فتحة القميص. وتحمَّستْ: أرأيتِ؟ نحن جميلتان يا جانّي، جميلتان وذكيَّتان. لقد خُلِقنا في أحسن تكوين، ويجب ألَّا نهدر أنفسنا. أريد أن أراكِ بمظهرٍ يفوق مظهر جوليانا نفسها، فأنتِ تستحقّين الصعود إلى الفردوس الذي في السَّماوات، بعيدًا عن أبيكِ الحقير الذي بقي على الأرض، ومع ذلك يتباهى بنفسه. ولكنْ تذكَّري: هذا الذي هنا ـ لمست ما بين فخذيَّ برقَّةٍ، وبجزء من الثانية ـ هذا الذي هنا، قلت لكِ ألف مرَّة، احتفظي به غاليًا. قيِّمي المحاسنَ والمساوئَ قبل أن تعطيه

لأحدهم، وإلَّا لن تستفيدي شيئًا. لا بل اسمعيني جيّدًا: إن عرفتُ أنَّكِ أهدرتِه، سأخبر أباكِ وسنشبعكِ ضربًا معًا. والآن قفي ـ فتَّشتْ بنفسها هذه المرَّة في حقيبتي، وأخذت السّوار، ووضعته على معصمي ـ أترين كم يليق بكِ، أترين ما اكتسبتِ؟

في تلك اللَّحظة، ومن عمق المرآة، ظهر كورّادو أيضًا.

«مرحبًا»، قال.

استدارت فيتّوريا، واستدرتُ أنا أيضًا. سألَتْه وهي تهوّي بيدها من شدَّة الحَرّ:

ـ «جميلةٌ جانّينا، أليس كذلك؟»

ـ «جميلةٌ جدًّا».

- 4 -

أوصيتُ فيتّوريا أكثر من مرَّة أن تنقل تحيَّاتي إلى جوليانا، وأن تقول لها إنِّي أَودُّها، ولا داعي للقلق، فالأمور ستجري على النحو الأفضل. ثمَّ اتَّجهتُ صوب الباب، وأنا أنتظر أن يقول لي كورّادو: سآتي معكِ. لكنَّه ظلَّ ساكتًا، يترنَّح ممتعضًا. فبادرتُ إليه بالقول:

«هلَّا أوصلتني إلى موقف الباص يا كورّا؟»

«أجل، رافقْها»، أمرته فيتّوريا. فتبعني على مضض خلال السلالم، وفي الطريق، تحت شمسٍ لاهبة.

«ما بكَ؟» سألتُه.

أبدى عدم اكتراثه، وغمغم بشيءٍ لم أفهمه. وقال بوضوحٍ جليٍّ إنَّه يشعر بالوحدة. تونينو هاجر، وجوليانا ستتزوَّج قريبًا وفيتّوريا كانت تنتقل إلى بوزيليبو، تلك الضاحية التي يراها بمثابة مدينةٍ أخرى.

«أنا غبيُّ البيت، وعليَّ أن أبقى مع والدتي، الأغبى منِّي».

ـ «هاجِر أنت أيضًا».

ـ «إلى أين؟ وللقيام بماذا؟ وفي كلِّ الأحوال، لا أريد أن أرحل. فلقد ولدتُ هنا وأريد البقاء هنا».

ـ «فما حالك إذن؟»

حاول أن يشرح وجهة نظره. قال إنَّه لطالما شعر بالأمان في وجود تونينو، ووجود جوليانا، ووجود فيتّوريا بالأخصّ. غمغم: أنا مثل والدتي يا جانّي، نحن شخصان نقاسي كلَّ العذابات، لأنَّنا لا نُتقن صنع شيء ولا قيمة لنا. ولكنْ ـ هل تريدين أن تعرفي؟ ـ ما إن تغادر فيتّوريا، سأنزع صورة أبي من المطبخ، لم أعد أطيقها، إنَّها تخيفني. وأعلم مسبقًا أنَّ والدتي ستوافق.

شجَّعتُه على فعلها، لكنِّي قلت له لا ينبغي أن يكون واهمًا، لأنَّ فيتّوريا لن ترحل نهائيًّا على الإطلاق، وسوف تعود وتعود وتعود أشدّ إيذاءً، وستكون بغيضةً أكثر من ذي قبل.

ـ «ينبغي لك أن تلتحق بتونينو»، نصحتُه.

ـ «لسنا على وفاق».

ـ «تونينو قادرٌ على التحمُّل».

ـ «أمَّا أنا فلا».

ـ «قد أمرّ بالبندقيَّة وأسلِّمُ عليه».

ـ «أحسنتِ، أبلغيه تحيَّاتي أيضًا، وقولي له إنَّه فكَّر في خلاصه وحده، ولم يكترث لأمِّنا وجوليانا ولي».

طلبتُ منه عنوان أخيه، لكنَّه كان لديْه اسم المطعم الذي يعمل فيه فقط. وآنذاك، وقد فضفض عمَّا يثقل صدره، عاد إلى قناعه المعتاد. مازحني بالخلط بين اللَّطافة والاقتراحات البذيئة، لذا قلت له ضاحكةً: انقشه في رأسك جيِّدًا يا كورّا، لن يحدث بيني وبينك شيءٌ أبدًا. ثمَّ

استعدتُ جدِّيَّتي، وطلبتُ منه رقم هاتف روزاريو. نظر إليَّ متفاجئًا، أراد أن يعرف ما إذا قرَّرتُ أن أضاجع صديقه. وبما أنِّي أجبتُه بأنِّي لا أعرف، بينما كان يريد نفيًا قاطعًا، استبدَّ به القلق، واتَّخذ نبرة الأخ الأكبر الذي يسعى إلى حمايتي من خياراتٍ خاطئة. ومضى على هذا النحو بعض الوقت، انتبهتُ أنَّه ينوي عدم إمدادي بالرَّقم حقًّا. هدَّدتُه: حسنًا، سأعثر عليه بنفسي، لكنِّي سأقول لروزاريو إنَّك غيور، ورفضتَ إعطائي الرَّقم. وسرعان ما رضخ مع أنَّه ظلَّ يغمغم: سأخبر فيتّوريا، وفيتّوريا ستخبر والدكِ، وستقع أحداثٌ مؤسفة. ابتسمتُ، أردتُ أن أعطيه قبلةً على خدِّه، وقلتُ بأشدّ النبرات جدِّيَّةً: كورّا، أنت بذلك تسدي إليَّ معروفًا، فأنا أوَّل مَن يريد أن يعلمَ والدي وفيتّوريا، لا بل عليك أن تقسِم لي إنَّك ستفشي الأمر ما إن يقع. وصل الباص حينذاك، وتركتُه حائرًا على الرَّصيف.

-5-

في الساعات التالية، أدركتُ أنَّني لستُ مستعجلةً على فقدان بكارتي. كان روزاريو يجذبني بالتَّأكيد، لأسبابٍ مُبهمة، لكنِّي لم أتَّصل به. إنَّما اتَّصلتُ بإيدا لأتحقَّق ممَّا إذا كانت قد اتَّخذت قرارًا بالذهاب معي إلى البندقيَّة، وقالت إنَّها مستعدَّة، وقد أبلغتْ كوستانسا توًّا، وكانت أمّها سعيدةً، لأنَّها لن تراها في محيطها لبعض الوقت وقد أعطتها كثيرًا من النقود.

بعد ذلك مباشرةً، اتَّصلتُ بتونينو من خلال رقم المطعم الذي يعمل فيه. أحسستُ في البداية أنَّه مسرورٌ من مشروعي، ولكنْ ما إن عرف أنَّ إيدا سترافقني سكت بضع لحظات، ثمَّ قال إنَّه يسكن في غرفة صغيرة في ميستري، ولن تتَّسع لثلاثتنا. أجبتُ: توني، نحن نودُّ أن نسلِّم عليك؛ فإذا أردتَ لقاءنا فهذا جيّد، وإذا رفضتَ فلا بأس. غيَّر نبرته، وأقسم أنَّ لقاءنا يسعده، وأنَّه سيكون بانتظارنا.

وبما أنِّي كنتُ قد أنفقتُ في القطارات كلَّ النقود التي أعطتها لي أمِّي هديَّةً لعيد ميلادي عندما سافرتُ إلى ميلانو، ألححتُ عليها لكي تعطيني مزيدًا من النقود، مكافأةً على نجاحي هذه المرَّة. بتُّ جاهزةً للانطلاق عندما اتّصل روزاريو في التاسعة تمامًا من صباح يومٍ باردٍ بشكلٍ

مزعج ويهطل فيه مطرٌ ناعم. كان كورّادو قد حدَّثه، لأنَّ أوَّل جملةٍ قالها هي:

- «جانّي، قيل لي إنَّكِ حسمتِ أمركِ أخيرًا».

- «أين أنت».

- «في المقهى في أسفل».

- «أسفل ماذا؟»

- «أسفل بيتكِ. انزلي، سأنتظركِ. معي مظلَّة».

لم يراودني انزعاج، إنَّما شعرتُ أنَّ كلّ شيء يبدأ، وأنَّني إذا انتهى بي المطافُ ملتصقةً بشخص آخر في نهارٍ بارد أفضل من أن يتمّ ذلك في نهارٍ حارّ.

«لستُ في حاجةٍ إلى مظلَّتك» أجبتُ.

- «أتقصدين أنَّه عليَّ أن أنصرف؟»

- «لا».

- «تحرَّكي إذن».

- «إلى أين ستأخذني؟»

- «إلى شارع مانزوني».

لم أمشِّط شعري، لم أضع المكياج، لم أفعل شيئًا ممَّا نصحتني به فيتّوريا، ما عدا أنِّي وضعتُ السّوار. وجدتُ روزاريو على باب البناية بمظهره البشوش المعتاد والمطبوع على وجهه؛ لكنَّنا حين علقنا في زحمة اليوم الماطر، أسوأ الأيّام الماطرة، راح يتوعَّد ويشتم عددًا كبيرًا من السَّائقين طوال الوقت، ويصفهم بالعاجزين. انتابني قلقٌ، فقلت:

«إن لم يكن اليوم مناسبًا، فأعدني إلى البيت يا روزا».

ـ «لا تقلقي، هو اليوم المناسب، ولكنَّكِ ترين كيف يقود هذا الوغد».

ـ «هدِّئ أعصابك».

ـ «ما بكِ، هل ترينني غشيمًا إلى هذا الحدّ؟»

ـ «لا».

ـ «هل تريدين أن تعرفي سبب غضبي؟»

ـ «لا».

ـ «جانّي، إنَّني غاضبٌ لأنّي أرغب فيكِ منذ أوَّل مرَّةٍ رأيتُكِ، لكنّي لست متأكِّدًا من أنَّكِ ترغبين فيَّ. ما قولكِ، هل ترغبين فيَّ؟»

ـ «أجل. ولكنْ عليك ألَّا تؤذيني».

ـ «أيُّ أذى؟ بالعكس، أنا أخدمكِ».

ـ «وعليك ألَّا تستغرق وقتًا طويلًا، لديَّ ما أقوم به».

ـ «ما يتطلَّبه الأمر من وقت».

وجد مكانًا يركن فيه السيَّارة عند ذلك البيت تحديدًا، بناية من خمسة طوابق على الأقلّ.

«حظّنا جيّد»، قلت، بينما كان يتقدَّم مسرعًا نحو المدخل، ولم يقفل السيَّارة حتَّى.

ـ «ليس حظًّا ـ قال ـ إنَّما يعرفون أنَّ هذا المكان مخصَّصٌ لي، ويجب ألَّا يشغله أحد».

ـ «وإلَّا؟»

ـ «وإلّا أطلقتُ النار».

ـ «هل أنت رجل عصابات؟»

ـ «وهل أنتِ ابنة عائلة راقية تذهب إلى المدرسة؟»

لم أردّ، صعدنا بصمتٍ إلى الطابق الخامس. فكَّرتُ أنَّني بعد خمسين عامًا، إن أصبحتُ أنا وروبرتو أصدقاء أكثر ممَّا نحن عليه آنذاك، كنت سأروي له عن تلك الظهيرة ليشرحها لي. فهو كان يستطيع إيجاد معنًى لأيٍّ شيء نفعله. هذا هو عمله، وكان يُتقنه جيِّدًا إذا قورِنَ بوالدي وماريانو.

فتح روزاريو الباب. كانت الشقَّة في ظلامٍ دامس. تمهَّلي، قال. لم يشعل الضوء، تحرَّكَ واثقًا، رفع لفافات السديلة واحدةً تلو أخرى. فتفشَّى الضياء الرماديّ المصاحب للطقس السَّيِّئ في غرفةٍ كبيرة وفارغة، ليس فيها حتَّى كرسيّ. دخلتُ، أغلقتُ الباب خلفي، تناهت إلى سمعي ضرْبات المطر على النافذة، وولولة الريح.

«لا أرى شيئًا»، قلت وأنا أنظر إلى ما وراء الزجاج.

ـ «لقد اخترنا اليوم الخاطئ».

مكتبة
t.me/t_pdf

ـ «كلَّا، يبدو لي أنَّه اليوم الأنسب».

أقبل نحوي بخطًى مسرعة، أمسك برقبتي، وقبَّلني وهو يضغط بقوَّة على شفتيَّ محاولًا فتحهما بلسانه. وكان يعصر صدري بيده الأخرى. أقصيتُه عنِّي بدفعةٍ خفيفة على صدره، فتراءت لي ضحكةٌ عُصابيَّة على فمه، وكان ينفخ بأنفه. تراجع، لكنَّه ترك يده على صدري.

«ما بكِ؟» سأل.

ـ «هل يجب أن تقبِّلني بالقوَّة؟»

ـ «ألا يطيب لكِ؟»

ـ «كلّا».

ـ «كلّ الفتيات يهوين هذه الطريقة».

ـ «أمّا أنا فلا، كما أفضّل ألّا تمسَّ صدري. ولكنْ إن كان لكَ به حاجة فلا بأس».

ترك صدري، وغمغم: «لا حاجة لي بشيء».

أنزل سحّاب بنطلونه، وأخرج عضوه ليريني إيَّاه. خشيتُ أن يكون في سرواله شيءٌ أضخم ممّا ينبغي، لكنّي ارتحتُ حين رأيتُ أنَّ قضيبه ليس مختلفًا كثيرًا عن قضيب كورّادو، كما أنَّ شكله بدا لي يفوقه أناقةً. أخذ يدي، وقال:

«تلمَّسي».

تلمَّستُ، كان ساخنًا كما لو أنَّه مصابٌ بالحمّى. وبما أنَّه كان من الممتع عصره، لم أسحب يدي.

ـ «هل يعجبكِ؟»

ـ «أجل».

ـ «قولي لي ما الذي تريدين فعله. لا أودُّ إزعاجكِ».

ـ «هل لي أن أبقى في ثيابي؟»

ـ «الفتيات ينزعن ملابسهنّ».

ـ «إن كان بالإمكان أن نمارس من دون أن أنزع ثيابي فأنت تسدي إليَّ معروفًا».

ـ «عليكِ أن تنزعي سروالكِ على الأقلّ».

تركتُ قضيبه، نزعتُ بنطلون الجينز والسروال.

ـ «هكذا جيِّد؟»

ـ «جيِّد، ولكنْ ما هكذا يتمّ الأمر».

ـ «أعرف، لكنّي أطلبه منك معروفًا».

ـ «هل أستطيع أن أنزع بنطلوني على الأقلّ؟»

ـ «أجل».

نزع جواربه، وبنطلونه وسرواله. كانت ساقاه هزيلتيْن كثيرًا، وقدماه ضامرتيْن، وطويلتيْن، بمقاس 45 على الأقلّ. بقي في سترة الكتَّان، والقميص، وربطة العُنق، وفي أسفل كان عضوُه المنتصب ينبسط على ساقيْه وقدميْه العاريتيْن، كأنَّه مستأجِرٌ مشاكسٌ تعرَّضَ للإزعاج. كان كلانا قبيحًا، ولحسن الحظّ ليس هناك مرايا.

ـ «هل أستلقي على الأرض؟» سألتُ.

ـ «ماذا تقولين؟ ثمَّة سرير».

اتَّجه نحو بابٍ مفتوح، رأيتُ مؤخَّرته الصَّغيرة، وردفيْه المطمورتيْن. هناك سريرٌ متخلخلٌ ولا شيء آخر. لم يرفع دفَّة النافذة هذه المرَّة، بل أشعل الضوء. سألتُه:

ـ «ألا تغتسل؟»

ـ «اغتسلتُ هذا الصباح».

ـ «يديْك، على الأقلّ».

ـ «هل ستغسلين يديكِ؟»

ـ «لا».

ـ «وأنا كذلك».

ـ «حسنًا، سأغسلهما».

ـ «جانّي، هل ترين ما الذي يحدث لي؟»

كان قضيبه يرتخي ويضمر.

ـ «لن ينتصب ثانيةً إن اغتسلتَ؟»

ـ «بلى، بلى، سأذهب».

اختفى في الحمَّام. كم من الأشياء أختلق. لم أكن أتصوَّر أنَّني سأتصرَّف بهذا الشَّكل. عاد وكان ما بين فخذيْه شيءٌ صغيرٌ يتأرجح، نظرتُ إليه باستلطاف.

«إنَّه جميل»، قلت.

تأفَّف.

ـ «قولي بوضوح إن كنتِ لا تريدين فعل شيء».

ـ «بلى أريد، سأغتسل فورًا».

ـ «تعالي هنا، لا بأس. أنتِ سيِّدة، وأنا واثقٌ من أنَّكِ تغتسلين خمسين مرَّة في اليوم».

ـ «هل لي أن أتلمَّسه؟»

ـ «تحت تصرُّفكِ».

اقتربتُ منه، وأخذتُه برقَّة. وددتُ لو كنتُ خبيرةً لأعالج صبره النافد، وأتلمَّسَهُ بطريقةٍ تسعده، لكنِّي لم أكن أعرف ماذا عليَّ فعله بدقَّة، فاقتصرتُ على إمساكه في يدي. وإن هي إلَّا ثوانٍ قصيرة حتَّى تضخَّم من جديد.

ـ «سأداعبكِ قليلًا أنا أيضًا»، قال بصوتٍ يَجِشُّ بعض الشيء.

ـ «كلَّا ـ قلت ـ فأنت لا تحسن المداعبة وتؤلمني».

ـ «بل أُحسن المداعبة جيِّدًا».

ـ «شكرًا روزاريو، هذا من لطفك، لكنِّي لا أثق».

ـ «جانّي، إن لم أداعبكِ قليلًا ستتألَّمين بحقّ».

كدتُ أوافق، فهو كان خبيرًا أكثر منِّي بصراحة، لكنِّي خشيتُ من يديه، وأظفاره القذرة. أدليتُ بإيماءة نفيٍ قاطعة، وتركتُ زائدته المتورِّمة تلك، واستلقيتُ على السَّرير بساقيْن مضمومتيْن. رأيتُه طويل القامة فوقي، ووجهه السَّعيد عرضة لتقاسيم الارتباك. كان أنيق اللِّباس من أعلى، وعاريًا بشكل مريع من الخصر إلى أسفل. وخلال جزءٍ من الثانية، تذكَّرتُ كيف جهَّزني والداي بعنايةٍ فائقة منذ الصِّغر لكي أعيش حياتي الجنسيَّة بإدراكٍ وبلا مخاوف.

وكان روزاريو في تلك الأثناء يمسك بكاحليَّ، ويفرِّج ساقيَّ. قال بصوتٍ متأثِّر: ما أجمل الشيء الذي بين فخذيْكِ؛ وانبطح عليَّ برفق. بحث عن فرجي بقضيبه ويده، وعندما بدا له أنَّه مستعدٌّ دفعني بخفَّة، بخفَّةٍ شديدة، ثمَّ سدَّدَ ضربةً عنيفة ومباغتة.

ـ «آه»، قلت.

ـ «هل تألَّمتِ؟»

ـ «قليلًا. لا تحبِّلْني».

ـ «لا عليكِ».

ـ «هل انتهيتَ؟»

ـ «انتظري».

أعطى دفعةً أخرى، وعدَّلَ جلسته، وعاد يدفع. ومنذ تلك اللَّحظة راح يتراجع قليلًا ثمَّ يندفع بقوَّة. لكنَّه كلَّما شدَّدَ على تلك الحركة آلمني. وكان يرى ذلك، ويغمغم: استرخي، أنتِ متشنّجة كثيرًا. فأهمس: لست متشنِّجة. آه.. إنَّني مرتاحة؛ فيقول بلطف: جانّي، عليكِ أن تكون متعاونة، ماذا لديْكِ هنا؟ قطعة حديد، أم باب مصفَّح؟ كنت أصرُّ أسناني وأغمغم: كلَّا، ادفع، هيّا، أقوى؛ وكنتُ أتصبَّب عرقًا، وأشعر بالعرق على وجهي وصدري. هو نفسه قال كم أنتِ متعرّقة، فاستبدَّ بي الحياء وهمستُ: أنا لا أعرق أبدًا، اليوم فقط، آسفة.. إن كنتَ تشمئزّ فتوقَّفْ.

أولجه كلَّه فيَّ أخيرًا، بقوَّةٍ شعرتُ فيها بأنَّ تمزُّقًا أصاب بطني. هي لحظةٌ واحدة، ثمَّ أخرجه على حين غرَّة، وأوجعني بذلك أكثر ممَّا أولجَه. رفعتُ رأسي لأفهم ما الذي يجري، فرأيتُه على ركبتيْه وعضوُهُ ما بين ساقيْه متَّسخًا بالدم وتتدلَّى من رأسه نطفة. كان في منتهى الغضب، مع أنَّه يضحك.

ـ «هل تمكَّنتَ؟» قلت بصوتٍ واهن.

ـ «أجل»، قال مستلقيًا بجانبي.

ـ «لحسن الحظّ».

ـ «لحسن الحظّ حقًّا».

ـ «يحرقني».

ـ «هذا ذنبكِ، كان بإمكاننا أن نفعلها بشكل أفضل».

التفتُّ نحوه، وقلت:

«بل لم أكن أريد فعلها إلَّا هكذا»، وقبَّلتُه وأنا أمطُّ لساني قدر المستطاع ما بين أسنانه. وسرعان ما هُرعتُ لأغتسل، وارتديتُ سروالي وبنطلون الجينز. وعندما دلف إلى الحمَّام، انتزعتُ السّوار ووضعتُه على الأرض، بجانب السرير، كأنَّه هديَّة الحظّ العاثر. أوصلني إلى البيت، وكان حزينًا فيما كنتُ مُبتهجة.

وفي اليوم التالي، انطلقتُ إلى البندقيَّة صحبة إيدا. وفي القطار، قطعنا على أنفسنا عهدًا بأنَّنا سنصبح بالغتيْن مثلما لم يحدث لأيِّ فتاةٍ من قبل!

مكتبة
t.me/t_pdf

telegram @t_pdf

telegram @t_pdf

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

تعيش جوفانا، الابنةُ الوحيدةُ لأستاذيْن، طفولةً سعيدةً في الأحياء الراقية من نابولي العُليا. لكنَّها تُصعق ذاتَ يوم عند سماع حديثٍ بين والديْها، وفيه يقارنها والدُها بفيتّوريا، العمّةِ القبيحةِ والحقيرة. هكذا تبدأ جوفانا بحثَها عن فيتّوريا في شوارع نابولي السفلى، المشوبةِ بالسوقيّةِ والدناءة. بين أعلى وأسفل، تتأرجح جوفانا، تارةً تسقط وتارةً تتسلّق، فاضحةً حياةَ البالغين الكاذبة، لاهثةً وراء إجاباتٍ قد تُلهم طريقًا إلى الخلاص.

تثْبت فيرّانتي من جديد أنّ أحدًا لا يمكن أن يتجاوزَها في قدرتِها على جذبِنا إلى صميم عقل فتاةٍ مراهقةٍ، بحيث ترينا كيف أنّ كلَّ ما قد يبدو من الخارج لاعقلانيًا - أمزجةً وأطباعًا، وصمتًا، وغيرةً، ومخاوفَ، ودموعًا، وامتعاضاتٍ - منطقيٌّ ومعقولٌ جدًّا.

The Sunday Times

حياة البالغين الكاذبة هي أقوى ما قرأتُه في حياتي من كتاباتٍ عن تجاربِ فتاةٍ على شفير البلوغ، وعن حياتها النفسيّة. إنّها رواية رائعة.

The Financial Times

ربّما هي أفضلُ مَن كتب الروايات في زمننا هذا. أدبُها شفّافٌ كالبلُّور، حكاياتُها غرائزيّة وعميقة في آن واحد.

The Economist

إيلينا فرّانتي: روائيّة إيطاليّة متخفّية. صدر لها عن دار الآداب:
رباعيّة صديقتي المذهلة، وأيّام الهجران، والابنة الغامضة.

ISBN: 978-9953-89-701-1

9789953897011

دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف: 1795135-1861633 (961+)